@ketab_n
Follow Me
18.9.2015

ماكس مالوان

مذكرات مالوان

عالم الآثار وزوج أجاثا كريستي

ترجمة: سمير عبد الرحيم الچلبي

منشورات الجمل

ماكس مالوان

مذكرات مالوان

عالم الآثار وزوج أجاثا كريستي

ترجمة: سمير عبد الرحيم الجلبي

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

مذكرات مالوان

Twitter: @ketab_n

سمير عبد الرحيم الچلبي حاصل على البكلوريوس في الإنجليزية من كلية التربية بجامعة بغداد (١٩٦١) وعلى الماجستير في تدريس الإنجليزية من جامعة ويلز (١٩٧٥) وعلى الماجستير في الترجمة من جامعة هيريوت واط في ادنبره (١٩٨٣). عمل مدرساً في المدارس الإعدادية وفي قسم الترجمة بالجامعة المستنصرية ومارس في الوقت نفسه الترجمة إلى العربية وإلى الإنجليزية.

أعد «ببليوغرافيا الترجمة والمعاجم» (١٩٨١) و«ببليوغرافيا المعاجم الثنائية» (١٩٨٤) وترجم عدة كتب منها: «مطر في حزيران وقصص أخرى» (١٩٧٣) و«دليل مترجم المؤتمرات» (١٩٨١) و«مصطلحات المؤتمرات» (١٩٨٧) و«معجم التعابير الأجنبية في اللغة الإنجليزية» (١٩٨٧) و«الحرب العالمية الثانية: تاريخ مصور» (١٩٨٧). وترجم مئة وعشرين بحثاً في الآثار والتاريخ إلى العربية والإنجليزية نشرت في مجلة سومر (المجلدات ٣٥ و٤٠ و٤١). كما ترجم عدة كتب إلى الإنجليزية.

ماكس مالوان: **مذكرات مالوان**، الطبعة الأولى
ترجمة: سمير عبد الرحيم الچلبي
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Max Mallowan: *Mallowan's Memoirs: Agatha and the Archaeologist*
New York, 1977

© *Al-Kamel Verlag* 2014
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Twitter: @ketab_n

مقدمة المترجم(*)

اقترحت ترجمة كتاب (مذكرات مالوان) إلى العربية لعدة أسباب:

أولاً: إنه يضم عشرة فصول تعنينا كعراقيين وتتناول خلاصة الاكتشافات المهمة التي توصّل إليها ماكس مالوان، العالم الآثاري المعروف عالمياً، في أور ونينوى والأربجية ونمرود ومواقع أخرى حكمها العراقيون القدماء في شمال سوريا، إضافة إلى معلومات مفيدة وطريفة عن الحياة في العراق في العقود الماضية لا سيما في مواقع التنقيب وعن الآثاريين العراقيين في تلك الفترة.

ثانياً: يكرّس مالوان أيضاً عدة فصول لسيرة حياة زوجته أجاثا كريستي، أشهر كاتبة للروايات البوليسية، التي التقاها في أثناء زيارتها العراق ورافقته في تنقيباته وساهمت بنشاط في التصوير الفوتوغرافي وتسجيل اللُّقى وصيانتها، إضافة إلى تأليف عدّة روايات بوليسية في مقرات بعثات التنقيب. ويخصص أيضاً عدة فصول يتحدث فيها عن كتب زوجته التي تجاوزت الثمانين كتاباً واستحوذت على اهتمام مئات الملايين من القُراء ومشاهدي الأفلام والمسرحيات في أنحاء العالم.

(*) كُتبت هذه المقدمة للطبعة التي صدرت عام ١٩٨٧ عن دار المأمون - بغداد.

Twitter: @ketab_n

ثالثاً: يروي المؤلف في فصول قليلة شيقة قصة حياته منذ طفولته ودراسته وعمله إبّان الحرب العالمية الثانية، حيث قضى ثلاثة أعوام في ليبيا، حتى انتخابه لعضوية مجلس إحدى كليات جامعة أوكسفورد ثم انتخابه عضواً في مجلس أمناء المتحف البريطاني.

وقد وجدت، وأنا أترجم الكتاب، أن هناك ضرورة لإضافة عدد من الهوامش التي تتضمن معلومات مفيدة للقارئ.

ختاماً لا بدّ أن أعبِّر عن تقديري وامتناني للدكتور مجيد بكتاش الخبير اللغوي في دار المأمون الذي راجع النص العربي وقدّم ملاحظات مفيدة كثيرة وأتقدم بالشكر الجزيل إلى دار المأمون لتبنّيها إصدار هذا الكتاب الممتع.

سمير عبد الرحيم الچلبي

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

السنوات الأولى

وُلِدت في لندن في السادس من أيار/ مايو عام ١٩٠٤ في شقة في ألبرت مانشنز تطلّ على حديقة باترسي العامة. أقدَم ذكرياتي هي أن خادمتنا اصطحبتني مرة إلى مكان ما في حي الفقراء وأجلستني أمام حاجز الموقد ونار المطبخ المستعرة مع مجموعة من الأفظاظ. كان الرجال يرتدون ثياباً قصيرة الأكمام. وكانت المرأة الطيبة التي أخذتني إلى ذلك المكان تحمل اسم السيدة بتيكرو وهو يشبه الأسماء الواردة في روايات تشارلز ديكنز وقد حظرت عليّ ذكر المكان لأمي.

ولكن يبدو أنني كنت عاجزاً عن التزام الصمت فرويت وصفاً لزيارتي المبهجة. طُردت السيدة بتيكرو بسرعة لسلوكها اللامسؤول مما سبّب لي الحزن. هكذا كان التكبر في تلك الأيام.

كان والدي نمساوياً، وُلِد في عام ١٨٧٤ وتوفي في لندن وهو في الخامسة والثمانين. كان منزله الأصلي في ستيريا. وكان جدي، واسمه ماكس مالوان أيضاً، من أصل سلافي وكان يمتلك مطحنة قمح تعمل بقوة البخار أحرزت جوائز كثيرة بما فيها وسام ذهبي أمر بسكّه الإمبراطور فرانز جوزيف. واحترقت المطحنة تماماً بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ولأنها لم تكن مؤمَّنة فقد أصبحت العائلة في عسر

Twitter: @ketab_n

شديد. أما والدي، الذي كان ضابطاً في مدفعية الفرسان، فقد ترك الجيش ليجرب حظه خارج النمسا.

كان فردريك مالوان جندياً بالفطرة. وكان مدفعياً وماهراً في رعاية الرجال والعناية بالخيول التي كان يسوسها باهتمام ومحبة. كان لَسِناً وخاض مبارزة مع ضابط من زملائه على طريقة عصره، وعندما كنت طفلاً أراني بفخر الندبة التي أحدثها جرح السيف في جمجمته وعجز عن أن يفسّر كيف نجا من الضربة. وعكست الحكاية الوحيدة الأخرى في حياته العسكرية التي اطّلعت عليها خُلقه الذي مال إلى عدم إطاعة أي أمر كان يعدّه غير معقول. وفي أثناء مناورات في المنطقة التي كانت تُعرف آنذاك بالبوسنه والهرسك وفي منتصف الصيف أُمِر بقيادة سرية الخيالة في رحلة العودة إلى القاعدة في ذروة الحر في النهار، وكانت الرحلة تستغرق اثنتي عشرة ساعة. وكان الوحيد بين زملائه الضباط الذي تحدى الأمر وقاد جنوده في برودة الليل النسبية. كان يهتم بالمظهر كثيراً وأوصل جنوده إلى القاعدة في حالة ممتازة على النقيض تماماً من السرايا الأخرى التي وصلت في حالة إرهاق بسبب الحر الشديد. ومُنح وساماً عن هذا التحدي الناجح للسلطة، مما بعث الغبطة العارمة في نفسه.

لم يأسف أبي لترك الجيش، إذ لم يتوقع لنفسه فيه مستقبلاً ولم يكن غير مهيأ لأنه خاض معمعة التعليم الأوروبي وكان طالباً كفأً وإن لم يكن بارزاً. إن صعوبات تعليم اليافعين في النمسا تبدو غير محتملة للصغار اليوم، إذ كان يسير ساعة من منزله، الذي يغادره في السادسة صباحاً، ويشق طريقه شتاءً عبر الثلج والجليد ليبدأ الدروس في السابعة صباحاً. وكان ليلاً يكمل واجباته المدرسية، ولكن لم يكن أحد يتهرب من الدراسة خشية الفشل في الامتحانات النهائية. فقد كان الفشل يعني

Twitter: @ketab_n

التجنيد في الجيش جندياً عادياً مدة خمسة أعوام والحرمان من دخول الجامعة أو سلك الضباط. كان فردريك ناجحاً على الرغم من أنه مثل بعض أفراد عائلتنا كان يتطور متأخراً، وكان يتمتع بالقدرة على الاحتمال والشجاعة إضافة إلى الذكاء. إلاّ أنه بقي حتى نهاية حياته يعاني من كوابيس متكررة بسبب المحن التي مرّ بها في المدرسة الثانوية.

كان ميالاً إلى الكيمياء، وسرعان ما حقق نجاحاً في لندن حيث أسّس مشروعاً تجارياً وكان يتاجر بلبّ جوز الهند المجفف والشحوم والزيوت. وأصبح فيما بعد حَكم النوعية الرئيس لشركة يونيلفر وأصبح يُعدّ في المنطقة التجارية بلندن حجةً في الموضوع، وأنشأ علاقات دولية. وعرض أن يبتلع بعض السمن المشكوك فيه أمام المحكمة في إحدى المناسبات المتعلقة بدعوى قضائية بسبب ما زُعم عن تسمم غذائي. كان يستمتع بهذا النوع من العروض المثيرة، لا سيما في شبابه عندما كان مشاكساً ومحباً للخصام، وهي صفات لم تجعل حياته الزوجية سهلة. ورغم ذلك كان يتمتع بموهبة الإصلاح بين المتخاصمين، مثل جد جدي، الذي عمل جراحاً بارزاً في أثناء الحرب النمساوية ـ المجرية في عام ١٩٦٦ وكلفه الإمبراطور بعلاج الجرحى من كلا الجانبين المتحاربين.

كان اسم والدتي قبل زواجها دوڤيڤييه. وُلِدت في عام ١٨٧٦ وتوفيت وهي في الرابعة والسبعين وبقيت باريسية طوال حياتها، مع أنها أمضت ما يزيد على خمسين سنة منها في إنجلترا. كان والدها مهندساً وأعتقد أنه لم يكن مهندساً ناجحاً جداً. وكانت أمها مارث مغنية أوبرا مشهورة ولمع اسمها في بروكسل في ثمانينات القرن التاسع عشر وغنت باسم دوڤيڤييه دور سالومي في العرض الأول لأوبرا

Twitter: @ketab_n

الهيرودية (Herodiade) التي أثارت إعجاب الجمهور. لم تستمر حياتها الفنية طويلاً لأن مدربها كان دوريزك الذي أرهقت طريقة إخراجه الصوتي الكثيرين. وفازت بجائزة الكونسرفاتوار الأولى في عام ١٨٧٠ وواصلت الغناء مع شالياپين الذي قالت عنه إنه يتمتع بالمواهب كافة وإنه شخص رائع وممثل ممتاز. وقد سمعته يغني في أوبرا الأمير رايجور وأوبرا بوريس جودونوف وكانت تجربة لا تنسى. كان دوريزك يعمل في تحميل السفن في نهر الفولجا وكان يغني «أغنية الزورق» و«أغنية البرغوث» بحيوية فريدة. وأتذكره جالساً في القاعة في كوفنت جاردن يصفق بحماسة بيديه الكبيرتين مع المصفقين لتوماس بيشام. غنّت جدتي أيضاً في دار الأوبرا في نيو أورليانز في الولايات المتحدة مع باتي الشهير. وشاهدت بعد نصف قرن المسرح الذي مثّلت عليه ونزلت في الفندق الصغير البديع في الحي الفرنسي الذي يحمل اسم «أوتيل دوڤيل» الذي لا ريب في أنها كانت تعرفه في حينه.

هربت مارث دوڤيڤييه في صباها مع أرستقراطي فرنسي يدعى دوفيرتي، تزوجته سراً دون موافقة والديها، ولذا رفعا دعوى عليها وحصلا على حكم بفسخ الزواج. وبموجب القانون الفرنسي كان بالمستطاع في تلك الظروف إعلان بطلان الزواج إذا كان الرجل دون الحادية والعشرين. حصلت جدتي على مبالغ طائلة وكانت سخية في الاستضافة وأنفقت كل ما كان لديها. وكانت كريمة وتحب المرح. وهكذا ورثت والدتي من جدتي مزاجها الفني وافتقارها إلى فهم الشؤون التجارية. كانت والدتي المفرطة في الكرم والمفعمة بالمحبة مولعة بالحديث ورفيقة لطيفة المعشر، وأحبّت العلاقات الاجتماعية وكانت لا تشعر بالسعادة حقاً إلا في المدينة.

Twitter: @ketab_n

وكان السفر إلى الريف حجة لممارسة الرسم. ومن المدهش أنها كانت بارعة في المحاكاة وقلّدت لوحة إل جريكو التي تحمل اسم «الاحتضار في الحديقة» ثلاث مرّات بالحجم الطبيعي.

كانت والدتي تطالع بنهم الروايات العاطفية والمؤلفات الكلاسيكية كلها ونظمت شعراً من النوع الغنائي كان بعضه جيداً في رأيي ونشر في مجلات راقية مثل «مجلة المستقلين» *La Revue des Indépendants*. وألقت محاضرات في الفن بنشاط وأسلوب جميل وكانت تتمتع بحب اللغة الذي كان أمراً طبيعياً في المزاج اللاتيني.

كانت أُماً تحب أطفالها حباً شديداً وتشعر بالقلق عليهم، وكانت آراؤها فيما كان يجب بذله من أجلهم تتعارض تماماً مع آراء أبي. ولم يؤدِّ ذلك إلى سيادة السلام في العائلة لأن أبي كان يميل بطبيعته إلى التصرف كطاغية مع أنه كان في الواقع أطيب الرجال. كان كلاهما فرديين ولم يفهم أي منهما الحلول الوسط. ولذا سعى أبي للحصول على السلام خارج المنزل حيث كان غير نظامي وغير حريص على الشكليات.

هكذا أُفعمت مرحلة شبابنا بمشاهد عاصفة ونزاعات عنيفة جعلتنا نشعر بالكآبة أحياناً. ولكن، على خلاف الرأي السائد، يمكن للوالدين اللذين يختصمان كثيراً أن يزرعا في أولادهما تصميماً على إنجاح زواجهم عندما يحين الوقت. ولذا أنا مدين لوالدي ووالدتي بتوجيه مزاجي إلى الرفقة الهادئة والشعور الملائم بالأسف عندما أتشاجر. وأعتقد أنهما تركا التأثير نفسه في شقيقي سسيل. وبقي شقيقي الأصغر فيليب ممتنعاً عن الزواج ولم يكن مشاكساً بطبيعته.

من الصعب جداً أن يتحدث المرء عن والديه بعدلٍ وإصدار الحكم عليهما بلا تحيز ـ هل هي مسألة حب وكراهية كما يسمونها

Twitter: @ketab_n

هذه الأيام؟ إن تفكيري في أمي يمتزج فيه الحب والمتعة والسخط. لا ريب في أنها كانت جميلة جداً في شبابها ـ سمراء صغيرة الجسم من منطقة البحر الأبيض المتوسط ذات عينين بنيتين وبشرة صافية، وكان الرجال يتودّدون إليها كثيراً لخفّة روحها وانطلاقها في الحديث. كانت كثيرة الضجر ولا أثر للخجل في سلوكها. وتعودت أن تقول «عندما كنا نفضل أن نُترك بسلام، أنتم أيها الأولاد تفتقرون إلى الحيوية».

عندما كنت في سن الرابعة حوالي عام ١٩٠٨ انتقلنا إلى المنزل رقم ٥٢ في بيد فورد كاردنز المتفرع من تشيرتش ستريت بكنجستن. كانت هناك حديقة ذات جدار من الآجر في نهايتها وأجريت هنا تنقيباتي الأولى وما زلت أحتفظ بصورة لقطع آنية الخزف الفكتوري التي استخرجتها من تربة سوداء فاحمة. وكانت في الحديقة شجرة كمثرى كبيرة وكنا نتناول ثمار الكمثرى الحلوة بكثرة.

ومن ذكرياتي الأخرى أن والدي كان يشجعني على أن أطلّ من النافذة وأنادي، باستعمال صفارة شرطة، المركبات ذات العجلتين التي كانت تقف في صف واحد في نهاية الطريق بجانب عدد من كراسي المرضى. وكنا نتمتع كل يوم جمعة ليلاً بانتظار أصوات فرقة آلات النفخ النحاسية الألمانية والصوت العميق الرائع لآلة الترومبون عبر النافذة المفتوحة. ويذكرني هذا الآن بقصة عازف البيانو العظيم بادرفسكي الذي قال له معلم الموسيقى في صباه «يا بني أنت عازف ترومبون موهوب ولن تجيد العزف على البيانو». فلو أنه أصغى إلى معلمه لانتهى به المطاف عازفاً في فرقة موسيقية ألمانية.

اعتدنا أن نمشي الهوينى من تشيرتش ستريت إلى كنزجستن جاردنز صباحاً مع المربية، وسببت مرة مشكلة عندما عضضت الذراع الغضة لشقيقي سسيل بينما كانت متدلية من عربته. وكنا نتمشى في

Twitter: @ketab_n

كنزجستن جاردنز مخترقين دفيئة البرتقال بجانب القصر الذي أُوقظت فيه الملكة فكتوريا في منتصف الليل وأُعلمت أنها أصبحت ملكة. وكنا نشرب جعة الزنجبيل اللذيذة من كشك صغير. وكنا نستمتع بمشاهدة عِراك الكلاب ونشعر بالرعب أيضاً لا سيما في النزالات التي يشارك فيها كلبنا الصيني چاو. وتتميّز الكلاب من النوع الصيني كلها بشعر عنقها الكثيف مما لا يتيح لخصومها فرصة الإمساك بها.

انتقلنا بعد سنوات في عام ١٩١٢ إلى موستن رود في ومبلدن، حيث عشنا في بيت من الطراز التيودوري نصفه من الخشب يحمل اسم بولنكبروك، وكان واسعاً يكفي عائلة من ستة أفراد في الأقل. وكانت فيه حديقة واسعة تكفي لساحة تنس من الحشيش. استأجرنا المنزل باثنين وخمسين باوناً في السنة. وعلّمنا والدي، الذي كان مغرماً بلعبة التنس، هذه اللعبة وكان يصطحبني بانتظام إلى نادي ومبلدن القديم، وكان نادياً صغيراً آنذاك، حيث كنا نتفرج عن كثب على اللاعبين البارزين إذّاك، ومنهم نورمان بروكس و أ.ف ولدنج والسيدة لامبرت تسيمبرز وماكس ديكوجيس الذي كان يبكي كثيراً عندما لا تسير الأمور على ما يرام.

في ضاحية ومبلدون درست في مدرسة تحضيرية تحمل اسم روكبي في شارع اسمه ذي داونز. أسس المدرسة رجل اسمه أوليڤ كان يجيد اللغة اللاتينية. ومن المؤكد أنه كان يفتقر إلى روح الدعابة، إذ إنه سمّى المدرسة أصلاً سنت أوليفز ووضع شعاراً لها هو Oliva semper viret (أي الزيتون دائم الخضرة). وجاء بعده ابنه وشريكٌ اسمه ج.ر. باتربري الذي أخبرني بأنه لم يسمع بالاسم سوى مرة واحدة في رواية كتبها ولكي كولنز، وكان حامل الاسم لصاً عادياً. وفي سن الثامنة وضعت في الصف الأخير، حيث علمتني الآنسة فاينز

Twitter: @ketab_n

مبادئ اليونانية. وكانت هذه تضع على رأسها قبعة قش كبيرة مزينة بالعنب. وغرست في نفسي حباً مبكراً لهذه اللغة التي استمتعت بها دائماً على النقيض من اللغة اللاتينية التي وجدتها مجهدةً مقارنة باليونانية، ولكنني مسرور الآن لبذلي جهوداً كبيرة في دراستها. لا ريب في أنني قضيت ثلاثة إلى أربعة أعوام في مدرسة روكبي وتدرجت من الصف الأخير إلى الصف الأعلى في المدرسة. لا أعتقد أنني حصلت على تعليم أفضل في أي مكان آخر وقضيت سنتين في الأقل دون أي تقدم في المدرسة الخاصة بعدها. كان معلم الرياضيات الشخصية الرئيسة في روكبي، وكان معلماً ممتازاً اسمه ج.پ فيرييه من جزيرة مان، وكان يثيرنا عندما يروي قصة فشل المصرف في الجزيرة، مما أدى إلى إفلاس عائلته. وقال إن ذلك هو الذي جعله يتخذ التعليم مهنة له. كان حاد المزاج وحُظر عليه استعمال العصا، وكانت تُستعمل بكثرة في تلك الأيام، لأنه قال إن تلك الأداة لا تكون فعّالة إلا إذا جعلت الصبي يئنّ من الألم. لم تكن الصيحات الاعتيادية ذات جدوى. ولكنه كان معلماً مؤثراً وكان يستمتع بالمبالغة في ضراوته الطبيعية. كنت ضعيفاً في الجبر وبقيتُ في المرتبة الأخيرة في الصف حتى اليوم الذي درَّسني فيه جون دوڤيڤييه، ابن خالي. وسرعان ما فهمت الموضوع بفضل توجيهه الواضح وتقدمت من المرتبة الأخيرة إلى المرتبة الأولى. ولم أنسَ هذا الدرس في حياتي. وعندما مارست التدريس أدركت أنني لغبي إذا لم أوصل مادة الدرس إلى طلبتي.

غرست في مدرسة روكبي أيضاً الشغف بلعبة الكريكت، وترتبط متعة التفرج على هذه اللعبة الإنجليزية الفريدة في عصر يوم جميل من أيام الصيف إلى الأبد بتلك المدرسة. اللعبة فلسفية وسعيد من يستطيع

Twitter: @ketab_n

الانغمار فيها ويمر عبر سلسلة من الاستغراق الهادئ والحالم الذي يمكن أن يتحول فجأة وعلى نحو غير متوقع إلى ومضة متألقة من الحماسة. وتبقى تلك الأحداث خلفية رقيقة للحياة. التقيت طالباً واحداً من طلبة روكبي في حياتي فيما بعد، وهو روبرت جريڤز الذي أثر فيه ج.پ. فيريه تأثيراً قوياً مثلي. كان روبرت جريڤز روائياً مشهوراً وشاعراً جيداً فعلاً ومن أبرز الذين أنجبتهم مدرسة روكبي.

كانت المدرسة التالية التي درستُ فيها مدرسة لانسنج الخاصة التي كانت بمثابة إيقاظ عنيف لي عقب مدرستي التحضيرية. ولن أنسى الانطباع القاسي عن وصولي إلى المدرسة أول مرة في عصر يوم بارد في منتصف الشتاء في كانون الثاني/يناير من عام ١٩١٧. كانت تلك أول مرة أرى فيها جدران السجن الصخرية الرمادية المحاطة بالأروقة المعتمة والكنيسة الفكتورية العالية المنتصبة مثل رمح طويل وسط القاعدة الجرداء لتلال سسكس والمطلة من الجانب الآخر على المياه المتدفقة لنهر أدور.

بقي هذا المشهد الكئيب عالقاً في ذهني أكثر من خمسين عاماً حتى عدت لأرى في الصيف منظراً طبيعياً رائعاً بدا لي كاملاً لا يضاهى ولم تفسده أية بناية حديثة ومحتفظاً بجماله الأصلي ويحيط به البحر وينساب فيه نهر أدور شريطاً فضياً بديعاً. كان أي.ب. جوردن المشرف الفطن هو الذي تنبأ بأن جمال المشهد سيستحوذ عليَّ. وعندما عدت إلى لانسنج آخر مرة أحسست بالمشاعر نفسها للجنود المرتزقة في جيش زينفون عندما رأوا البحر الأسود أول مرة بعد مسيرتهم الطويلة من بلاد النهرين وأطلقوا الصيحة: ثالاسا، ثالاسا.

كتب جوردن، أو جوردو كما كنا ندعوه، رسالة إلى والديّ قبل أن أترك المدرسة قال فيها «أعتقد أنه سيصبح رجلاً عظيماً ذات يوم».

Twitter: @ketab_n

لقد أسبغ عليّ مدرس كريم صفة العظمة. وستحكم الأجيال القادمة إن كنت قد نلت الحق في مثل هذا اللقب، مهما كان مغزاه.

كنت في لانسنج ضمن المجموعة التي يشرف عليها مدير المدرسة القس هـ.ت. باولبي، وهو شخصية فكتورية قوية وكنت معجباً برفضه التام الحلَّ الوسط. كانت لانسنج إحدى مدارس وادرد التي كانت تُعنى بأبناء رجال الدين، وكان المستوى العلمي فيها واطئاً. لذا لم أواجه صعوبة في التقدم واحتلال المرتبة الأولى في كل صف باستثناء الصف السادس الذي قضيت فيه سنة واحدة وتركت المدرسة في وقت مبكر بعد قليل من عيد ميلادي السابع عشر. كان هناك إصرار متطرف على الذهاب إلى الكنيسة وكان يتوقع منا أداء الصلاة مرتين في أيام الأسبوع وخمس مرّات أحياناً في أيام الآحاد. وكان ذلك كافياً للحياة بأسرها لمعظم الفتيان وجعلهم يبتعدون عن الدين التقليدي إلى الأبد. وعندما أزف وقت تثبيت العماد رفضت، ولم يكن لهذا الانحراف عن المعتاد تفسير في التفكير المغلق لمدير المدرسة. وحذرني من أنني إذا واصلت ذلك النهج في موقفي فلن أتقدم ولن أحصل على سلطة في المدرسة. ولذا رحتُ أسعى لإقناع أبي، الذي كان من اللاأدريين، بأنني كنت أضيع وقتي بقدر تعلق الأمر بالمنحة الدراسية ومن الأفضل أن أدخل الجامعة مباشرة، دون أن أكشف له السبب الحقيقي لرغبتي في ترك المدرسة. لم أجد صعوبة كبيرة في إقناعه لأنه لم يكن يثق ثقة كبيرة بالتدريس في المدارس الخاصة الإنجليزية بعد التعليم الشامل والصارم الذي حصل عليه في أوروبا، وسمح لي بترك المدرسة في عام ١٩٢١ بعد قضاء أربعة أعوام فيها.

كانت الأعوام التي قضيتها في لانسنج، من عام ١٩١٧ إلى عام ١٩٢١، استثنائية في تاريخ المدرسة إذ كان عامان منهما من أعوام

Twitter: @ketab_n

الحرب العالمية الأولى. وقبيل نهاية الحرب سُرّح الرجال القادرون والأصغر سناً من الخدمة العسكرية وعادوا إلى ممارسة التدريس. وعلى الرغم من ذلك كان لدينا، حتى في السنوات الأولى، بعض الرجال الجيدين المشرفين علينا، بيد أنني لا أعتقد أن عددهم كان كافياً. وكان السيد توملنسن، زميل الجمعية الملكية، أحد المدرسين القديرين الذي أُرغم على تدريسنا الرياضيات. كان متقدماً في السن وبعيداً جداً عن الطلبة وعاجزاً عن حفظ النظام، وقد جعلنا حياته تعيسة. ولكنني مدين إلى الأبد لمدير المدرسة اي.ب. جوردن الذي سبق أن ذكرته، لأنه فهم شعوري بالوحشة وأدرك الصعوبات التي واجهتها في التكيّف. إن مثل ذلك العطف يثير الإعجاب طوال الحياة وكل من يمنحه يكافأ. كان مخلصاً في إيمانه بمبادئ القديس توماس الأكويني وكان لديه مطبعته اليدوية الخاصة.

كان أحد آثار الحرب أمراً متوقعاً، إذ كرّسنا ساعات كثيرة في فيلق تدريب الضباط وكنا نستاء لاستمرار التدريب بعد إعلان الصلح في عام ١٩١٨ باستثناء القليلين الميالين إلى الروح العسكرية. وحدث ما يشبه التمرد في نهاية المطاف. وقام فتى إيرلندي اسمه فلين كان يشاهد الاستعراض من نافذة في الطابق الأعلى برمي قطعة صابون، وكانت رمية خارقة أصابت حذاء الضابط آمر الاستعراض، مما أدخل السرور في نفوس من لم تكن لهم سلطة بأجمعهم. وكتب مدير المدرسة في تقريره عنه بسبب هذه المخالفة ومخالفات صغيرة أخرى: «نوع من الفتيان نادر لحسن الحظ». ولكنه، حسب علمي، نجح في الحياة وأصبح مواطناً ملتزماً بالنظام. كان أبوه رجل دين وأحرق التقرير في لقاء حزين مع ابنه. وأتذكر أن صورة الأب، وكان أصلع، كانت في إطار بجانب سرير الابن واعتاد زملاء فلين في الغرفة تلميعها

Twitter: @ketab_n

باستمرار بشمع النحل. كانت مثل تلك المضايقات، التي كانت وحشية غالباً، جزءاً من مشاغل الفتيان في تلك الأيام، وكانت الحياة لا تحتمل في نظر أولئك الفتيان الذين يشذون عما اعتاد الآخرون عمله. وشعرت بالأسف بخاصة لفتى اسمه برادشو، كان يُعرف أيضاً باسم بيوي أو الحلقة المفقودة، وكان يتعرض لمضايقات قاسية. لم يستطع واحد أو اثنان من الفتيان تحمّل الضغط واضطرا إلى ترك المدرسة، وهذا يعكس افتقار الإدارة إلى الضبط. كان الخوف من التعرض لهذا النوع من المعاملة يولّد ضرراً نفسياً في رأيي ويكون سبباً في إخفاء المرء أفكاره ومشاعره، وقد ترك هذا أثراً لم أشف منه تماماً حتى في سن متقدمة، كما أدى إلى خوف داخلي من المجتمع واتخذ شكلاً يتسم بالميل إلى الشجار في نهاية المطاف. والحقيقة هي أننا في نظري كنا جيلاً وحشياً وقاسياً وقضيت سنوات كثيرة أزيل هذا المظهر. كنا قد نشأنا في سن حساسة في ظروف الحرب التي نسمع الأكبر منا سناً يتحدثون عنها. كان لي خال في الجبهة بفرنسا اعتاد في إجازته أن يقلّد صفير القذيفة وينتظر صوت الانفجار المخيف. كان عمري آنذاك إحدى عشرة سنة ولم يكن بوسعي انتظار اليوم الذي أخوض فيه تجارب مشابهة وأحس فيه بالإثارة وأنا أحارب دفاعاً عن الملك والوطن. نشأنا في جو مال إلى جعل الشبان قُساة الفؤاد. ولم تخطر ببالنا آنذاك فكرة معارضة الحرب أو أخلاقية الحرب.

حدث تغيُّر في الموقف في مدرسة لانسنج. وعلى الرغم من أننا لم نكن نُعنى بوحشية الحرب، إلا أن الحرب ما إن انتهت حتى أدى التدريب العسكري والاستعراضات إلى نشوء روح مناهضة للعسكرية، مما جعل الأمور صعبة لمن كانوا مسؤولين عن تدريب الضباط. كان يسود مجموعتي الإهمال واللامبالاة في الاستعراضات، وكنا نتعمد

Twitter: @ketab_n

أحياناً الحضور دون تلميع إحدى فردتي الحذاء وتلميع نصف الأزرار. وكنا غالباً في المرتبة الأخيرة في مسابقات التدريب.

كان زعيم هذا النشاط التمردي أحد الطلبة في مجموعتي وهو إيفلين واك. وفي إحدى المرّات حيكت مؤامرة لمفاجأة المسؤولين بالفوز بكأس التدريب، وتدربنا تدريباً ممتازاً على التمارين العسكرية كلها طوال فصل كامل. لم تذهب جهودنا سدى، فقد أحرزنا المركز الثالث بين المجموعات الست التي تضمها المدرسة وكنا لا نحتاج إلى أكثر من نقاط قليلة للفوز. وكنا قد صممنا في حالة فوزنا على تحويل سباق الظفر الاعتيادي حول الأروقة ونحن نحمل الجائزة منتشين بالنصر إلى مسيرة جنائزية نحمل فيها تابوتاً. ولو فزنا لطرد إيفلين وواحد أو اثنان من الطلبة.

كان إيفلين واك محبوباً جداً من الطلبة، إذ كان مسلياً ومستعداً دائماً لقيادتنا إلى القيام بأعمال مؤذية، بيد أنه كان بارعاً في توريط الآخرين في المتاعب التي يستطيع أن يتخلص هو منها باستمرار. كان شجاعاً وظريفاً وذكياً ولكنه كان محباً للمظاهر وذا طبيعة قاسية ولا يأبه بإذلال الآخرين ما دام يستطيع تعريضهم للسخرية. وكان شديد التدين ويبدو لي أنه لو كان متواضعاً لكرّس نفسه لحياة الرهبنة ولأمضى حياته يزخرف المخطوطات، إذ كانت لديه المواهب المطلوبة ودرّبه كاهن مرتد خبير في الأعشاب الطبية اسمه فرانسز كريس كان يعيش وحيداً في كوخ منعزل في تلال سسكس.

لا أرغب في إعطاء الانطباع بأن لانسنج كانت آنذاك مدرسة غير جيدة، إذ إن الأمر على النقيض من ذلك. كان مستوى التدريس والتعلم في بداية الحرب واطئاً، ولكن الروح الثورية المبكرة التي أشرت إليها كانت، في اعتقادي، محفزةً وأسهمت في العمل الأصيل

Twitter: @ketab_n

في الحياة فيما بعد. وكان بين المعاصرين لي في مدرسة صغيرة نسبياً تضم ثلاث مئة فتى، إضافة إلى إيفلين واك، روجر فلفورد الذي اشتهر بعدئذٍ بمؤلفاته عن الملوك الأربعة الذين يحملون اسم جورج، وهيو مولسن الذي أصبح لورد مولسن فيما بعد ومن الشخصيات العامة البارزة، وهمفري تريفليان الذي أصبح لورد تريفليان بعدئذٍ وعمل دبلوماسياً وبرز أيضاً في حقول كثيرة أخرى، وأخيراً ك.ت.پ.م. رايلي ذو الشخصية الأصيلة الذي فقد حياته في سن مبكرة في أثناء رحلات الاستكشاف القطبية. وليس من قبيل المصادفة أن أربعة من الخمسة الذين لمعت أسماؤهم فيما بعد في الحياة كانوا في المجموعة نفسها في المدرسة.

كان من هبات لانسنج الأخرى التي ينبغي أن نشعر بالامتنان لها الكنيسة التي هي ربما أجمل مثال، على الطراز القوطي المعماري الحديث في إنجلترا كلها. كانت معبّرة عن الروح الدينية المتزمتة التي شيّدت الكنيسة وفقها. كنت وأنا صبي أجدها باردة وتبعث على الرهبة. ولن أنسى أبداً الموسيقى التي كانت تصدر منها. وكان هناك عازف ممتاز على الأرغن اسمه برينت سمث عزف مرة مقطوعة مشهورة لبليك على الأرغن الكبير وسبَّب سقوط جزء كبير من نافذة الكنيسة ـ قطع سميكة ذات لون أخضر بحري كادت تقتل مدرّس اللغة الفرنسية عندما سقطت.

ترك أحد المدرسين، وهو المرحوم ج.ف روكسبورغ الذي عُيِّن بعد الحرب وكان مسؤولاً عن الصف السادس، انطباعاً في الذهن يتعذر محوه. كان حقاً أميراً بين المدرسين. كان ينزع إلى لفت الأنظار إليه وكان يفهم التأثير العجيب الذي يمكن أن تحدثه الموهبة المسرحية في الفتيان. كانت لديه بدلات متعددة، لذا فهو يرتدي بدلة مختلفة

Twitter: @ketab_n

لكل يوم من أيام السنة وكان يرتدي أردية أكاديمية متنوعة وهو يسير بمهابة في صحن الكنيسة. أكمل جزءاً من تعليمه في فرنسا وكان يتقن التحدث والكتابة باللغة الفرنسية، وكرّس ثلاثة أرباع الساعة في كل أسبوع للإشادة بجمال الشعر الغنائي الفرنسي. وقال لي عدة طلاب إنّ أحاديثه منحتهم مذاقاً في الحياة لم ينسوه أبداً. وأعتقد جازماً أن تلك الأنشطة غير المنهجية كانت أثمن جانب من تعليم المرء، وأرى أن الاكتفاء بحشو الدماغ حشواً سريعاً بالمعلومات لغرض اجتياز الامتحانات مضر جداً بهذا النوع من النشاط.

كان روكسبورغ يحب أيضاً الأدب الإنجليزي، لذا جعلتنا الكتابة الجيدة نفكر في اللغة، إضافة إلى أن تعليقاته على هوامش مقالاتنا كانت تدفعنا إلى التفكير فيها دائماً. وكانت المختصرات تتكرر في الهوامش حيث كان يحث باستمرار على الكتابة الأصيلة. وكان يكنّ تقديراً عميقاً للآثار الكلاسيكية ولجمال الاستعارة في مسرحيات أسخيلوس(١).

ولم تكن هناك لحظة ضجر واحدة في دروسه. أحبَّ الشعر وكان يستشهد بهِ ويلقيه لفائدتنا باستمرار. وما تزال نبرات صوته الواضحة ترن في أذنيّ بعد مرور ستين عاماً، وكانت بمثابة موسيقى لا يضاهيها سوى صوت جلبرت مري الذي كان صوته الرقيق فريداً.

أتحدث بمشاعر مختلفة عن لانسنج. إنها مشاعر يختلط فيها الحزن بالتعاسة بسبب الحنين إلى البيت إلى حد ما. وأشعر أيضاً بفضل هذه المدرسة لأنها غرست فيَّ إحساساً بالجلَد، وشعاعات من

---

(١) أسخيليوس (٥٢٥-٤٥٦ ق.م): كاتب مسرحي إغريقي ألّف عدة مسرحيات منها مسرحيتا (الفرس) و(سبعة ضد ثيبس) (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الاستمتاع، وقدرةً على تحمّل الواقع المؤلم للحياة والبقاء بأدنى قدر من الضجة. تعلمت درساً ثميناً من أن كل إنسان في الحياة ينبغي أن يتعلم أنه لا مفر من أن يناله اليسير من الظلم وأن تحمّله بين الحين والآخر دون شكوى أفضل من العويل والسعي للانتقام الصعب أو المستحيل. وأعتقد أننا نعاني في بلادنا اليوم من هذا الداء وهو يسيء إلينا ويضر بمجتمع أصبح يفتقر إلى الالتزام بالنظام الذي يمكن أن يتحسن إذا كان أفراد المجتمع مستعدين أحياناً للتضحية بحقوقهم من أجل تنظيم أفضل للجميع.

كان هذا النوع من التضحية، الذي أسيء فهمه، جوهرياً في المجتمع البدائي الذي قَبِل كبش الفداء على أنه تكفير عن خطاياه. ولكننا نهمل ذلك مما يعرضنا للمخاطر.

كانت السنة الأخيرة أسعد فترة قضيتها في المدرسة حيث حصلت على امتياز التمتع بغرفة خاصة للدراسة كان يسمح فيها للطالب بالمطالعة بهدوء وتناول الكعك المسطح والكعك المحلّى المقلي بالدهن أيام الأحد. كانت نعمة الخلوة في غرفة صغيرة مكافأة لقاء المعاناة عدة سنين من الصخب في القاعة المشتركة.

تمتعت في السنوات التي قضيتها في المدرسة التحضيرية والمدرسة الخاصة بزيارات صديقات عزيزات لوالدتي في بوسنجتن هاوس الواقع على واحد من أفضل شواطئ صيد سمك السلمون المرقط في نهر تيست. كنا ننظر عبر النوافذ الفرنسية(٢) لغرفة الطعام إلى الساعة الشمسية في ساحات العشب والمروج، وإلى الجسر الأبيض ذي الحاجز الواحد عبر النهر، وإلى طريق هورسبرج الكثير

(٢) النافذة الفرنسية، نافذة وباب معاً تفتح على حديقة أو شرفة (المترجم).

Twitter: @ketab_n

التموج خلفه وهو يجتاز روافد النهر الضيقة على طول الطريق من محطة سكة الحديد الصغيرة إلى المطحنة التي كانت بمثابة المدخل إلى بوسنجتن. تمتعنا في صبانا بالفطور الرائع ونحن ننظر إلى هذه المشاهد الريفية البسيطة: الكعك المسطح المدور الطازج المصنوع في البيت، والزبدة من أبقار جيرزي، والمائدة الحافلة بالأطباق المترفة مثل البيض الممزوج المقلي، ولحوم الطيور الباردة، والرز المطبوخ مع السمك والبيض والأطباق الشهية الأخرى التي كانت تنتظرنا بينما كانت الساعات تدق معلنة الساعة التاسعة في الوقت نفسه. وفي مقدمة المائدة الدائرية في غرفة الطعام كان يجلس القاضي ديفرل، الشخصية الفكتورية القاسية على الرغم من لطفه، الذي كان يمنحني في نهاية زيارتي دائماً جنيهاً ذهبياً ويمنح شقيقي الأصغر قطعة نقود من فئة عشرة شلنات ذهبية. كانت ابنته مولي مانسل ـ جونز سيدة القصر في بوسنجتن، وكانت هي أيضاً فيكتورية في غاية الاستقامة والحكمة، ويحبها سكان القرية والعاملون في المنزل وأصدقاؤها وصديقاتها، وكنت أنا وشقيقي نحبها أيضاً. كانت تمثل كل أفضل ما كان في العصر الفكتوري وتجسدت فيها فضائل الإيمان الديني والأمل والإحسان. لم تكن تقبل الحل الوسط، ولم يكن هناك حد فاصل بين الصواب والخطأ. حددت قواعد السلوك بحزم وفق المستويات التقليدية. كانت واسعة الاطلاع بفضل مطالعاتها باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية. كانت مأساتها أنها تزوجت رجلاً مدمناً على الخمر، إلا أنه كان أيضاً أرقّ الرجال، وفي نهاية المطاف أسرف في تناول الخمر حتى مات، ولكن بعد أن ترك لها ديوناً. وعانى من أسوأ نوبات تناول الخمر عندما كان يفترض أنه يراجع طبيبه في لندن ويخضع للعلاج. أقنعني برفضي وظيفةً في الجمارك المدنية الصينية

Twitter: @ketab_n

بسبب الألم الذي يسببه افتراقي عن والدتي التي كانت وحيدة ومعتمدة اعتماداً شديداً عليّ. لقي هذا الرجل الموهوب الاحتقار من عائلته، وعاملته على أنه شخص مرح صخاب يعوزه التهذيب ولكن بقي لزوجته مولي إيمان به حتى النهاية. ولم أنسَ أبداً المروج والبرك الجميلة الجميلة في بوسنجتن، تلك البرك التي كانت تعج بسمك التيمالوس وحيث كان سمك السلمون المرقط الماكر ينعم بمكانه تحت الجسر في سنته السادسة عشرة. سيبقى منقذ مروج هامبشير في ذاكرتي إلى النهاية.

كان الانتقال من لانسنك إلى جامعة أوكسفورد، حيث قضيت أربعة أعوام من ١٩٢١ إلى ١٩٢٥، بمثابة خطوة من الجحيم إلى الفردوس. لم أحقق سوى القليل في أوكسفورد، لأنني لم أكن مستعداً. كنت مثل أفراد عائلتي كافة متأخراً في التطور ولم أتفوق في المدارس. إلا أن تلك السنوات كانت ضرورية مثل إراحة الأرض. ولو لم أدخل الجامعة في سن مبكرة جداً لكان من المحتمل ألا تسنح لي فرصة دارسة علم الآثار. ولو حصلت على شهادة جامعية أفضل ـ وكان بوسعي نيلها بالالتحاق بعد عامين ـ لما عوضت عن فقداني مهنتي المناسبة، فقد كان القدر يعرف ما كان يفعله.

ما زلت أتذكر متعة تناول وجبة طعام في مبنى الكلية الجديدة حين عرض عليّ جار مجهول الطعام على المائدة. كان سلوكنا في المدرسة يتصف بالخشونة ولم يكن مثل ذلك التصرف معروفاً لنا.

في السنة الأولى من دراستي الجامعية كانت غرفة الجلوس وغرفة النوم ـ إذ كنا نحصل على كليهما في تلك الأيام ـ تقعان في أعلى مبنى روبنسن تاور المطل على منظر رائع لأوكسفورد. ولم أكن أتضايق من ارتقاء ٣٠٠ درجة ونزولها ثلاث مرّات أو أربعاً في اليوم أو السير عدة

Twitter: @ketab_n

مئات من الياردات عبر الكلية لكي أستحم. يُضاف إلى ذلك أن خادم الكلية لم يكن يشكو من نقل دلوين من الفحم يومياً لملء مدفأتي. كان اسمه ساكستن وكان رجلاً طيباً حقاً وكان يعنى بنا مثلما كنا نُعنى به. وقبل فترة غير طويلة من دخولي الجامعة كان لدى أحد طلبة الجامعة دب في جناحه وسررت بالإشارة إلى هذه الحقيقة عندما نشب نزاع بعد سنوات من تخرجي بسبب احتفاظ كاثلين كينين في جامعة لندن بكلاب، وأضفت أنني أعتقد أن صحبة الحيوانات أفضل من صحبة الآدميين.

كان تقويمي الجمالي لجامعة أوكسفورد ومبانيها وتاريخها وصحبة الأصدقاء المتجانسين والكتب الملائمة أكثر أهمية عندي من أي منهج دراسي كانت تسير عليه. تأثرت تأثراً عميقاً بالكلمات الحكيمة التي خاطبنا بها عميد كليتنا بيرسي ماثسن ونحن طلبة في الصف الأول في قاعتنا المهيبة والجميلة. قال: «تعرّفوا جيداً إلى هذه الأحجار». وقد كوفئت حقاً باتباع نصيحته. درّسني التاريخ القديم وكنت أشعر في حضوره كأنني أدخل منجماً للذهب، على الرغم من أنني لم أكن مهيأً لاستخراج كتل الذهب الذي كان يتطلب اختراقاً أكثر مما أقدر عليه. كان يستحق منصب عميد (الكلية الجديدة) في جامعة أوكسفورد نظراً لشدة حبه إياها، ولكن المنصب أسند إلى هـ. أ. ل. فيشر، الرجل العظيم والمتباهي.

كان أكثر المدرسين تحفيزاً لي هو هـ. دبليو ب. جوزيف البغيض إلى موريس باورا، إلا أنه علمني كيف أشرع في التفكير وكان يتقن فن جعل المرء يشعر بالخجل عندما يقوم بعمل متسم بالإهمال واللامبالاة وكم كنت أغادر غرفته بعد حديث مرهق ذليلاً ومنكساً رأسي، ولكنني كنت مخلصاً لأستاذي وأعتقد أنه كان راضياً عن نتائج عملي في خاتمة

Twitter: @ketab_n

المطاف. وأتذكر ملاحظة أبداها الأرسطي العظيم روس[٣]، عندما ودّع تلميذه كنيث وير بعد أن درّسه ما وراء الطبيعة. قال له إنه لن يمضي وقت طويل قبل أن ينسى الفلسفة التي تعلمها في أثناء الدراسة كلها، ولكنه يستطيع على الأقل منذ الآن أن يميِّز الكلام الفارغ عندما يواجهه. كانت تلك مكافأة دراسة المؤلفات الكلاسيكية العظيمة، وعندما أقرأ مؤلفات بعض علماء الاجتماع المشهورين في عصرنا، مثل ماركوس[٤] أو غيره، أتمنى لو أنهم عرضوا كتاباتهم على مدرّسي الفلسفة في كليتي وأُنِّبوا التأنيب الذي يستحقونه. لا يعترف أحد الآن بأي تأثير دائم خلّفته مؤلفات جوزيف الفلسفية ولكن قوة ذهنه لا يمكن أن تنكر، وكانت لديه الموهبة التي لا غنى عنها لأي مدرّس ألا وهي موهبة استثارة التفكير.

كان أصغر المدرسين سناً وأكثرهم تسلية ستانلي كاسن، مدرّس آثار الإغريق وتاريخهم. كان مليئاً بالأفكار غير أنه لم يكن يتسم بالعمق، ولذا كان غايةً في التشويق لطالب علم الآثار الجديد. كان يتقن موضوع الدراسات الإغريقية. وقُتل في حادث تحطم طائرة في الحرب العالمية الثانية. كان مستعداً للخوض في أي موضوع بما في ذلك القصة البوليسية. وأنا مدين له كثيراً لأنه أوصى ليونارد وولي بي خيراً. وقال لي: «لقد كتبت لك توصية ولم ألعنك بالإطراء الباهت عليك». ويروى أن عميد الكلية المعروف سبونر التقاه في الساحة

(٣) سير ويليام ديفيد روس فيلسوف اسكتلندي درس في جامعتي أدنبره وأوكسفورد ومارس التدريس في جامعة أوكسفورد واشتهر بتحرير مؤلفات أرسطو وترجمتها ووضع عدة كتب عن أفلاطون وكانت. (المترجم).

(٤) هيربرت ماركوس عالم اجتماع أميركي وُلِدَ في عام ١٨٩٨ واشتهر بنقده قيم المجتمع الغربي (المترجم).

Twitter: @ketab_n

المربعة في جامعة أوكسفورد صباح ذات يوم وقال له: «أرغب في أن تأتي لتناول الشاي عصراً ولتقابل المدرّس الشاب الجديد السيد كاسن»، فأجاب: «ولكنني أنا السيد كاسن». فقال الأول: «لا بأس، تعال لتناول الشاي».

من المحاضرات التي استمتعت بها أتذكر جيداً تلك المحاضرات التي ألقاها كلبرت مري[٥] العظيم عن المآسي الإغريقية. ولما كان مري نفسه شاعراً فقد كان متشرباً بروح القصيدة الغنائية والملحمة كلتيهما. وكان بوسعه بفضل ذاكرته التي لا تضاهى، أن يلقي كيفما اتفق مقاطع طويلة من المؤلفات الكلاسيكية بصوت لا نظير له كان يعبّر عن عواطف نصف مكبوتة متصلاً بعالم لم يكن قد اختفى عنه وعنا. وكانت الصعوبة الوحيدة أنه استعمل النبرات نفسها في وصف الحركة الواضحة للمأساة والتحية الشفهية الاعتيادية لزميل ما أيضاً أو في إلقاء تحية الصباح. ولكن كانت تلك صعوبة عجز مؤلفو المآسي الإغريقية أنفسهم عن التغلب عليها. وعلى الرغم من أنه كان عالماً كبيراً، فقد كان يخاطب أقلّنا شأناً باحترام كأنه يلتمس آراءنا في موضوع كان عميق الاطلاع فيه. وما تزال كتبه تحمل سجل ذهنٍ هو غاية في الصفاء والوضوح وهرطقي أحياناً. وفي عصبة الأمم أطلق عليه الفرنسيون وصف «هذا الحالم الوديع» ce doux rêveur.

ومن الشخصيات الأخرى في جامعة أوكسفورد شخصية أقل شأناً من مري، لكنها لا تنسى مثله، هو أستاذ جامعي كهل اسمه

---

(٥) جورج كلبرت ايمي مري (١٨٦٦-١٩٥٧) عالم بريطاني باللغات الكلاسيكية اشتهر بترجمته المسرحيات الإغريقية لا سيما مسرحيات يوريبيدس، ووضع سلسلة كتب ليفسّر روح اليونان القديمة للعالم الحديث وتولى رئاسة عصبة الأمم خمس عشرة سنة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

س.ج. أوين. كان يبدو كأنه مخلوق قزم من أعماق إحدى الغابات. وكان متشرباً بتعابير الشاعر اللاتيني الساخر جوفينال عن العاطفة التي كان يشرحها لنا بحيوية بالغة.

كانت كل أُهجية ثمرة مليئة بالعصير نمتصها حتى النهاية. وعلى الرغم من أنه كان معجباً بجوفينال لأسباب أخرى ونظم قصيدة في الإشادة به، فقد ألهمنا حماسته. وأحببت حِكَم جوفينال البارعة مثل Nemo repente fuit turpissimus وترجمتها «لا أحد يصبح فجأة وغداً بكل ما في الكلمة من معنى».

وأقوال أخرى مأثورة لا تقل حكمة عنها. بيد أن ما كنا نترقبه بشغف شديد أسبوعاً بعد آخر هو ذم أوين المتطرف للشاعر أ.أ. هاوسمان الذي كان ينظم باللاتينية وكانت آراؤه في جوفينال تتعرض للتمزيق بانتظام. ولم نكتشف إلا فيما بعد أن تلك كانت طريقة أوين في الرد على النقد الذي كان يوجه إليه بانتظام في (المجلة الفصلية الكلاسيكية) Classical Quarterly بسبب آرائه المضللة. وأظن أن هاوسمان كان مصيباً كالمعتاد.

لا بدّ أن أشير إلى شخصية بارزة أخرى هي بيرسي كاردنر، أستاذ كرسي الفن وعلم الآثار الإغريقيين الموسوم باسم وايكهام، الذي ألقى علينا محاضرات في فن النحت الإغريقي. كنت أفهم هذا الموضوع بعض الشيء إذ كان ذلك بالنسبة إليّ مقدمة إلى علم الآثار. كان بيرسي كاردنر الطويل ذو القامة المنتصبة يلقي محاضراته وهو يرتدي سترة سوداء تبلغ الركبتين وياقة مجنحة من النوع الذي لا بدّ أن زمنه يعود إلى العقد السابع من القرن التاسع عشر. منحنا من فيض علمه الذي لا يضاهى بأسلوب تعبيري ممل دائماً وباطراد رتيب نجح بطريقة ما في جذب انتباهنا. وأتذكر كيف أنه أوصانا بالاستماع إلى

Twitter: @ketab_n

محاضرات دليلين في المتحف البريطاني: سكيت وهاليت. كان سلوك هاليت وأسلوبه الممل في الكلام صورة مكررة من كاردنر. وعندما كان يدعونا إلى توجيه الأسئلة في نهاية كل جولة في المتحف كثيراً ما كان جوابه: «لو كنت أعرف الجواب عن هذا السؤال لما كنت أعمل هنا، بل في مكاتب الموسوعة البريطانية»، ومع ذلك حفزتني هذه الجولات في المعهد البريطاني إلى اتخاذي العمل في حقل الآثار مهنة لي، وعندما استمعت إلى بيرسي كاردنر يحاضر عن تمثال هرميز للنحات براكستيليز[٦] فكرت ملياً كم كان رائعاً لو كنت حاضراً في أثناء اكتشاف التمثال في معبد أولمبيا في اليونان وأصبحت أفكِّر في المنحوتات كلها في أماكنها الأصلية. كان العمل البارز الوحيد الذي قمت به في جامعة أوكسفورد دراسة للنحت الإغريقي وكتبت مقالة حصلت على الدرجة العليا.

إنني مدين لجامعة أوكسفورد بالدرجة الأولى لا بسبب أي إنجاز أكاديمي، بل لتعرّفي إلى أهمية التعليم الحقيقي وصحبة الكتب والمباني. ولكن أعظم ما حصلت عليه هبة الأصدقاء المتجانسين في مثل سن المرء. ولم تسنح الفرصة مرة أخرى لمصادقة أشخاص عاش معهم باطمئنان متحرراً من المسؤولية وفي ظروف كانت فيها وسائل التسلية سهلة ورخيصة. كنا نذهب إلى المسرح الذي كانت تقدم فيه عدة مسرحيات في موسم واحد وكانت المشاهد المسرحية فيها تسقط على رؤوس الممثلين. وأتذكر الضحكة المتواصلة التي أطلقها كيلبرت

---

(٦) تمثال هرميز، التمثال الأصلي الوحيد للنحات الإغريقي براكستيليز الذي بقي سالماً، ويصوّر هرميز والطفل ديونيسوس على ذراعه وهو في متحف أولمبيا في اليونان. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

مري وهو يشاهد مسرحية برنارد شو (بيت الحسرة) ويستمع إلى خطاب شو الذي يقول فيه إنه لا يمكن إلا في بلدة إقليمية مثل أوكسفورد أن تقابل مسرحيته بالضحك بدلاً من صمت المفكرين.

توفي ثلاثة من أصدقائي في سن مبكرة، في العقد الثاني من العمر، وجعلني ذلك أتأمل مرّات كثيرة في ظلم الحياة بعد أن بلغتُ سن السبعين، وفي صحة القول الإغريقي «إن من تحبه الآلهة يموت فتياً». وكان أكثرهم موهبة ايسم هوارد، الابن الأكبر للورد هوارد اف بنريث سفير بريطانيا في مدريد ثم في واشنطن، حيث حظيت بامتياز قضاء بعض الوقت مع العائلة. ورث ايسم مواهب أبيه الممتازة، إذ كان ودوداً وكريماً، ومحباً للفنون وذا ظرف متدفق وروح دعابة، وما تزال ذكرى زمالته تحمل معها توهجاً دافئاً. ولا شك في أنه كان بوسعه التفوق في الحياة وكان شديد الإقناع حد أنني تحولت إلى المذهب الكاثوليكي فترة قصيرة. أصيب في سن الخامسة والعشرين بمرض هوجكنز[٧]. وعندما رأيته آخر مرة في بيرن كان جسمه قد ذبل بشكل يبعث على الأسى. تقبّل معاناته بإيمان هادئ باللّه وبإذعان، وهما من سمات القديس الحقيقي ومن النوع الذي لا ينساه المرء أبداً في صلاته.

وتوفي روبرت فريملن، وهو صديق من أيام المدرسة في لانسنج وكان رفيقاً ممتعاً مفعماً بالتهكم الهادئ، بعد إصابته بحمى البول الأسود في نيجيريا، مثلما حدث لريتشارد وارنر الذي كان يعيش معي في مبنى روبنسن تاور بالجامعة. شهدت تلك الأيام سقوط ضحايا كثيرين لهذا المرض المخيف في أفريقيا. وما زلت أتذكر أمسية دافئة

(٧) مرض خبيث يصيب الغدد اللمفاوية التي تتضخم وتقتصر الإصابة به على الشباب. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

في أيار/مايو بعد مباراة في التنس معه، تناولنا النبيذ مع الفريز والقشدة، وكان ذلك خليطاً غريباً، لكنه كان شهياً. وعاش صديق ثالث من (الكلية الجديدة) عمراً أطول وهو رونالد بوس الذي كان يتمتع بظرف اسكتلندي لاذع. وعندما سمع صديقاً يصيح أن الشيء الوحيد الذي تعلمه في كلية ايتن هو أن الاستقامة ليست هي السياسة الفضلى أجاب: إن الاستقامة هي ليست سياسة أبداً.

بقي معي، لحسن الحظ، صديق ورفيق قديم لي هو رودني كانرويثر الذي شاركني التسلية كثيراً في غرفتي بمبنى روبنسن تاور وفي الغرف التي أستأجرتها في الدار رقم ٦ في شب ستريت، حيث كانت صاحبة المنزل تحتفظ في القبو بكمية لا تنفد من أواني الزهور المصنوعة من الخوف التي كانت تضعها بدلاً من الأواني التي حطمناها بلا اكتراث في غرفة الجلوس بعد أن ترغمنا على دفع ثمنها.

حالفني الحظ مرة في جامعة أوكسفورد، إذ راهنت على الحصان الفائز في سباق الداربي ثلاث سنوات متتالية وحصلت على عشرة باونات في كل مرة. وكان ذلك كافياً لدعوة زهاء اثني عشر صديقاً إلى حفلة عشاء سخية. وكان معظمنا ثملاً في نهاية الحفلة. ولكن تلك الحفلات علمتنا مدى استيعابنا الخمر وكانت مقدمة ضرورية لاتباع الاعتدال. وما أزال أتذكر اشمئزازي عندما أيقظني الحارس هيوز في صباح اليوم التالي وسألني إن كنت أرغب في تناول قدح من البراندي لإنعاشي. ولا بدّ من الإشارة إلى أن هيوز رافق الدكتور مايو إلى فيجي وتعلّم اللغة الفيجية هناك. وعندما قدم أمير فيجي إلى باليول[8] كان

(٨) باليول إحدى كليات جامعة أوكسفورد ويعود تاريخ تأسيسها إلى عام ١٢٦٣. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

هيوز الوحيد في الجامعة الذي يتكلم تلك اللغة وكان الأمير يدعوه بانتظام لتناول الشاي معه.

كانت تسليتنا في جامعة أوكسفورد أكثر تواضعاً فعلاً من حفلاتي لمناسبة الفوز بالرهان في سباق الداربي. تعودت أنا ورودني أن نتعشى بانتظام في (مطعم جورج للشواء) في ليلة يوم السبت. كانت وجبتنا تتكون من الحساء ولحم البقر والحلوى والجبن مع البيرة، وكان ثمن ذلك كله خمسة شلنات لكل منا وكنا نضيف إلى ذلك سيكاراً ثمنه نصف شلن. كانت تلك مأدبة باذخة حقاً. وهكذا تهيأت للمرحلة التالية من حياتي التي قضيتها في أور الكلدانيين.

بدا أن دخولي عالم الآثار كان نتيجة مصادفة سعيدة كما يحدث مراراً في نقطة تحوُّل في عمل المرء. بعد أن أكملت امتحاناتي في جامعة أوكسفورد نهضت متأخراً في صباح يوم جميل من أيام الصيف ورحت أتمشى الهوينى عبر الساحة المربعة فرحاً بحثاً عن طعام الفطور. وهكذا التقيت مصادفة عميد الكلية وقسيس كنيسة الكلية وكان عالماً بارزاً باللاهوت. قال العميد: «مالوان، ما هي خططك للمستقبل؟» أجبت: «ربما أصبح موظفاً في الخدمة المدنية الهندية أو أدرس القانون، إذ لا يريد أبي أن أعمل في التجارة بمدينة لندن». فقال العميد: «وماذا تريد أن تفعل حقاً؟» أجبت: «أريد شيئاً واحداً هو الآثار، فقد شغفت بهذا الموضوع وأنا أستمع إلى بيرسي كاردنر يتحدث عن اكتشافاته في أولمبيا. أريد الذهاب إلى الشرق والتنقيب عن الآثار هناك» فقال العميد: «اذهب وقابل عميد الكلية فقد يساعدك»، وذهبت لمقابلة هـ.أ.ل. فيشر في الحال واستقبلني هذا الرجل الشهير الدمث الذي خلف سبونر الذي كان قد حثّ وولي على اتخاذ التنقيب عن الآثار مهنة له. وزودني فيشر برسالة تعريف إلى

Twitter: @ketab_n

المستشرق الشهير د.ج. هوكارث، وكان آنذاك أمين متحف اشموليان[٩]، وكان قد تسلم في صباح ذلك اليوم رسالة من وولي، وكانت أمامه على منضدته، يطلب فيها إرسال مساعد ليعاونه في أور الكلدانيين ـ كان ذلك في عام ١٩٢٥.

وكان وولي عجلاً دائماً. ووافق على التحاقي بالعمل بعد مقابلتي إياه على الرغم من افتقاري التام إلى الخبرة، ويعود ذلك جزئياً إلى أنني لم أكن مغروراً حد الاستهجان وإلى أن مدرّسي ستانلي كاسن كان قد بعث إليه أيضاً برسالة امتدحني فيها. ولكن مهما يكن ما قاله فقد استطعت اجتياز الاختبار القاسي وهو مقابلة كاثرين كيلنك، التي سرعان ما أصبحت السيدة وولي. دهش وولي عندما اكتشف أنني عندما زرت المتحف البريطاني اشتريت تقريره الأول عن أور الخاص باكتشاف معبد الإله القمر وقرأته. ولم أقل له إن من الأسباب التي اجتذبتني إلى تقريره الذي كان معروضاً للبيع في المتحف البريطاني هو أن مؤلفه يحمل اسم وولي وهو اسم بطلي نفسه لاعب الكريكيت الشهير في فريق كنت.

كانت تلك هي سلسلة المصادفات السريعة التي قادتني إلى أور. ولكنني توصلت منذ زمن طويل إلى الاستنتاج: إذا وُلِد المرء في برج ملائم فإن الفرصة تواتي من هم مستعدون لها. وينبغي لكل شخص أن يحكم الإمساك بحظه بكلتا يديه. توجهت إلى بابل، أي إلى الطرف الجنوبي من وادي الفرات بعد أن مررت بتلك الطرق غير المباشرة. كان يحتمل أن أتوجه إلى مصر أو الصين، وكنت مستعداً لأن أفعل ذلك، ولكن لم توجه إليّ الدعوة.

(٩) متحف أشموليان: متحف ومكتبة للتاريخ القديم والفنون الجميلة وعلم الآثار في جامعة أوكسفورد. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أجاثا وماكس في عام ١٩٧٠

Twitter: @ketab_n

القسم الأول

قبل الحرب

(١٩٢٦ ـ ١٩٣٨)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

أور: مقدمة إلى علم الآثار

وصلت إلى أور في ليلة مظلمة في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٥ تراودني آمال كبيرة. وكان رفيقاي ليونارد وولي وأ.س. ويتبرن، المهندس المعماري الذي انضم مثلي إلى البعثة أول مرة. كنا قد سافرنا من بغداد في رحلة استغرقت اثنتي عشرة ساعة عبر الصحراء والسهول باستخدام سكة الحديد من الطراز الهندي في عربات پولمان مريحة صنعت للسفر السار غير السريع، وإن كانت الزنابير تغزو المقاصير أحياناً. كانت السيارة في انتظارنا في مفرق أور الذي يبعد ميلين غربي الخرائب، وكانت سيارة من طراز ت ـ فورد رفعت من خندق بعد فترة من الحرب العالمية الأولى وأصلحت مقابل مبلغ لا يزيد على عشرة پاونات.

بعد كل تلك السنين ما زلت أتذكر جلياً دخول المنزل الذي عشت فيه طوال الشهور الخمسة التالية. كان محاطاً بسياج من الأسلاك الشائكة للحماية من اللصوص، وكان الدخول فيه عبر ساحة مكشوفة مسورة تقع على جانبيها قاعة الآثار ومكتب المهندس المعماري. وكانت ثمة شُرفة تحجب المدخل عن الأنظار. وكشف النور الساطع لمصابيح الضغط، التي حملها الخادمان العربيان

Twitter: @ketab_n

النحيفان، عن مسكن رَحِب، مشيد بالآجر المفخور القديم الذي جمع من سطح التل الأثري. كان عمر أقدم آجرة خمسة وعشرين قرناً، ولكنها كانت ذات نوعية ممتازة بحيث إننا نقلنا البيت تدريجياً إلى أريدو على بعد اثني عشر ميلاً بعد إكمال التنقيبات في أور.

كانت دار بعثتنا تتألف في ذلك الوقت من غرفة جلوس واحدة كنا نتناول فيها الطعام ونرتاح، وسبع غرف نوم وحمام، ووسعت الدار في وقت لاحق لإسكان كاثرين وولي. كانت غرف النوم مهاجع صغيرة، وكان سقفها من الطين، وكانت الجدران مكسوة بالطين وغرفة الجلوس بلون المشمش وهو اللون المتيسر الوحيد. وكانت الأرضية من الآجر المفخور وحمل بعضها نقوشاً وكان جزء منها مغطى بالحُصُر وكانت الأبواب والنوافذ من أبسط نوع. وكان المظهر يبعث السرور في النفس ويتسم بالبساطة، وأتذكر أنه لم يكن هناك كرسي مريح واحد حتى وصلت كاثرين. كانت الرفوف في غرفة الجلوس تضم مكتبة صغيرة، ولكننا كنا آنذاك نصنع التاريخ، ولذا لم نكن بحاجة إلاّ إلى مصادر قليلة. رأينا ذلك كله في ومضة واحدة عندما رفعت المصابيح عالياً وشاهدنا طباخنا الهندي الجيد المخمور الذي خرج من المطبخ لتحيتنا. وجاء حارسانا من خارج الفناء وهما مسلحان ببندقيتين مع أحزمة الرصاص المليئة بالخراطيش، وسرعان ما اكتشفنا أن السقف الطيني للبيت لم يكن صامداً للماء.

ألقينا أول نظرة على تل أور الكبير بعد شروق الشمس بقليل في صباح اليوم التالي. يبلغ ارتفاع التل أكثر من ستين قدماً فوق السهل، وكان يتألف من مزيج من الرمل والطين والحصباء، وكان بوسعنا أن نرى في الحال أن هذا الوحش الضخم يعج بالآثار ويضم تحت سطحه مباني كان قد كُشف عن عدد منها في المواسم الثلاثة التي سبقت وصولي.

Twitter: @ketab_n

كانت المغريات التي اجتذبت وولي للعودة إلى أور في ذلك الوقت هائلة، لأنها كانت مدينة قديمة مبجلة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالعهد القديم. وكان ما يزال هناك عدد كبير من قُرّاء الكتاب المقدس. وكان وولي نفسه قد دُرّب ليصبح عالماً باللاهوت وكان مقرراً في وقت ما أنْ ينضم إلى الكنيسة.

لقد جعلت التنقيبات هذه رحلة تارح أبي إبراهيم الفهم لأن حران، مثل أور، كانت مركزاً لعبادة القمر. وكان وولي يأمل دائماً في أن يكتشف بعض الإشارات إلى إبراهيم، ورغم أن اسمه لم يظهر أبداً في سجل الألواح المسمارية، فقد أفلح في إعادة تكوين خلفية الوطن الأصلي لنبي العهد القديم هذا قبل هجرته من سومر (التي سميت بلاد بابل فيما بعد) إلى فلسطين.

كان في ذهن وولي أيضاً قبل أن يشرع في العمل في أور ما ورد في سفر التكوين ١٠ : ١٠، وهو المقطع الأسطوري الذي يصف كيف أصبح كوش أباً لنمورد، الصياد الجبار أمام الرب، وبذلك كان صدى لقوة بلاد آشور القديمة.

وهذا الاتجاه في التفكير جعل وولي يشعر بأن هدف مهمته الحقيقي هو إعادة تكوين الصور المختفية للحضارة السومرية. وكان ذلك أعظم إنجازاته وسيبقى إلى الأبد يحمل اسمه، لأن اكتشافاته أظهرت أن أور السومرية كانت حقاً أحد مهود الحضارة ولا تقل أهميتها عن مصر. هنا، في الوادي الجنوبي لنهر الفرات وضع الكتبة القدماء نظاماً للكتابة بالخط المسماري المثلث الشكل الذي كان أحد الاختراعات الرئيسة في العالم وتمخّض أخيراً عن أول أبجدية وضعها الفينيقيون لاستعمال التجار بعد عام ١٤٠٠ ق.م بفترة قصيرة.

تقع أور في نحو منتصف المسافة تقريباً بين بغداد ورأس الخليج،

Twitter: @ketab_n

وكانت من أهم المدن في شبكة الحضارة المدينية التي طورها ببراعة السومريون الذين ثبتوا خطوطهم التجارية والطابع المميّز لحضارتهم بنظام من القنوات والطرق المائية الذي يربط المستوطنات المدينية في المناطق المجاورة لنهر الفرات من المنطقة التي عُرفت فيما بعد ببلاد بابل إلى الخليج.

أظهرت تنقيبات وولي في أور أنه حدثت هنا في الطرف الجنوبي من وادي النهر تطورات مميزة كانت تتناقض تناقضاً حاداً مع تلك التطورات التي كانت تحدث في التخوم الشمالية من بلاد آشور ما قبل التاريخ فوق عنق الزجاج حيث يتقارب نهرا دجلة والفرات ولا يبعد أحدهما عن الآخر بأكثر من ثلاثين ميلاً في المنطقة التي اشتهرت لوجود مدينة بغداد فيها.

كان وولي في أثناء التنقيبات يتعمد أن يكون ودوداً ومؤدباً ولطيفاً دائماً، لكنه كان إلى حد ما طاغية مثلما ينبغي أن يكون رؤساء البعثات الآثارية الناجحين كلهم، ومع ذلك كان عادلاً دائماً ولم يتوقع أكثر مما يتوقع من نفسه. وكان أحياناً يقول إذا طلب منه أحد شيئاً لا يوافق عليه «لن يسمح الأمناء بذلك» أو «ليس بوسعي تصور ما سيقوله الأمناء إزاء مثل هذا الطلب». وعلى الرغم من أنني كنت شاباً، كانت لي الفطنة لكي لا أجيب أن الأمناء لن يكترثوا لذلك، والآن وقد أصبحت لشدة دهشتي أحد أمناء المتحف البريطاني فأنا أعرف أن جوابي، ولو نطقت به، كان صحيحاً. ورغم ذلك لا يسعني إلا أن أُطري صمتي.

لم يتجاوز عدد مساعديه الاثنين أو الثلاثة ولكنه نقل إليهم طاقته، وأشك في أن يكون هناك أي رجل كان بوسعه استخلاص المزيد منا. ونادراً ما كنا نأوي إلى الفراش قبل منتصف الليل. وكان وولي نفسه يواصل العمل في مكتبه الصغير حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً،

Twitter: @ketab_n

وكان يتوقع أن نكون في موقع التنقيبات قبل نصف ساعة من شروق الشمس. وغامرت مرة بلعب لعبة ورق مع المتخصص بدراسة النقوش فأبلغت إذا لم تكن لدي الطاقة اللازمة للعمل فالأفضل أن أخلد إلى النوم.

كانت زوجته كاثرين وولي، التي رافقته دائماً، شخصية مستبدة وقوية يصعب التحدث عنها بإنصاف حتى في هذا الوقت. كان زواجها الأول كارثة، إذ أطلق زوجها النار على نفسه عند سفح الهرم الأكبر بعد فترة غير طويلة من شهر العسل، وترددت كثيراً قبل أن تقبل الزواج بوولي، فقد كانت بحاجة إلى رجل يرعاها، مع أن تلك العلاقة لم تكن تؤكد الجانب الجسدي من الزواج. كانت كاثرين امرأة موهوبة وذات سحر عندما تحب استعماله، ولكنها كانت ماكرة، ووصفتها كيرترود بيل وصفاً مناسباً هو أنها كانت امرأة خطرة. كانت تمتلك القدرة على سلب لب من كانت لهم صلة بها عندما تكون رائعة المزاج، أو على الضد كانت تستطيع خلق جو مشحون ومسموم. كانت الحياة معها أشبه بالمشي على حبل معلق في الهواء. ووجد كثير من الرجال الذين سحرتهم أنفسهم منبوذين باحتقار، ولكنها كانت تستطيع أن تلهم المحبة، وكانت لطيفة المعشر واسعة القراءة وغير مملة أبداً. كانت متشبثة برأيها وتيوتونية[1] في تجاهل الآراء التي تخالفها ومفرطة في الحساسية وسريعة الاستياء. ولم يُفسح مجال لأية امرأة أخرى في البعثة. وقد عمل وولي وزوجته على ضمان عدم وجود امرأة أخرى. وحتى عمال التنقيبات كانوا

(١) صفة تطلق على أبناء الشعوب الجرمانية (الأنكلو ـ ساكسونيين والهولنديين والألمان والسكندفافيين). (المترجم).

Twitter: @ketab_n

يخشونها. وأتذكر مرة أن أعضاء البعثة كانوا يحاولون عبثاً فض شجار عشائري كان المشتركون فيه يضرب بعضهم رؤوس بعض بالعصي، ولكن ظهور كاثرين المفاجئ في المكان كان كافياً لوضع نهاية فورية للمعركة.

بعد مثل تلك الحوادث كانت هناك رؤوس وجروح ينبغي تضميدها، ولما كنت عضواً ذا مرتبة أدنى في البعثة فقد كان عليّ أن أعمل مضمداً، بل أن أمارس حتى العلاج بالإيحاء عندما تطلب الأمر ذلك. وكانت أبرز حالة عندما سقط رجل من عربة القمامة والتوت يده اليمنى وتورّمت حتى أصبحت بحجم كرة القدم. دلّكت يده بمرهم وربما قلت له: «سوف يشفيك الإيمان تماماً. عد صباحاً». وعندما عاد كانت يده طبيعية تماماً. وكان يتوقع مني أن أعمل مدلكاً رئيساً لكاثرين وولي التي كانت تعاني من نوبات الصداع المتكررة، واكتسبتُ مهارة جيدة، إذ صادف أن يديّ حساستان. وخطر لي أحياناً أن أضع علقات على جبينها، فقد أعلن طبيب زائر أن فصد بعض الدم سيكون مفيداً لها. لم أكن أشعر بالارتياح لأداء تلك المهمة الدقيقة. كانت كاثرين، التي كان نومها مضطرباً، تحتاج إلى العناية أحياناً من ليونارد وولي في الساعات الأخيرة من النوم. ولكن، نظراً لأنه كان مرهقاً دائماً لم يكن أي صياح ينفع في إيقاظه وإن كان ينام في غرفة مجاورة لغرفتها. ولحل هذه المشكلة رُبط خيط في إبهام قدم وولي وكان الخيط يسحب بقوة عندما تنشأ الحاجة إلى خدماته ليلاً. ولم تتبع لحسن الحظ، هذه الطريقة في إيقاظه إلا في حالات الطوارئ. ولكن، نظراً لأن أقرب طبيب كان في الناصرية على بعد أميال كثيرة، ولم يكن هناك هاتف، فقد كان لا بدّ أن نحتال للأمر في غياب الطبيب.

Twitter: @ketab_n

كانت كاثرين فنانة موهوبة، ونحتت رأساً برونزياً لرئيس العمال حمودي بن شيخ إبراهيم كان صورة بارعة وقوية للرجل[٢]، وأنجزت سلسلة من الرسوم التخطيطية الجميلة للأدوات والأسلحة المعدنية من أور، ولكن رغم أسلوبها المستبد، كانت تفتقر إلى الثقة بقدراتها الطبيعية، ولم تكن تستطيع تنفيذ الرسوم دون طلب المشورة التفصيلية. ورغم أن صحتها كانت تسبب القلق لوولي وأن طلباتها كانت تأخذ دائماً جزءاً من وقته، فإن الزواج جعله أكثر إنسانية، وكان من منافعه أنه غيّر كثيراً مما كان يتسم به من تشبث بالرأي، وبخلاف ذلك لم يكن ليبقى لديه أي وقت لأي شيء سوى العمل. كان وولي وزوجته متكبرين ولا يأنفان من الضغط على أي شخص يمكن أن يساعدهما ثم التخلي عنه حين لا تعود هناك فائدة منه، وهي سياسة تتسم بقلة التبصر وخلقت لهما الأعداء. إنّ وولي وأور كليهما مدينان لكاثرين بالكثير لتعبئة الاهتمام الخاص والعام لدعم التنقيبات. وقد أقنعت بنفوذها الخاص أكثر من مايسيناس[٣] واحد لتقديم الدعم المالي السخي للبعثة.

توفيت كاثرين في سن قاربت الخمسين بعد أن صارعت تدهور صحتها طوال حياتها. وذات ليلة قالت لزوجها ليونارد قبل أن تأوي إلى فراشها: «لين، سأموت هذه الليلة. ستجدني ميتة في الصباح. يجب أن تواصل العمل تماماً كما لو كنت حية». استمع إلى تلك الكلمات غير مصدق، إذ سبق أن كانت هناك إنذارات كثيرة، ولكنها

---

(٢) يوجد التمثال الآن في متحف هورنيمان في دالويتش.

(٣) مايسيناس سياسي روماني ومشاور للإمبراطور الروماني أوكتافيان (أوغسطوس) وكان أيضاً راعي الشاعرين الرومانيين فيرجيل وهوراس، ولذا كثيراً ما يطلق الاسم على أي راعٍ للأدب. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كانت ميتة فعلاً في صباح اليوم التالي، وهكذا انتهت حياة امرأة بارزة أثارت سخط الكثيرين، إلا أنها سحرت آخرين أكثر منهم.

كان خبير النقوش الذي كان يعمل مع وولي لدى وصولي هو الأب ليجرن، وقد أرسله متحف جامعة پنسلڤينيا الذي اشترك مع المتحف البريطاني في تمويل التنقيبات. كان ليجرن طويل القامة، وسيماً، ذا شعر رمادي، وكان شخصية مسلية ويتسم بالتهكم. وعلى الرغم من أنه رُسم كاهناً، فإن الآخرين كانوا يتوهمون أحياناً أنه لاأدريّ[٤]. وكانت أمه قد أقنعته بأن يصبح قساً، ولكن تكوين عائلة كان أفضل له. وبعد بداية جيدة لم ينسجم مع وولي وزوجته ورفض مواصلة العمل معهما في نهاية موسمه الثاني. وكان ذلك أمراً مؤسفاً، إذ إنه كان بارعاً في استنساخ النقوش وكان مصدر تسلية مستمرة لبعضنا، فقد كان يغني في الطريق غير الممهد الذي يبلغ طوله عشرة أميال إلى الناصرية أيام الآحاد وهو يطلق النكات وينظر إلى البدويات ـ وهو عمل تكتنفه المخاطر. وكان يقابل أحياناً بردود رقيقة ودية على تحرشاته غير المؤذية، وأدخل السرور في نفوسنا جميعاً، إلا أنه أثار الجانب المتزمّت في وولي أحياناً.

وجد ليجرن صديقاً في شخص أ. سي. ويتبرن. كان هذا شاباً اشترك في الحرب العالمية الأولى، وكان يتحرك بجذل في موقع التنقيب مخاطباً الصبي الذي كان يمسك بطرف الشريط بلهجة عربية غريبة كانت لغة قائمة بذاتها. وفي نهاية أحد المواسم، تقلصت أموال البعثة إلى حد كبير ولم يبق سوى مبلغ ضئيل لينفق على رحلتنا، وكان

---

(٤) اللاأدري، من يعتقد بأن وجود اللّه وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ويتبرن رفيقي في رحلة شاقة من الإسكندرية إلى أثينا، وسافرنا خلالها بأجر زهيد في سفينة الركاب لم يزد على باون واحد للمسافر. ويؤسفني القول إننا اضطررنا إلى سرقة البصل والطماطة من الأقفاص المفتوحة على ظهر السفينة، ويبدو أنها جريمة بحرية خطيرة وتناولناها بالتعاقب لندفأ ثم لنبرد. وكان الركاب كريمين معنا وكنت أنام بجوار تاجر مفلس من جزيرة تينوس كان يصر على تقديم النبيذ لي من قنينته. تناولنا وجبة ـ فطور كبيرة لدى وصولنا إلى أثينا وبعد الانتهاء منها تناولنا فطوراً آخر. وفي أور كان ويتبرن يسلينا بقصص كثيرة عن الطبخ كانت تثير المتعة المستمرة فينا.

يستحق زميلان اشتركا في التنقيبات أن أشير إليهما إشارة خاصة. الأول، جون روز وهو اسكتلندي يتمتع بروح دعابة هادئة وأصبح صديقاً مدى الحياة. وكان رساماً بارعاً وقدم خدمة لا تقدر بثمن من فك غموض الترتيبات المعقدة لرصف الطابوق في الزقورة، المبنى الذي شهد أعقد التحويرات طوال فترة طويلة من الزمن. كان جون روز غاية في التواضع، وبعد أن تركنا توجه إلى جزر الهند الغربية وصمم خريطة جديدة لكاستريز(٥)، غير أنه كان متواضعاً جداً بحيث إنه لم يترك ذلك الأثر في العالم الذي كان يجب أن يحققه بوصفه مهندساً معمارياً. عندما كنا معاً ساعدنا في تكوين فريق متوازن وتعلمنا أن نلتزم جانب الصمت، ولكن انضمت إلى البعثة مجموعة أقل خضوعاً منا بعد مغادرتي، وأخبرني روز أن أربعة من أفراد المجموعة اجتمعوا بعد منتصف الليل ودوّنوا مظالمهم على الورق، وبعد ساعتين

---

(٥) كاستريز أكبر مدينة في جزيرة سنت لوسيا المستعمرة البريطانية السابقة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أحرقوها بوقار سراً. وكان ذلك شكلاً جيداً من التنفيس والترويح عن النفس.

كان الزميل المبهج الآخر هو الأب س. باروز، القس اليسوعي من كامبيون هول الذي عمل خبيراً في دراسة النقوش خلفاً للأب ليجرن. كان هذا الرجل المتدين والشخصية المحبوبة الغامضة نوعاً ما بعيداً جداً عن وقائع الحياة الصغيرة بحيث إنه أضحى عوناً لشاب مثلي كان بحاجة إلى السلوان أحياناً. كان يجيد اللغات الشرقية القديمة مثل السومرية والبابلية والفينيقية والآرامية والعبرية، إلا أنه كان يجد صعوبة في استعمال اللغة العامية وكان يواجه أكبر صعوبة في طلب إناء من الماء الحار باللغة العربية. وعندما كان يطوف بالزوار في موقع التنقيبات كان أسلوبه في العرض مخالفاً تماماً لأسلوب وولي الذي كان متأكداً من كل شيء. لم يكن تردد باروز، حتى في ترجمة أبسط نقوش الآجر، يوحي بالثقة ولم يكن بوسع غير الخبير أن يعرف أنه يمتلك معرفة أكاديمية عميقة.

كنت في ذلك الوقت كاثوليكياً، ولما كان هذا القس الحي الضمير قد وافق على الاحتفال بتقديم القداس أمام المجموعة الصغيرة من الهنود المسيحيين في محطة مفرق أور في صباح يوم عيد الميلاد فقد تطوعت لأكون مساعده. كانت المهمة شاقة لأنه كان يوم راحة نادراً وكان علينا أن نستيقظ في نحو الساعة السادسة والنصف وإحداث جلبة بتشغيل محرك سيارة ت فورد القديم لنقطع رحلة الميلين إلى المحطة، وإيقاظ زملائنا الذين كانوا يتمتعون براحة يستحقونها في الفراش. وعندما وصلنا إلى دار الاستراحة حيث كان مقرراً أن يُقام القداس كان الرجل الوحيد المتهيّئ حارساً مسلماً. رتب كل شيء على ما يرام لنا. أما الهنود المسيحيون الذين أسرفوا في تناول الخمر في

Twitter: @ketab_n

الليلة السابقة فكانوا مخمورين ولم يأتِ أحد منهم. احتفلنا بثلاثة قداسات متتالية، وبعد الانتهاء منها حضر ستة رجال مكتئبين بملابس مهملة وطلبوا منا إقامة القداس مرة أخرى. إلا أن باروز رفض ذلك، وكان مصيباً وألقى عليهم خطبة قصيرة مسهباً في امتداح حكمة الكنيسة في فرض الصوم قبل العيد، وهي وصية غرسها في الذهن السحرة البابليون. ولم أستطع أن أقاوم تذكير باروز بأن الرجل الوحيد الذي حافظ على الموعد كان مسلماً. وردّ بأن أمرني بعدم إخبار أيّ من زملائنا بما حدث ولبّيت طلبه وآمل أن يغفر لي طيف باروز كشف هذا السر بعد مرور خمسين عاماً. كنت قد غادرت لندن لأتولى تنفيذ واجباتي بوصفي العضو الأقل مرتبة في هيئة مساعدي وولي على أن أعمل مساعد تنقيبات عام وأن يقوم وولي بتعليمي المهنة في أثناء العمل، لأنني لم أكن قد تدربت تدريباً أولياً. إضافة إلى ذلك كان متوقعاً مني تعلم اللغة العربية بحيث أصبح قادراً على التحدث بها. لم أكن أبداً لغوياً جيداً، ولكن بفضل صحبتي كتاب فان إيس في نحو اللغة العربية عدة سنوات أصبحت أجيد إجادة معقولة التحدث بها وفهمها والتوصل إلى المعنى عبر توجيه الأسئلة والأجوبة، وكان ذلك مفيداً لي خلال الحرب عندما كان مستعربون آخرون لا يستطيعون التفاهم باللغة العربية. وكان من واجباتي الأخرى المساعدة في تنظيم سجل الأجور وهي مهمة صعبة لأننا كنا نستخدم عدداً كبيراً من الرجال وكنا أيضاً ندفع الأجور بالروبيات والعانات وهي صعبة الحساب. وفي نهاية اليوم كنت أعمل مضمداً وأسهر على صحة الرجال.

كنت أصغر أعضاء البعْثة سناً، ولذا كان يعهد إليّ مراراً مرافقة الزوار في موقع التنقيبات عند الضرورة ولا سيما أولئك الذين كانوا في

Twitter: @ketab_n

طريقهم إلى الهند. وكان الضيف الذي تمتعت بمرافقته أكثر من غيره هو المبشر المعروف فان إيس، مؤلف المعجم المفيد الذي كانت لديّ نسخة منه.

كان قد أدار البعثة التبشيرية الهولندية في البصرة أكثر من أربعين عاماً وكان يختزن ذكريات قديمة عن البلاد. وكان قد زار أور أول مرة في عام ١٩٠٤ وروى أنه عندما كان الحاكم التركي جالساً في خيمته اعتاد رجال العشائر أن يتخذوه هدفاً للتدريب على الرماية بعد الغروب.

كان من الزوار البارزين الآخرين الذين لا بدّ أن أتحدث عنهم جيرترود بيل التي برز اسمها وطارت شهرتها في العالم العربي في زمنها شأنها شأن ت.اي. لورنس. وعندما كنا في أور كانت سمعتها السياسية قد ضعفت، إذ إنها تجاهلت تحذيرات المندوب السامي سير أرنولد ويلسن من نشوب اضطرابات خطيرة في العراق. ولكن الاضطرابات الخطيرة وقعت فعلاً بما في ذلك مقتل الكثيرين خصوصاً في لواء الديوانية حيث تعرض قطار لهجوم كان يُستخدم مستشفى. وساورتنا شكوك في أن بعض عمالنا كانوا من بين مهاجمي القطار. ثم تحوّل اهتمام جيرترود بيل بعدئذٍ إلى تأسيس متحف ودائرة للآثار القديمة في العراق على أساس سليم. في أول موسمين لي في أور، كانت جيرترود تعمل مديرة الآثار وكانت تقضي عدة أيام تصارع وولي في حصة العراق من اللقى الأثرية. وكان المفروض أن يكون التوزيع مناصفة، ولكن لم يكن بوسع أية نمرة أن تصون حقوق العراق أفضل منها. كانت آنذاك في السابعة والخمسين من العمر وكانت ما تزال ذات حيوية غير عادية، وأتذكر جيداً جولة في أريدو معها في يوم حار عندما لم يجرؤ أي من الرجال على أن يقترح عليها التوقف عن التجوال في المنطقة المتربة لتناول الغداء.

Twitter: @ketab_n

زرتها مع ويتبيرن في منزلها الصغير في بغداد في طريق عودتنا إلى الوطن عام ١٩٢٦ لنعبّر لها عن احترامنا. وقد سرَّت بزيارتنا، إذ كانت تشعر بالوحدة والألم لأنها لم تعد ذات نفوذ في البلاد. وبعد ثلاثة أشهر من زيارتنا إياها توفيت إثر جرعة زائدة من عقار منوم يظن أنها تعمدت تعاطيها. شعرنا أننا نتمتع بامتياز عند مقابلة تلك المرأة البارزة التي كانت تتقن التحدث باللغة العربية، وكانت مؤرخة مثقفة ورحالة جسورة ما يزال كتاباها (الصحراء والبذور) The Desert and the Sown و(من خراب إلى خراب) Amurath to Amurath من الكتب الممتازة.

وينبغي الإشادة أيضاً برسائلها التي كتبتها بأسلوب حديث وبسهولة بالغة بعد رحلة اليوم الأطول. وتبقى ذكراها ماثلة في هذا البلد وفي الخارج. وما أزال أتذكر يوم كان المتحف العراقي رفاً واحداً تشغل الآثار المختلفة وتكلف المترجمين والمراجعين الأكفاء بترجمتها ومراجعتها (انظر قائمة كتب الدار المترجمة إلى العربية).

ربما كانت المهمة الأشق في بداية الموسم. تعودت أن أذهب إلى موقع التنقيبات برفقة رؤساء العمال بوصفنا فريقاً أولياً وكان من نتيجة العواصف الرملية في أور أن أحد جناحي دار البعثة الآثارية يصبح بعد فصل الصيف مدفوناً تحت الرمال حتى السقف، وكان رفع الرمال يستغرق ثلاثة أيام. وكانت مهمة جعل دار البعثة يبدو مرتباً مهمة شاقة، وفضلاً عن قسوة الصيف والجفاف الشديد، فقد كنا معرضين أيضاً لعواصف مطرية شديدة في أواخر الخريف كانت تسببها مؤخرة الريح الموسمية من الهند.

استخدمنا في أثناء التنقيبات ما بين ٢٠٠ إلى ٢٥٠ عاملاً، وأحياناً أقل أو أكثر. كانوا يعملون من الشروق إلى الغروب مع نصف ساعة

Twitter: @ketab_n

للفطور وساعة للغداء. كان عملاً شاقاً يدفع لهم لقاءه روبية واحدة، أو ما يعادل حوالي ثمانية عشر بنساً. وكان «البخشيش» يدفع مكافأة عن اللقى الصغيرة كافة تشجيعاً لهم على بذل العناية في العمل. كانت فرقة العمل تضم حفاراً بالمعول وحفاراً بالمسحاة وأربعة أو خمسة أو ستة عمال ينقلون التراب بالسلال حسب المسافة التي كان ينبغي قطعها في نقل التراب. يُضاف إلى ذلك أن هناك مجموعة من ثمانية رجال كانت تقود عربتينا على سكة حديد ينقل عليها التراب.

كان أولئك الأعراب في فقر مدقع وعلى شفا المجاعة. ولذا لم يكن يُتوقع أن يمتلكوا أية طاقة فائضة، وكان لا بدّ من دفعهم إلى العمل بالنصح والتشجيع، وبالطرد أحياناً. غير أن الإقبال كان شديداً على العمل وكان نعمة كبيرة.

كان لا بدّ أن يسير العمل ببطء، ولكن أولئك الرجال نقلوا، طوال الاثني عشر عاماً، آلاف الأطنان من التراب وكانوا عمود الفريق الأساسي الذي استخرج التاريخ من التراب. وكان يسيطر عليهم رئيس العمال والأب الكهل حمودي بن شيخ إبراهيم من جرابلس في شمالي سوريا الذي كان قد عمل مع وولي سنوات كثيرة في قرقميش[٦] قبل قدومه إلى أور، واصطحب معه ثلاثة من أبنائه. وما زلت أتذكر الرجل الكهل حمودي جاثماً مثل النسر على جانب مكان مرتفع يحث العمال ويسيطر عليهم بمزيج من التهديدات والشتائم والسخرية.

نمت روح التضامن خلال أربع أو خمس سنوات، كما يحدث

---

(٦) قرقميش: تل كبير يقع في موقع اجتياز نهر الفرات الحدود بين تركيا وسوريا. نقبت فيه بعثة المتحف البريطاني في السنوات ١٨٧٨-١٨٨١ و١٩١١-١٩١٤. بلغت مدينة قرقميش أوجها في عهد الحثيين وضُمت إلى الدولة الآشورية في عام ٧١٦ ق.م. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

دائماً إذا كانت قيادة الرجال جيدة وكان يجمع بينهم هدف مشترك وأصبحوا يشعرون بالفخر بعملهم. ورغم ذلك مرت بنا حالة واحدة من غياب ما يمليه علينا العقل. عثرنا على قبر كنا واثقين، استناداً إلى الاكتشافات السابقة، من أنه كان يحتوي على عصابة ذهبية على جبين الميت. وعندما أزلنا التراب لم نجد العصابة الذهبية، ويبدو أن أحد الرجال سرقها خلسة. فكرنا في من قد يكون السارق من رجالنا المئة والسبعين، واتفقنا على أن عاملاً معيناً أطلقنا عليه اسم «جون توماس الأمين» لا بدّ أن يكون بريئاً بينما قد يكون اللص أي واحد من ١٦٩ عاملاً. وفي يوم دفع الأجور سأل وولي الرجال إذا كانوا يقبلون أن يقسموا بالقرآن واحداً واحداً عندما يصلون إلى منضدة دفع الأجور، وقبلوا جميعاً أن يفعلوا ذلك بحضور مدير الشرطة في الناصرية. أقسم حوالي ١٥٠ رجلاً بأنهم أبرياء، ولكن عندما كان المذنب يوشك أن يلمس القرآن نهضوا جميعاً كرجل واحد وأشاروا إليه بأصبع الإدانة بدلاً من مشاهدة القسم كذباً وهو العمل الشنيع الذي كان الرجل يوشك أن يرتكبه. كان المذنب هو الرجل نفسه الذي أطلقنا عليه اسم «جون توماس الأمين». كان مثل اياجو[(٧)] قد تعمد على مرّ السنين التظاهر بالأمانة ولو كنا أكثر حكمة لتذكرنا شكسبير. بعد التدريب الأولي أصبحتُ، في نهاية كل موسم، المشرف على رزم الآثار التي أرسلت دائماً بما لا يقل عن أربعين أو خمسين صندوقاً كبيراً جهزتها القوة الجوية الملكية البريطانية. كانت مهمة الرزم دقيقة وصعبة إضافة إلى كثرة الأتربة. وكان عليّ أن اصطحب الصناديق في القطار إلى

---

(٧) أياجو: تابع عطيل في مسرحية شكسبير الذي أقنع عطيل، بسبب الحقد والغيرة، بأن درزديمونه قد خانته. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

البصرة واعتدت أن أجلس في العربة المكشوفة الأخيرة في مؤخرة القطار، وهو وضع كنت أتمتع به. وفي البصرة رافقت الحمولة الثمينة إلى رصيف الميناء وأشرفت على شحنها في الباخرة التي حملتها في الرحلة الطويلة إلى إنجلترا.

كان عام ١٩٣٠، وهو العام الخامس والعام قبل الأخير الذي قضيته في أور، ذا أهمية بالغة في حياتي، إذ كان العام الذي تزوجت فيه.

كانت أجاثا، أو أجاثا كريستي كما كانت تسمى آنذاك، قد زارت بغداد في الربيع وصادف أنني كنت مريضاً بالتهاب الزائدة الدودية. أصبح وولي وزوجته صديقين لها وطلبا منها البقاء في الخريف والعودة معهما في شطر من الطريق على الأقل في نهاية الموسم. كانا قد طالعا عدة روايات من رواياتها وكانا معجبين بها. وعندما جاءت أجاثا لزيارتهما في آذار/مارس من تلك السنة أمرتني كاثرين وولي بأسلوبها المتعجرف أن اصطحب أجاثا في جولة في بغداد وأطلعها على جانب من الصحراء والأماكن المشوقة في الرحلة. كانت أجاثا متوترة الأعصاب إزاء الطلب وخشيت أنه قد يسبب لي المضايقة، إذ ربما أكون متلهفاً للعودة إلى الوطن وحدي. إلا أنني وجدتها في الحال شخصاً ملائماً وسرَّني أن أرافقها.

انطلقنا معاً وزرنا خرائب نفر[٨] وأعجبنا بوضوح معالمها

(٨) نفر: إحدى دويلات المدن ومركز ديني في قلب بلاد سومر. بدأ الأميركيون التنقيب في الموقع في السنوات ١٨٩٠-١٩٠٠ واستأنفوه عام ١٩٤٥. تستند شهرتها أساساً إلى اكتشاف الألواح المسمارية في المكتبة الدينية التي زودتنا بمعلومات عن الأدب السومري أكثر من أي موقع آخر في بلاد الرافدين. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

وبالزقورة الكئيبة وبالطابع الغريب للموقع الذي كان من أقدم المواقع في سومر. وقضينا ليلة غريبة في الديوانية مع ديتشبيرن، المسؤول السياسي البريطاني، الذي كان بالغ الفظاظة في حديثه عن الآثاريين جميعاً وكان واضحاً أنه مستاء لاستضافتنا. ثم توجهنا إلى النجف، المدينة المسورة القديمة الرائعة وإحدى المدن المقدسة التي يتبرك الشيعة بزيارتها. لم يسمح لنا بدخول المرقد، ولكننا شاهدنا هناك إحدى آخر عربات الترام التي تجرها الجياد. ولم أشاهد سوى عربتين مثلهما، الأولى وأنا صبي في كيو[٩] والثانية في سان فرانسيسكو. واتجهنا بالسيارة من النجف إلى كربلاء حيث كان مقرراً أن نقضي الليل هناك ونزور في طريقنا إليها حصن الأخيضر الأموي[١٠]، الذي وصفته جيرترود وصفاً مفصلاً في كتابها: (أموراث إلى أموراث). كان السير حول متاريس شرفات الحصن تجربة مخيفة إذا لم يكن المرء متعوداً على الأماكن المرتفعة، ولكنني قدت أجاثا حولها جميعاً وأنا أمسك بيدها، ووثقت بي دون خوف.

قررنا السباحة في بحيرة ملحية قريبة بعد زيارة الحصن في يوم حار جداً، ولكن إطارات السيارة انغرزت في الرمل وبدا أنها لن تخرج منه. وكان معنا لحسن الحظ حارس بدوي أرسلته الشرطة في النجف لمرافقتنا في الطريق إلى كربلاء، وبعد أن أدى الصلاة انطلق ليقطع

---

(٩) كُيو: ضاحية في جنوبي لندن قضى فيها ماكس مالوان جانباً من طفولته. (المترجم).

(١٠) يميل الخبراء الآن إلى الاعتقاد أن حصن الأخيضر أسس في العصر العباسي، ويعد كتاب جيرترود بيل عن الموضوع من أهم ما خلفته ويتضمن مسحاً مفصلاً للموقع. (المؤلف) (يؤيد السيد علي مهدي في كتابه (الأخيضر) رأي كريسويل في أن الحصن سيّد في عهد المنصور) (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أربعين ميلاً على الأقدام ليأتي بالمساعدة، بينما روّضنا أنفسنا على تحمّل انتظار طويل. وأتذكر أن أجاثا لم توجه إليّ اللوم لفشلي في توجيه السائق مما سبب توقف السيارة في الرمل، ولو أن كاثرين وولي كانت بصحبتي لوبّختني، وقررت آنذاك أن أجاثا كانت امرأة عظيمة.

لم يكد دليلنا، الذي كان دليلاً بدوياً وسيماً يرتدي زي شرطة البادية بكوفية طويلة، يغيب خمس دقائق حتى مرت في ذلك الطريق الموحش سيارة فورد T قديمة مليئة بالركاب الذين توقفوا ونزل أربعة عشر منهم ورفعوا سيارتنا من الرمل. كانت معجزة صغيرة. وشكرنا اللّه وتوجهنا إلى كربلاء حيث قضينا الليلة في مركز الشرطة وخصص لكل منا زنزانة واحدة، زنزانة لأجاثا وأخرى لي. وكانت آخر مهمة لي في تلك الليلة مرافقتها حاملاً أحد فوانيس الشرطة إلى المُستراح. وتناولنا طعام الفطور في الموقف. كان المرقد في كربلاء آية في الجمال وكان الآجر رائعاً في زرقة السماء بحيث لا يمكن أن ينساه المرء بسهولة. وصلنا إلى بغداد شاعرين بالسرور وقضينا في فندق مود البسيط وقتاً ممتعاً. بعد أن انغرزت إطارات السيارة في الطريق إلى كربلاء لم نلتفت بأفكارنا إلى الوراء أبداً ولا أعتقد أني خمنت أن الرحلة القصيرة إلى بغداد ستقود إلى اتحاد أطول دام حوالي خمسين عاماً. عدنا إلى إنجلترا معاً في شطر من الرحلة بقطار الشرق السريع بعد أن رافقنا آل وولي إلى حلب وافترقنا عنهما هناك. كانت رحلتنا بقطار طوروس السريع في نهاية آذار/ مارس ممتعة وجعلتني أقرر طلب يد أجاثا عندما وصلنا إلى إنجلترا، وتزوجنا في ١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٠.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

أور: التنقيبات

عُثر على أقدم استيطان بشري كشف عنه وولي في أسفل حفرة كبيرة حفرت إلى عمق ٥٠ قدماً تحت السطح.

مرّ بأعماق الأرض خلال مستويات كثيرة من طبقات استيطانية بدأت بنهاية عصر فجر السلالات حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م، ومرت بعدد كبير من الأدوار المتعاقبة قبلها بما فيها أوروك وجمدة نصر، وهما العصران اللذان اختُرعت فيهما الكتابة وطُورت أول مرة. ولاحظ تحت هذه الطبقات طيناً غرينياً رملياً تتخلله، على ما قد يتوقع، حبات من الرمل الذي تحمله الريح. وكان وولي قد عثر على ترسبات مشابهة أقل سمكاً في مكان قريب وسمع من واتلن عن مستويات الفيضان في كيش، وسرعان ما توصل إلى الاستنتاج أنه أمام شيء مهم.

عندما روى وولي مشاهداته وقرأ ملاحظاته الحقلية لزوجته كاثرين وسألها عن ماهية ما اكتشفه أعطته بفضل ذكائها السريع الجواب المطلوب حالاً ـ «الطوفان».

كان «الطوفان»، استناداً إلى اللوح الحادي عشر من ملحمة كلكامش، قد أغرق البشر ودمّرهم. ولم تنجُ سوى عائلة واحدة هي

Twitter: @ketab_n

عائلة أوتو ـ نبشتم أو نوح السومري الذي حثه إله رحيم على النجاة بنفسه مع مجموعة مناسبة من ذكور الحيوانات وإناثها. كان هذا هو الطوفان المذكور في سِفْر التكوين والمدوّن في قصة نوح. كان الكثير من التفاصيل، ولا سيما المتعلقة بإطلاق الطيور من فُلك نوح، قريباً من المدونة المسمارية القديمة بما يكفي للبرهنة على أن هذا التقليد العراقي القديم قد بقي عبر المدونات الكنعانية وانتقل إلى الأجزاء العبرية من الكتاب المقدس. هنا كان اكتشاف عزيز على قلب وولي وتوثيق جدير بالتصديق لمدونات العهد القديم يثير اهتمام الجمهور القارئ للكتاب المقدس، واستغل وولي، الصحفي البارع، ذلك أفضل استغلال.

عندما نزلنا إلى الحفرة الكبيرة ونظرنا إلى سور نبوخذنصر قال وولي كما اعتاد القول: «هنا نترك التاريخ خلفنا، وقد لا تدركون أن الفترة التي كانت تفصل نبوخذنصر عن الطوفان أطول من الفترة التي تفصلنا عن نبوخذنصر». في هذه الضفة الغرينية عثر وولي على قبور تعود إلى ما قبل التاريخ، إلى أواخر عهد العُبيد حدَس أنها ضمت بقايا الأشخاص الذين أغرقهم الطوفان. وعلى عمق عدة أقدام أخرى بلغنا التربة البكر التي اكتشف وولي فوقها بدايات أور وأكواخ البردي التي بناها سكانها الأوائل عندما كانت المستوطنة محض جزيرة في الهور.

إلاّ أن طوفان وولي كان في الحقيقة ترسبات من نهاية عهد ما قبل التاريخ الذي يطلق عليه اسم عهد العُبيد، في نحو عام ٤٠٠٠ ق.م ولذا كان العهد مبكراً جداً بحيث لا يمكن أن يقرن بمدونات طوفان وادي الرافدين التي ترتبط بملك شروباك (أوتو ـ بنشتم) خاصة الذي برز في بداية عصر فجر السلالات حوالي عام ٢٩٠٠ق.م. واكتشفت آثار الطوفان نفسه في موقع شروباك عينه. ولم تميّز في البيوت

Twitter: @ketab_n

المحدبة المستوية على ارتفاع أعلى في حفرة الطوفان في أور فحسب، بل في كيش أيضاً حيث كانت تلك الترسبات أصغر حجماً بكثير.

وهكذا توصل وولي مرة أخرى إلى اكتشاف بارع لم يحقق الغرض الصحيح. ورغم الإنكار لا يوجد شك في أنه اكتشف فعلاً بقايا فيضان عظيم كان واحداً من فيضانات كثيرة خربت بلاد بابل منذ زمن سحيق. ولا يوجد شيء أكثر إثارة من العودة إلى تلك الطبقات نفسها والتنقيب فيها علمياً مرة أخرى. إنها مهمة تدعو إلى المزيد من الاستكشاف في المستقبل.

كان أهم اكتشاف لوولي في أور ـ والثاني من حيث الترتيب الزمني ـ هو المقبرة الملكية التي كشفت عن ثروة من الكنوز السومرية التي لم يرَ نظير لها من قبل، ولا يحتمل أن يُرى مرة أخرى. نقب وولي في أكثر من ألفي قبر وسجلها، وكان معظمها يعود إلى عصر فجر السلالات أي حوالي ٢٧٥٠-٢٤٥٠ ق.م وكانت هناك قبور أخرى كشفت عن أدلة على الفن السرجوني مثيرة للإعجاب يعود تاريخها إلى سنة ٢٤٠٠ ق.م، وتلتها سلسلة من القبور المبنية بالآجر والمعقودة من عصر السلالات الثالث في أور.

كشفت هذه التنقيبات الرائعة بأوضح طريقة عن نقاط الضعف والقوة في وولي، إذ لم يكن بوسع شخص حي آنذاك، ولا أي شخص اليوم، أن ينهض بهذه المهمة الضخمة مع تدفق اللقى. امتلأت قاعة الآثار كلها. وكان هناك ذهب متناثر تحت أسرّتنا، ومما يدل على استتباب الأمن في العراق آنذاك ويقظة الشيخ منشد الغازي أننا لم نتعرض أبداً لهجوم أو اعتداء، إذ سرعان ما انتشرت إشاعة أن من بين الأشياء التي عثرنا عليها تمثال ـ أبي هول من الذهب الخالص.

إن الإدارة الممتازة لهذه العملية المعقدة شهادة تقدير لمهارة وولي

Twitter: @ketab_n

في التنظيم. فقد سجل كل قبر من القبور الألفين أو نحوها. وقد أنجز ذلك باستعمال الشريط والبوصلة الموشورية لغرض التأكد، وكان من المنجزات المهمة تسجيل القراءة في أثناء هبوب ريح عالية أو عاصفة رملية عندما تتحرك إبرة البوصلة مثل راقصة البالية. وكان اختيار وولي حكيماً لحدود موقع التنقيب عند النقطة التي كان فيها تحديد طبقات التربة الأكثر وضوحاً. ومن نظرة واحدة كان بوسع المشاهد هنا رؤية السلسلة المتعاقبة الكاملة من الترسبات عبر التل القائم على أرض مهملة كانت قد اتخذت مقبرةً زهاء ثلاث مئة وخمسين عاماً. أدرك وولي حقيقة أن طبقة مغلقة غطت منطقة المقبرة برمّتها وأعطت تاريخاً نهائياً لنهايتها. وبعبارة أخرى، لم يكن تاريخُ كل شيء تحت تلك الطبقة يمكن أن يكون أحدث من تاريخ آخر الأشياء التي تضمها، وكانت هذه الأشياء تتألف من طبقات أختام بأسلوب مألوف لدى علماء آثار وادي الرافدين. كان وولي، لسوء الحظ، يميل إلى تكوين أفكار مسبقة، وكان مصمماً على البرهنة على أن مكتشفاته كانت أقدم من أي أثر من هذا النوع اكتشف حتى ذلك الحين. بإصرار على إثبات أن بدايات الحضارة في وادي الرافدين كانت أقدم من بدايات الحضارة في مصر. فضّل أن يعتمد على نفسه وكان متردداً في استشارة الخبراء وبخاصة عندما وضع إطاراً زمنياً عدّه وافياً بالغرض. ولذا استنتج أن الطبقة النهائية فوق المقبرة الملكية لم تضم أشياء أحدث مما في طبقات من عصر سلالة أور الأولى التي حدد تأريخها بحوالي ٣١٠٠ ق.م ولكنه كان مخطئاً في ذلك، إذ إن بعض الأختام كانت سرجونية يعود تاريخها إلى عام ٢٤٠٠ ق.م، كما أنه أرخ الطبقة تحت قاعدة المقبرة الملكية بزمن يسبق الزمن الذي أشارت إليه الأدلة. يُضاف إلى ذلك أن طبقات الأختام التي تحتها، والتي هي أقدم من

Twitter: @ketab_n

المقبرة، ليست كما يبدو أقدم من العهد المعروف بفجر السلالات الأول. ويمكن تحديد تاريخ القبور الملكية بسهولة بين عصر فجر السلالات الثاني وعصر فجر السلالات الثالث، ومعظمها ضمن العصر الأخير. ويُعتقد الآن عموماً أن تاريخ معظم القبور الملكية يعود إلى ما بين عام ٢٧٥٠ ق.م وعام ٢٥٠٠ ق.م. وتعود معظم مقابر عامة الناس إلى قرنين بعد ذلك.

كانت مصر تسبب له المخاوف وتصرف انتباهه عن الحقيقة. ولكن لم يعد بمستطاعنا الاتفاق مع الرأي الذي ورد في كتابه «أور الكلدانيين» (ص ٨٨) حيث يقول: «عندما تبدأ الحضارة في مصر فعلاً تتسم بدايات العصر الجديد بإدخال أنماط وأفكار مستقاة من حضارة أقدم كانت، كما نعرف الآن، تتطور وتزدهر في وادي نهر الفرات منذ زمن طويل، ويمكننا أن نُرجع الكثير مما هو في جوهر الفن والفكر المصريين إلى السومريين».

كان هناك قدر واسع من التبرير لغلطة وولي الكبيرة إذاك، لأن تحديد تاريخ الأختام المبكرة كان في مهده آنذاك، وفي الحقيقة أنه كان يقدم الأدلة التي مكّنت من تأسيس الكرونولوجيا (أو تقسيم الزمن إلى فترات وتعيين التواريخ الدقيقة للأحداث) على أساس علمي. ويعود إليه الفضل دوماً في السجل التحريري والتخطيطي الذي وضع الكرونولوجيا البابلية للألف الثالث قبل الميلاد على أسس علمية. والحقيقة أن كلتا الحضارتين المصرية والسومرية تطورت عموماً بخطى متساوية، وهذا ما دلت عليه تنقيبات وولي نفسه.

كان مشهد المقبرة الملكية رائعاً عندما كنا نعمل جميعاً. وأذكر أن أحد القبور الملكية، الذي ضم ما لا يقل عن ٧٤ شخصاً دفنوا أحياء في قاع المهوى الملكي العميق، بدا عندما كشفناه سجادة ذهبية اللون

Twitter: @ketab_n

مزينة بأغطية الرأس لسيدات البلاط، متخذةً شكل أوراق شجر الزان وعليها آلات القيثار والقيثارات Harps and lyres التي عزفت الترنمية الجنائزية إلى النهاية.

أثارت مهمة اختيار أكثر الأشياء إثارة وأهمية من بين اللقى الأثرية المكتشفة في المقبرة الملكية الاستياء والحقد. ولكنني أعتقد أنه ينبغي أن يحتل مكان الشرف أول الكنوز التي اكتشفت في عام ١٩٢٦ وهو الخنجر الذهبي المشهور الذي وجد سليماً في غمده المعرش ومقبضه اللازوردي الأنيق المزين بالذهب. لم يكن هناك شيء يمكن مقارنته به. وأعلن عالم آثاري مشهور خطأً أن الخنجر لا يمكن أن يكون سومرياً، بل لا بدّ أنه صنع في عصر النهضة الإيطالي. كانت كمية اللازورد المكتشفة في المقابر كبيرة وكشفت عن تبادل تجاري مع مناجم باداكشان البعيدة الواقعة في أفغانستان حالياً. ويحتمل أن الطلب السومري على هذه الحجارة الثمينة استنفد أفضل عروق هذه المناجم، إذ لم يتأكد أبداً وجود اللازورد مرة أخرى بمثل هذه الكميات الكبيرة. كان الكثير من الأواني الذهبية، التي ظن بعض النقاد أنها بربرية، أعمالاً فنية دقيقة ورقيقة الملمس ومتوازنة القوة مثل أفضل المصنوعات الفضية من طراز الملكة آن ـ فقد كان هناك، على سبيل المثال، مصباح فضي صغير محزز بهيئة وعاء محتفظاً بشكله الأصلي وكان تحفة رائعة.

لم تكن الآلات الموسيقية ذات رؤوس الثيران والأيل أقل إثارة. وكان الصندوق المُحلّى باللازورد والصدف الذي سمّاه وولي «الراية الملكية»، في رأيي، الصندوق الصوتي لقيثارة. وكان من أبرز ما عثر عليه شَعر الملكة شبعاد (بوابي) المستعار الملفوف بشرائط ذهبية اللون، ومئات الخرز الممتازة من اللازورد والعقيق الأحمر. وربما ينبغي إعطاء مكان الصدارة للشعر المستعار المصنوع من الالكتروم

Twitter: @ketab_n

(المزيج الطبيعي من الذهب والفضة) والمطروق والمزين العائد للأمير مسيكلام دگ، وقد ثقبت الحاشيتان الجانبيتان لحمل الواقيات الجلدية والأذنين المثقوبتين للشعر المستعار. كما ينبغي ألا ننسى الحمار الوحشي الذهبي الجميل الصغير الذي كان يزين خشبة النِّير الذي عُثر عليه في إحدى العربات في القبر الرئيس. ولكن القائمة لا تنتهي. ويدل تنويع الأشياء التي عثر عليها وكميتها على وجود صلات تجارية نشيطة مع الأناضول وإيران لا سيما سوسيانا وعيلام. واتضح مؤخراً أن بعض الأواني الحجرية ربما استُورد من مناطق بعيدة مثل منطقة كرمان في جنوب وسط إيران. وكانت حرية الحركة والتشعب الواسع للتجارة في هذه الفترة، أي في عهد فجر السلالات الثالث، ذات نطاق واسع وتطورت تدريجياً عبر القرون.

شهدت المقبرة الملكية تطورات معمارية مهمة أيضاً، كما يدل على ذلك البناء المعقود والقبر المقبب لأميرة، وفيها كانت القبة محمولة، ربما أول مرة، على معلقات بدائية. لقد أسهم وولي أكثر من أي شخص آخر في خدمة تاريخ عصر فجر السلالات وآثاره.

لدى اكتشاف المقبرة الملكية عرف العالم أول مرة بالممارسة السومرية غير الاعتيادية المنطوية على التضحية بالبشر: فقد دفن أفراد كثيرون من الحاشية لمرافقة الحاكم المتوفى، وهي أقرب ممارسة إلى السوتية الهندية. ولكن سرعان ما نُبذ هذا التقليد الباهظ التكاليف والتبذير الذي خلد إلى الأبد كنوزاً كثيرة تحت الأرض، لأنه كان غير اقتصادي بلا ريب، إذ ينطوي على التضحية بالنساء اللواتي كن الضحايا أساساً، وعلى تبديد الثروة المنقولة. وكان في بلاد بابل إحياء أدبي لهذا التقليد القديم بعد فترة طويلة من انقراض هذا النوع من الدفن، إذ لدينا قطعة من مرثية جنائزية لموت جلجامش، الملك

Twitter: @ketab_n

الأسطوري الذي يقول نص مسماري أن أتباعه رافقوه إلى العالم السفلي وهم «أولئك الذين يرقدون معه جميعاً» على ما جاء في النص.

هيمنت الزقورة أو برج المعبد المدرج على السهل المحيط بأور، كما هي الحال منذ تشييد أور حوالي عام ٢١٠٠ ق.م. كان ارتفاعها الأصلي يبلغ زهاء سبعين قدماً. ولا توجد زقورة أخرى تقارن بها في بلاد الرافدين كلها، بسبب اللون الأحمر القاني والتكوين الذي لا يضاهى للبناء بالآجر وبسبب الترتيب المستنبط ببراعة للمبنى كله بسلالمه الثلاثة المؤلف كل منها من مئة درجة. كانت الزقورة إبّان التنقيب فيها أثراً رائعاً بشكلها المهيب الضخم والانحناء اللطيف لواجهاتها. لا يوجد خط مستقيم واحد في البناء. ولكن أصابه الآن بعض التلف ولم تُنفّذ إعادة تعميره بنجاح.

ختمت كل آجرة من الآجر المفخور الذي شيّد به هذا الصرح الفخم باسم أور ـ نمو، مؤسس سلالة أور الثالثة، الذي عمّر أور وجعلها عاصمة سومر، وبذلك حوّل المدينة القديمة المشيدة بالآجر غير المفخور إلى مدينة مشيدة بالآجر المفخور، مثلما حوّل أوغسطوس مدينة روما من الآجر إلى الرخام.

كان البرج الذي يتكون من ثلاث طبقات متوجاً في القمة بمعبد صغير كان يشهد إقامة مراسيم غامضة. وذكرت التقاليد، حتى في عهد هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد، أن قمة زقورة بابل ضمّت معبد الإله وأريكة كان الملك الذي يمثل الإله يضاجع عليها الإلهة، وهكذا كان يخصب البلاد فيما يعتقد. وكان هذا التقليد نفسه موجوداً في عهد سلالة أور الثالثة، إذ توجد أدلة على مراسيم الزواج المقدس، فقد كان الملك، بعد مراسيم مهيبة تليها مأدبة، يتمتع بمضاجعة ممثلة للإلهة تعرف بالكاهنة «آن» en، وكانت هذه أحياناً ابنة الملك وأحياناً

Twitter: @ketab_n

شقيقته. وكانت تنشد تراتيل لتخيلات فجة تمجد الفرح في هذه المناسبات.

اعتلى أور ـ نمو العرش عام ٢١٥٠ ق.م[١] وحكم ثمانية عشر عاماً وطد فيها سلطان الإمبراطورية السومرية ضمن حدود الحوض الأسفل لنهري الفرات ودجلة. ولغرض الدفاع عن المدينة بنى متراساً ضخماً سمكه سبعون قدماً على مساحة تبلغ ثلاثة أرباع الميل طولاً ونصف الميل عرضاً.

إلا أن إنجازه الدائم كان تأسيس الإدارة على قواعد سليمة ولا سيما شقّ شبكة من القنوات كانت تروي مدنه والمدن الأخرى التي أصبحت تحت سيطرته. كان تأثير هذا الري يتمثل بلا شك في تحسين نوعية المحاصيل، بما فيها الكتان الذي كانت تعتمد عليه العائلة الملكية وخَدمها.

لم يبز سجلّ أي مكان آخر سجلَّ التنقيبات طوال اثني عشر عاماً في أور من حيث إنه مساهمة في المعرفة الآثارية والمعمارية عن إحدى المدن العظيمة في بلاد سومر وبابل، وعُزِّز هذا السجل بثروة من الوثائق التاريخية التي تجعل الصروح القديمة تتحدث عن نفسها عالياً وجلياً وتُحول الاكتشافات الاعتيادية إلى اكتشافات مثيرة.

وهكذا نعرف أن شولگي، ابن مشيد الزقورة، الذي حكم ثمانية وأربعين عاماً زخرف برج والده، وكان موسيقياً يعزف على ثماني آلات من بينها قيثارة ذات ثلاثين وتراً تحمل اسماً يوحي بمعناه هو أور ـ زبابا. وطوال السنوات الثماني والعشرين الأولى من حكم هذا

---

(١) جاء في كتاب «مقدمة في تاريخ الحضارات ١/ ٣٨٠» للعلامة طه باقر أن أور ـ نمو حكم ما بين (٢١١٢-٢٠٩٥ ق.م). (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الملك الموسيقار لا يوجد سجل يشير إلى قيامه بأي شيء، ولكنه أشرف على إدارة عالية الكفاءة، ويبدو أنه، في نهاية المطاف، قلص الوقت الذي كرسه للموسيقى، وأصبح حاكماً قوياً جداً امتد سلطانه إلى أبعد من أور حتى داخل إيران. وربما يمكن مقارنته بپادرفسكي[٢]، الذي بدأ حياته عازفاً بارعاً على البيانو، ثم أصبح رئيساً للوزراء في بلاده.

أسس شولگي الموازين والمقاييس الملكية، نعلم ذلك من بطة وزن منقوشة رائعة تزن حوالي أربعة أرطال عُثر عليها قرب الزقورة. وزخرف المعابد في أور ومدن أخرى، ونعلم من أحد النقوش أنه «أولى عناية كبيرة لمدينة أريدو التي تقع على ساحل البحر». ونظراً إلى أن أريدو كانت مدينة مجاورة لأور فإن هذا يرينا، على ما نستطيع الاستنتاج من المشاهدات الجغرافية، أن أور لم تكن آنذاك قريبة من النهر فحسب، بل على حافة سلسلة من المستنقعات التي كانت تربطها مباشرة بالخليج على بعد مئة وخمسين ميلاً، وهي حالة مكّنت أور ـ نمو من إعادة صلات تجارة بحرية قديمة مع الجنوب.

كان ثالث ملك في السلالة نفسها بورسين الذي زيّن المدينة وحسّنها خلال فترة حكمه التي دامت تسع سنوات. واشتهر بتشييد معبد سمي أپسو في مدينة أريدو المجاورة ويعتقد أنه مات لإصابة قدمه بتعفن عندما وطئ الرمل الذي كان يكثر في ذلك الموقع، إذ لا ريب أنه أشرف شخصياً على تشييد معبده الجديد.

---

(٢) اكناسي يان بادرفسكي (١٨٦٠-١٩٤١) عازف بيانو بولندي ومؤلف موسيقي وسياسي اختير رئيساً لوزراء جمهورية بولندا المستقلة الجديدة بعد الحرب (١٩١٩-١٩٢٠). (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كانت مدينة أريدو المقدسة، استناداً إلى السومريين، أول مدينة شيّدت بعد الطوفان، وكانت ذات قدسية عالية ومنظر لا ينسى حين ينظر إليها من أور عند الفجر أو عقب الشروق بقليل وهي تومض في السراب على بعد اثني عشر ميلاً. ثم تبدو الزقورة وهي ركام خرب متخذةً شكل برج مدرج ومنتصبة بهالة من الغموض في ضياء الفجر الواهن، وقد بعثت الحياة في مبناها بشكل مثير من خلال طبقة رقيقة من لعاب الشمس(٣).

بعد أن عمّر بور ـ سين مدينة أريدو خلِفه ملكان آخران أخذا يكتشفان أن فتوحات أسلافهما كانت أوسع من أن يستطيعا الاحتفاظ بها. والدليل على أن أور واجهت متاعب كشفت عنه حقيقة أن أياً من الملكين لم يقدّم أية مساهمة مهمة في تعمير المدينة.

لم يشهد تاريخ أور وصروحها فترة أروع وأكثر إثارة في حياتها الطويلة مما شهده نهوض السلالة الثالثة وسقوطها. وكرّست بعض الصروح والتماثيل البارزة في ذلك العصر لإلهَي المدينة وهما: نانا إله القمر وزوجته نينكال التي تعرف بالسيدة العظيمة، فقد كانا الإلهين الرئيسين لأور وكان ذلك مناسباً لأن القمر كان يضيء بوضوح رائع في تلك المناخات. هنا عثرنا على أكثر آثار الحرق ووجدنا في الرماد والقطع المحترقة للتماثيل التي حطمها العيلاميون القساة: كانت النهاية المفجعة للسلالة واضحةً بجلاء.

في أسفل الطبقات العالية المشيدة بالآجر أتذكر الاكتشاف المثير بين الأنقاض، لتمثال الإلهة باو جالسة على عرش وعلى جانبيها الأوز. وأعتقد أنها كانت الإلهة الحامية للفلاحين الذين بلغ حظهم

(٣) غشاء رقيق من نسيج العناكب الصغيرة يطفو في الهواء الساكن. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الدرك الأسفل من الحضيض، إذ كانت إلهتهم الحامية راقدةً على وجهها في مصلى جانبي في المعبد حيث رُكن الحاكة وغرف الكتبة والكهنة وغرف السكن والمطابخ الواسعة أصبحت الآن مهجورة وبائسة.

كشفت الآثار التي نقّبنا فيها في أور، ولا سيما في البيوت الخاصة التي اختيرت بعناية في المدينة، عن الأنشطة اليومية لسكان المدينة. وكان أفضل تلك البيوت حالاً تلك التي شُيّدت في القرون التي أعقبت سلالة أور الثالثة، أي بين عامي ٢٠٠٠ و١٤٠٠ ق.م، أو بعد ذلك بقليل. وكُشف باستمرار عن قوة التقاليد والتمسك الشديد بالأرض والممتلكات لدى أصحابها. والواقع أنه بسبب حقوق الملاك التي لم يتنازلوا عنها أبداً حتى العهد البابلي الجديد بعد عام ٦٠٠ ق.م لم يكن بالمستطاع إنجاز سوى القليل من التخطيط المديني، وكان الوصول إلى البيوت من خلال شبكة من الشوارع الملتوية.

أتذكر أنني نظرت مرة إلى موقع أحد الدور حيث كنا نحتفظ بتحديد الطبقات على عمق بلغ حوالي عشرين قدماً. شاهدت في زاوية الدار مذبحاً صغيراً معلقاً على عمود من التراب محتفظاً بموقعه نفسه فترة زادت على ستة قرون. لم يكن أحد قد جرؤ على تغيير وضع مائدة القرابين المشيدة من الآجر والمكرسة للإله. إضافة إلى ذلك كان هناك مصلى عام يقع عند مفترق الطرق خصص لعابري السبيل. عثرنا فيه على تمثال صدئ لإلهة تقف على قاعدة من الآجر، وعلى صندوق صغير يضم تماثيل نحاسية صغيرة. وكانت البوابة المصنوعة من الأغصان المجدولة ما تزال مفتوحة في المدخل، وكان أثر الطلي الأول لها ما زال على الطين مما جعلنا نستطيع تدوين تفاصيل صنعها.

Twitter: @ketab_n

كان هذا الحي السكني، على حد قول وولي الذي كان مولعاً به، هو الحي الذي لا بدّ أن رب العائلة إبراهيم كان يعيش فيه عندما هاجر من أور إلى حران مدينة عبادة القمر، على مسافة بعيدة نحو الشمال، على حدود آسيا الصغرى وسوريا. لم نعثر على أي أثر لإبراهيم نفسه الذي كان شيخاً ثرياً من سكان أور، لكنه لم يكن شخصاً فريد الأهمية. في هذا العصر الذي أصبح فيه الإنجيل كتاباً أدبياً مهملاً يصعب تصور مدى أهمية ما كشف عنه الكتاب المقدس في أذهان الناس، وفي الحقيقة إن هذا العمل قاد جزئياً إلى التنقيبات في أور. كان وولي نفسه ابن قس بروتستانتي ورُبّي وفقاً لتعاليم الكتاب المقدس. وكانت له ذاكرة قوية في العهد القديم والعهد الجديد. وذات مرة ظن الخبير في النقوش الذي كان يعمل معنا (خطأً) أنه قرأ اسم إبراهيم على لوح طين منقوش. وتسرعت بالكتابة إلى صديق في إنجلترا وذكرت الاكتشاف. وعندما علم وولي أنني فعلت ذلك وبّخني بشدة وجعلني أبعث ببرقية ألتمس فيها من صديقي التزام الصمت حتى يحين وقت إعلان النبأ، غير أن ذلك الوقت لم يحن أبداً!

كان النوع النموذجي من البيوت في أور في الفترة من عام ٢٠٠٠ ق.م إلى عام ١٤٠٠ ق.م متين التشييد. وكانت الأعمدة تسند كل شرفة وكان في كل فناء أربعة أعمدة، مصنوعة من الخشب بلا ريب، وكانت الأعمدة تستند أحياناً إلى درجة أو قاعدة. وكان بجانب الباب الأمامي، الذي يُفتح مباشرة على الشارع، مأوى البواب، وكان السلم بالقرب منه، وكان جزء منه من الآجر وجزء من الخشب. وكان الترتيب الذي يفضي بموجبه دخول الدار إلى الفناء المفتوح المربع الشكل يرتبط مباشرة باقتصاد المدينة السومرية القديمة والمدينة البابلية التي جاءت بعدها، إذ كان يجب نقل البضائع كلها

Twitter: @ketab_n

على ظهور حيوانات الحمل، وهي الحمير أو الحمير الوحشية، أو البغال أو حتى الثيران. ثم كانت الأكياس تفرغ وتوضع في الفناء استعداداً لتوزيعها في أماكن أخرى أو في البيت نفسه. ولما كان إبراهيم يعيش حياة مدينية فقد كانت تلك هي الطريقة التي نُظِّمت بها. وقبل خمسين عاماً، عندما كنت أعمل في أور، كانت معظم الدور في بغداد مشيدةً وفق خريطة مشابهة للخريطة التي يعود تاريخها إلى قبل ما يزيد على أربعة آلاف عام ولم تُنبذ بدخول السيارة التي جعلت حيوانات الحَمْلِ عديمة الجدوى.

كان وولي مخرجاً استعراضياً لا يضاهى، ورجل علم يتمتع بخيال خصب كان يستحوذ عليه أحياناً، ولكنه عموماً لم يبالغ في الانحراف عن الأرجحية. ويكون في أوجه عندما يصبح دليلاً لزوار أور عبر المساكن. كان يطوف بهم خلال الأزقة الضيقة ويطرق الباب الأمامي، وغالباً ما يعرف اسم صاحب الدار بفضل الألواح كأن يكون تاجراً أو بائع قماش أو جوهرياً أو معلماً، ويعرف إن كان صاحب الدار قد فشل أو نجح في عمله التجاري، إذ يكون أحياناً قد تجاوز على ممتلكات جار له وأحياناً يستولي جار له على ممتلكاته.

لم تفعل مشاهدات وولي شيئاً واستوعب خياله كل شيء. كان يقول على سبيل المثال: «هذا هو بيت مدير المدرسة. انتبه إلى الدرجة السفلى فهي عالية بشكل غير عملي. كانت هناك درجة خشبية أمامها، ولكن تحطمت قبل زمن طويل. كان على صاحب المنزل الوصول إلى أقصى ارتفاع ممكن قبل استدارة السلم الذي كان فوق المرحاض خلفكم، وهكذا كان بوسعه تجنب ارتطام رأسه بالسقف». وكان يقول أيضاً: «ألقوا نظرة على السقف» وعندما نتطلع إلى السماء الخالية كان يضيف: «أعلم أنكم لا تستطيعون مشاهدة السماء، بيد أننا

Twitter: @ketab_n

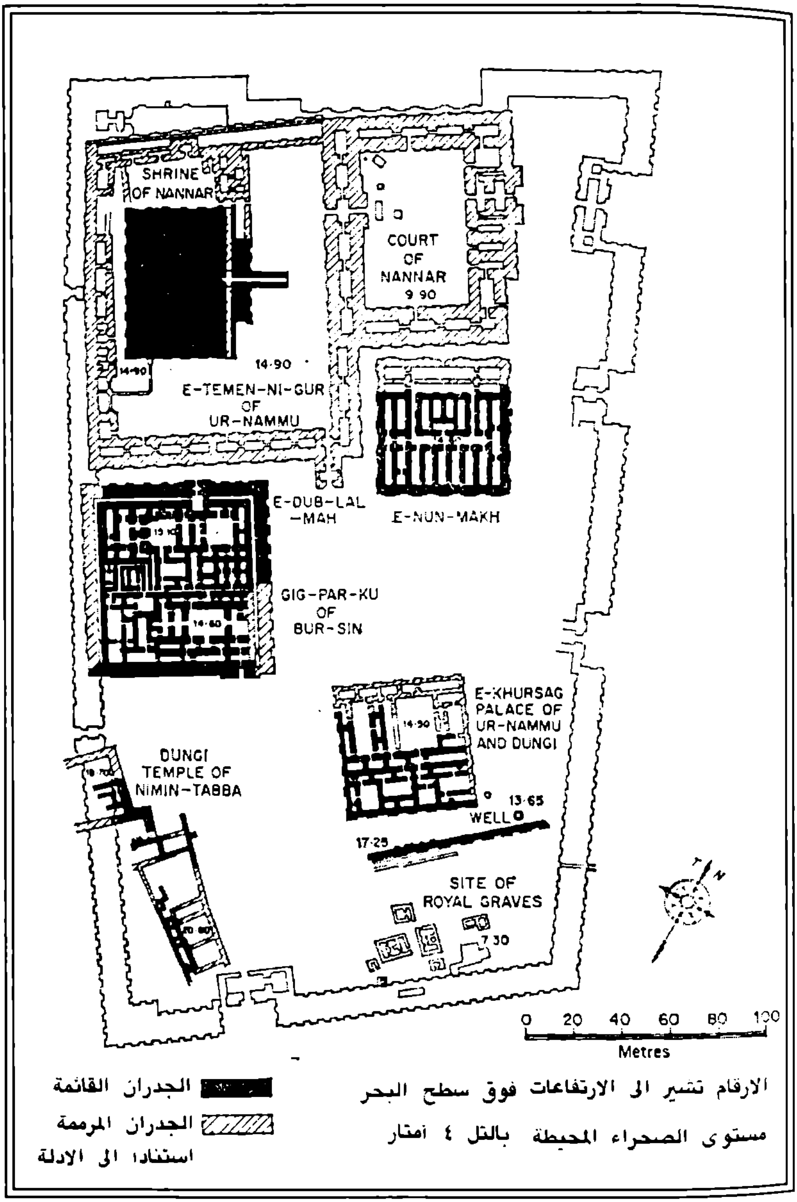

ايكيش شركال: عصر السلالة الثالثة حوالي عام ٢١٠٠ ق.م.

Twitter: @ketab_n

نعرف كل شيء مهم عنها. إن الأدلة عليها هي على الأرض أمامكم» مشيراً إلى القاعدة المبنية بالآجر لعمود خشبي مختفٍ هو واحد من أربعة أعمدة لا بدّ أنها كانت تستعمل لدعم شرفة عرضها ثلاثة أقدام تسمح للمطر بالسقوط في حوض مربع وسط الفناء. ثم يشير وولي إلى المكان الوحيد الممكن للميازيب ويشرح كيف أن افريزاً مائلاً مرفوعاً كان يمر على طول المنحدرات بين الميازيب. وهكذا كان يمضي في الوصف ونحن نمر من خلال السوق وعبر أفران الخبز الكبيرة في «ساحة الخبازين» أمام مسكن بائع القماش، والمصلى عند مفترق الطرق والخان ذي الطوابق الثلاثة.

كانت تلك جولة مبهجة. وإذا كان الدليل يمسك بيدنا ويقودنا بلطف في ممر الحديقة نحس أن الممر قائم فعلاً. وعلى الرغم من أن حلول وولي لم تكن صحيحة دائماً، فقد خدم تقدم العلم خدمة عظيمة بحثِّنا على إعادة تمحيص الأدلة، ويستفيد الكثيرون من الآثاريين غير الناجحين من هذه النصيحة.

إلا أن وولي لم يكد يدرك في وقت التنقيبات أن سيلاً من الأدلة التاريخية والاقتصادية كان يجري نتيجة اكتشافاته في تلك البيوت، إذ استغرق فكّ رموز محتويات الألواح الطينية التي عثر عليها في البيوت واستيعابها سنوات عديدة. وقد كشف عن الكثير من ذلك أول مرة أ.ل. أوبنهايم في بحث ممتع بعنوان: «تجار أور رواد البحار» ولا سيما تاجر اسمه أبا ناصر كان في حوالي عام ١٩٠٠ ق.م يتاجر بالملابس والفضة والصوف والزيوت العطرية والجلود مقابل كميات كبيرة من النحاس والعاج والخرز والأحجار شبه الكريمة والبصل. وكثيراً ما كانت سُبَح العقيق الأحمر المحفورة، وهي ربما من أصل هندي، تظهر في أور ومدن أخرى في بلاد بابل. يُضاف إلى ذلك أنه

Twitter: @ketab_n

كانت هناك حلية مرغوبة جداً بشكل طير يطلق عليها طير الملوخا ربما كانت تمثل الطاووس ويحتمل أن مصدرها ما يعرف الآن بشرقي بلوجستان. ونعرف الآن الكثير عن هذه التجارة في هذه الفترة والفترات اللاحقة، وكانت اكتشافات وولي من أهم المساهمات في معرفتنا بها. وكانت الأقطار المعنية بالتجارة مع سومر منذ الألف الثاني ق.م وطوال ستة قرون أخرى أو نحوها تعرف باسم «مگان» و«ملوخا». ويغطي الاسمان منطقة واسعة من جنوب إيران[٤] وفي نهاية الأمر توسعت التجارة من خلال «ملوخا» إلى تخوم الهند كما يدل على ذلك أيضاً اكتشاف أختام هندية الطراز في أور وفي الخليج. وتعمل بعثة فرنسية الآن بتأثير اكتشافات وولي في مدينة لارسا المجاورة، حيث يتوقع أن يُعثر ذات يوم على أرشيف آخر نظير لما عثر عليه في أور. ولا بدّ من الإشارة أيضاً إلى أن الوثائق الأدبية والملحمية والدينية والتاريخية التي عثر عليها وولي في أور قد عُزِّزت بآلاف النصوص التجارية التي يتعلق الكثير منها بأنشطة أقدم بكثير من التجارة التي وصفناها، واكتشفت هذه النصوص في عدة مبان بما فيها معبد إلهة القمر نينكال.

تتطابق سلاسل الاكتشافات في المساكن مع تقلبات مصائر أور منذ حوالي عام ٢١٥٠ ق.م وطوال ألف عام. نشهد هنا آخر السلالات السومرية وظهور النظام السياسي السامي في ظل مدينتي ايسن ولارسا، وتلا ذلك القبول غير المستقر لسلالة حمورابي في

---

(٤) هذا التشخيص لموقع «مگان» و«ملوخا» غير دقيق، لأن «مگان» هي عمان الحالية وتطلق «ملوخا» على الأجزاء الشرقية من الهند ولا سيما وادي السند كما جاء في «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ١/ ٣١». (المترجم).

Twitter: @ketab_n

بابل. كان الجنوبيون المتحدرون من السومريين أعداء طبيعيين للبابليين، وبعد فترة قصيرة من الهيمنة الشمالية الجديدة، اضطر سمسو ـ أيلونا، أحد الملوك الذي خلفوا حمورابي، إلى هدم أسوار مدينة أور التي كانت قد شيّدت في عهد أور ـ نمو حوالي عام ٢١١٠ ق.م. وهكذا أفل نجم العاصمة أور التي كانت تفخر بنفسها واستمر ذلك عدة قرون وخضعت لنظام الكشيين السياسي وهم سلالة من أصل إيراني.

حقق إحياء أور عاهلٌ اسمه كوريكالزو (١٤٠٧-١٣٨٩ ق.م) الذي تظهر أعماله العمرانية الواسعة في أنحاء المدينة، ولا سيما في المبنى المسمى المنصة العالية، وكان مقوساً ويحتمل جداً أنه يضم قبة. وقد أُعلن في وقت ما أن القوس الحر، وهو مشهد يبعث على الإعجاب، يُعدّ أقدم قوس في العالم. ولكن ذلك لم يعد صحيحاً منذ زمن طويل. ولا شك في أن كوريكالزو، الذي يؤمّ الزوار كافة عاصمته في عقرقوف قرب بغداد بسبب زقورتها، قد زين أور لأسباب سياسية ودينية ليست لها علاقة بالمنافع الاقتصادية.

وبقيت أور، وإن كانت مهدمة عموماً، تذكاراً لعاصمة دينية سومرية عظيمة في زمن ما وأراد الملك الكشي من تجديدها اكتساب سمعة لأنه كان يهدّئ آلهتها القدامى ورجال الدين فيها. ولم يزعم أنه شيّد بناءً جديداً، وكانت الصيغةِ المألوفة «جدّد ما كان مخرباً منذ القدم، وعمّر أسسه»، وكانت تقوى سياسية.

كانت جهود هذا العاهل واضحة أينما بنى. وكثيراً ما كان الآجر الذي استعمله ذا تركيب رملي رديء، يميل لونه إلى الخضرة بسبب نقص الإحراق. ولكننا يجب ألا نبخس جهوده، إذ إنه شيّد أركان مجتمع متداع. وكان الركود واضحاً من قلّة النصوص التجارية.

Twitter: @ketab_n

إن هؤلاء الكشيين الأفظاظ شعب يثير الاهتمام وتبنوا موقفاً جديداً في بلاد بابل. فقد مالوا إلى توكيد الحقوق الإقليمية كافة، ونحتوا صخور حدود ضخمة تحمل رموزاً جديدة للآلهة وزينوا مبانيهم بآجر يحمل نقوشاً بارزة بشكل تصاميم هندسية. وزينوا مدينة الوركاء المجاورة بأفريز فريد يبين اتكال الكشيين على الآلهة التي زودت المدينة بالمياه.

أدخلوا نوعاً من النحت الذي يشبه نحت الأقنعة بملامح قوية كانت الواقعية فيها ثانوية، في الصخور وفي الزخارف، ونوعاً من الأختام الأسطوانية المنقوشة بكاملها والمحفورة حفراً جميلاً. كانوا يجيدون الاشتغال بالمعادن ولا سيما صياغة الذهب والحلي، وبرعوا في التزجيج. وقد كرّس وولي كتاباً كاملاً لأعمالهم في أور.

دخلت بلاد بابل عصراً مظلماً بعد انهيار حكم الكشيين. لقد أبقوا شعلة الحضارة متقدة، ولو بضعف، طوال ما يزيد على أربعة قرون. وترك ثلاثة ملوك بابليين غير معروفين جيداً سجلات تدل على أنشطتهم العمرانية عندما أفل نجم أور في القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد، واتفق بعث مدينة أور بعدئذٍ مع اعتلاء ملكين بارزين العرش في بابل التي لم تفقد سمعتها الدينية رغم تدهور وضعها الاقتصادي.

غيّر عاهل عظيم هو نبوخذنصر الثاني (٦٠٥-٥٦١ ق.م) مسيرة التاريخ البابلي وترك تأثيراً مهماً في أور. فقد صنع في أنحاء بلاد بابل كلها الآلاف من قطع الآجر المفخور، المختوم بعناية باسمه وألقابه. كان بسبب شغفه بالدعاية بيفر بروك[٥] زمانه، إذ إنه فهم جيداً فنّ

---

(٥) ويليام ماكسويل ايتكن بيفر بروك (١٨٧٩-١٩٦٤) مليونير كندي المولد أمتلك عدة صحف وسياسي وناشر صحيفة ديلي اكسبريس البريطانية، وأصبح

Twitter: @ketab_n

الدعاية. يتمثل إنجازه في أنه جنى ثمار النصر الكبير الذي حققه أبوه نبوپولاصر الذي أخضع، بالتحالف مع الميديين، مدينة نينوى والعواصم الآشورية الكبرى كلها بما فيها نمرود ـ كالح. ثم حوّل نبوخذنصر اهتمامه إلى المصريين، وكانوا يمثلون قوة أجنبية أخرى كان ينبغي طردهم من بلادهم، وقد استطاع تحقيق ذلك في معركة قرقميش على نهر الفرات الأعلى عام ٦٠٥ ق.م. ويعود الفضل إلى وولي أيضاً في أنه نقب في موقع قرقميش نفسه وتتبع في موقع أحد المساكن أدلة حاسمة على ذلك النصر البابلي العظيم. ومضى نبوخذنصر ليجعل نفسه سيداً على فينيقيا وسوريا. ثم سيطرت بابل على الغرب. وعمل على جعل هذه الفتوحات معروفة في أنحاء بلاد بابل. وعثر وولي على أكثر آثار أعمال نبوخذنصر في أور.

وإضافة إلى تعمير الزقورة أعاد نبوخذنصر تشييد السور المقدس تيمينوس في قلب المدينة، وكان في منطقة محاطة بالأسوار السميكة المشيدة بالآجر غير المفخور وذات حجرات بين الجدران تبلغ مساحة الواحدة ٤٠٠×٢٠٠ ياردة وتقطعها بوابات قوية. كانت تلك تركة مخرج مسرحي له تقدير مناسب لمؤسسة مهيبة.

أدخل نبوخذنصر أيضاً تجديداً في أور بتحوير معبد قديم يحمل اسم أينونما. وكان المذبح العالي في الأصل منفصلاً ومخفياً في ضريح بالجزء الأعمق. فأقام مذبحاً أو قاعدة تمثال بحيث يراه الناس، وهكذا غيّرت عقيدة كانت مقصورة على فئة قليلة. استوعب وولي، باطلاعه على العهد القديم، النقطة بسرعة ووفق بين هذا النوع الجديد

أول وزير للإعلام في بريطانيا عام ١٩١٨ وعُيِّن وزيراً لإنتاج الطائرات عام ١٩٤٠. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

من العبادة وما ورد في كتاب دانيال أن اليهود مثل سكان بابل جميعاً أمروا بالانحناء لـ «الصورة الذهبية» وعبادتها. كان اختياراً بين الوثنية والموت. وهكذا أكد هذا الاكتشاف في أور ما ورد في الإنجيل من حيث إنه يوثق الممارسة الدينية الجديدة في بابل.

بعد موت نبوخذنصر تعاقب ثلاثة ملوك في العصر البابلي الحديث لم يكونوا ذوي أهمية ولم يستمر حكمهم سوى ستة أعوام.

كان أحد أبرز الملوك بعدهم وآخر من حكم في بابل نبونيدس (نبونهيد) (٥٥٥-٥٣٨ ق.م). ويتضح من التنقيبات اهتمامه الشديد بأور والرعاية التي أسبغها عليها ولم يكن ذلك مفاجئاً، لأن أمه كانت كبيرة الكاهنات في مدينة حران الشمالية التي تعبد القمر وكانت امرأة مبجلة متقدمة في السن شيعت إلى مثواها بمظاهر الحب والتبجيل وهي في سن الرابعة بعد المئة. وليس غريباً أن يُرسِّم نبونيدس، الكريم المحتد، ابنته كبيرة لكاهنات أور في معبد قريب من الزقورة اسمه اكيكپار. ويحتمل أن صندوقاً عاجياً من الطراز الفينيقي يصور صفاً من الفتيات يمسك بعضهن بأيدي بعض كان ملكاً لها، ولا بدّ أن مصدره صور أو صيدا.

إلا أن أبرز اكتشاف في المقر الرسمي لهذه السيدة كان غرفة تضم أقراصاً من الطين هي تمارين للتلاميذ ثبت عليها أنها لصف الأولاد. وفي غرفة ثانية مجاورة للغرفة الأولى عثر على مجموعة من الآثار أقدم بألف وأربع مئة سنة من زمن ابنة نبونيدس، وعلى نصوص قديمة وتمثال من الصخر البركاني المعروف بالديوريت لشولگي، الملك الثاني في سلالة أور الثالثة، وعثر إضافة إلى ذلك على قطعة طينية بشكل طبل نقش عليه جزئياً باللغة السومرية، وكانت لغة منقرضة منذ زمن طويل، وجزئياً أيضاً باللغة البابلية الحية، وكانت بطاقة متحف

Twitter: @ketab_n

تذكر أن آجر ملك آخر هو بورسين قد استنسخ من آجر عُثر عليه في خرائب أور، وهو ما اكتشفه الحاكم بينما كان يبحث عن المخطط الأرضي للمعبد «الذي رأيته ودوّنته ليعجب به الناظرون». كانت النسخ مليئة بالأخطاء ولكنها كانت سجل عمل آثاري فعلي وتنقيبات في أور قبل تنقيبات وولي بحوالي ٢٥٠٠ سنة. كان هذا التبجيل لآثار العصور القديمة في زمن آخر ملوك بابل دليلاً غير مباشر، كما أكد وولي، على عراقة حرفة التنقيب عن الآثار، إلا أنني أعتقد أن التبجيل كان مشبعاً بالسحر الذي كان يبجل الماضي ويخشاه. وكان هناك خطر من العبث بالصروح القديمة، وخصوصاً محوها، وقد عبّرت أنشطة نيونيدس وابنته، وإن لم تكن الأولى من نوعها، عن وعي بأن من الحكمة والأهمية التاريخية تبجيل مخلفات العصور القديمة.

كانت أور مدينة تعج بأشباح الماضي وكان من الحصافة استرضاؤها، إلا أن نبونيدس ترك تأثيره الرئيس وسجله في الزقورة التي كانت فيما يبدو بحاجة ماسة إلى الترميم والصيانة عندما سيطر على أور. كانت طبقات الزقورة الثلاث ملوّنة بالأسود والأحمر والأزرق، إذ كانت القمة في الأزمنة البابلية الحديثة متوجة بضريح من الآجر المزجج بلون السماء، يحتمل أنه كانت تعلوها قبة كان وولي يتصورها ذهبية مثل القبة في روضة كربلاء. وكانت هناك حتماً أهمية سحرية للألوان التي ربما مثلت العالم السفلي والأرض والسماء، أو السماء وفق مفاهيم سومرية محددة. وكان وولي أيضاً يحب ربط السلالم الثلاثية التي يتألف كل واحد منها من مئة درجة بحلم يعقوب حيث ورد في سِفْر التكوين أنه رأى سلّماً وكانت الملائكة تصعد عليه إلى السماء وتنزل منه. وكان في أحد وجوه الزقورة أثر مثير للاهتمام من الجهد الممتاز الذي بذل في أور قبل زمن طويل من وصول وولي

Twitter: @ketab_n

إليها. وبوسعنا مشاهدة آثار نفق كبير كان تيلر، القنصل البريطاني في البصرة، قد حفره عام ١٨٥٤ لأنه توهم أن هذا الصرح الكبير كان قبراً لأحد الملوك مثل أهرامات مصر.

ارتبطت بنايتان مهمتان أخريان باسم نبونيدس نقب فيهما وولي نفسه وتستحقان الذكر. وإحدى البنايتين هي «معبد المرفأ» ويحتمل أنها كانت تتاخم قناةً، وهي مثال ممتاز لفن العمارة في العصر البابلي الحديث، وكانت ذات أسس عميقة بسبب الرطوبة، وبقيت بكاملها إلى ارتفاع حوالي اثني عشر قدماً. وضع وولي سقفاً على البناية وكان بوسع زائر أور أن يدخل حجراتها المظلمة ويجد نفسه أمام الإله القمر.

كلّفني وولي في موسمي الثاني بالتنقيب في قصر واسع مجاور للمعبد، مما جعلني أفخر بالمخطط الذي يحمل اسمي واسم صديقي وزميلي القديم المهندس المعماري أ.س. ويتبيرن الذي ساعدني في مهمة كانت صعبة على مبتدئ. ما أعتقده آنذاك أن هذا المبنى الواسع كان مقر إقامة كبيرة الكاهنات، ابنة الملك، وكان وولي كريماً ولم يخالفني الرأي ولو أن الفكرة تبدو أقل قبولاً الآن لوجود دير في اكيكپار، الذي سبق ذكره، ليس بعيداً عن الزقورة. ولذا، ربما كان أحد الأجنحة مخصصاً لها لوجود ثلاث وحدات كاملة ومستقلة داخله ومنها وحدة ملائمة لمجموعة نساء. يتسم الطراز المعماري بخصائص فريدة تقتصر على العصر البابلي الحديث ولا سيما الجدران التي يبلغ طولها حوالي مئة قدم من الآجر غير المفخور يتخلله ما لا يقل عن ٩٨ دعامة تقطع رتابة الواجهة وتلقي ظلالاً طويلة في الوقت المناسب من النهار.

شجع على الاستخدام المسرف للأرض في ذلك الحين الانقطاع

Twitter: @ketab_n

الطويل في تاريخ المدينة حيث هجرت مبان كثيرة. وهكذا كانت الأرض متيسرة لمشاريع عمرانية جديدة ونجد في هذه الفترة مساكن أكبر مساحة من أية مساكن شهدتها المدينة قبل ذلك. ولا بدّ أن تلك المباني الواسعة شيّدت بسرعة، فهي تذكرنا بالقصور الواسعة التي شيّدت بالجص بسرعة مماثلة في سامراء حوالي عام ١٠٠٠ بعد الميلاد(٦) عندما قرر أحد الخلفاء العباسيين نقل عاصمته من بغداد إلى موقع أكثر أمناً.

هكذا ترتبط مدينة أور ببصمات الملوك الذين تركوا أنصاباً تذكارية شخصية تدل على حقبة جديدة ومهمة في حياة المدينة.

عندما استولى كورش (٥٥٨-٥٢٩ ق.م) على بابل أنهى حكم نبونيدس آخر ملوك العصر البابلي الحديث.

وبعد انتهاء حكم نبونيدس تدهورت المدينة سريعاً باستثناء بعض آثار الاحتلال اليوناني. كان السبب الحقيقي للانحطاط الاقتصادي التام هو خراب مشاريع الري والقناة الجديدة الذي طغى عليها الفرات الذي كان يغسل أسوار المدينة وتحول الآن إلى مجرى جديد.

يجري النهر حالياً على بُعد حوالي عشرة أميال شرق أور. و«أصبحت المدينة التي كانت مأهولة بالسكان ركاماً ونُسي اسمها. وبنت البوم أعشاشها في ثقوب الزقورة ووجد أبناء آوى فيها مخابئ لهم» على حد قول وولي.

طبيعي أن الأعمال المتعلقة باكتشافاتنا في أور لم تقتصر على الموقع نفسه. ففي كل عام، خلال الشهور التي كنا نقضيها في

---

(٦) الصحيح أن المعتصم شيّد عاصمته سامراء عام ٨٣٦ للميلاد الموافق عام ٢٢١ للهجرة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

إنجلترا، كنا نواصل مهمة تسجيل ما نعثر عليه وفهرسته. أرهقت بالعمل لا سيما في صيف عام ١٩٣٠، إذ كان وولي مصمماً على الحصول مني على أقصى ما يستطيع قبل إنهاء عزوبتي. وإلى جانب العمل في مختبرات الأبحاث في المتحف البريطاني في معالجة الكنز الذي نقلناه من أور كنت مشغولاً بمساعدة وولي على تسجيل اللقى الصغيرة التي كان يهيئها لكتابه الكبير عن المقبرة الملكية في أور.

أصبحتُ مستعداً لبدء شهر العسل بعد أن أكملت المهام التي عهد إليَّ بها. ولكن وولي ألقى عليّ محاضرة أخلاقية قبل المغادرة. قال لي إنني يجب أن أصل إلى بغداد قبل الخامس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر وأنه لن يقبل مني أي عذر مهما كان لو تأخرت. وقال إن عليَّ تشييد جناح جديد في دار البعثة ـ غرفة مكتب وحمام لكاثرين وولي ـ وعندما أصل إلى بغداد سيزودني بمعلومات مفصلة عن خريطة البناء وكيفية تنفيذ العمل. وأكدت له أنني لن أتأخر في الوصول وافترقنا وكل منا يعبّر للآخر عن الاحترام.

استمتعنا أنا وأجاثا بشهر العسل في مدينة البندقية أولاً، ومنها توجهنا إلى أثينا بعد أن أبحرنا على طول ساحل البحر الأدرياتيكي في باخرة صغيرة وحدنا. وكان الطعام فيها شهياً. وأكد لنا قبطان الباخرة أنه لم يشعر أبداً برغبته في قبول الترقية خشية الافتراق عن طباخه.

كان أروع ما في رحلتنا في اليونان زيارة باساي لمشاهدة المعبد في فيكاليا. وتطلّب ذلك رحلة على البغال استغرقت عشر ساعات، وكان شطر كبير من الرحلة على حافة جرف. وفي نهاية الرحلة لم يكن باستطاعة أجاثا الوقوف دون إسناد.

وكانت ساقاها متورّمتين بسبب لسعات البق في عربة القطار في الطريق إلى بيرجوس. وكانت تلك مقدمة مبكرة للمحن التي يحتمل أن

Twitter: @ketab_n

تتعرض لها زوجة الآثاري. ولكن شجعنا ترحيب صاحب الفندق في باساي، وكان رجلاً في غاية البدانة اسمه أومباريوتس. وهناك قرأت في صحيفة يونانية خبر الكارثة الفظيعة التي حلت بالمنطاد ر ١٠١.

بدأت أجاثا، لسوء الحظ، تشعر بمرض شديد في نهاية إقامتنا وخلال زيارة المعبد الجميل في سونيوم. وما إن وصلنا إلى أثينا حتى استدعيت طبيباً يونانياً قال إنها مصابة بالتسمم التوميني(٧)، وعلاوة على ذلك أخبر أجاثا في غيابي أن آخر مريض له مات بهذا النوع من التسمم بعد أربعة أيام. ولكنها أخفت عني تلك المعلومات وتابعت تحسن صحتها بقلق شديد.

بعد أيام قليلة بدأت صحتها بالتحسن قليلاً، وعندما لم يبقَ سوى يومين على موعد مغادرتي بالطائرة إلى بغداد طلبت من الطبيب أن يؤكد لي، إن كان ذلك بمستطاعه، إذا كانت أجاثا ستعيش أم تموت، لأنه كان قد أُنيط بي واجب مهم في ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ولن يُقبل سوى موتها عذراً لعدم ذهابي. فألقى عليّ الطبيب محاضرة عن الوحشية المقيتة للإنجليز كافة. وقال ليس باستطاعة أي شخص سوى الإنجليزي معالجة الأمر بمثل تلك الروح اللاإنسانية، وإنه لا يستطيع معاملتي بجد. ورغم ذلك قلت إنني يجب أن أعرف الجواب، ولحسن الحظ أنه أعلن عشية مغادرتنا أنا وأجاثا أنها بصحة أفضل وشعرت أن بوسعنا الافتراق. ولذا سافرت بالطائرة في الموعد المحدد وتركتها لتعود إلى لندن بعد قضاء بضعة أيام في أثينا.

إلاّ أنني عندما وصلت بغداد اكتشفت وأنا شديد السخط أن ليونارد وولي وزوجته لم يصلا ولا يُتوقع أن يصلا قبل مضي أسبوع

---

(٧) التومين مادة أساسية تتولد من تعفن الأنسجة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

آخر. شعرت بالغضب الشديد وقررت أن أغادر على عجل إلى أور في اليوم التالي بصحبة رئيس عمالنا حمودي الذي كان قد وصل بغداد مع ولديه. وعندما وصلنا أور أمرت حمودي بتشغيل مئة عامل ورحت غاضباً أشيد جناحاً جديداً على عجل وفقاً لخريطتي وكانت تتضمن غرفة جلوس واسعة مع موقد جميل ومدخنة شيّدت بحجم كبير باستعمال آجر بشكل لَبنات العقود وحماماً بائساً وصغيراً. أنجز العمل في خمسة أيام ثم أرضيت مشاعري بإرسال برقية إلى وولي أقول فيها إنني وصلت بغداد كما أمرني في ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر تماماً، ولم أجده هناك فأسرعت في بناء الجناح الجديد وفقاً لمواصفاتي.

وأرسلته كاثرين سريعاً كما توقعت ووصل مذعوراً، ولكنه اضطر إلى الاعتراف بأنه يفضل غرفة الجلوس الجديدة، وإن كان يعتقد أن الحمام صغير جداً وينبغي هدمه. ووصلت كاثرين نفسها بعد بضعة أيام ووافقت على غرفة الجلوس، لكنها أمرت بهدم الحمام وتشييد حمام أكبر منه. وهكذا انتهت تلك المغامرة.

افتقدت أجاثا كثيراً في ذلك الموسم الأول من زواجنا، ولكن لم يكن هناك مكان لغير امرأة واحدة في أور، وكان قراراً حكيماً أنها لم تصحبني إلى أور. وقبلت أنا القرار دون شكوى، غير أنني صممت على البحث عن عمل في موقع آخر يسمح لزوجتي بمصاحبتي فيه واعتقدت أيضاً أن الوقت قد حان لاكتساب خبرات جديدة، على الرغم من أن وولي نصحني بخلاف ذلك. لذا عندما دعاني الدكتور كامبيل تومسن إلى الذهاب إلى نينوى ومساعدته في التنقيب في موقع يعود إلى ما قبل التاريخ في ذلك التل العظيم قبلت العرض مسروراً، وهكذا انتهت المواسم الستة التي قضيتها في أور.

يتألف سجل التنقيبات النهائي في أور، الذي كتب معظمه وولي

Twitter: @ketab_n

وحده، من عشرة أجزاء كبيرة استغرق نشرها خمسين عاماً، وتأخر إصدارها لأنه كان يجب انتظار الحصول على الأموال الضرورية قبل طبعها. كما صدرت ثمانية مجلدات ضمّت نصوصاً من أور ألّفها متخصصون في النقوش.

في عام ١٩٣٣ أُنجز سجل خمسة مواسم في المقبرة الملكية مع الرسوم، أي بعد انتهاء التنقيبات بثلاثة أو أربعة أعوام. وكان المجلد الوصفي يقع في أكثر من ست مئة صفحة ومزيناً بـ٢٧٣ لوحة مع مخطط للمقابر. كان لدى وولي عدة مساعدين وكان سخياً في الإقرار بامتنانه إزاء المرحومة الآنسة جون جوشوا وإزائي. كانت الآنسة جوشوا متقدمة في السن. كنا نزيّن مظلتها، المزدانة برأس بطة من الفضة، بانتظام بخرز العقيق الأحمر عندما كانت تزورنا في مختبر الأبحاث بالمتحف البريطاني. وفي الواقع توجد أخطاء لا مفر منها في التفاصيل في السجل النهائي، ولكننا لو فحصنا كل شيء وحاولنا التوثق منه بالرجوع إلى الموقع نفسه وإلى المتاحف الكثيرة التي توزعت فيها لاستغرق إصدار المجلدات عقداً آخر ويحتمل أن الكثير من المجلدات التالية ما كانت لتصدر أبداً. كانت طرق وولي تتسم بالتسرع، لكنه كان يتمتع بإحساس بالقيم النسبية وبما كان مهماً حقاً. وعلى الرغم من أن السرعة التي عمل بها منعته من ملاحظة كل جزء من الأدلة، لم يكن هناك أحد أقدر منه على إنجاز عمل حقلي بارع.

راقبته مرة يستخرج آلة موسيقية اختفت زمناً طويلاً بأن صبّ جص باريس[٨] في بعض الثقوب الصغيرة التي أدرك أنها الفتحات التي

---

(٨) جص باريس، جص أبيض يصنع من الجبس يتصلب عندما يجف ويستخدم في عمل القوالب وغيرها. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

خلّفها الخشب المهترئ. وقد روى الحكاية في كتابه «أور الكلدانيين» (ص٣٦) قائلاً: «وينطبق الشيء نفسه على الخشب، إذ لا يبقى منه شيء، إلا أنه ما يزال هناك أثر طبعة في التربة، أو قالب ربما يخدع العين بشكله الخارجي ولونه، ولو أن لمسة الإصبع تمحوه على نحو أسهل مما تزيح ما يكسو جناح فراشة».

اعتدت أن أراه في لندن في منزله، في سنت ليوناردز تيريس، يكتب بسرعة لا تصدق بلغة إنجليزية كانت مثالاً لوضوح الأسلوب حتى وقت متأخر من الليل. إن مثل هذه الأعجوبة لن نشهدها مرة أخرى.

Twitter: @ketab_n

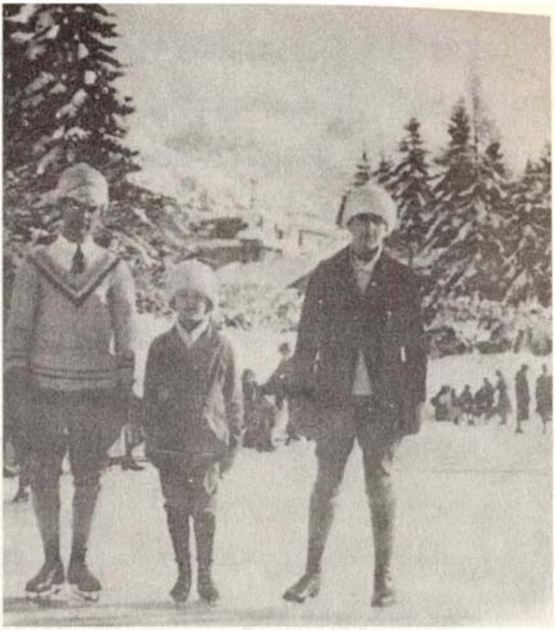

ماكس وفيليب وسسيل مالوان في انكلبرك بسويسرا في عام ١٩٢١.

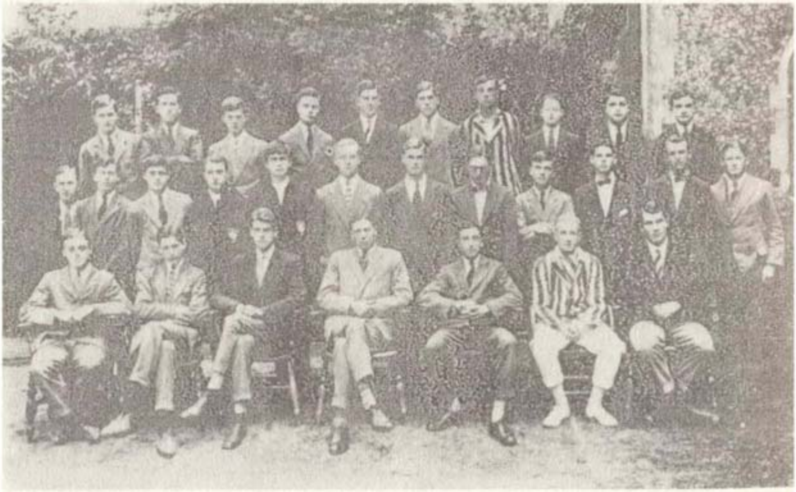

طلبة الصف السادس في مدرسة لانسنج الثانوية في عام ١٩٢١ وبينهم ماكس (الثاني من اليمين في الصف الخلفي).

Twitter: @ketab_n

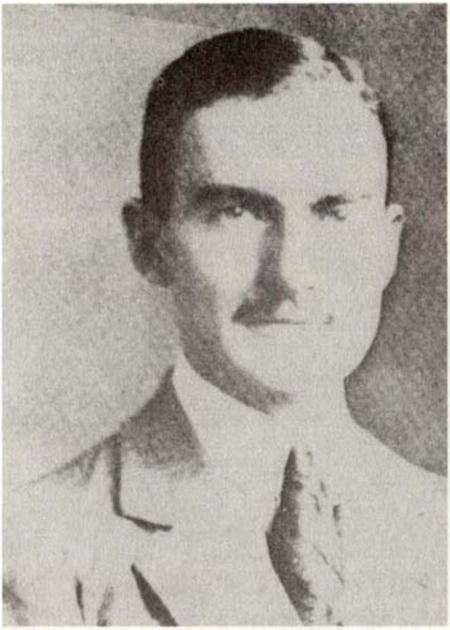

ماكس في عام ١٩٣٠ وهو العام الذي تزوج فيه أجاثا وكان عمره ٢٦ سنة وعمرها ٣٩ سنة وكان ذلك آخر موسم عمل له مع وولي في التنقيب في أور (ورد في شرح الصورة المنشورة في الكتاب الصادر بالإنجليزية خطأ أن مالوان كان في ذلك العام يدير التنقيبات في الأربجية قرب نينوى) (المترجم).

ماكس في رواق بيت البعثة الآثارية في أور عام ١٩٢٦.

Twitter: @ketab_n

هيئة العاملين في التنقيب في أور عام ١٩٢٦.

الصف الخلفي من اليسار إلى اليمين: ماكس، حمودي، ليونارد وولي، كاترين وولي والأب باروز (خبير قراءة النقوش).

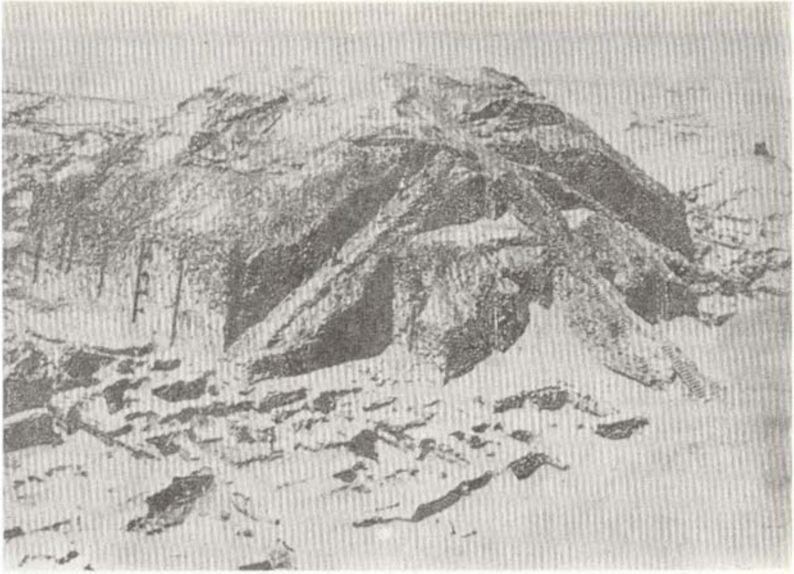

الزقورة المشيدة بالآجر المشوي في أور ويظهر الوجه الشمالي الشرقي والسلم الثلاثي. شيّدها أور ـ نمو حوالي عام ٢١٠٠ ق.م.

Twitter: @ketab_n

كاترين وولي وحمودي وماكس في رواق بيت البعثة في أور عام ١٩٢٦.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

نينوى

لا يمكن تصور نقيض أكبر لبلاد بابل من بلاد آشور التي تقع على بُعد عدة مئات من الأميال إلى الشمال فوق عنق الزجاجة الذي يتقارب فيه دجلة والفرات ولا يبعد أحدهما عن الآخر سوى ثلاثين ميلاً، على خط العرض الذي تقع عليه بغداد اليوم. كانت المدن ـ العواصم الآشورية، بما فيها نينوى، تقع على امتداد نهر دجلة السريع الجريان أو بالقرب منه. ويعتقد أن الاسم القديم للنهر «ايديكلات» Idiglat يعني «السهم» لتمييزه من المياه الهادئة عموماً لنهر الفرات، ذلك «النهر الذي يجري بهدوء» أو بوراتو باللغة الأكدية.

يُضاف إلى هذا أن بلاد آشور تطوق بسلسلة جبال زاجروس المنيعة على تخومها الشرقية. وهكذا كانت حدودها معرضة باستمرار لتهديد الجبليين الغزاة والسلاّبين من إيران، مما جعل البلاد في حالة دفاع ومتأهبة دائماً من أجل البقاء. ولم يكن بوسع بلاد آشور أيضاً البقاء في حالة اكتفاء ذاتي لأنها كانت تعتمد على أراضي زراعة الحبوب الغنية في سوريا من جهة الغرب. وقد شجع هذا الوضع لا محالة الميل إلى التوسع وأدى المناخ الباعث على النشاط إلى نشأة أمة من المحاربين الأشداء. وعلى الرغم من أن بلاد بابل لم تكن بمنأى

Twitter: @ketab_n

عن الهجمات من إيران، فقد كانت حدودها أقل انكشافاً وكان الدخول من خوزستان يتطلب قطع مسافات طويلة، إلا أن كثافة سكان لورستان المجاورة أقل بكثير من جبال زاجروس التي تحدّ بلاد آشور.

كان اكتشاف مدى اختلاف السكان عن الشعوب المُحِبة للدراسة والمتدينة والهادئة في بلاد بابل تحدياً حقاً للمنقب. واستنتج هيرودوتس استنتاجاً صحيحاً أن البابلي كان بطبيعته تاجراً أو بائعاً متجولاً. يُضاف إلى ذلك أن بلاد بابل كانت عموماً مكتفية ذاتياً بالحبوب التي كانت تُزرع هناك بالري الكثيف. وحولت شبكة من القنوات البلاد إلى الاعتماد الذاتي، وجعلت الأمة انطوائية على النقيض من بلاد آشور.

كانت أراضي بلاد آشور الخضراء فردوساً مقارنة بالسهول الرملية التي تهب عليها الرياح في بلاد بابل. عشنا في بيت صغير ذي حديقة أسفل تل النبي يونس حيث دفن النبي يونس. وضم التل أيضاً بقايا مستودع أسلحة سنحاريب. وكان الوصول من بيتنا إلى قمة نينوى أو تل قوينجق يستغرق عشرين دقيقة على ظهور الخيل. ومن القمة نطل على مشهد شامل للمناظر الطبيعية والتاريخ، ونطل من ارتفاع مئة قدم فوق السهل إلى الغرب على الضفاف الشديدة الانحدار لنهر دجلة السريع الجريان، ونرى عبر النهر مساجد مدينة الموصل وكنائسها التي مرّ بها زينوفون في زحفه الملحمي عام ٤٠١ ق.م عندما قاد جيشه المؤلف من عشرة آلاف مرتزق يوناني من سهول كوناكسا إلى البحر الأسود.

ولعل الموصل صدى لـ «مسبيلا»، الاسم الذي أطلقه عليها الإغريق. وعلى بُعد مئة ميل إلى الشمال كان موطن بلاد آشور يقود إلى حدود تركيا، مروراً بالمحيط العالي الذي يبلغ طوله اثني عشر ميلاً ويتكوّن من السدود المغطاة بالحشائش والتي تحيط بمدينة نينوى

Twitter: @ketab_n

وقلعتها. وإلى الشرق يرى المرء كردستان والجبال التي تكسو الثلوج قممها وتعرف بجبل مقلوب وخلفها حاجز جبال زاجروس التي كانت تفصل بلاد آشور عن عدوها الخطير إيران. وإلى الجنوب كانت السهول تمتد باتجاه نهري الزاب وبلاد بابل البعيدة.

لا يكاد يستطيع المرء تصور نقيض لوولي أشد من رئيسي الجديد كامپيل تومسن، الصريح والودود والهادئ، الذي كان مختصاً في دراسة النقوش استناداً إلى تدريبه ولم يكن تقديره عالياً لعلم الآثار. وقد تعاقد معي لحفر مجس عميق يصل إلى عصور ما قبل التاريخ في تل نينوى الضخم لاكتشاف ما كان تحت الطبقات الآشورية. وقد توليت هذه المهمة بسرور مثلما ساعدت وولي في حفر الحفرة العميقة التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، وأعتقد أن تومسن كان يريد أن يبرهن على أنه لا يوجد شيء له صلة بالطوفان في نينوى.

كنت أرى أن التنقيب في الشمال بعد فترة تدريب دامت ستة أعوام في الجنوب من الأمور المثيرة وكان هناك عامل الجذب الإضافي المتمثل في السماح لي باصطحاب أجاثا. كانت باربرا، زوجة كامپيل تومسن، شخصية مبهجة وعطوفة وغير أنانية كرّست حياتها للآخرين. وكنا نعدّها شخصاً ورعاً كما كانت حقاً.

كان كامپيل تومسن يجعل المرء يخوض اختبارات معيّنة قبل السماح بالاشتراك في البعثة. وكان أحد الاختبارات السير في الطين والمستنقعات، وكان هناك اختبار آخر هو الذهاب إلى السينما التي كان مولعاً ولعاً شديداً بها. نجحت أجاثا في اختبار المشي في الطين نجاحاً باهراً، وكان كامپيل تومسن قد حذرني من أن أحد الذين سبقوني فشل في اختبار السينما بإبدائه تعليقات تافهة. حرصت ألا أقول شيئاً، وقد عد هذا فيما بعد دليلاً على حصافتي. ولكن كانت هناك عقبة أكثر

Twitter: @ketab_n

أهمية كان ينبغي تذليلها وهي ركوب الخيل. ولحسن الحظ أنه لم يختبرني في هذا قبل المغادرة إلى العراق، لكنه أكد لي أن من الأمور ذات الأهمية القصوى وجوب احتفاظي بمكاني على ظهر الحصان الذي امتطيه، لأن سلفي العاثر الحظ ر. دبليو. هتشنسن خسر سُمعته لدى الرجال بسقوطه عن ظهر الحصان بحضورهم، وقال إنه لا يستطيع المخاطرة بهذه التجربة مرة أخرى.

وعلى الرغم من أنني لم أكن قد ركبت حصاناً سوى مرتين في الأراضي المنبسطة قرب أور وجرى الحصان بعيداً بي في إحدى المرتين، فقد أكدت لكامبيل تومسن أنني فارس قدير، وأنه لم يسبق لي السقوط. وبدا مقتنعاً بهذا التأكيد ووعدت نفسي أن آخذ دروساً في ركوب الخيل طوال الصيف. إلا أن الوقت مضى ولم أفعل شيئاً. لذا توجّهت إلى نينوى وأنا وجل بعض الشيء وأملت أن أتغلب على المشكلة. وازداد ذعري عندما اكتشفت أن كامبيل تومسن كان ينوي شراء حصان لي من السوق في الموصل. ونظراً لبخله الشديد فقد صمم على شراء أرخص حيوان وعثر لقاء ثلاثة باونات على فرس صغير لم يكن أي أحد يرغب في لمسه لأنه كان يطرح راكبه أرضاً، وخصصه لي. كنا نركبه إلى التل صباحاً بالتناوب، ولحسن الحظ لم يكن كامبيل تومسن موجوداً عندما امتطيت الفرس. تشبثتُ بالحيوان وصمدت في الطريق المعبد والمنحدرات الشديدة والزلقة في الممر الضيق الذي كان يفضي إلى قمة التل حيث قابلني الرجال بالتشجيع، وكان ذلك استقبالاً أدى إلى ذعر الفرس الذي طرحني أرضاً في الحال. وكانت رحلة العودة أكثر خطورة لأن الفرس كان ينزلق وهو يهبط الطريق الموحل. ولكنني دبّرت أمري بالتشبث بعنق الفرس، وبخاصة عندما كان ينزلق على الطريق المعبد. ولسوء الحظ أن الجزء

Twitter: @ketab_n

الوحيد من الطريق المعبد كان بين منزلنا والتل، وبفضل حسن الحظ، وليس بفضلا أية مهارة، ازدادت ثقتي. واستمتعت تماماً بجولة على ظهر الحصان وغلبت تومسن في سباق للخيول في السهول عندما كان الموسم يقترب من نهايته. وامتدحني قائلاً إنني أصبحت أركب الحصان مثل القنطور[1]. وربما بقي فيَّ شيء من تدريب والدي على الفروسية دون وعي.

كان العمال في نينوى مجموعة صعبة المراس وكانوا غير ملتزمين بالنظام على خلاف العمال في أور، وكانت علاقاتنا وديّة. ولكن العربي حتى في شمال العراق يحترم السلطة ولم نواجه صعوبة كبيرة في إدارتهم، مع أنه كان يجب التزام الحذر والاحتراس دائماً. لم تكن بداية موسمي مع كامبيل تومسن مبشرة بالنجاح، إذ إن إنجلترا تخلّت في تلك السنة، ١٩٣١، عن قاعدة الذهب في النظام النقدي، وصمم كامبيل تومسن على تخفيض أجور العمال. كانت أجورهم قليلة تبلغ ١٠ بنسات و٨ بنسات و٦ بنسات في اليوم للحفار وعامل المسحاة وعامل السلة وأعربت عن احتجاجي قائلاً إنه لا يمكن تخفيض الأجور أكثر من ذلك. ولكنه أصرّ على وجوب تخفيض الأجور بنسين لكل واحد، ولم تنفع محاولاتي لإقناعه بالتراجع عن عزمه. ولذا توجهنا في صباح اليوم التالي إلى قمة التل وواجهنا العمال المحتشدين وأعلنا أن كل من يشتغل يجب أن يقبل العمل بتخفيض أجره بنسين. ولم يكن غريباً أن هذا الإعلان سبب ضجة، إن لم يكن اضطراباً، ثم راح كامبيل تومسن يقدم تفسيراً بالعربية لضرورة التخفيض ومعنى التخلي

---

(١) القنطور (في الميثولوجيا الإغريقية) كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

عن قاعدة الذهب. ولكنه لم يلقَ سوى نجاح قليل في شرحه، وسرعان ما استدار إليّ وقال: «لا يبدو لي أنني أفلحت معهم، حاول أنت الآن». لم تكن لغتي العربية تمكنني من بحث موضوع أكاديمي من هذا النوع، ولذا أعلنت عجزي عن التعاون خصوصاً أنني رأيت حفاراً يرفع معوله فوق رأسي مهدداً. وعلى الرغم من تلك المعارضة بقينا مصممين، وقَبِل العمال التخفيض. إنني أشك في أن أمراً مثل هذا كان قد حدث سابقاً، ولا يحتمل أن يحدث ثانية، ولكنه يدل على قوة شخصية كامپيل تومسن.

لا بدَّ من الاعتراف بأن العمل نُفّذ وفق أسس مضطربة وكان من حجج كامپيل تومسن التي استخدمها في مجادلة العمال أنهم كانوا يتمتعون بالمجيء إلى التل حيث يتبادلون الأحاديث وأن المكان بمثابة ناد. ورتب الأمور بأن يقوم الحفار بعمله المحدد له ثم يجلس بعد أن يلين المكان ويليه في العمل المشتغل بالمجرفة وحامل السلة. وكانت النتيجة استحالة معرفة من كان يجب أن يعمل. يُضاف إلى ذلك أن ما زاد الأمور سوءاً هو أننا تعوّدنا على ملء الجزء المحفور.

ولم يكن بوسعنا أن نرى أي مقطع طويل من الجدران أو العمارة المتتابعة. وكان من الصعب جداً جعل الخطط ملائمة. وفي الواقع كان العمل في نينوى غالباً بحثاً ممجداً عن الألواح، وعندما لم نكن نعثر على الكثير كان كامپيل تومسن يجعل عمال السلال يعملون في الأكوام التي خلفها لايارد[٢] وجورج سمث[٣]. وكنا دائماً نكافأ

---

(٢) سير أوستن هنري لايارد (١٨١٧-١٨٩٤): آثاري إنجليزي توصل إلى اكتشافات مثيرة في نينوى. (المترجم).

(٣) جورج سمث عالم إنجليزي في الآثار الآشورية اشتهر بفك رموز الكتابة المسمارية. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

باكتشاف قطع إضافية من مكتبة قوينجق العظيمة التي كانت تضم (٢٢) ألف لوح. وكان لتومسن نفسه معرفة فريدة بهذه المجموعة ولا بدّ أنه لحم المئات من القطع المكسورة في زمانه، إلا أنه كان حقاً مزيجاً غريباً من المواهب إذ إنه كان أكثر من متخصص في دراسة النقوش. وكان لديه اهتمام الهواة بعلم النبات والجغرافية والكيمياء، وبفضل عمله الاختصاصي في هذه الحقول أضاف الكثير إلى تلك الفروع النادرة من المعرفة في علم الآشوريات.

وكان إضافة إلى ذلك رساماً ماهراً يستطيع وضع الرسوم التخطيطية بسرعة وكان مساحاً مدرباً، وعمل فترة في مسح السودان وإن لم يبقَ طويلاً هناك ولم يكن محبوباً، إذ إنه أمر في شبابه أن يجلب آلة جديدة من إنجلترا وأسقطها من جرف. وكان دائماً مستعداً لتوفير المال والاقتصاد في النفقات، واستعمل في رسم خرائط المسح لوحة فطائر اشتراها في مزاد بنصف جنيه، وكان عمود المساح الذي استعمله خشبة بلوط كثيرة العقد تكثر في المرتفعات التركية. ومع ذلك فعندما أنجز مسحه نينوى كانت الرسوم متطابقة مع الصور الجوية ولم تنطو إلا على حد أدنى من الأخطاء غير المهمة للآثاري.

كان كامبيل تومسن رياضياً. وكان أحياناً يصارع العمال، وإذا رمى خصمه أرضاً كان يحتمل أن يتهم الضحية بتعمد الهزيمة أمامه. وكان مغرماً بالرماية، وكنا نخرج أحياناً معاً لنحاول صيد شيء للطعام، ولكن بشيء من التوتر من جانبي، إذ كانت إحدى ماسورتي بندقيته عيار ١٢ معوجة وكان أبخل من أن يرسلها إلى مصلح البنادق.

كان صعباً أن نقرر العمل في جو ممطر خلال الشتاء. ولأن العمال كانوا يسكنون على بُعد بعض الأميال لذا كان علينا أن ندفع لهم أجراً عن جزء من اليوم إذا جاءوا إلى العمل ولم يجدوا ما يفعلونه.

Twitter: @ketab_n

وكان ضرورياً أن نقرر ليلاً، قبل الفجر بساعة على الأقل، إذا كنا سنخاطر بالعمل في اليوم التالي. وتعوّدنا أن نتخذ من سطح المنزل مكاناً لعقد اجتماعنا. وبعد التوصل إلى قرار نعطي الإشارة باستعمال الفانوس إلى الحارس على قمة التل الواقع على بُعد ميل واحد، وكان علينا أن ننتظر قليلاً حتى نتلقى الإشارة من قمة تل قوينجق. وكنا نظن أن زوجة الحارس، وليس الحارس نفسه، هي التي كانت تبعث بالرسالة.

كنا نشتري الخشب طلباً للدفء عند اقتراب الشتاء، وكنا، لحسن الحظ، نمتلك مدفأة في غرفة الطعام بمنزلنا. وكانت تلك عملية تجارية شاقة واعتاد كامپيل تومسن انتظار قوافل الأكراد الذين ينقلون الخشب من التلال البعيدة على ظهور الحمير. وتعوّد أن يرافقهم من تل قوينجق إلى جسر الموصل محاولاً الوصول إلى سعر واطئ، وكان يأمل الحصول على أفضل ميزة بعرض سعر مقبول عليهم قبل وصول الجسر، حيث كانت تفرض عليهم رسوم البلدية. غير أن الأسعار كانت عالية جداً في الشتاء عندما كنت مساعده، إذ كان هناك نقص شديد في خشب الوقود. ولذا لم يكن يستطيع الاتفاق معهم على سعر مقبول. ولكن ذات يوم بينما كان كامپيل تومسن في أعلى التل وكنت أنا أعمل في البيت شاهدتْ باربرا كامپيل تومسن وزوجتي قافلة وطلبت كلتاهما مني الخروج على عجل والحصول على الخشب بأي سعر. ففعلت ذلك وتوصلت إلى اتفاق سريع. انتظرت وصول كامپيل تومسن بشيء من القلق، ولكن ارتياحه عندما رأى أنني حصلت على ما كنا نحتاج إليه كان أشد من ارتياحي. وتقبّل حقيقة أن المدعي الشاب قد غلب في الصفقة وليس هو وقابل ذلك كله بابتسامة عريضة. وعلى الرغم من أنه كان شديد الحرص على المال، فقد كان سخياً

Twitter: @ketab_n

بشكل غير عادي أحياناً وكثيراً ما كان يوزع (الحلاوة) على جميع من كانوا يعملون معنا عندما يجيء بائع الحلوى إلى قمة التل.

وكان ذلك سخاءً تقابله باربرا ببعض السخط، وقد قالت إنه لم يكن ليفعل هذا لأولاده. وكان مضيفاً سخياً ويعدّ مائدة عامرة. وكان لدينا قطيع من الديك الرومي في الحديقة نستمتع بطبخه وأكله.

وكنا نبذل جهوداً كبيرة لفض العراك بين الديكة. واستضفنا مرة أو مرتين صاحب المنزل في النبي يونس، وكان سيداً كهلاً اسمه شريف الدباغ كنا على علاقة طيبة به. ولاحظت بشيء من الدهشة أن خادمتنا كانت في تلك المناسبات تستعير كل ما لدى مضيفنا من أطباق وسكاكين، لأن ما في حوزتنا لم يكن كافياً، ولكن ذلك كان مقبولاً من ذوي العلاقة. كان البيت نفسه قليل الأثاث، وعدّنا كامپيل تومسن مبذرين جداً عندما قالت أجاثا إنها تريد الذهاب إلى السوق وشراء منضدة تطبع عليها روايتها التالية. واشترت المنضدة فعلاً بثلاثة باونات ولكن كامپيل تومسن عد ذلك تبذيراً، ولم يفهم لماذا لم يكن صندوق الأمتعة الاعتيادي يكفي لوضع الآلة الكاتبة عليه. وطبعت أجاثا على المنضدة روايتها (اللورد ايجوير يموت).

كان كامپيل تومسن مثيراً للغضب أحياناً على التل، لأنه كان يجد صعوبة بالغة في حزم أمره واتخاذ القرار بشأن المكان التالي الذي ينقب فيه. تعوّدنا أن نتجادل ثانية في هذه المسألة، وبعد أن ظن أنه قرر اختيار المكان كان يقول كالمعتاد: «سأكون مع الشيطان» ويبدأ المجادلة من جديد. وتعودت أن أبتعد عنه يائساً، ولكنني اكتشفت بعد بعض الوقت كيف أتغلب على هذه المشكلة، إذ كان له رئيسا عمال قديمان عزيزان عليه هما عبد الأحد ويعقوب، وكانا مغفلين إلا أنه كان يثق بهما ثقة تامة لأنهما خدما سنوات كثيرة معه. لذا تعودت أن

Twitter: @ketab_n

أقول للرجلين «ألا تذكران أن السيد ل. دبليو. كنك نصحكما بأن هذا الموقع الذي نحن فيه الآن يحتمل أن يضم آثاراً مهمة». وهكذا ضمنت أن يوصلا هذه المعلومات إلى رئيسي في الوقت المناسب. حدث هذا في مناسبتين أو ثلاث حتى اكتشف كامپيل تومسن، الذي لم يكن مغفلاً، ما فعلته واتهمني بأنني مخادع صغير، وربما كنت كذلك فعلاً. ولا بدّ أن أشير إلى أن رؤساء العمال كانوا يستضيفوننا في الموصل، وإن كان كامپيل تومسن وزوجته يُظهران بعض التردد لأن مساكنهم لم تكن مرتبة جيداً وكانت غير صحية، بينما كان كامپيل تومسن، على النقيض من ذلك، يحرص حرصاً شديداً على التصحاح وكان ماؤنا كله يضخ من خلال مرشح من نوع بيركفيلد وكانت تتخذ تدابير وقائية من هذا القبيل. وأتذكر جيداً ذات مرة أن طفلاً كان ينقل من حضن إلى حضن وبدا أنه كان يئن. وعندما استفسر كامپيل تومسن عن مشكلة الطفل قال يعقوب: «لا شيء سوى أنه مصاب بالجدري».

يتضح مما قلته أن نينوى أو تل قوينجق لم تكن مرتبة. وفي الحقيقة إن ذلك يبعث على الأسى في نفس المنقب المحترف، ولحسن الحظ أن كامپيل تومسن لم يكن من ذلك النوع. كان الاطلاع على العشرين قدماً العليا في تل قوينجق يكفي لتصديق ما كان عليه. فقد تعرض لنهب شديد طوال أكثر من ألفي سنة، وقلبت التربة مراراً في سلسلة لا تنتهي من الحفر والأكوام. والأسوأ من ذلك أن عدة أجيال من الحفارين حفرت في قلب التل وعملت أنفاقاً طويلة كان اثنان أو ثلاثة منها فوق رؤوسنا. وكان هناك عنصر خطر في هذا كله واحتمال حدوث انهيار، ولكننا واصلنا العمل بسلام.

تألفت السلسلة الأخيرة من الطبقات، التي بلغ عددها ستاً أو نحو ذلك، من دُور تعود إلى العصور الوسطى وكانت محتوياتها مثيرة

Twitter: @ketab_n

للاهتمام الشديد، إذ ضمت بعض الفخار الجيد بما فيه مصنوعات خزفية صينية، وبعض فخار سامراء التقليدي، إلا أن الدور نفسها كانت في حالة يرثى لها. ومررنا تحتها ثانية بطبقات رومانية. وكان كامپيل تومسن يعتقد أن قلعة رومانية كانت توجد هنا، بل عثرنا على شارة جندي روماني. ووصلنا بعدها إلى طبقات سكن ساسانية وفرثية وإغريقية حتى وصلنا إلى الطبقة الفارسية والطبقة الآشورية.

لم يكن من الغريب في مثل تلك الظروف أن كامپيل تومسن نفسه لم يكمل الكشف تماماً عن بناية واحدة. وفي الحقيقة لا يوجد سوى مخطط معماري جيد واحد في نينوى كلها وهو قصر سنحاريب الكبير الذي كشف لايارد عن معظمه وواصل رسام العمل فيه وأعاد العراقيون فتحه بمهارة مؤخراً بإشراف طارق مظلوم. وقد وصف سنحاريب نفسه هذا القصر الكبير بالتفصيل في نقوشه حيث عدّه عن جدارة «القصر الذي لا منافس له». زين القصر بعناية بالتماثيل وكان إلى حد ما تقليداً للقصور السورية، ولا بدّ أنه كان محط إعجاب الجميع في زمانه. اكتشف هنا الجزء الأكبر من هذه المجموعة الشهيرة المعروفة بمجموعة ألواح ك، أو مكتبة آشور بانيبال العظيمة. ويعتقد كامپيل تومسن أن عدد الألواح الكاملة والمؤلفة من كسر يبلغ ٢٢ ألفاً، وإن كان عدد ما سجل منها في المتحف البريطاني يبلغ ٢٤ ألفاً، إذ إن حوالي ألفين منها قطع لُحم بعضها ببعض وأسهم هو نفسه في إعداد العشرات منها كما قلت سابقاً.

عثر على الجزء الآخر من مجموعة ك في بناية تعرف بالقصر الشمالي القريب جداً من قصر سنحاريب، ولكن لا يوجد مخطط مترابط له.

لا بدّ أن نقول شيئاً عن سنحاريب، الذي كان من أعظم الملوك

Twitter: @ketab_n

الآشوريين جميعاً، وكان مهندساً وإروائياً جباراً امتدح كامپيل تومسن أعماله.

كان كامپيل تومسن رجلاً ريفياً يتمتع بفهم للطبوغرافية، وكان يسعى إلى اكتشاف بقايا الآثار الآشورية على الأرض كلما يقوم بجولات على قدميه حول نينوى، وحدد حوالي عام ١٩٢٦ ببراعة مبنى كبيراً مشيداً بالحجارة يقع على بُعد أربعة آلاف ياردة إلى الشمال من قوينجق وقريباً جداً من نهر الخوصر بأنه بقايا سد كبير واستطاع أن ينسبه إلى سنحاريب استناداً إلى أحد النقوش الذي سمّاه حوض أكامو، حيث كان الملك سنحاريب يحتفظ بحيوانات وحشية وخنازير وحيوانات أخرى في حديقة حيوانات وحوض لعرض الحيوانات المائية لإدخال السرور في نفوس ملوك بلاد آشور. تتألف بقايا هذا السد الذي ما زال يحيط بالماء من امتدادين كبيرين من الجدران، أحدهما لا يقل طوله عن ٢٥٠ ياردة، ويتألف من كتل من الحجارة المربعة المنحوتة وحجر الكلس والحجر الرملي والكتل المختلطة، ويبلغ حجم كل كتلة نصف متر مكعب وما تزال إحدى الكتل على ارتفاع تسعة أقدام عن مستوى الماء. ومن أجل الاقتصاد في النفقات لم تعدّل منها سوى الحافات وترك جزؤها الرئيس خشن الملمس. إلا أن هذا التحديد ثبتت صحته بعد تنقيب ممتاز أجراه جاكوبسن وسيتن لويد باسم المعهد الشرقي في شيكاغو في عام ١٩٣٢، بعد اكتشاف كامپيل تومسن بستة أعوام، عندما عثر على بناء مشابه في قناة اصطناعية كبيرة بناها سنحاريب بالقرب من باڤيان في منبع نهر الكومل. كانت هذه القناة الاصطناعية التي امتدت عبر وادٍ صغير ضيق شديد الانحدار تنقل الماء في طريق ملتو مسافة زهاء خمسة وأربعين ميلاً إلى نينوى. وكان لا بدّ من نقل الماء عبر جسر مؤلف من ثلاثة أقواس ونقل ما لا يقل عن

Twitter: @ketab_n

مليوني كتلة من الحجر المربع المنحوت مسافة عشرة أميال من المقالع في باڤيان، وهذه عملية ضخمة. كان هذا إنجازاً بارعاً انطوى على فهم تقني للإجهادات والتوترات الخاصة بعلم السوائل المتحركة. وفي الصيف عندما لا تجري المياه أو تحجز في رأس نهر الكومل كان بوسع الجيش الآشوري أو القوافل الآشورية المرور عبر الجسر دون أن تبتل الأحذية أو الأقدام عندما تحتم الضرورة غزو إيران، ولذا خدمت القناة الاصطناعية غرضاً مزدوجاً. كانت هذه القناة العظيمة واحدة من شبكة تضم ما لا يقل عن ثماني عشرة قناة أعاد سرجون (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) حفرها وتطهيرها. وكشفت الرعاية والصيانة الدقيقتان عن الاهتمام الكبير بالري الذي أولاه الملوك الآشوريون المتعاقبون للمحافظة على البساتين والحدائق ودعم الزراعة.

كان الآشوريون، الذين اكتسبوا سمعة غير جيدة بسبب دعايتهم التي تمجد المعاملة القاسية لأعدائهم، أذكياء جداً ويفهمون سجية الرحمة التي كثيراً ما أظهروها بحكمة. وهكذا فإن السمعة التي اكتسبوها لم تكن منصفة، إذ إنهم لم يكونوا أكثر قسوة من شعوب زمانهم، ولا شك في أنهم لم يكونوا أكثر قسوة من أمم عظيمة في العصر الحاضر.

هكذا علمتنا تنقيبات تومسن في الأرض الكثير عن الطاقة الواسعة للملكية الآشورية. وفَحص النقوش دائماً بعنصر طبوغرافي في ذهنه وفهم أن المجرى المائي الذي يذكر باستمرار في الحوليات الآشورية باسم تبيلتو كان في حكم المؤكد تقريباً قناة، لأنه لا يوجد أي نهر طبيعي يمكن أن ينطبق عليه وصف هذا المجرى. ويبدو أن هذه القناة، التي غُيّر مجراها في عدد من المناسبات، قد حولت من خلال إحدى البوابات الآشورية. وذكر أنها كانت تفيض بقوة بحيث هدمت

Twitter: @ketab_n

أحد القصور الآشورية، وهو أمر يستحيل أن يحدثه أي ممر مائي طبيعي حالياً. قاد الاهتمام الطبوغرافي كامپيل تومسن أيضاً إلى أن يحاول تحديد البوابات الأربع عشرة أو الخمس عشرة التي سجلت النقوش أنها كانت تؤدي إلى داخل نينوى، وعلى الرغم من أن حلوله لم تكن وفق الخطوط الصحيحة دائماً، فإن تحرياته ساهمت كثيراً في توضيح هذا الجانب من طبوغرافية المدينة. ومع أن استنتاجاته كانت غير صحيحة أحياناً، إلا أن جهوده شجعت مديرية الآثار القديمة في العراق على إجراء المزيد من الأعمال المتعلقة بالبوابات التي كشف عنها طارق مظلوم كاملة ببراعة ورممها، وأصبح منظرها يثير إعجاب الزوار. إلا أن الفخر في تحديد السد على الأرض الجيلة سيبقى دائماً لكامپيل تومسن.

كان الاهتمام الرئيس لكامپيل تومسن في نينوى ينصبّ، كما أوضحت سابقاً، على البحث الممجد عن الألواح وأضاف عدداً كبيراً منها عاماً بعد آخر إلى المجموعات. وتبدو لي وثيقة واحدة ذات أهمية بارزة، إذ اكتشف نصاً تاريخياً نادراً يعود تاريخه إلى حكم الملك آشور أوبالط (١٣٨٦-١٣٦٩ ق.م) بدا فيه أن قواته فرضت عليه أن يقودها إلى محاربة أحد الملوك الكشيين أعداء آشور يدعى كاشتيلياش. ويحاول هذا النص الصعب وصف وضع المعركة وتوضيح تكوين الجيش الآشوري. وكان من الإضافات البارزة إلى معرفتنا التاريخية مقطع في نص طويل لآشور بانيبال فيه إشارة إلى كورش الأول الذي لم نكن نعرف شيئاً عنه حتى هذا الاكتشاف. وقد أشار إليه بوصفه تابعاً لملك بلاد آشور وسلّمه ولده أروكو رهينة في نينوى. ولم يدرك كامپيل تومسن نفسه إذّاك أنه وقع على عاهل ميدي جديد، وقد أوضح له ذلك ج.ر. درايفر.

Twitter: @ketab_n

كان أبرز اكتشاف لكاميل تومسن، في رأيي، هو الاكتشاف الذي لم يستفد منه إلا قليلاً ونشره في بضعة سطور مع صورة غير ملائمة. كان هذا الاكتشاف رأساً برونزياً رائعاً بالحجم الطبيعي يُعدّ في نظري إحدى أروع القطع إن لم يكن أروع قطعة في المتحف العراقي ببغداد. إنه رأس بديع حقاً لشيخ بدوي، وقد أوردت في أحد أعداد مجلة Iraq[٤] أنه رأس سرجون، مؤسس سلالة أكد الشهيرة. تسنّم العرش بعد عام ٢٤٠٠ ق.م بقليل. وهذا الرأس الرائع من البرونز غير المجوف صُنع ربما بطريقة الشمع ويحمل ملامح لافتة للنظر سامية الطابع، وهو بلحية كثة وبتسريحة وفق أحد أساليب الشعر المستعار الذهبي في أور. إنّ السبب الذي دفعني إلى عدّه سرجون هو أن ابنه ماينشتوسو عرف بتشييد مبنى سمي ايمينوي في منطقة معبد عشتار الذي بقي إلى عهد آخر ملوك بلاد آشور، ولما كان هذا المبنى هو العمل المهم الوحيد الذي ذكر في وقت صنع الرأس، لذا أعتقد أن ابن سرجون أمر بصنعه تكريماً لذكرى والده الشهير. ويذكر أن هذا العاهل لم ينسَ أبداً في الحوليات الآشورية ويوجد رأس حجري رائع في متحف تورين نحت في العصور الآشورية ويبدو أنه صيغ على غراره. ينفرد هذا الرأس بلحية مقسمة تميزه من صورة الحفيد نرام ـ سين الذي يمثل دائماً بلحية مدببة، وهو سبب آخر لاعتقادي أن هذا هو تمثال مؤسس السلالة.

لم أفهم أبداً لماذا لم ينصف كامپيل تومسن، الذي كان ذا اهتمامات فنية، هذا الرأس الرائع، ولكنني أعتقد أنه كان يخشى أن

---

(٤) مجلة تصدرها المدرسة البريطانية للآثار في بغداد منذ عام ١٩٣٣. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

يظن أنه لا يبحث إلا عن أدلة أدبية، وأن ذلك قد يجعل مدير الآثار آنذاك متحيزاً في إعطائه الآثار النقشية كلها التي كان يعتقد أنه يحق له الحصول عليها.

على الرغم من أنني كنت شديد الاهتمام، وحتى مبهوراً، باكتشافات كامبيل تومسن كلها في تل قوينجق، فإن الشأن الوحيد الذي عُنيت به في الموسم الذي عملت فيه معه كان الإشراف على الحفرة العميقة التي عهد إليَّ بحفرها. وعلى الرغم من أنه لم يكن يمتلك فكرة سامية عن عصور ما قبل التاريخ، فقد كان يدرك الاكتشافات البالغة الإثارة في بلاد بابل: في أور الكلدانيين وكيش والوركاء ومواقع أخرى، وأظهرت للعيان مسرح بلاد الرافدين في تاريخ مبكر. لهذا السبب اعتقد كامبيل تومسن أن من الضروري أيضاً إثبات ما كان تحت الآثار الآشورية حتى التربة البكر.

لذا انتخبنا مكاناً عند أعلى نقطة في التل وكان كامبيل تومسن متيقناً بأننا لن نضطر إلى الحفر لعمق كبير لأنه كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن نينوى قد أسست على طبقة من الصخور الرملية أو كتلة مختلطة، وربما كان أقصى عمق نضطر إلى الوصول إليه هو ٤٠ قدماً. ولما كنت أعرف أنه كان شديد التردد في إنفاق المال على التنقيبات المرتبطة بعصور ما قبل التاريخ فقد شجعته بقوة على رأيه رغم شكوكي. ولأنني أدركت أننا يحتمل أن نحفر إلى عمق كبير جداً فقد شرعنا في العمل في منطقة سطحية لم تكن أبعادها تقل عن ٧٥×٥٠ قدماً، إذ كان واضحاً أننا كلما توغلنا في الحفر نضطر إلى تقليص مساحة حفرتنا. والواقع أننا عندما وصلنا إلى القعر لم تكن الحفرة سوى حجرة صغيرة تبلغ أبعادها ١٢×١٢ قدماً. لم يستغرق منا وقتاً طويلاً النفاذ إلى الطبقة السفلى من الطبقات الآشورية التي وصلناها

Twitter: @ketab_n

على عمق حوالي أربعة عشر قدماً تحت سطح الأرض. وتحت تلك العلامة كان الركام كله يعود إلى ما قبل التاريخ، وسرعان ما وصلنا إلى طبقة أصبح بوسعنا أن نؤرخها بحوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م.

وأخذ عمق الحفرة يزداد وتتقلص أضلاعها يوماً بعد يوم. وبدأ كاميل تومسن يسألني بقلق عن الوقت الذي يمكن أن تتوقف فيه هذه العملية المخيفة، وكنت أؤكد له أن ذلك لن يتطلب سوى بضعة أيام أخرى، وهكذا حتى وصلنا إلى عمق ٣٠ قدماً و٣٥ قدماً و٤٠ قدماً و٥٠ قدماً دون أن تظهر علامات على توقف الركام. وفي الواقع ازداد عدد الكسر.

بعد قضاء عدة أسابيع في مهمتنا بدأ كاميل تومسن يتحدث عن وقف هذه العملية برمّتها. فاضطررت آنذاك إلى استغلال نزعته إلى الاقتصاد في النفقات وبخله الشديد وقلت له إننا إذا توقفنا قبل الوصول إلى التربة البكر نكون قد بددنا نقودنا كلها، وهذه عملية غير مثمرة وتتسم بالتبذير حقاً. وافق على هذا الرأي وواصلنا الحفر في أعماق الأرض. أصبحت العملية مخيفة حقاً، إذ لم يكن العمال حذرين، ومن الغريب أنه لم يقع حادث. كنا قد حفرنا الثلاثين أو الأربعين قدماً العليا بشكل منحدر، أو بانحدار خلفي، لنضمن عدم هلاكنا بسبب سقوط جزء من الأعلى، لأن بعض الطبقات كانت قد تعرضت للعبث الواسع بها، وأعتقد أنه لو كانت لي خبرة هندسية، أو لو كنت شاباً أقل عناداً، لانتابتنا أشد المخاوف من هذه العملية الخطرة المظهر. وفي الحقيقة أصبح الوزن الهائل للتربة الفوقية الضاغطة على كلا الجانبين يعني أن تماسك الحفرة عند الجانب كان بسبب الحجارة، ولمّا كنا قد اتخذنا تدابير وقائية إزاء الجزء الأعلى فإن العملية كانت مأمونة ما عدا العمال أنفسهم الذين كانوا يفتقرون

Twitter: @ketab_n

تماماً إلى الحذر وتعوّدوا على القفز عبر الزوايا العليا لهذه الحفرة.

وخلاصة القول أنه كان يجب أن نحفر في الركام إلى عمق لا يقل عن ٩٠ قدماً لكي نصل إلى التربة البكر. وعندما كنا ندلي سلالنا الفارغة من قمة الحفرة إلى قعرها كان الصدى يحدث ضجة مخيفة تشبه سقوط بيت. وفي حفرة متقلصة من هذا النوع كان يصعب استخدام السلالم، وسرعان ما اضطررنا، بدلاً من حفر درجات اعتيادية واطئة، إلى جعل كل درجة من السلم بارتفاع ٣-٤ أقدام ووضع رجل على كل واحدة. وهكذا كانت السلال تنتقل من واحد إلى آخر في سلسلة، ثم تدلى السلال إلى القعر وكانت هذه الطريقة العملية الوحيدة لإعادتها إلى القعر بأقل تأخير. وأصر كامپيل تومسن على النزول إلى قعر الحفرة مرة كل يوم ليرى تقدم العمل. ولما كنت شاباً لم أفهم سبب الضجة التي كان يحدثها وهو يصعد الحفرة وينزل إلى عمق كبير. وبعد سنوات كثيرة عندما تقدم بي العمر وأصبحت أفقد اتزاني في المرتفعات أدركت كم كان جريئاً عندما كان يقوم بالنزول والصعود وهي عملية لم تكن صعبة عليّ كشاب غر.

بعد مواصلة الحفر ستة أو سبعة أسابيع وصلنا إلى التربة البكر وحفرنا فيها لنتثبت من أنها كانت بكراً حقاً. وجدناها طيناً جيرياً صلباً يميل إلى اللون الأحمر أسست عليه المستوطنة الأصلية، ووجدنا ونحن مندهشون جداً أن أكثر من أربعة أخماس هذا التل الكبير يعود إلى العصور قبل الآشورية وعصور ما قبل التاريخ. كان هذا التتابع الطويل لطبقات ما قبل التاريخ مثيراً، ولا بدّ أن أستعرضها لإعطاء فكرة عامة عن مغزى هذا التتابع.

من بين مجموع التراكم الذي يقل عن ١٠٠ قدم من الركام الذي يتكون منه تل قوينجق يعود ٧٢ قدماً إلى عصور ما قبل التاريخ.

Twitter: @ketab_n

واستطعت في نهاية العمل تصنيف الطبقات إلى خمسة عصور رئيسية ابتداءً بعصر نينوى الأول في القعر وانتهاء بعصر نينوى ٥ في القمة. ونستطيع وفق تقدير محافظ أن نعد أن هذه العصور الخمسة تغطي فترة تبلغ على الأقل ثلاثة آلاف سنة من حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م (نينوى ٥) إلى عام ٦٠٠٠ ق.م على الأقل.

كان عمق الطبقة التي ضمّت عصر نينوى ٥ زهاء ١٢ قدماً وهي ذات أهمية استثنائية. وقد تألفت من ركام خرائب بيوت من الآجر غير المفخور كانت مليئة جزئياً برمل حملته الرياح، مما يظهر أنها كانت مفتوحة ومهجورة فترة أعقبت التخلي عنها. وضمّت هذه الطبقة فخاراً مطلياً جيداً لم يسبق العثور عليه في مكان آخر يمثل تلك الوفرة، ولم يكد يسبق له الظهور قبل هذا الزمن. كانت أواني الزهور ذات القواعد والجرار الكبيرة مطلية باللون الأسود أو الأرجواني وتحمل تصاميم هندسية إضافة إلى أشكال لحيوانات بما فيها غزال يرضع صغاره وطيور الماء وسلسلة من الماعز الطويل الرقبة يبدو شبيهاً بالزرافات ويذكّر بالوحوش الطويلة العنق المرسومة على أواني الزهور في أواخر عهد ما قبل السلالات في مصر. وربما كانت هناك صلة أسلوبية بين الاثنين. ولا بدّ من الربط بين هذا النوع المبكر من فخار نينوى ٥ المطلي وفخار جمدة نصر الشهير في الجنوب وكان النوع الشمالي نوعه المستقل.

بدأت المعادن تحتل مكان الصدارة في هذه الفترة أي حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م. وفي الواقع إن التطور المتأخر لهذه الأواني المطلية التي تعود إلى عصر نينوى ٥ تضمن استخراج المعادن والاستفادة منها، وكانت تضم مصنوعات رمادية جميلة الصنع من الواضح أنها كانت تقليداً للفضة وزينت بأشكال مثلت التزيين على الفضة. وقد عثرت

Twitter: @ketab_n

بعدئذ في الحفرة التي حفرتها في شكر بازار في شمال سوريا على أوانٍ مشابهة محاطة برباط فضي.

كان عصر نينوى ٥ بأختامه الأسطوانية السومرية الطراز على اتصال وثيق ببلاد سومر أو جنوب بلاد بابل، ولكنه كان نسخة شمالية مستقلة عنها. وأعتقد أن الجاذبية الرئيسية لعصر نينوى ٥ هي احتمال أنه يتفق مع أقدم ظهور للكتابة في الشمال، أي في بلاد آشور ما قبل التاريخ.

كانت تحت طبقة نينوى ٥ مباشرة طبقة عميقة هي طبقة نينوى ٤ التي ضمت فخاريات حمراء جيدة النوعية تشبه الفخار الذي عثر عليه في أور وفي أوروك، وبالقرب من القمة كانت هناك بعض طبعات الأختام الجنوبية المبكرة التي يوجد مثلها في سوسه بإيران أيضاً. وعثرنا أيضاً على فخاريات أرجوانية تحمل سمات عصرَي أوروك وجمدة نصر، وعلى أعداد كبيرة من الطاسات المشطوبة الحافة والخشنة الصنع. عثر على المئات منها في أنحاء نينوى كافة مقلوبة في التربة واحتوت عموماً على آثار مواد نباتية. ويعتقد بعض الباحثين أن هذه الفخاريات الرديئة ربما كانت تستخدم لترشيح اللبن وصنع الجبن، ولكنني أعتقد أنها ذات طابع سحري واستُخدمت لتكريس الأرض مثلما كانت الطاسات المنقوشة بنقوش سحرية فينيقية أو مندائية تُدفن تحت البيوت لطرد الأرواح الشريرة. ولا بدّ أن شيئاً مثل هذا ارتبط بهذا الفخار المشطوب الجدير بالملاحظة والذي يوجد في أنحاء غرب آسيا كافة. فقد عثر عليه في سوسه وحتى في أرمانت بمصر، وهو مثال مذهل لتقنية بسيطة وواسعة الانتشار لا بدّ أنها انطوت أساساً على معتقد خرافي سحري شائع.

على عمق كبير في التل تحت طبقة نينوى ٤ عثرنا على تراكم

Twitter: @ketab_n

لركام لا يقل سمكه عن سبعة أمتار أو أكثر من واحد وعشرين قدماً يمثل عصر نينوى ٣ الذي ضم أساساً سلسلة من الفخاريات الرمادية، بعضها مصقول. كان الفخار هنا، على خلاف فخار نينوى ٤، مصنوعاً باليد وليس باستعمال عجلة. وهذا الخزف معاصر جزئياً للفترة المعروفة في الجنوب بعصر العُبيد ويجب تحديد تاريخها بين ٣٥٠٠ و٤٠٠٠ ق.م. وكان هناك قليل من الفخار المطلي الذي يمكن تفسيره بأنه الحد الأقصى لتقليد العُبيد. غير أن اكتشاف دليل يؤكد وجود صلة جنوبية تمثل في اكتشاف مناجل طينية من النوع الذي اقتصر استعماله على عصر العُبيد في وادي نهر الفرات الجنوبي، وهو اختراع جدير بالملاحظة لا بدّ أنه رافق زيادة إنتاج الحبوب الغذائية، لا سيما القمح والشعير، وربما صُمّم في وقت شهد نقصاً في المناجل الحجرية. إلاّ أن الأدوات المصنوعة من الطين المشوي كانت عرضة للإفراط في التبذير وتُركت في نهاية عصر العُبيد.

في قعر هذه الطبقة السكنية اكتشفنا سلسلة من الطبقات الرطبة بلغ عددها ١٥ طبقة من الطين والرمل النهري بالتناوب، وفسرت هذا بأنه دليل على فترة محددة تشير إلى تغيير مناخي مهم. وربما تتطابق هذه الظاهرة الملاحظة في نينوى مع الطوفان في طبقات عصر العُبيد التي اكتشفها وولي في أور ووصفتها في الفصل السابق. وكان تومسن يخشى مسألة الطوفان ولا يسمح لي بالتحدث عنها، ولكن هذه الطبقات في رأيي هي مؤشر لفترة نهرية. وكانت نينوى بطبيعة الحال أعلى من أن تتأثر بأي فيضان كبير، ولكن الفيضانات الكبيرة ارتبطت بالأمطار، ولعل هذا هو ما كان يقابل الظاهرة الملاحظة في أور في الجنوب.

أخيراً وصلنا في الحفر إلى عمق زهاء اثنين وسبعين قدماً تحت

Twitter: @ketab_n

قمة طبقة نينوى ٥ حيث لاحظنا ظاهرة تلفت النظر هي طبقة نينوى ٢ التي يمكن أن تميز فيها ثلاث مراحل. وُجد في الطبقة الأقدم فخار مطلي ذو أشكال بخطوط مستقيمة، ورافقتها أحياناً حزوز على الإناء نفسه. وكانت هناك مرحلة وسطى ندعوها مرحلة سامراء، وتتسم بطراز شهير عُثر عليه في موقع سامراء على نهر دجلة على بُعد تسعين ميلاً إلى الشمال من بغداد، وفوقها مرة أخرى فخار مثير للإعجاب وزاهٍ سمّيناه فخار حلف. كانت هذه المصنوعات الجميلة التي معظم تصاميمها هندسية، وكثير منها منقط، مطلية غالباً بطلاء أسود لامع. لم يتفوق عليه فخار آخر من عصر ما قبل التاريخ في النوعية، وكان اكتشاف مكانه الحقيقي المقسم طبقات هنا أول مرة، أمراً مثيراً. فعلى الرغم من اكتشاف بعضه في موقع النوع الذي نقب فيه البارون فون أوبنهايم، أي تل حلف على نهر الخابور الأعلى، فإن الخبراء اختلفوا في كيفية تحديد تاريخه. هنا في نينوى كان لدينا دليل مؤكد أنه سبق عصر العُبيد، وهو دليل أيدته اكتشافات كثيرة أخرى. ولدينا سبب للاعتقاد أن بعض فخار حلف صُنع منذ عام ٥٠٠٠ ق.م أو بعد ذلك بقليل. وهكذا تأيد مكانه المؤكد بين العُبيد وسامراء أول مرة، في هذه الحفرة في نينوى.

لقد لاحظ كامبيل تومسن نفسه في جولاته السابقة على القدمين في الريف وجودَ الفخار في موقع الأربجية على بعد حوالي أربعة أميال شرق نينوى، وجلب العمال في أثناء العمل نماذج من الأربجية تدل على أن نوعَي الفخار متماثلان. وكان هذا الاكتشاف هو الذي جعلني فيما بعد أشرع في حفر حفرة في ذلك الموقع نفسه وسوف أصف ذلك بإيجاز في الفصل التالي.

لست بحاجة إلى أن أقول الكثير عن قعر طبقة نينوى ١. واصلنا

Twitter: @ketab_n

الحفر حتى وصلنا إلى الطين البكر. وفي ذلك المكان المتقلص، كما سبق أن قلت، البالغة مساحته حوالي ١٢ قدماً مربعاً، عثرنا على بدايات فخار في شمال بلاد آشور، وكان فخاراً بسيطاً جداً وغير متقن مع أختام قليلة لا تحمل سوى علامات خيوط. وعُثر على هذا النوع من الفخار نفسه في مواقع كثيرة أخرى، ويكفي القول هنا إننا كنا نعمل في طبقات معاصرة لموقع حسونة الشهير الذي نقب فيه سيتن لويد وفؤاد سفر، واستخرجت ديانا هيلبيك نماذج أقدم من هذه الحقبة المبكرة نفسها بعدئذٍ في السنوات القليلة الماضية في موقع أم الدباغية في شمال غرب العراق. وألقت ديانا هيلبيك ضوءاً ساطعاً على مرحلة مبكرة من السلسلة الحضارية نفسها وعثرت على سلسلة من البيوت البدائية، في مكان بعيد في السهل الواسع الخالي من الشجر كانت تكثر فيه حيوانات الصيد والحيوانات البرية. ويبدو أن القبائل البدائية ذهبت إلى هناك لجمع الجلود وحيوانات الصيد، وهو مصدر لتجهيز المستوطنات الأكبر الواقعة إلى الشرق. وهكذا استطاعت إعادة تزويد مواضع حفظ الأطعمة خصوصاً بلحوم الغزلان والحمر الوحشية. لم يكن الوصول إلى قعر هذه الحفرة العميقة إنجازاً سهلاً، وكنا ممتنين جميعاً لأننا خرجنا منها أحياء عدا العمال الذين تمتعوا بالعمل تماماً وافترضوا أنه مأمون تماماً. وأتذكر أن تومسن ظن أنني سأواجه صعوبة كبيرة في إيجاد المتطوعين لمواصلة الحفر لأننا كلما واصلنا العمل كان عدد العمال في قعر الحفرة يتقلّص فعلاً، وتصور أنهم يفضلون جميعاً العمل في الحفر الأكثر ربحاً حيث يحصلون على (البخشيش) عن كل نقش صغير أو كسرة لوحٍ يعثر عليه.. إلا أنني واجهت الصعوبة بهدوء بمنح مكافآت عن كل كسرة مطلية، وعندما بذل العمال عناية أكبر وأجهدوا عيونهم كي لا يفوتهم شيء أصبحت المهمة ممتعة جداً،

Twitter: @ketab_n

ولذا لم أواجه أدنى صعوبة في إيجاد متطوعين لإنجاز العمل. وعندما تعود بي الذاكرة إلى هذه الحفرة أشعر بالفخر لأنها تمثل إنجازاً مهماً وهي بلا شك أعمق حفرة تنقيب حفرت في أي مكان في غرب آسيا. ولم يسبق أن حفرت حفرة مثلها ولا يحتمل أن تحفر مثيلتها في المستقبل.

كانت مساحة حفرتنا محدودة طبعاً، ولم يكن بالمستطاع الحصول على أكثر من نتف صغيرة من الأدلة المعمارية التي تمثلت أحياناً ببقايا جدران بشكل قصب وحصى بالطين، وعزز ذلك الإطار الذي وضعناه لتاريخ السلسلة الذي أعتقد أنه ثبت بمرور الزمن.

بعد إنجاز الحفرة في نينوى لم يعد كامبيل تومسن إلى الشرق وافترقنا بوصفنا رفيقين في الحقل، ولكنه بقي صديقاً عزيزاً طوال حياته، وتمتعت بالموسم الذي قضيته وأنا أعمل معه. لم يكن منقباً ذا مهارة عالية مثل وولي، إلا أنه كان فكتورياً نشيطاً ورفيقاً طيباً يتمتع بروح مرحة. كان كثير الاهتمامات وذا بصيرة، وحاول فك رموز الحروف الهيروغليفية الحثية في وقت مبكر وأطرى جهده ر. د. بارنيت. وكانت لديه أفكار مثيرة كثيرة وكان هو الذي أعرب عن الرأي في أن الحكومة الآشورية ربما انتقلت إلى حران في الشمال بعد عام ٦٤٠ ق.م وهو أكثر من محض احتمال، لأن حوليات آشور بانيبال تتوقف بعد ذلك التاريخ. وعندما بدأ الصراع مع الميديين كانت حران هي المدنية التي انتقلت إليها الحكومة الآشورية، وهذه نظرية ما تزال تستحق الاهتمام.

اعترف بالمركز الرفيع لكامبيل تومسن بوصفه مستشرقاً بمنحه زمالة كلية ميرتن بجامعة أوكسفورد، إلا أنه لم يساهم إلا قليلاً في اجتماعات الكلية، لأنه كان عنيداً في الجدل ومتمسكاً برأيه. وكان

Twitter: @ketab_n

يقول لي إنه لا يجيد العمل في اللجان ولم يكن لديه وقت كثير لما سمّاه «الأفكار المبتدعة الجديدة». وأعتقد أنه كان أحرص رجل في العالم، إذ تمكن من إدارة الحفر في نينوى بكلفة إجمالية بلغت (١٧٠٠) باون. وفي نهاية الموسم أعاد المتبقي من المبلغ إلى سير تشارلز هايد صاحب جريدة برمنغهام بوست، الذي كان يدير اسطبلاً لخيول السباق وكان المتبقي (١١) بنساً بشكل طوابع أعيدت إلى هذا النصير السخي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

الأربجية

كنت في عام ١٩٣٢ مستعداً للتنقيب في حفرة خاصة بي. وكنت في منتهى السعادة بتكليفي بأول عملية إدارة مستقلة حرة تماماً من العبودية للآخرين مهما كانت ممتعة لأنني لم أتهرب من المسؤولية أبداً. كان عمري ٢٨ سنة آنذاك، وأظل مديناً إلى الأبد لأولئك الذين أولوني ثقتهم، لأن تكليف شاب بتولي مسؤولية مشروع جديد تنفق عليه أموال أمر محفوف بالمخاطرة.

لجأت أولاً إلى المتحف البريطاني الذي كان مديره آنذاك سير جورج هل، ولم أنسَ فرحتي عندما قال إن أمناء المتحف مستعدون لدعم المشروع ورعايتي. وأشعر أيضاً بأني مدين بالامتنان لسير إدجار بونهام كارتر، وكان آنذاك رئيساً للمدرسة البريطانية للآثار في العراق التي أسهمت أيضاً بتقديم مبلغ ٦٠٠ باون، وهو مبلغ كان كبيراً في ذلك الوقت. وأنا مدين أيضاً مدى الحياة لسير إدوارد كيلنك، أمين المدرسة النشيط والمخلص. وقد لا يصدق أن المشروع كله، بما فيه نشر نتائج التنقيب، كلّف ألفي باون فحسب، وكان مشروعاً استحق حقاً المبلغ الذي أنفق عليه. وقد نشرت نتائج التنقيب في الملجد الثاني من مجلة المدرسة البريطانية للآثار خلال ستة أشهر من إكمال التنقيب، وكان ذلك إنجازاً كبيراً.

Twitter: @ketab_n

لم تضم هيئة البعثة سوى ثلاثة أشخاص هم أنا وزوجتي أجاثا، التي انضمت إليّ منذ العمل في نينوى في كل بعثة تنقيبية في الشرق، وجون روس، صديقي الذي عمل معمارياً في أور. وأتذكر أنني أقنعته بمصاحبتنا قائلاً إنّ العملية ستكون عطلة رائعة ـ وهي عبارة ذكرني بها فيما بعد، لأنني أشك في أننا قد عملنا بجد أكبر من هذا في حياتنا، حتى في أور، إذ لم يكن يرفع عينيه عن لوحة الرسم. إلا أن هذه البعثة الصغيرة كانت ممتعة.

كان مدير الآثار في بغداد آنذاك ألمانياً اسمه يوليوس يوردان. ولم تكن هناك صعوبة في الحصول بواسطته على إذن بالتنقيب في الموقع، ولو أنه برهن سياسياً على أنه ليس صديقاً، فقد كان عميلاً نازياً وبذل كل ما يستطيع لإضعاف السلطة البريطانية في العراق. إلا أنه كان شخصاً لطيفاً غاية اللطف على الصعيد الشخصي على الرغم من عدائه الشديد للسامية. وكان موسيقياً ممتازاً ورقيق الأحاسيس. وبدا غريباً أنّ هذا الرجل المولع بالفنون والمثقف قد خضع للعهد الهتلري الجديد.

عندما وصلنا بغداد نزلنا في فندق مود، وهو فندق بدائي وبسيط، ولكن صاحبه اللطيف مايكل زيا وفّر الضيافة السخية، وكان كثير من النزلاء مدينين لكرم ضيافته.

انطلقنا من بغداد إلى الموصل في أوائل الربيع، وحسناً فعلنا، إذ كانت هناك معاملات كثيرة تتطلب الإنجاز قبل أن نستطيع الشروع في التنقيب. ونزلنا في البداية في استراحة محطة القطار في الموصل التي كان يديرها بكفاءة مسيحي آثوري. لم ينقطع هطول الأمطار وكانت تكهناته متشائمة جداً بحيث إننا تصورنا أننا لن نشرع في العمل أبداً. ولكننا استفدنا من وقتنا، إذ شرعنا في البحث عن صاحب الأرض للحصول على موافقته على التنقيب فيها. وأفلحنا في ذلك من خلال

Twitter: @ketab_n

التحريات في الأربجية نفسها وبمساعدة حارس في البنك العثماني اسمه مجيد شعيا، سبق له أن عمل خادماً لكاميل تومسن، وقد بذل كل ما يستطيع لمساعدتنا.

وللحصول على إذن باستئجار الأرض كان علينا لا التوصل إلى معرفة صاحب الأرض فحسب، بل اكتشاف من كانت مرهونة عنده أيضاً، وهي مهمة صعبة لأن الرهون، التي هي شائعة في الشرق، كانت كثيرة وبدا أنها تزداد يومياً. وفي نهاية المطاف توصلنا إلى معرفة ما لا يقل عن أربعة عشر منهم وبذلنا جهوداً مضنية في جمعهم. وأخيراً وزعوا على عربتين تجرهما الخيول ونقلوا إلى المصرف ليوقعوا بالإبهام على العقد. وأعتقد أن عددهم كان ناقصاً آنذاك، ولكننا أنجزنا المعاملة ووضعنا عقداً بعد اعتراضات كثيرة، وكان على مالك الأرض بموجبه أن يدفع ألفي باون إذا عرقل عملنا بأي شكل كان. وانتهت المسألة كلها ودياً مقابل مبلغ زهيد من المال.

كانت الأمور الأخرى التي شغلتنا هي الانتقال من دار الاستراحة وإيجاد مسكن ملائم لنا. وكنا محظوظين، إذ اتصلنا بشخص في الموصل يمتلك داراً كبيرة خالية ليست بعيدة عن المسكن القديم الذي عشنا فيه مع كاميل تومسن. كانت الدار تطل على المنظر الرائع لتل قوينجق والجبال من جهة، وتطل عبر نهر دجلة على مدينة الموصل من الجهة الأخرى. كان هذا البيت الكبير ملائماً تماماً لنا، إذ إنه احتوى مخازن كبيرة وغرف جلوس جيدة وسطحاً واسعاً أيضاً، حيث كان بوسعنا نشر فخارنا الكثير.

كان صاحب الدار رجلاً مسناً اسمه داود الساعاتي وكان عمره يتجاوز التسعين عاماً، وقد روى لي ذكرياته عن أول رجل إنجليزي رآه في حياته ـ كان ضئيل الجسم يلبس سترة رجالية سوداء تصل إلى

Twitter: @ketab_n

الركبتين ويسكن في خان رسام في الموصل، وكان قد تعوّد أن يمشي يومياً من الموصل إلى تل نينوى الذي كان ينقب فيه، وكان يعمل معه ما لا يقل عن ٨٠٠ عامل، وهو عدد كبير بحيث تستحيل السيطرة على العمال. وعرفت بسهولة أن الرجل ذا السترة الرجالية السوداء هو جورج سمث العظيم الذي اكتشف في عام ١٨٧٣ لوح الطوفان الشهير في أثناء تنقيباته الملحمية، وكان الحديث ممتعاً مع شاهد حقيقي عرف سمث حياً. لم يكن ذلك اتصالي الوحيد بذكرى ذلك الرجل العظيم، إذ صادف بعد سنوات عندما كنت في حلب أن القنصل البريطاني جاء لزيارتي وقال إن قبر جورج سمث، الذي كان في مقبرة للمسيحيين، يوشك أن يتهدم وأنه يتعرض لخطر النسيان وطلب مني المساعدة في نقله إلى مكان دائم. فعلت ذلك وأُعيد شاهد القبر. وبعد سنوات كثيرة حصلت على مكافأتي عندما اتصل بي هاتفياً حفيده رولاند سمث، الذي كان جاراً لنا في ديفونشير، وسألني إن كنت قد سمعت بجده فأجبته: «لم أسمع به فحسب، بل إنني دفنته».

لنعد الآن إلى الأربجية. قضينا بعض الوقت في ترتيب تأثيث البيت، ونجحنا في ذلك بالاتفاق مع مجموعة من النجارين في الموصل مؤلفة من رئيس العمال وثلاثة مساعدين. وكانوا يسيرون يومياً من الموصل وقد اعتمر رئيسهم طربوشاً عالياً وخلفه مساعدوه الثلاثة. وكانوا يعملون طوال النهار من الفجر إلى الغسق. وحملت سيارة الشحن العائدة لنا ألواح الخشب وأعمال الخشب الضرورية ولم يكلفنا ذلك سوى مبلغ زهيد. وخلال عشرة أيام أنجزنا تأثيث البيت كله تأثيثاً مريحاً واشترينا خزانة أو خزانتين أيضاً.

أتذكر أنه كانت لدينا في قاعة الآثار سلسلة جميلة من العيون المصممة خصيصاً لخزن قطع الفخار المصنف عند وصوله، وشعرت

Twitter: @ketab_n

بالارتياح الشديد عندما لاحظت سرور المرحوم الأستاذ فرانكفورت الذي قال بعد تفقدها إنها أفضل طريقة شاهدها لخزن قطع الفخار المصنف في موقع تنقيب. وسرعان ما استقرت بنا الحال، كما تمتعنا بالحديقة الواسعة والجميلة المليئة بشجيرات الورود التي تفتحت بأعداد كبيرة على الرغم من أن أصحاب البيت تعوّدوا المجيء إلى الحديقة صباح كل يوم لقطف الورود وبيعها في سوق الموصل. وكان آخر ما حصلنا عليه مجموعة من ستة كلاب هجينة، كانت كلاب حراسة ورفقة طيبة.

بعد إكمال الأعمال التمهيدية كلها في آذار/ مارس شرعنا في التنقيب في التل الصغير المسمى تپه رشوا الذي كان وسط حقول الذرة على بعد حوالي نصف ميل إلى الشرق من قرية الأربجية على الطريق إلى بعشيقة. لم نواجه صعوبة في تشغيل العمال على الرغم من أننا لم نكن ندفع أجوراً عالية مثل الأجور التي كان يدفعها الأميركيون. وأتذكر أننا كنا ندفع شلناً واحداً في اليوم وهو أقصى ما كنا نستطيع دفعه، ورغم ذلك لم يكن هناك نقص في الأيدي العاملة. كان العمال يتدفقون من القرى المجاورة وكان بعضهم يقطع أميالاً كثيرة. كنا نحصل على الأيدي العاملة التي نحتاج إليها من قرية الأربجية المجاورة للتل وكنا على صلات ودية بصاحب الأرض واسمه عبد الرحمن. وكان من المُسرّ أن أتمكن أخيراً من توجيه الأمر إلى العمال بالحفر في المكان الذي يريده المرء تماماً دون استشارة أحد. وفي الواقع لم نواجه صعوبة في الأربجية في تحديد أي قطاع من الأرض نحفر فيه لأن التل لم يكن كبيراً جداً، إذ لم يزد مجموع مساحته عن إيكرين ونصف الإيكر على الرغم من أننا لو واصلنا عمليات التنقيب لعثرنا على آثار أخرى خارج تلك المنطقة.

Twitter: @ketab_n

سرعان ما واجهت أول متاعبي مع العمال لأنني كنت قد قررت أن المجرفة، وهي إحدى الآلات القديمة التي كان كامپيل تومسن يفضلها، آلة تستعمل في العمل بالحدائق وأن هذه المجرفة المثلثة الشكل ينبغي التخلي عنها أحياناً لتستبدل بالمسحاة لإبعاد التراب وطلبت من عمالي استخدامها أول مرة. وسرعان ما أعلن العمال المشتغلون بالمسحاة الإضراب معلنين أنهم لا يستطيعون استعمال هذه الآلة. عالجت المشكلة بأن قلت إنني لا أرغب في استخدام سوى اللائقين بدنياً وإن كل شخص غير قوي بما يكفي لاستعمال المسحاة عليه أن يترك العمل. لم يترك العمل سوى القليلين منهم، ولذا لم أواجه متاعب أخرى إلا في اليوم الذي قررت فيه أن جزءاً من العمل يتطلب استخدام المجرفة، فواجهت متاعب أخرى لأن العمال شكوا من أنهم لا يستطيعون استعمال تلك الآلة القديمة.

في الأسبوع الأول أو الأسبوعين الأولين كانت نتائج التنقيب في الأربجية مخيبة كثيراً للآمال، ولم تظهر سوى بقايا الآجر غير المفخور ذي النوعية الرديئة جداً. وبدأت أنا وجون روز نتساءل عما إذا كنا قد انتخبنا موقعاً عديم القيمة كان قرية بدائية جداً لم يبق فيها سوى القليل. ربما كان سهلاً علينا، نحن الذين عملنا في موقع غني بالآثار مثل أور، أن نشعر بخيبة الأمل بسهولة. ولكن سرعان ما اكتشفنا أننا محظوظون. وبعد أسابيع قليلة برهنت الاكتشافات المعمارية واللقى الصغيرة على أنها ذات نوعية مثيرة. إلا أننا عندما بدأنا العمل في قمة التل عثرنا على مستوطنة بائسة نوعاً ما ذات سور مشيّد بالآجر غير المفخور ضم غرفاً صغيرة احتوت على كسر من عصر العُبيد. كان هذا الاكتشاف ذا أهمية قصوى، لأنه أثبت وجود صلة قوية بمرحلة متطورة من حضارة تعود إلى ما قبل التاريخ في جنوب بابل يعود تاريخها إلى

Twitter: @ketab_n

ما بين عامي ٣٥٠٠ و٤٠٠٠ ق.م. يُضاف إلى ذلك أنّه لما كانت بيوت عصر العُبيد هذه مع الفخار العائد لذلك العصر تغطي بقايا عصر حلف فقد أثبتنا إثباتاً قاطعاً علاقة فخار العُبيد المتأخر هذا بذلك الفخار الأقدم منه كثيراً عندما كان ينتج فخار مختلف تماماً.

ومن حسن حظنا أننا اكتشفنا في الجانب الغربي من المستوطنة مقبرةً تعود إلى عصر العُبيد ضمّت قبورها كثيراً من قطع الفخار وكانت نماذج رائعة جداً. فضّل جون روز المسافات المستعملة والاقتصاد في التصميم وعدّها أفضل فنياً من تصاميم فخار حلف، وربما كان مصيباً في حالات كثيرة، إلا أن تركيب فخار حلف وشيّه كانا أبسط بكثير ولا يمكن أن يقارن بفخار حلف الأقدم منه في ذلك الجانب.

ولكن بعض التصاميم الدقيقة كانت جميلة الإخراج وتسر الأنظار. وكانت بعض الأواني الكبيرة مزخرفة باقتصاد بأشرطة عريضة من الداخل وصفوف عريضة حول الإناء، وهو تصميم غريب وجذاب نوعاً ما لم أشاهده في أي مكان آخر.

لا يتسع المجال هنا لوصف الفخار الذي أوضحته كتب أخرى بما فيها بحثي الأصلي المنشور في مجلة Iraq، ولكنني وجدت إناءً أثار اهتمامي كثيراً.

كان إناءً عميقاً يحيط به من الخارج رسم أُريد به، كما هو واضح، تمثيل ثلاثة أشرطة مثلثة ربطت أطرافها بحلقة في قاعدة الإناء، وهذه تكاد تكون بلا شك تقليداً لحلقة معدنية. وعلى ما نعرف الآن فهو من اللقى التي تشير إلى أن المعادن كانت تستعمل آنذاك.

كان من المثير للاهتمام عدم تداخل قبور عصر العُبيد الخمسة والأربعين الواحد مع الآخر، لذا يحتمل أن الأشخاص دفنوا جميعاً خلال فترة ليست طويلة. وربما كان يوجد أصلاً نوع من الشاهد على

Twitter: @ketab_n

القبر مصنوع من الخشب اختفى منذ زمن طويل وكان يدل على المكان.

لم تكن هناك أشياء صغيرة نستطيع نسبتها يقيناً إلى عصر العُبيد غير بعض الخرزات والتعويذات القليلة المهمة لأنها كانت سمة ذلك العصر ولا سيما بعض الخرزات المحززة والأختام المصنوعة من الطين النضيج (التراكوتا) والمحززة غير المألوفة نوعاً ما والتي اعتقدت أنها ربما كانت تستعمل لختم القماش. وسبق أن أشرت إلى بدء استعمال المعادن وتمثّل ذلك بفأس نحاسية مسطحة من نوع نادر لا يوجد مثله إلا في سوسه بإيران.

عثرنا تحت الطبقات الأربع العليا من بيوت عصر العُبيد على سلسلة من المستوطنات لا تقل عن إحدى عشرة مستوطنة سابقة، يعود معظمها إلى العصر المعروف بعصر حلف. وربما كانت الطبقة الخامسة من القمة التي يرمز إليها TT5 طبقة انتقالية، ولكن هناك عشر طبقات أخرى قبلها تعود إلى تاريخ مبكر ربما كان حوالي عام ٥٠٠٠ ق.م. هنا ظهر فن معماري لافت للنظر، وهو شيء غير معروف أبداً في هذا الجزء من العالم، وضم مباني مشيدة، وفق خريطة أرضية دائرية، على أسس حجرية، وتسمّى ثولوي أي المباني المقببة. كان مجموعها عشرة مبانٍ، وضم أقدمها غرفاً دائرية مصنوعة من الطين المضغوط الذي يبلغ قطره اثني عشر قدماً، ولكن بمرور الزمن أصبحت المباني تدريجياً أكثر تعقيداً وأوسع. وكان أبرزها المبنى الشمالي الكبير في المستوطنة السابعة التي يرمز إليها TT7، حيث يبلغ نصف قطر الغرفة الدائرية ٣١ قدماً وارتفاعها ١٠ أمتار وكان الدخول إليها من حجرة انتظار طويلة يبلغ طولها ٦٠ قدماً. كانت الأسس الحجرية في سبعة من تلك المباني سليمة وتتكون من جلمود

Twitter: @ketab_n

نهري كبير وحصى وصخور مختلطة وصخور رملية. ولم يجرؤ البناؤون اللاحقون في أية من الحالات على تحريك الأسس الأقدم أو بعثرتها على الرغم من أن الحجر لم يكن متوفراً في الموقع. والاستنتاج هو أن الأسس أُبقي عليها عمداً كعمل يدل على الورع وأن المباني نفسها كانت تعدّ مقدسة.

هكذا يعكس احترام الأسس، الذي تأيّد أنه يعود إلى الألف الخامس أو السادس قبل الميلاد، تقليداً كان ما يزال مطبقاً في سومر بعد ذلك بما يزيد على ألفي سنة. ولم يكن لدينا سوى قليل من الشك في أن هذه المباني المتينة كانت أضرحة، إذ توجد حول أكثرها أهمية مدافن بشرية مقابل الجدران مباشرة ضمّت كميات كبيرة من الفخار المطلي، وبدا جلياً أن هذا المكان كان أهم أماكن الدفن وأقدسها. ولا شك في أنها كانت محصنة جيداً وربما كانت تستخدم حصناً في أوقات الشدة، ويحتمل جداً أن الأشياء الثمينة في المستوطنة كانت تحرس بعناية... ولكن الأدلة كلها تشير داخلياً إلى أن عصر حلف كان عصراً سلمياً، وكانت الأسلحة الحربية نادرة أو لا وجود لها فعلياً، ومن المؤكد أن طابعها كان بدائياً جداً واقتصرت على بضعة قضبان شائكة لتحطيم الدروع وسهام ومقاليع هي أسلحة القتال في ذلك الوقت. وتوجد إمكانيات مختلفة لتصور شكل هذه المباني، ووضع مهندسنا المعماري جون روز عدداً من الرسوم لها. ويبدو من المحتمل جداً أن غرفة الانتظار كانت مسقفة، وربما حتى معقودة. إن أهمية هذه المباني المعقدة نوعاً ما هي أنها، باستثناء واحد من الأبنية، منفصلة وليست تحت الأرض مثل القبور المايسينية[1] التي تشبه خلايا

---

(١) المايسينية: نسبة إلى مايسينيا في جنوبي اليونان. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

النحل. ولا بدّ أنها أسلاف ما قبل التاريخ للقُرى الشبيهة بخلايا النحل في شمال سوريا التي بقيت موجودة في هذا البلد الزراعي حتى العصور الحديثة.

إذا كانت هذه المباني المقببة الأنيقة أضرحة حقاً فَلِمَنْ كُرِسَتْ؟ أعتقد أننا نعرف الجواب عن هذا السؤال، لأننا عثرنا في كثير منها على نماذج عديدة خصوصاً من الطين وعلى نماذج قليلة أخرى من الحجر لتمثال أطلقنا عليه «الإلهة الأم». كانت هذه النماذج تمثل نساء بأثداء متدلية، بعضهن عاريات وآخريات بملابس متنوعة ويضعن الأحزمة والمشدات وبأثداء مكشوفة، وكان بعض النماذج مطلياً وفق طراز فخار تل حلف. وعلى الرغم من أننا أطلقنا اسم «الإلهة الأم» على هذا النوع من التماثيل، فإنها ربما كانت لا تمثل الإلهة الأم شخصياً. بل ربما كانت النساء يكرسن التمثال لها وهن يتوقعن عطف الإلهة في أثناء الوضع. وكان بعضهن في سن معيّنة وغيرهن فتيات عذارى، وكانت مجموعة مثيرة للاهتمام كثيراً. ومن الغريب أيضاً أن الكثير من التماثيل كان قطعاً بسيطة من الطين اللدن تمثل نساءً، ولكن الأثداء وعلامات الأنوثة واضحة دائماً، وكانت الأرداف المكتنزة، المرتبطة بدائياً بالحمل الناجح، بارزة. ومثلت عدة تماثيل بهيئة جلسة القرفصاء، وهو وضع الولادة البدائية المألوف. وعلى الرغم من أن هذه التماثيل فُسِّرت تفسيرات مختلفة، فإن التفسير الأكثر عقلانية أن هذه التماثيل كانت في أغلب الأحوال تهدف إلى تعجيل المخاض بالسحر الذي يجلب العطف، وكانت أيضاً تعاويذ تجلب الخصب للنساء العُقُم.

كانت بعض النماذج المطلية الأكثر تعقيداً تمثل نساء يرتدين ملابس ضيقة، وربما ثوباً شفافاً قرمزياً. وكان يؤكد الأثداء أحياناً

Twitter: @ketab_n

بالنقش المنقط، ولم يكن الرأس أكثر من علامة بسيطة، وكان واضحاً أنه كان هناك خوف من تمثيله بشكل واقعي، ربما بسبب نوع من الرجس أو الخوف على الشخص. وعثر على تماثيل مشابهة، على صلة وثيقة بالمباني المقببة أيضاً في يارم تبة في منطقة سنجار، حيث اكتشفت بعثة سوفياتية سلاسل طويلة من المدافن والمساكن من عصر حلف. ومن الجدير بالاهتمام أنه عثر في يارم تبة على أدلة كثيرة على الحرق في المباني المقببة وحولها. ولم تلاحظ آثار الحرق إلا في أحد المباني المجاورة في الأربجية لا في وسط الموقع.

وبالمقارنة بالإلهة في الأربجية كان عنصر الذكورة يمثل بالثور، وعثر على تماثيل كثيرة له. وعثرنا أيضاً على نماذج لرؤوس ثيران بقرون وتميمتين صغيرتين بديعتين وجمجمة ثور من حجر الكلس وحافر ثور. وظهرت في نماذج كثيرة أخرى مهارة ناس عصر حلف في نحت المصغرات من الحجر من الأنواع كافة، بما فيها عدد من الأواني الحجرية الجميلة الصنع. وكانت التماثيل المطلية التي تمثل رأس ثور أو جمجمته منتشرة الاستعمال في الفخار وتراوحت بين أشكال طبيعية أو واقعية ورسوم هندسية الأسلوب والتفافات متقنة للقرون.

عُثر على الزجاج البركاني بكثرة في الأربجية وتضمّن أساساً سكاكين وكاشطات نحتت في الموقع نفسه، إذ عثر على أجزاء كبيرة محفورة بجانب الأدوات المنجزة. كانت السكاكين حادة ويمكن استعمالها مواس حلاقة. وكان من الاكتشافات الفريدة إناء زهر طويل من الزجاج البركاني لا بدّ أن حفره كان عملية مملة ومجهدة.

وعثر أيضاً على سلاسل ربط كثيرة من الزجاج البركاني ربما استُعملت مشدات وعلى عقد مكوّن من خرز كبيرة بشكل معيني من المادة نفسها متناوباً مع الصدف الأصفر المنحوت، ويشير ذلك إلى

Twitter: @ketab_n

علاقات تجارية بعيدة مع الشمال من جهة ومع المحيط الهندي من جهة أخرى. إن هذا الزجاج البركاني يُجلب من شواطئ بحيرة ڤان في شرق الأناضول وتسيَّر رحلات تقطع فيها مئات الأميال للحصول عليه، كما يشير إلى تجارة واسعة. ونحن نعرف أن الزجاج البركاني من منطقة بحيرة ڤان ثلاثة أنواع منه معاً في الأربجية وفي مكان المنشأ شاميم آلتي.

تظهر نماذج طينية كثيرة للماشية والثيران والأغنام وبعض الطيور إضافة إلى البط وقنفذ. وهذا لا يدل على اهتمام السكان بعالم الحيوان فحسب، بل على استعدادهم أيضاً لعمل نماذج لماشيتهم. ومما يلفت النظر أيضاً نماذج صغيرة من الحجر الصابوني بهيئة فأس مزدوجة هي رمز لما لا نعرفه الآن، ولكن ربما ارتبطت بعقيدة الموتى. وتظهر بكثرة أيضاً أشكال صليبية متقنة تحتل وسط قطع الفخار.

لا بدّ أن أذكر أيضاً من بين التمائم مصغرات كنا نظن أنها تمثّل المذراة. كانت نماذج المناجل منتشرة وتوجد قلادة صغيرة لافتة للنظر تمثل بيتاً بسقف جملوني ورافدة منحنية في الأعلى وتعطينا فكرة عن شكل البيوت أقل تعقيداً من الأضرحة المقببة.

كانت السكاكين والكاشطات من حجر الصيوان شائعة حيث ضم أحد البيوت نماذج لعظام الأصابع من الحجر وهي أشياء غريبة عرفت مثيلاتها في موقع المزاراك في أسبانيا وهو موقع الميري من عصور ما قبل التاريخ. وكان هناك رأس صولجان واحد من حجر الكلس ربما كان قطعة للمراسم وفأس من حجر البازلت وأربع قطع من الزجاج البركاني الخفيف لا ريب في أنه كان يُستعمل للصقل، وربما لحك الزجاج البركاني. واستُعملت الفؤوس والأزاميل الحجرية البسيطة الكثيرة وعثر على أدوات عظمية كثيرة ومنها أسياخ لتناول اللحم.

Twitter: @ketab_n

هذا الوصف الموجز للقى الصغيرة الكثيرة ينبغي أن يكون كافياً قبل أن نبحث، ولو باختصار، السلسلة الجميلة جداً من فخار حلف وأهميتها. ترجع أنواع كثيرة من هذا الخزف، الذي يعود إلى عصر حلف، إلى سلسلة طويلة من الطبقات السكنية التي امتدت عدة قرون وغطت نماذج من فخار سامراء وعصر نينوى المبكر في الطبقات السفلى.

عثر على كميات كبيرة من فخار حلف التقليدي وكان جميلاً جداً وذا زخرفة تبعث البهجة وربما عكس بعضه التصاميم على الملابس اليومية. وكادت التصاميم تقتصر على الأشكال الهندسية، حتى عند تمثيل رأس الثور أو جمجمته، وكان أبرز سمات النوع الأفضل من هذا الفخار اللمسات الأخيرة الجميلة ونقاء الطين والتزجيج العالي للطلاء. وكانت هناك أطباق كثيرة متعددة الألوان منقوشة بالنقاط. وكان أجمل الألوان لون المشمش. وتراوح الطلاء، الذي كثيراً ما كان لامعاً، بين الأسود والبني والأحمر. وفي أكثر الفترات تطوراً، بين المستوطنتين الثامنة والسادسة قبل القمة أي TT6-8، كانت بعض الأطباق كبيرة جداً ومزينة بإتقان بواسطات[٢] على شكل وردة إضافة إلى تصاميم صلبان.

استنتجت من ملاحظة أجمل النماذج أن الطين المستعمل حديدي ومنقى بعناية. ولذا شعرت بالرضى الشديد عندما علمت مؤخراً أن آثارياً شاباً اسمه توماس ديفيدسن تدرب على التحليل بالتنشيط النيوتروني واستطاع باستعمال المجهر والمعدات الضرورية أن يتوصل علمياً إلى النتيجة التي توصلت إليها بالعين المجردة. استطاع هذا

---

(١) الواسطة: الجوهر الذي في وسط القلادة وهو أجودها. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الآثاري من خلال التحليل الكيميائي أن يتوصل إلى تحديد ثلاث مراحل رئيسة على الأقل في تطور الفخار تتطابق مع التحليل المستند إلى دراسة الرموز الذي أجريته وأوضحته في البحث الأول الذي نشرته عن تنقيباتي. ومن الواضح أن صنّاع الفخار كانوا يحصلون على الطين من مصدر خاص، ربما ليس بعيداً عن الأربجية، وبذلوا جهوداً كبيرة في غسله وتنقيته. يُضاف إلى ذلك أن ليس ثمة شك في أنهم سيطروا بدقة على شي الطين.

أدت تلك التجارب المبكرة في السيطرة على شي الفخار بلا شك إلى تطورات في علم المعادن بعد فترة قصيرة من انتهاء عصر حلف، رغم ظني أنهم بدأوا بإجراء تجارب بدائية في علم المعادن. وبهذا الخصوص كان أحد أبدع أنواع الأواني الفخارية ما دعوناه بإناء الأربجية الأصفر الشاحب. إنّ بعض هذه الأواني رقيق جداً لا يزيد سمكه على قشرة البيضة، وكان لجميعها قواعد مشطوبة، وتضمنت قناة عميقة كان يمكن تناول الحليب بجرعات كبيرة بها، وهي تشبه تماماً أوعية الحليب المعدنية المستعملة في قرية الأربجية الآن، وقد أوحى إليّ ذلك أنه حتى في ذلك التاريخ المبكر كانت الأواني تستند إلى نموذج معدني. ونادراً ما عثر على أفضل قطع فخار حلف في أماكن أخرى. ولم تعثر بعثة سوفياتية حتى في يارم تبه، حيث حفرت في تراكم سمكه سبعة إلى ثمانية أمتار من طبقات عصر تل حلف، إلا على القليل مما يشبه النوع الرائع الذي كان يصنعه الفخارون في الأربجية الذين اتضح أنهم كانوا يصنعون الفخار لمجموعة من ذوي الامتيازات، إضافة إلى أنفسهم وربما لنينوى نفسها.

وصلنا إلى ذورة اكتشافاتنا وسط التل في طبقات عصر حَلَف، أي في المستوطنة السادسة من القمة TT6، وأُورد هنا اقتباساً من التقرير

Twitter: @ketab_n

الأصلي عنها الذي نشر أولاً في الصفحة ١٧ من المجلد الثاني من مجلة Iraq؛ «ضمت الورشة ما يزيد على ١٥٠ قطعة أثرية مما يدل على أنها مخزن الفخّاري وعامل نحت الحجر حيث كانت قطع الفخار الملون وأواني الزهور الحجرية والحلي، بما فيها قلادة من الزجاج البركاني وتماثيل دينية وتعاويذ وأدوات من حجر الصوان والزجاج البركاني، تنتشر انتشاراً مضطرباً في حجرة واحدة ضمت أيضاً آلاف القطع التي يتسم بها محل قاطع الحجارة. وكان كثير من هذه الأشياء، ولا سيما الفخار والحلي، قريباً من جدران الغرفة، على خشب متفحم مما يشير إلى أنها كانت أصلاً موضوعة على رفوف، أو الأرجح على قطع أثاث، ربما كانت مناضد.

يدل على حقيقة كون شاغل المكان فخارياً، وليس جامعاً لتلك المصنوعات فحسب، اكتشاف قطعة كبيرة من المغرة ochre والمناقيش الحجرية التي كان يستعملها الرسامون ملقاة على الأرض ومختلطة بقطع الفخار.

لقد حفظت لنا أقدار الحرب هذه اللقى اللافتة للنظر، إذ إن غازياً نهب هذا البيت وأحرقه، وربما كان الغزاة سكان طبقات العُبيد التالية. ولحسن الحظ أن العدو اكتفى بالتدمير ولم يكترث لرفع الأشياء التي عثر عليها بوفرة تحت السقف الذي كان قد انهار في الحريق.

أبدى لي زميل سوفياتي عَمِلَ في يارم تبة هو الدكتور مونشاييف أن هذا الاكتشاف في المستوطنة السادسة ربما يمثل محاولة متعددة للسطو على بضاعة شاغل المكان، ولكنني لا أعتقد ذلك بسبب الأدلة التي تلت ذلك. كانت المستوطنة التالية TT5، في رأيي، انتقالية في طابعها، وربما لم تمثل سوى إعادة سكن مؤقت، إذ يبدو أنها تعود إلى عصر ما قبل العُبيد كما أظهر ذلك حجم الحجرات الكبير. وأعتقد

Twitter: @ketab_n

أنه حدث هنا تخريب متعمد قام به عدو ـ كان على الأرجح قوم العُبيد الذين كانوا يبحثون عما يسمى المجال الحيوي **Lebenstraum** وقضوا فيما بعد على أقوام حلف في الشمال، أو أخضعوهم لهم. والحق أننا وجدنا في أماكن أخرى في الأربجية، كما اكتشف في يارم تبه، أدلة على تحطيم متعمد لأواني الزهر وبجانبها بقايا عظام حيوانات. ويبدو أن هذا كان تقليداً مألوفاً في عصر حلف، ولكنني لا أعتقد أن المستوطنة السادسة كانت واحدة من هذه الحالات.

على أية حال كان الفخار الذي عثر عليه داخل البيت في المستوطنة السادسة لا يضاهى. كان هناك بعض الأطباق والأواني العميقة المزينة تزييناً بديعاً، وكشفت قطعة جميلة باللونين الأسود والأحمر عن مركز آخاذ يتألف مما وصف بمربع مالطي. وزين طبق كبير آخر بواسطةٍ بديعةٍ تتألف من وردية (rosette) تتكون من ٣٢ بتلة بثلاثة ألوان هي الأسود والأحمر والأبيض وهي رقيقة جداً ولها حافات حادة الزوايا وكان شكلها أكثر ملاءمة للمعدن من الفخار. وقد تهشم هذا الطبق إلى ٧٦ قطعة استعيدت كلها. وأعتقد أن هذا لم يكن عملاً متعمداً من صاحبه، بل من عمل عدو، كما شرحت سابقاً.

عندما تعود بي الذاكرة إلى تلك اللقى أتذكر أن أحد أروع المشاهد هو شبكة الطرق المرصوفة بالحجارة التي تلتقي في وسط التل وتتفرع من المستوطنة السادسة TT6 والمباني المقبية كلها، وهذا دليل مثير للإعجاب على كثرة الأمطار في المكان آنذاك، لأنه من الواضح أن الغرض منها كان تمكين حيوانات الحمل من الوقوف بثبات وهي تفرغ حمولتها في أهمّ مبنى في الموقع، وعلى أنه كان مقر السلطة المركزية.

ينبغي أن يتصور المرء سلسلة من المباني المقبية الشاهقة،

Twitter: @ketab_n

والمعالم المثيرة للإعجاب في حقول الذرة الواسعة الخالية من الأشجار لا في الأربجية نفسها فحسب، بل في القرى الأخرى المنتشرة في المنطقة إلى جبل سنجار، وهي تشبه القرى المخروطية المشيدة بالآجر غير المفخور التي ما تزال منتشرة في جنوب سوريا حالياً. ويمكن أن نخمن من قاعدة أكبر هذه المباني في الأربجية التي كان قطرها لا يقل عن ٢٠ قدماً أن ارتفاع المبنى ربما كان في وقت ما ٢٥ أو ٣٠ قدماً يطل على السهل. وكان هذا المبنى الكبير المكسو بالطين ذا قاعدة حجرية، ولكن جميع المباني كانت مغطاة بالطين.

تجعل هذه المباني المقببة المتقنة المرء يتأمل في نقل هذا الأسلوب المعماري بعد حوالي ٣٠٠٠ سنة أو أكثر إلى جزيرة كريت والبحر الأبيض المتوسط، في مايسينيا البعيدة ولا نعرف ماهية العلاقة، وواضح أن الصلات بالأربجية كانت قديمة جداً بحيث إننا قد لا نستطيع أن نستنتج طبيعتها تماماً. ولكن ليس هناك شك في أنه لم يطو النسيان أبداً أسلوباً معمارياً من هذا الجزء من غرب آسيا كان شائعاً في المناطق الريفية، وربما كان هذا الأسلوب أساسياً في إعادة اختراع ما في اليونان وفي مايسينيا نفسها. وهكذا فإن القباب الكبيرة في الأربجية، التي ألقت ظلالها الطويلة على السهل المحيط بها، ألقت أيضاً بطريقة غامضة تلك الظلال نفسها على عالم البحر الأبيض المتوسط في فترة أعقبتها بزمن طويل، وهكذا لم تنسَ أبداً. ومما يلفت النظر أيضاً أننا عثرنا في الأربجية كذلك على ما يدل على وجود الفأس المزدوجة وديانة الثور، تماماً مثل منوان كنوسوس حيث يؤدي عنصرا الرمزية الدينية دوراً بارزاً في البانثيون بكريت.

لنعد الآن إلى موقع التنقيب. لا بدّ أن أروي حكاية طريفة أخرى. اكتشفنا أن العمال كانوا يضيفون إلى مجموعاتهم من الآثار القديمة عدداً

Twitter: @ketab_n

من التماثيل لصغيرة من الطين المجفف في الشمس، ومعظمها لحيوانات وبعضها لأشخاص، منحوتة ببراعة، لأن الكثيرين من هؤلاء الفلاحين كانوا صانعي نماذج قديرين. إلا أنه كان واضحاً أن الأسلوب لم يكن صحيحاً، وبعد فترة قصيرة راودتنا الشكوك لأنها كانت تقطع وتوضع لها اللمسات النهائية بسكين، وهو أسلوب لم يكن يستعمل أبداً في صنع أي من التماثيل من عصري حلف أو العُبيد في حقبة ما قبل التاريخ. ونظراً لأنني كنت أدفع هدايا لقاء هذه الأشياء، لذا ظن العمال أنني خدعت وأصبحوا أكثر تطرفاً في أصناف النماذج التي كانوا يعملونها، مما بعث فينا السرور. ولكن بعد أسبوع واحد وبعد انتقاء عدد من التماثيل للاحتفاظ بها للتشويق رتبت بقية التماثيل في معرض في موقع التنقيب. وبعد أن ألقيت كلمة وأبلغت العمال أن مصنوعاتهم مزيفة تعمدت تحطيمها بمعول للتأثير عليهم. ولسوء الحظ أنني حطمت أيضاً ملعقة صغيرة من القار، كانت آنئذٍ فريدة ولم يكن قد عثر على شبيه لها، وأعتقد الآن أنها كانت أصلية، إذ عثر على اثنتين أو ثلاث مثلها في موقع كورا ضمن آثار قديمة. وهكذا ترتكب أخطاء أحياناً.

احتفلنا باختتام موسم التنقيب في الأربجية بتنظيم سباق الضاحية في الجري، وكان مفتوحاً لكل من اشترك في العمل. وكان ذلك مهرجاناً ضخماً. أعلنت القواعد لكل المتسابقين في موقع التنقيب، وتقرر أن يبدأ السباق من بوابة نركال في نينوى على جهة الموصل من نهر الخوصر، وتضمّن ذلك اجتياز النهر ولمسافة ثلاثة أميال ونصف الميل، وكانت نقطة النهاية تحت المباني المقببة في الأربجية. خصصنا مكافآت كبيرة للمتسابقين، وكانت الجائزة الأولى بقرة وعجلاً والثانية خروفاً وحملاً والثالثة معزاة وجدياً والرابعة، على ما أتذكر، كيساً كبيراً من التمر، وكانت الجائزة الخامسة مئة بيضة وكانت هناك تسع جوائز

Twitter: @ketab_n

أخرى من كميات متناقصة من البيض. وتقرر أيضاً مكافأة كل متسابق يكمل السابق ولا يخرج منه بشبرين من الحلاوة وهي كمية كبيرة. وانشغل طباخنا عدة أيام بتنظيم شراء المواد في سوق الموصل. وكان الطباخ هندياً وقال لأجاثا: «هذا يتطلب عملاً كثيراً يا سيدتي». وأعتقد أنه لم يتمتع بعملية شراء الجوائز التي نقلت بسيارة الشحن العائدة لنا في يوم السباق إلى الأربجية. كان مشهداً مسراً حقاً لكل المتسابقين.

لسوء الحظ أن نهر دجلة كان في حالة فيضان في ذلك الوقت، وكان الجسر العائم مقطوعاً، ولكننا دعونا السرب الثلاثين التابع للقوة الجوية البريطانية في الموصل لمشاهدة المنظر من الجوّ. ولأن السباق نظم بعد شروق الشمس بقليل، لم يبالِ أحد بحضوره. ورغم ذلك عيّنا في الموقع نفسه في يوم السباق محكمين كثيرين على طول طريق السباق لضمان عدم غش أي من المتسابقين. وما عدا محاولات إعثار أو مراوغة قليلة جداً في عبور النهر كان السباق نزيهاً وسَرّنا حضور جمهور كبير من الريف لمشاهدته. ونظمت مراهنات كثيرة على الفائزين في الموقع.

أخطأ المراهنون جميعاً في تكهناتهم وفاز بالسباق فلاح فقير جداً لا يمتلك شيئاً البتة. وكان من الممتع رؤية المتسابقين يصلون الواحد بعد الآخر ويمسّون شريط النهاية بالصدر حتى المتسابق الأخير، وبلغ مجموعهم مئة. وأشيع أن رجلاً قد مات في أثناء السباق، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً. كان المهرجان ممتعاً وباعثاً على الرضى. وكانت المأدبة مساءً عظيمة وأعتقد أن الجوائز كلها التُهمت بسرعة خلال فترة قصيرة. ودعي الكثيرون إلى الاشتراك في الوليمة.

عدنا إلى بغداد في الأيام الأولى من شهر أيار/مايو، كما أعتقد، للاشتراك في تقسيم اللقى الأثرية، وكان ذلك مرهقاً لأن درجة الحرارة

Twitter: @ketab_n

كانت عالية وأتذكر أنها بلغت ١٠٦ درجة فهرنهايت، وأعتقد أننا أرهقنا مدير الآثار يوليوس يوردان في تنفيذ المهمة التي استمرت يومين أو ثلاثة أيام. كانت الروح القومية تتصاعد آنذاك، وفي حين أننا كنا نعمل وفق قانون واضح كان العراقيون مصممين على الاحتفاظ لأنفسهم بحصة ذات أهمية أكبر من اللقى على الرغم من أنهم كانوا قد حصلوا على قطع تعد ذات أهمية وطنية. وكنا نعمل بموجب ترتيب سخي ومجزٍ، إلا أن هذا الترتيب سرعان ما انتهى.

عندما طالبنا بالحصول على حصتنا المخصصة لنا من اللقى كانت هناك مشكلة وعانينا من تأخير غير مبرر لا يقل عن خمسة أشهر حتى صدر الإذن أخيراً. وصوّت مجلس الوزراء العراقي إلى جانبنا على المسألة بأغلبية صوت واحد. عدل القانون بعد ذلك، وأظن أننا كنا آخر بعثة عملت في العراق عوملت بموجب القانون القديم. ورغم ذلك، كما قلت سابقاً، أُنجز نشر التقرير عن التنقيبات في وقت قياسي. ولا أعتقد أنه أنجز نشر تقرير آخر بمثل تلك السرعة، ولكن بقدر تعلق الأمر بنا كانت تلك نهاية تنقيباتنا في العراق سنوات كثيرة، ولذا وجدنا من الحكمة الانتقال إلى سوريا، حيث سأصف في الفصل التالي ثلاث أو أربع سنوات من عمليات ناجحة جداً قبل بدء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩.

منذ أيام الأربجية قدت بعثات تنقيب أخرى، وكانت لي صلة وثيقة بها في الشرق طوال نصف قرن، غير أن عملي المستقل هذا، الذي كانت لأجاثا وجون روز فيه حصة رئيسة، كان الأسعد والأكثر مكافأة. وفتح فصلاً جديداً ومثيراً يبقى إلى الأبد علامة في المسار الطويل للبحث في ما قبل التاريخ.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

مسح منطقة الخابور

بعد الأربجية كانت هناك أسباب قوية للانتقال إلى جزء آخر من بلاد الرافدين. كانت سوريا، التي كانت آنذاك تحت الانتداب الفرنسي وعرضت شروطاً سخية للمنقب، ذات جاذبية واضحة لأن المسؤولين عن إدارة مصلحة الآثار في سوريا رحبوا بالآثاريين كافة وكانت إجازات السماح بالتنقيب تُمنح بسهولة.

كانت الخطوة الأولى في المغامرة الجديدة أن نحدد أين نركز جهودنا، وذلك لم يكن صعباً، إذ كنت أرغب في العمل في جزء من سوريا له صلة وثيقة بالعراق الذي سبق أن أمضيت فيه عشرة أعوام. بهذه الطريقة أستطيع توسيع مجال كان مألوفاً لي.

شهد غرب سوريا ولبنان أنشطة تنقيبية واسعة، ولكن لم تبذل سوى جهود أقل كثيراً في جناحها الشرقي. لذا اخترت حقلاً لتنقيباتي وادي نهر الخابور في شمال شرق سوريا الذي كان جزء كبير منه أرضاً مجهولة، إذ باستثناء بعض التنقيبات القصيرة في تل الحميدي التي قام بها موريس دونان لم يكن سوى البارون ماكس فون أوبنهايم قد نقّبَ على نطاق واسع في المَوقع الكبير المسمى تل حلف قرب منبع نهر الخابور.

Twitter: @ketab_n

كانت اهتماماتي الخاصة في ذلك الوقت في عصور ما قبل التاريخ، وكنت أعلم أنني سأتمكن هنا من توسيعها، إلا أنني كنت أرغب أيضاً في اكتشاف معلومات مدوّنة تاريخية في جزء من سوريا حيث كانت النصوص المدوّنة بالكتابة المسمارية تعد على أصابع اليد الواحدة. كان احتمال قيامي بملء صفحات فارغة من التاريخ حافزاً قوياً طوال حياتي المهنية. واسترشدت في تحديد نطاق أنشطتي الجديدة بالنصيحة الحكيمة لصديقي سدني سمث الذي كان أمين قسم الآثار المصرية والآشورية في المتحف البريطاني آنذاك. وكان هو نفسه قد عمل مديراً لمديرية الآثار القديمة في بغداد وكان حريصاً على دعم التنقيبات وراغباً في مساعدتي بوصفي آثارياً شاباً أكمل فترة تدريبه. كان سدني سمث صديقاً طيباً وعدواً طيباً. كان على كل من لهم علاقات به التصرف بحذر. وسرّني أنني استطعت تجنب المشاكل التي واجهها الكثيرون.

هكذا توجهتُ وأجاثا إلى سوريا لإجراء عملية مسح في تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٤ وهما شهران مؤاتيان لأن الكسر على كل تل يسهل تمييزها في غياب النباتات، على الرغم من أنّ الأمطار في نهاية تلك الفترة بدأت ترغمنا على ترك العمل. ولكن قبل أن نصل إلى هدفنا كان لا بدّ من إنجاز الكثير من التخطيط وتهيئة أمور كثيرة. ومرة أخرى كان هناك سبب قوي لشعوري بفضل المدرسة البريطانية للآثار في العراق التي قدمت لي مساعدة مالية وأيدت مقترحاتي.

تضمّن التحضير لبعثتنا فترة انتظار طويلة في بيروت حيث مكثنا في فندق باسول المتواضع الصغير ذي المصطبة الجميلة المطلة على جبهة النهر. ربما يمكن وصف الطعام بأنه شرقي والخدمة بأنها بدائية.

Twitter: @ketab_n

وأتذكر أن النادل في غرفة الطعام اعتاد أن يدعونا إلى تناول وجبة الطعام بالطرق على باب غرفة النوم مشيراً بيده إلى فمه، وكانت تلك إشارة واضحة إلى أن الطعام أصبح جاهزاً.

مهما كانت المحن التي تعرضنا لها في وضع ترتيباتنا فقد خففت منها صحبة أصدقائنا في بيروت ولا سيما هنري سيريك، مدير المعهد الفرنسي ومدير الآثار في سوريا، الذي ساعدنا كثيراً في تذليل الصعوبات كلها كالاستعدادات الطويلة والمملة التي لا مفر منها في المسح والتنقيب الآثاري. وبعد تلك الصلات الودية الأولى ظل صديقاً طوال العمر، وكانت زوجته سخية في استضافتنا في شقتهما التي كانت مؤثثة تأثيثاً فنياً وضمّت سلسلة من قطع الأثاث الفرنسي إضافة إلى مكتبة جيدة.

كان سيريك يتمتع بموهبة كسب الأصدقاء وكان علمه الغزير يلقى الاحترام الواسع. وأصبح حجة في علم النميات[1] الإغريقية ولا سيما تحديد الكمية الكبيرة من النقود من عهد الإسكندر الكبير والممالك الهلينية الأخرى التي تمثل إمبراطوريته بعد انقسامها وترتيب تلك النقود. كان يفهم فهماً عميقاً وأصيلاً ديانة تدمر، ودرس اللغة الآرامية لكي ينشر النصوص المكتشفة في تدمر.

كان أبرز مستشرق في حقل اختصاصه بفرنسا، ولكن ذلك لم يمنعه من بذل جهود عظيمة لمساعدة المنقبين الفرنسيين والسوريين والأجانب. ومهما كان موقع التنقيب بعيداً كان لا بدّ أن يزوره وينفذ عملية اقتسام اللقى في نهاية موسم التنقيب بطريقة منصفة.

كانت زوجته ميبت مفعمة بالحيوية وذات معنوية عالية. وعندما

---

(١) علم النُميات: دراسة القطع النقدية وسكها والأوسمة أيضاً. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كانت طالبة في المدرسة الفرنسية في أثينا أبحرت في البحر الأبيض المتوسط في مركب صغير وأقامت علاقات ودية مع سفينة الأميرال سير روجر كيس، القائد العام البريطاني، الذي أمر بنقلها مع الفتاتين الأخريين اللتين كانتا معها إلى سفينة القيادة واستضافتهما بينما قامت مجموعة بحرية بإعادة طلاء سفينتها الصغيرة وإعادة تجهيزها. ولا شك في أن الحادث بقي طويلاً حكاية مفضلة لدى الأميرال ولديها.

يستحق سيريك الإطراء لتنظيمه مصلحة الآثار القديمة في سوريا بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. وقد استطاع إنجاز ذلك بفضل نفوذ رينيه دوسو، الأمين الدائم لأكاديمية النقوش والفنون الجميلة، وأقنع الحكومة الفرنسية بالموافقة على تخصيص مبالغ كبيرة لصيانة الآثار والمباني السورية وترميمها.

كانت مهمتنا الأولى والأصعب في بيروت الحصول على سيارة ملائمة للمنطقة الوعرة التي أردنا إجراء المسح فيها. ولعدم توفر سيارة فوراً فقد اضطررنا إلى الحصول على سيارة فورد ذات أربع أسطوانات ومحرك قوي جداً بمبلغ لا يزيد، على ما أتذكر، على ١٥٠ باوناً. وأنفقنا مبلغاً آخر في مشغل محلي لجعل هيكل السيارة المعدني عالياً جداً، وكان ثقيلاً جداً ولكنه كان أفضل ما في وسعنا الحصول عليه في بيروت. وطليت السيارة باللون الأزرق الأرجواني. وبسبب ارتفاعها وشكلها المهيب أطلقنا عليها بشيء من الوقاحة «الملكة ميري». خدمتنا سيارة الشحن هذه التي كانت تشاهد من بعيد خدمة جيدة واستطعنا إخراجها من كثير من الوديان الصعبة، إذ كانت خفيفة وكان باستطاعة ستة إلى ثمانية رجال إخراجها من أي مكان تقريباً. وكانت تنقل أربع خيمات، اثنتين لأعضاء البعثة الأوروبية والثالثة لاستعمالها مطبخاً وللخدم، وكانت الرابعة خيمة مرحاض صغيرة.

Twitter: @ketab_n

عند مغادرتنا بيروت توجهنا إلى حمص ثم واصلنا الرحلة إلى تدمر التي شبّهتها جيرترود بيل تشبيهاً جميلاً بالهيكل العظمي الأبيض لبلدة تغطيها الرمال حتى الركبة ـ كانت تلك بداية طيبة لجولتنا.

مكثنا في تدمر في فندق يحمل اسم الملكة الشهيرة زنوبيا. كان الوضع الصحي رديئاً ورائحة المجاري في غرف النوم كريهة. وأتذكر أنني شكوت إلى صاحب الفندق أن الرائحة كريهة ومضرة بالصحة فردّ قائلاً بالفرنسية ما معناه «رائحة كريهة: أجل، ولكن مضرة بالصحة: كلا».

لذا قمنا برحلة طويلة إلى ضفاف نهر الخابور التي شهدت جولاتنا في الأسابيع التالية، ونصبنا مخيمنا قرب الحسكة عند التقاء الخابور الأعلى والخابور الأسفل وأحد الأودية وهو وادي الوج. اضطررنا أولاً إلى استخدام هذا المركز للسهولة الإدارية، ووجدنا أنه مكان كريه. وبدا أنه كانت هناك ريح دائمة وكانت البلدة مغطاة بالأتربة. ولذا بعد تقديم احتراماتنا إلى العسكريين الفرنسيين وإلى دائرة البريد وذلك من أجل تسهيل اتصالاتنا انتقلنا بضعة أميال إلى الجنوب ونصبنا مخيمنا الأول في مكان اسمه الميادين في فناء خان كبير.

كان العضو الرئيس في بعثتنا مهندساً معمارياً شاباً اسمه روبن مكارتني، وكان ذا معدة حديدية وقليل الكلام، وهما سمتان عددتهما دائماً لا غنى عنهما في عملية المسح.

في تلك الأيام وقبل الشروع بالعمل تعودت زيارة الجمعية المعمارية لإقناع معماري شاب أكمل تدريبه تواً بقضاء بضعة أشهر في الشرق على حسابنا من أجل متعة الرحلة وقضاء عطلة من تلك العطل التي لن يتمتع بمثلها. نجحت الفكرة نجاحاً باهراً. وكان سهلاً في ذلك الوقت إقناع الشباب بالاشتراك في بعثاتنا بموجب تلك الشروط.

Twitter: @ketab_n

كان والد مكارتني هو الشخصية الشهيرة سير جورج مكارتني الذي قضى بين ثلاثين وخمسة وثلاثين عاماً في كاشر[٢] برتبة قنصل عام وكان صلة الوصل الوحيدة في تلك الأيام بين حكومتي الهند والصين. وكان مكارتني قد ورث بعض مواهب أبيه في القدرة على العمل بجد والقابلية على فهم التفاصيل، والمثابرة والإصرار. كان ميالاً إلى الصمت ميلاً غير مألوف، وكان الصمت والخيول لديه أهم من أي شيء آخر في الحياة، وقد وجدت زوجتي في البدء صعوبة في حثه على الكلام، ولكن ترفّعه وتكبّره كانا في الواقع بسبب الخجل. ولما كان خجولاً مثل زوجتي، لم يكن سهلاً كسر الحاجز بينهما، ولكن ذلك حدث بمرور الزمن، لأن الألفة وسط الطين والماء والظروف الصعبة تؤدي في نهاية المطاف إلى تحطيم كل الحواجز.

وقع الحدث الذي أدى إلى نشوء علاقة جديدة عندما عدنا لنخيم في العمودة بعد فحص تل بديع اسمه موزان. كانت تهب عاصفة آنذاك وواجهنا مشقة كبيرة في المحافظة على خيامنا ليلاً. كنا مجتمعين جميعاً في إحدى الخيم عندما تحطم عمود الخيمة الرئيس وسقط مكارتني على وجهه في الطين. كان هذا الحادث، الذي وقع في أثناء الصراع مع ذروة العاصفة فجراً، أكثر مما يستطيع تحمّله وأطلق سلسلة من الشتائم وبعدها أصبح إنسانياً.

كان مكارتني رساماً بارعاً، وأضافت خرائطه لمسة معمارية مهنية إلى رسومنا. وكان أيضاً مساحاً سريعاً، ولكنه لم ينجح أبداً في تعلم اللهجة المحلية وكان يتفاهم مع الفتى الذي يساعده في القياس

---

(٢) كاشر: مركز تجاري يبلغ عدد سكانه ٨٠ ألفاً في مقاطعة سنكيانك بالصين على حافة حوض تاريم الغربية. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

باستعمال الشريط ومع حامل العمود بسلسلة من الصفير، وهو نظام سرَّ العمال العرب وكان فاعلاً على نحو يبعث على الدهشة.

بعد إقامة مخيمنا الأول في الميادين على بعد بضعة أميال إلى الجنوب من الحسكة أصبحنا مستعدين لتنفيذ الجزء الأول من المسح، أي فحص التلال على كلا جانبي الخابور الأسفل بين الحسكة نفسها في الأعلى وسركسيوم حيث يصب النهر في الفرات. وكان الموقع الأخير مثيراً للاهتمام ويعج بالبعوض وضمَّ آثار سكن روماني وغيره مما كان خارج إطار أهدافنا، ولكن على خلاف التوقعات لم نجد أية مستوطنة مبكرة في خط العرض الجنوبي هذا. ولكن يحتمل أنه بحاجة إلى التحديد لأن نهر الخابور غيَّر بلا ريب مجراه المتعرج مراراً. غير أنه لم يكن لدينا الوقت اللازم للمضي في بحثنا هناك.

فحصنا عند ضفّتي هذا الجزء من الخابور الأسفل عدداً من التلال الكبيرة المليئة بالكسر الآشورية ولا سيما عجاجة (عربان) والشدادي والشمسانية ومركدة على الضفة اليمنى، وفضغمي وتل شيخ أحمد على الضفة اليسرى الواقعة على بُعد أربعين ميلاً إلى الجنوب من عربان. إن هذه تراكمات ضخمة تستحقُّ التنقيب فيها يوماً ما. فقد ثبّت الآشوريون، الذين كانوا مثل الرومان يحسنون اختيار المراكز الاستراتيجية، أنفسهم بوضوح في قواعد أقدم لسهولة الدفاع والإدارة على خط نهري يمثل حدوداً طبيعية.

كان هدف الآشوريين في القرن التاسع قبل الميلاد بلا ريب دعم الصلات التجارية مع مناطق إنتاج الحبوب الغنية التي كانت تقع على نهر الخابور الأعلى وإقامة متراس في وجه القبائل الآرامية المثيرة للمتاعب التي كانتْ تنتشر في السهول في التخوم الغربية لبلاد آشور نفسها.

Twitter: @ketab_n

ومما لا شك فيه أن الموقع المسيطر على هذا الجزء من النهر والذي يتطلب حتماً المزيد من التنقيب كان الموقع الذي نقب فيه لايارد حوالي عام ١٨٥٠ ويدعى تل عجاجة وهو التل الترابي المعروف لدى الجغرافيين العرب باسم عربان، المدينة المزدهرة في القرون الوسطى. ولكنه قبل ذلك بزمن طويل كان عاصمة إقليمية آشورية ذات أهمية كبيرة باسم شاديكاني. هنا شاهدنا في نفق مطل على النهر الثور المجنّح ذا الرأس البشري الذي يحمل كتابة منقوشة وكان واحداً من تمثالين ونشر لايارد رسماً له في كتابه «نينوى وبابل» (الصفحة ٢٧٦). كانت الكتابة عليه سطراً واحداً حمل اسم أمير مستقل تولى السلطة هنا في أوائل القرن التاسع قبل الميلاد. كما اكتشف لايارد، الذي نقب في الموقع ثلاثة أسابيع، زوجاً ثانياً من الثيران على جانبي مدخل قصر أقرب إلى وسط التل، وعثر أيضاً على نقش بارز يمثل محارباً وأسداً حجرياً من الفترة نفسها. إنني أوصي بالتنقيب في هذا الموقع البديع، وسيضيف المنقب دون شك بعض الإضافات الرائعة إلى آثار بلاد آشور علاوة على العهود التي سبقتها والتي تلتها.

في عام ١٩٣٤ ورغم انجذابي إلى المكان، الذي كان يمكن أن يمثل إضافة مهمة إلى نمرود، فقد كانت هناك أمور كثيرة تثنتني عن بذل أية محاولة. أولاً، لم تكن هناك أية أدلة على عصور ما قبل التاريخ، أو على الصلات التي اشترطت إثباتها مع الفترات الأقدم من حضارة وادي الرافدين. وثانياً كانت هناك أيضاً طبقة عُليا من الآثار من القرون الوسطى والعربية تتطلب سنوات كثيرة من التنقيبات، وأخيراً كان أقوى الاعتراضات حقيقية وجود عدد كبير من القبور الإسلامية التي تغطي الموقع. لذا، فإنني أترك هذه المهمة لبطل جريء.

Twitter: @ketab_n

كانت مستوطنة عربان ـ وهي أكبر المستوطنات ـ تقع في أقصى الشمال قريبة من الحسكة ولم نعثر بعدها إلا على أدلة قليلة جداً من الاستيطان الآشوري. كانت المواقع على نهر الخابور الأسفل على ما ذكرت آنفاً، حصوناً عسكرية بالدرجة الأولى وذات طابع زراعي بالدرجة الثانية، على الرغم من أنها صممت لدعم الصلات التجارية بالشمال. وكانت الأراضي سهولاً جافة خالية من الأشجار.

قررنا عدم التلكؤ في حوض الخابور الأسفل بعد أن مسحنا المنطقة، لأننا رغبنا في أن نعمل في إطار تاريخي أوسع كنا نعتقد أنه إلى الشمال من تلك المنطقة وكنا مصيبين في ذلك، لذا تركنا عربان آسفين لأنه تل مليء بالأدلة التاريخية كما ورد في مذكرات أسلافنا الذين كانوا يعتقدون أن أرضه تغطي أثراً مهماً من الماضي.

كان اختيار قاعدتنا قرب الحسكة جيداً، إذ كان موقعها ملائماً لاستكشاف الخابور الأعلى إضافة إلى المناطق الجنوبية التي تخلينا عنها. عُنينا خلال المسح بالاتصال بالسلطات العسكرية الفرنسية التي كان سيريك قد أبلغها بوصولنا، وكانت تساعدنا دائماً. وزرنا في الحسكة الضابط الذي كان يحكم المنطقة واستقبلنا في مكتبه المغطى بالتراب والذي تعصف بنوافذه الريح. أثار إعجابي الضابط الفرنسي وكان اسمه العقيد تراكول. كان ضئيلاً رمادي الشعر يرتدي وهو جالس قبعة سوداء وبدا مثل أستاذ عالم.

بتشجيع من العقيد تراكول رحلنا باتجاه الشمال على الضفة اليمنى حتى وصلنا إلى تل حلف الكبير ثم عدنا إلى الحسكة على الجانب المقابل من النهر. كنا نقوم بتلك الرحلات بالسيارة نهاراً، ولكننا كنا نتوقف في التلال المختلفة لنفحص الكسر عدة أيام، وكانت النتائج مخيبة للأمل، باستثناء تل حلف نفسه لأن آثار ما قبل التاريخ لم تكن

Twitter: @ketab_n

موجودة بعد اجتياز حوالي عشرين ميلاً جنوب التل، وكان حسب تقديرينا مثل تل (أبو حجار) أقصى حدود انتشارها تقريباً.

استنتجنا فيما بعد أن خطاً يرسم شرقاً على الخارطة في خط العرض ذاك تقريباً ينتهي في تل براك وأصبح جلياً أن مستعملي الفخار ما قبل التاريخ المطلي كانوا مترددين في نشر مستوطناتهم إلى أبعد من منطقة الأمطار الشتائية الغزيرة أو تحت المناطق التي كانت الوديان فيها تميل إلى الجفاف. وهكذا بدا أن ثلثي الخابور الأعلى يقعان خارج هدفنا المباشر، ولكنني لاحظت باهتمام أن عدداً من التلال، بما فيها تل الرمان، تخفي آثار عهد روماني بيزنطي تغطي على الأرجح آثار سكن آشوري، قد نستنتج أن فحصاً أدق يؤدي إلى الكشف عن أدلة على وجود محطات آشورية ربما أقامها الآشوريون أنفسهم في القرن التاسع، ولو على نطاق صغير، خلال غاراتهم التي امتدت إلى كوزانا وهو الاسم الذي أطلقوه على موقع تل حلف القديم.

لن أتحدث عن تل حلف نفسه بالتفصيل، لأن آثاره معروفة جيداً من خلال منشورات فون أوبنهايم وهوبرت شمت. ولكن هذا التل الضخم على ضفة النهر الغربية كان منارة ضوء تحثنا على التقدم لاكتشاف المزيد عن المستوطنات المعاصرة له في المناطق الشرقية من وادي النهر والتثبت من وجود بعض الخزف ذي النوعية الأفضل الذي اكتشفناه في الأربجية في هذا الجزء من سوريا أيضاً. إن العصور المتأخرة في تل حلف تثير الاهتمام أيضاً لأنها تضم مباني متقنة والمنحوتات البازلتية البسيطة المرتبطة بأمير محلي اسمه كاپارا أنهى سلطته غزو العاهل الآشوري القوي اداد نيراري الثالث قبل عام ٨٠٠ ق.م بقليل.

بعد إكمال مسحنا السريع للخابور الأعلى والخابور الأسفل شعرنا

Twitter: @ketab_n

أننا أحرار في فحص المثلث الرائع من الأرض التي يحدها من الغرب نهر الخابور الأعلى من رأس العين إلى الحسكة، ومن الشرق نهر صغير يدعى جغجغة، ومن الشمال خط سكة الحديد التي تمثل الحدود بين سوريا وتركيا. تنتشر في هذه المنطقة مئات التلال القديمة ممثلة فردوساً آثارياً. تضم الأكثرية بقايا المستوطنات الزراعية التي ازدهرت في الألف الخامس قبل الميلاد واعتمدت على غلة الأرض. وتتقاطع أودية كثيرة في هذه المنطقة المثلثة. يضم وادي الوج تل الصيقر وتل بيندر ويضم واديا خنزير ودارا تل موزان وتل شكر بازار، ويضم وادي جغجغة تل حميدي وتل براك.

يمكن أن يكشف كل تل من هذه التلال عن آثار مهمة تسر المنقب، كما أظهر التنقيب في بعضها. وينبغي للقارئ المعني بآثار هذه المنطقة أن يدرس ما كتبته عنها وعن التنقيبات التالية في المجلدات ٣ و٤ و٩ من مجلة Iraq. ويكفي القول إننا حفرنا حفراً على الحدود في تل عيلون وتل حمدون اللذين فحصتهما بعثة ألمانية فيما بعد وتوصلت إلى نتائج جيدة. اجتذبنا هناك تل موزان وهو موقع يضم جدراناً من الآجر تبعث على الإعجاب وشعرنا بالحيرة إزاء الشكل الدائري أو البيضوي لتل بيندر الكبير.

بدت الحفر التجريبية في شكر بازار، حيث كانت أدلة غزيرة على فخار حلف البهيج مغطاة ببقايا الألف الثاني قبل الميلاد، الأكثر إغراءً واحتواءً على اللقى والأكثر عملياً أيضاً. وأصبح هذا هدفنا المباشر قبل بذل محاولة للتنقيب في أكبر المستوطنات ـ تل براك الضخم الذي سيكون مع تل شكر بازار موضوع الفصلين التاليين.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

شكر بازار

بعد إكمالنا المسح في الشهور الأخيرة من عام ١٩٣٤ استخدمنا الشهور التالية لإعداد التحضيرات الضرورية كافة للتنقيب في شكر بازار. كان هذا الموقع نفسه موقعاً ملائماً، إذ إنه في القامشلي على بُعد أربعين كيلو متراً إلى الجنوب. وكان تحت تصرفنا مركز تسوق مفيد ومصرف ـ فرع مصرف سوريا ولبنان الكبير ـ ودائرة بريد.

خلال موسمنا الأول وفي أثناء تشييد دار لنا في الموقع استأجرنا مسكناً من الآجر الكبير الحجم غير المفخور ذا فناء واسع في العامودة قرب الحدود.

كانت أغلبية السكان من المسيحيين وكان منزلنا المؤقت غير مريح في البداية. وتعرضنا لغزو الفئران التي كانت تتقافز فوقنا بعد حلول الظلام، وكانت الليالي الثلاث الأولى مزعجة جداً بحيث هددت بالعودة إلى الوطن، ولكن أنقذنا الحصول على قطة ذكية هزمت الفئران جميعاً، وتخلصنا من معظم البراغيث بجلب بعض الخراف إلى المنزل وصب أرضيات إسمنتية، واستقرت حالنا بعد الحصول على بعض الأثاث الذي استعمل عندما أقيم دار البعثة الرئيس في موقع شكر بازار نفسه.

Twitter: @ketab_n

شهدنا في العامودة بعض الأحداث المثيرة. فقد وقعت في بعض الليالي غارات عبر الحدود التركية وحدث إطلاق نار عشوائي على نطاق واسع في الشوارع.

وجرت محاولات لخطف النساء، ولكن نادراً ما نجحت، وإن كانت حوادث السطو وبعض الأضرار قد حدثت. لم نتعرض لخطر شديد، لأن العسكريين الفرنسيين كانوا وقتذاك يسيطرون سيطرة محكمة على جزء مضطرب نوعاً ما من سوريا ومن الحدود، وكنا نعرف أن أية غارات يحتمل أن تكون خاطفة ومتقطعة.

كانت هيئة البعثة في الموسم الأول تضمّني وأجاثا وروبن مكارتني وريشارد بارنيت وكان عدد العمال الذين استخدمناهم يصل تقريباً إلى مئة وأربعين وكانوا خليطاً من العرب والأكراد مع عدد قليل من اليزيديين اللطيفين من جبل سنجار وبضعة مسيحيين. يُضاف إلى ذلك أن بعض أفضل عمالنا كانوا أتراكاً تسللوا عبر الحدود ودخلوا البلاد على نحو غير مشروع، لكنهم كانوا أقوياء ومتحمسين للعمل، ولذا لم نتردد في تشغيلهم. اجتازوا الحدود وهم يعتمرون غطاء الرأس العربي، وبعد وصولهم استبدلوه بقبعاتهم التركية. لم نشعر بالأسف أبداً لتشغيلهم. كانت حركة التسلل واسعة عبر الحدود في كلا الاتجاهين، إلا أن ذلك لم يسبب قلقاً شديداً، ولو أن بعض المتسللين غير المحظوظين كانوا يتعرضون لإطلاق النار. والحق أنه لم يكن سهلاً دائماً السيطرة على عمال من قوميات كثيرة مختلفة، إذ كانت تُسمع لغات عديدة في موقع التنقيب، ولكن رغم تعدد قوميات العمال لم تعترض تقدمنا سوى عقبات قليلة.

كانت سياستنا في الموسم الأول محاولة الحصول على فكرة عامة واسعة عما كان يوجد في التل الكبير نفسه، واخترت لهذا الغرض

Twitter: @ketab_n

قطعة أرض تبلغ مساحتها ٢٠×٢٥ متراً، ولم تكن على الجزء الأعلى من التل، بل على بُعد حوالي سبعة أمتار ونصف تحت قمة السطح، في نقطة حدث فيها بعض التعرية، وحيث لا نُحدث سوى أقل قدر من الأضرار بالمباني التي تعود إلى آخر عصر قرب السطح. وفي نهاية الموسم حفرنا فجوة كبيرة عمقها حوالي خمسة عشر متراً. وهكذا حفرنا عمقاً كبيراً إلى التربة البكر عبر سلسلة ضخمة من العصور التاريخية وعصور ما قبل التاريخ.

احتوت الطبقة العليا آثاراً معمارية وغيرها كانت تعود، كما تأكدنا فيما بعد، إلى القرون بين زهاء ١٩٠٠ و١٦٠٠ ق.م. وكانت هناك على عمق خمسة عشر متراً تحتها على التربة البكر آثار أقدم استيطان في حوض نهر الخابور امتد، كما نعرف الآن، إلى حوالي سنة ٦٠٠٠ ق.م.

وفي أسفل هذه الحفرة الضخمة، في مستوى يطابق تقريباً أقدم البقايا في قعر نينوى في بلاد آشور، عثرنا على المستوطنة الأولى التي لم تكن تزيد مساحتها على مساحة موقع مخيم، شأنها شأن الطبقة في تل حسونة غرب آشور حيث عثر على أقدم الآثار السابقة للعهد الآشوري.

في شكر بازار احتوت أقدم طبقة، وهي تضم آثار جدران من الطين على عمق خمسة عشر متراً تحت السطح، على بقايا ما يعرف بفخار سامراء، وهو فخار مطلي آخاذ، أطلق عليه اسم موقع على نهر دجلة يبعد تسعين ميلاً شمال بغداد وعثرنا في هذه الطبقة على بعض النماذج الممتازة من ذلك الفخار. وكانت هناك أشكال تبيِّن لا النموذج التقليدي لفخار سامراء وأشكاله المميزة فحسب، بل نماذج من الأشكال البشرية المطلية على نحو بدائي على الفخار نفسه. وكان مما

Twitter: @ketab_n

آثار الاهتمام اكتشاف أن هذه المصنوعات المطلية من فخار سامراء قد سبقت بفترة طويلة من فخار عهد حلف اللامع والمنوّع، وهو الفخار الجميل الذي وصفناه في الفصل السابق.

في طبقة الاستيطان هذه التي تلت عصر سامراء عثرنا على ما لا يقل عن ست مستوطنات الواحدة فوق الأخرى من عصر حلف غطت ما يزيد قليلاً على أربعة أمتار وضمّت قدراً كبيراً من عصر حلف كان يمثل فترة طويلة كما تأيّد فيما بعد في موقع يارم تبه في جبل سنجار. وعثرنا على نماذج كثيرة لحلية منحوتة تمثل جمجمة ثور ثبتت بإتقان وسط نقاط مع نبات على الرأس مما جعلني أتساءل عما إذا كان الثور يمثل أيضاً القوة على إسقاط المطر. واستبدل شكل رأس الثور في النهاية بتصميم لرأس الخروف أو الماعز ذي القرنين وقد قُلب القرنان إلى الأسفل لا إلى الأعلى، وعثرنا أيضاً على التفافات مختلفة كثيرة تشير إلى مراحل تالية من عهد حلف. وفي الطبقة التاسعة من القمة وجدنا بقايا جدار بيضوي وليس دائرياً كما في المباني المقببة، إلا أنه يعني دون شك أن الساكنين شيّدوا في أماكن أخرى المباني المقببة التي يعثر عليها عادة في مواقع عصر حلف التي يزيد عمرها على ستة آلاف عام.

ربما كان أكثر الاكتشافات إثارة في مستوطنات حلف سلسلة من التماثيل، بعضها من الفخار الصلب البني المطلي وبعضها من الطين المجفف في الشمس، وكانت غالبيتها متخذة هيئة الجلوس وبسيطة جداً في الصياغة، وهي معتمرة[1] (انظر الشكل التوضيحي في الصفحة

---

(١) اعتمر: لبس العَمَارة، والعمارة كل شيء على الرأس من عمامة وقلنسوة ونحوهما (المعجم الوسيط ٢: ٦٣٣).

Twitter: @ketab_n

١٦٧). لم يكن الرأس أكثر من أثر بسيط وليس ممثلاً تمثيلاً واقعياً. كانت الأشكال جميعها أشكال نساء. وكانت لأنموذجين صلة بأقراص أسطوانية صغيرة وعثر عليهما في موضعهما على الأقراص. ولا يوجد سوى شك قليل في أن هذه المقاعد تمثل مقاعد الولادة.

وتُستعمل مثل هذه المقاعد في السودان لمساعدة المرأة عند المخاض. لم يكن سهلاً تفسير العلامات كلها، إذ بدا أن بعضها يرمز إلى الملابس وكانت الأخرى علامات وشم. ومما يبرهن على أن بعض العلامات كان للملابس حقيقة أن عدداً صغيراً من التماثيل يحتوي على حمالات وأن واحداً أو اثنين من التماثيل كانا بحجاب كما هي حالة النساء في الشرق. ولدينا الآن سلسلة لافتة للنظر من هذه التماثيل التي تعود إلى عام ٦٠٠٠ ق.م على الأقل، واكتشفت في مواقع عصر سامراء ولا سيما في مستوطنة الصوان التي أجرى فيها العراقيون تنقيبات جيدة واكتشفوا فيها أكمل سلسلة من التطور لتلك الحضارة المبكرة. ولا بدّ أن تلك التماثيل كانت رموزاً لعقيدة الخصب السحري تلتمس فيه المرأة من الإله أو الإلهة حمايتها في عملية إنجاب الأطفال. ولا شك في أن معدل وفيات الأطفال في ذلك الوقت كان عالياً جداً.

في سلاسل العبيد اللاحقة المنتشرة في العراق يمثل بعض هؤلاء النسوة بهيئة أطفال رضّع. ولدينا الآن سلسلة كاملة من هذه التماثيل من مواقع مختلفة كثيرة في العراق وسوريا وبعض التماثيل المدهشة من فارس رسمتها كاملة ايدث بورادا وتستحق المشاهدة. وتألفت علامات الوشم عموماً من نقاط منقوشة وأشرطة مألوفة في المجتمعات القبلية البدائية.

يحتمل أن عصر حلف في شكر بازار دام فترة أطول بعض الشيء

Twitter: @ketab_n

من الأماكن الأخرى لأنه لا توجد آثار في شكر بازار للحضارة التالية المعروفة بالعبيد، ولكن عصر حلف انتهى هناك في خاتمة المطاف. ومن المثير للاهتمام الشديد معرفة سبب انتهاء هذه الفترة الطويلة من سكن تل حلف، ولدينا أدلة من أماكن أخرى، وبخاصة في رأس الشمرا على ساحل البحر الأبيض المتوسط، على أن انقراض سكان حلف كان بسبب ظهور شعوب العبيد. وربما أخرجتهم من شكر بازار ولكنها لم تحل محلهم، إذ لا توجد أدلة فيه على عصر العبيد. والأكثر غموضاً هو طول الفجوة بين نهاية حلف ونينوى ٥، وهي فترة السكن التالية، وأعتقد أن الفجوة يحتمل أنها لم تكن تقل عن ألف سنة، وهي فترة زمنية طويلة جداً لهجر هذا الموقع الذي كان مزدهراً في وقت ما.

على أية حال هناك في قمة حلف طبقة جرداء مليئة ببقايا جدران الآجر غير المفخور وأقام بعض القادمين الجدد في نهاية الأمر مقبرة على هذه الأرض القاحلة، إذ كما هي التقاليد في الشرق تنتخب الأرض الجرداء للدفن، وهنا نأتي على ذكر سكان طبقة نينوى ٥ الشهيرة بفخارها المطلي الجذاب ومصنوعاتها المعدنية المتقنة. توجد طبقتان سكنيتان متتاليتان من نينوى ٥، وعثرنا هنا على الأسلوب المبكر لفخارهما المطلي وأعقبته المصنوعات المحززة والرمادية التي تقلد الفضة. وكان من الاكتشافات اللافتة للنظر إناء رمادي ذو قاعدة دائرية مربوط بسلك فضي رفيع من الواضح أن الإناء كان معلقاً به، لأن الإناء لم يقصد به أن يكون مستقلاً بذاته.

كانت هذه السلسلة التالية أو المقبرة قد حفرت بقايا بيت من العصر الذي سبقها. وعثر على عدد من القبور من طبقة من التربة والرمل النظيفين، ويبدو أن السلسلة كانت أولاً فخاراً مطلياً، وبعد

Twitter: @ketab_n

ذلك مصنوعات فخارية محززة شبيهة بالفضة تتطابق مع الطبقة الرابعة وهي ظاهرة أشرت إليها سابقاً.

يحتمل أنه بعد سنة ٢٩٠٠ ق.م، خلال العصر المعروف في وادي الرافدين بعصر فجر السلالات الثاني وعصر فجر السلالات الثالث، حلّت بدل الطبقة الرابعة سلسلة من فخار مختلف تماماً. وكان فخاراً رمادياً يتسم بجودة الصنع وبتقليد الفضة أحياناً والجلد في حالات كثيرة، لأن للكثير من القدور قواعد مدورة، ولم يكن يُراد وضعها على قواعدها، بل تعليقها أو قلبها عندما لا تستعمل.

ويبدو أن هذه الفخارات تنتشر شرقاً في شمال إيران وتوجد أنواع معيّنة من القدور تشبهها في موقع يسمى شاه تبه في جبال البرز.

ازداد استعمال الحديد انتشاراً، ولكنه لم يصبح واضحاً حتى وصلنا إلى الطبقة الأولى، وهي الطبقة الأخيرة في السلسلة الطويلة من استيطان الموقع. وعثرنا هنا على بقايا البيوت المشيدة بالآجر غير المفخور وقبور كثيرة كما في الطبقة الثالثة التي كانت تضم عدداً من قبور الأطفال. ويبدو أن بيوتاً معيّنة قد كرّست للأطفال.

في قمة الطبقة الأولى نصل إلى ظاهرة جديدة ومختلفة تماماً في التاريخ الطويل لفخار الموقع تتميز بمصنوعات متقنة الصنع وتتألف من جرار كبيرة لم تزين إلا بأشكال هندسية كالخطوط الدقيقة المتلازمة والمثلثات وما أشبه، وتحيرنا طويلاً قبل أن نعرف مصدر هذا الفخار وأصوله. وسرعان ما أطلقت عليه اسم فخار الخابور، وعُرف بهذا الاسم منذ ذلك الحين... ويبدو محتملاً الآن أنه اخترع في وادي الخابور نفسه، وهو أوسع مركز لانتشاره وإنتاجه ولم يعثر عليه في أي مكان آخر بمثل هذه الكميات الكبيرة. وعثر أيضاً على نماذج من هذا الفخار في موقع بعيد هو ماري وفي اتشانا، وبنوعية مختلفة ومتدهورة

Twitter: @ketab_n

في حماة في وادي نهر العاصي، وفي شمال سوريا في مواقع قريبة من كركميش ولا سيما موقع اسمه حمّام. وعثر على نماذج منه في بيلا في بلاد آشور وهو موقع غير بعيد عن نينوى.

تحيرنا طويلاً في تحديد مصدر هذا الفخار ومغزى ظهوره المفاجئ، ونعرف الآن الجواب. إنّ التناقض بين تكرار ظهوره في وادي الخابور وندرته خارجه يلفت النظر. ولا توجد سوى نماذج نادرة، حتى في ماري غير البعيدة نحو الجنوب. ويشير ذلك كله إلى انبعاث مفاجئ للموهبة المحلية في وادي الخابور الأعلى في وقت كان إنتاج المصنوعات المعدنية مستمراً. ويحتمل أن الكثير من الأواني كانت لشرب البيرة التي كان تناولها شائعاً في شكر بازار. وعثر مراراً على مصافٍ مخروطية صغيرة في قعر الأواني.

لدينا أيضاً أدلة على أن تجار الخيول من سكان حران في وادي الخابور استعملوا هذا الخزف لأنه توجد نماذج كثيرة من رؤوس الخيول الملجمة، التي كان بعضها مطلياً، وفي حالة أخرى كانت اللُّجُم مزخرفة. ونعرف من نص مسماري في ماري أنه كان يعد فألاً سيئاً أن يشاهد الملك (زيمريلين) راكباً حصاناً في أكد. وكان ذلك استعمالاً جديداً أدخله الحرانيون تأيّد وجوده في شكر بازار بظهور عجلة ذات عصي من فخار الخابور الملون تجعل سير العربة أسهل وأسرع.

وافق ظهور فخار الخابور المطلي حوالي سنة ١٨٠٠ ق.م ازدياد المنتجات المعدنية مما يشير إلى بعض الضغط من الشمال حيث كان المشتغلون بالمعادن ذوي خبرة عالية وقريبين من مصادر خامات المعادن، إذ تقع أقرب مناجم النحاس المعروفة في ايركاني مادن في أعالي الفرات شمال ديار بكر. ويبدو أن الخزافين المحليين والمشتغلين بالمعادن في الأناضول ظهروا في وقت واحد.

Twitter: @ketab_n

على أية حال يكشف تاريخ حوض نهر الخابور عن أدلة على تعرضه لضغوط استثنائية على هذه المنطقة، التي تتمتع بخصوبة طبيعية، من كل اتجاه: من الشمال والجنوب والشرق والغرب على الرغم من أن الضغط الأشد في كل الأزمنة كان من جهة نهر دجلة. إلا أن وجود أدوات الخابور يشير إلى حقبة من الرفاهية الكبيرة، ولدينا أدلة على أن أكثر من مدينة واحدة كانت محصنة بسور في هذه الفترة.

عملنا طوال الموسم الأول ونحن نعاني الصعوبات الشديدة من قاعدتنا في العامودة على بعد ٢٥ كيلو متراً، وكنا نضطر أحياناً إلى القيام بالرحلة في سيارة النقل الثقيلة العائدة للبعثة التي أطلقنا عليها اسم «الملكة ميري» في ظروف سيئة جداً بحيث إنها كانت تنزلق ١٨٠ درجة على الطريق المبتل والزلق، ولم يكن سهلاً أبداً اجتياز الوديان التي كان يمر بها الطريق بين ذلك المكان وشكر بازار. وكان الآخرون يعانون مثلنا، وأتذكر أن حافلة انغرزت في وادٍ ولم تستطع اجتيازه طوال عشرة أيام جلس خلالها الركاب جميعاً صابرين على ضفتي الوادي يتناولون الخبز والبصل ولم يبدُ عليهم الانزعاج أبداً. وهذا هو الإذعان الشرقي للظروف الجديدة والتكيف معها. إلا أن ذلك جعلنا نصمم على تشييد مقر البعثة. وفي الوقت المناسب وعند اقتراب نهاية الموسم شرعنا في تشييد بيتنا من الآجر غير المفخور.

صممنا البيت الجديد بمساعدة مهندسنا المعماري روبن مكارتني وكان تصميمه جميلاً. كان البيت يتكون من خمس غرف ومطبخ وغرفة مظلمة وغرفة جلوس كبيرة وقاعة عمل في الوسط وغرفتين في كل من الطرفين. كنا ننوي بناء رواق معمد مسقوف في إحدى الجهات، وكانت القاعة الوسطى مقببة. لم يكن أي منا قد شيّد قبة من قبل ولم تكن لدينا فكرة جيدة عن كيفية تنفيذها. كنا قد فكرنا في

Twitter: @ketab_n

تشييد قبة دائرية ثقيلة وعندما أكملنا وضع التصميم تبيَّن أنها بشكل قبعة عالية مخروطية الشكل. ثم واجهنا صعوبات شديدة ونحن نحاول تنفيذها. عندما شيّدنا القبة ثبتنا معاً دعامة وسطية من الخشب وكانت وسيلة ثقيلة وغير ملائمة. وبسبب مكائد النجار الأرمني سقطت على أحد العمال العرب الذي أصيب بأذى. ونشب شجار حاد جراء ذلك بين الأرمني والعربي. واضطررنا إلى إرغام الأرمني على البقاء لإكمال العمل بعد أن أوشك على الفرار.

كانت لدينا في أثناء تلك العمليات ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف لبنة معرضة لسقوط الأمطار عدة أيام. ولم تكن هناك فرصة لأن تجف، وكان من المشكوك فيه أن يصمد البيت البتة. ورغم ذلك شيّد هيكل البيت في عشرة أيام وأكمل تشييده في أربعة عشر يوماً. وأصبح كتلة هلامية صلبة التصق بعض أجزائها ببعض وبدت جميلة لدى إنجازها. كان المشهد جميلاً في الريف وكنا نفخر به كثيراً، إلا أننا انزعجنا قليلاً عندما خضَّب الشيخ أحمد زوايا البيت الأربع بدم خروف ذبح حديثاً، وكان ذلك سحراً مبشراً بالخير أتلف مظهر البناء بالأجر المكسو بالجص حديثاً. لم نستطع إكمال بناء الرواق الذي بقي ممراً مكشوفاً، ولكن مظهره كان جذاباً لوجود الأقواس البارزة المستندة إلى الهيكل الرئيس للبيت. وأعتقد أن العملية كلها لم تكلفنا أكثر من ١٥٠ باوناً بما في ذلك الأعمال الخشبية. وكنا نمتلك الأثاث.

إننا نتذكر هذا البيت ونحن نشعر بالحنين، لأننا عشنا في مرج أخضر أو نوع من الفردوس. وكان السهل بيننا وبين القامشلي حيث كان نبات زهر الخطمي ينمو بكثرة. وكان نمو النبات في تلك السنة رائعاً، وكنا نتناول لبن الأغنام الذي لم أتناول أفضل منه وكان يرسل إلينا كل يوم من منزل الشيخ.

Twitter: @ketab_n

كان المنزل نفسه يجتذب الشيخ، لأننا وعدناه بأن يصبح له يوماً ما. وفي الحقيقة، جلب له هذا المنزل الشهرة بعد ثلاث أو أربع سنوات عندما غادرنا منطقة الخابور، وإن كنت أشك في أنه عاش فيه. غير أننا نبهناه على أن عُمر البيت يعتمد تماماً على إعادة تبييضه وعلى تصريف المياه، وعلى الخطر من عدم العناية به وصيانته، وإلا قد تهوي القبة وتقتله. إلا أنني علمت أن هذا الشيخ الذكي استغل الوضع وباع المنزل وقريته الصغيرة لمالك آخر وانتقل إلى مكان آخر وهكذا حصل على مكافأة كبيرة من منزل لم ينفق عليه شيئاً، ولا شك في أنه أبلغ المالك الجديد أننا قد نعود ويحصل منا على ثروة أيضاً. وأعتقد أن المسكن، الذي كان في وقت ما مبنى متألقاً ذا مظهر كنسي، قد صمد بأعجوبة اثني عشر عاماً قبل أن ينهدم.

كان شيخنا الكردي الفطن، شأنه شأن المستوطنين الأرمن في حوض نهر الخابور، تجسيداً حياً لصلة موغلة في القدم بالشمال، ربما توضحها على أفضل وجه مكتشفاتنا المعدنية. في موسمنا الأول توصلنا إلى اكتشاف مهم في قبر من الطبقة الخامسة يعود إلى عهد نينوى ٥. وكان قعطة من مقبض خنجر حديدي، ربما يعود تاريخها إلى عام ٢٩٠٠ ق.م. وعندما حُلّلتْ وُجد أنها تحتوي على أكثر من ٥٠٪ من الأوكسيد الحديدي الذي يعادل ٣٥,٩٥٪ من الحديد. ولم تكن القطعة تحتوي على أية نسبة من النيكل، ولذا ربما كانت من أصل نيزكي.

كان هذا النموذج أهم نظير للاكتشاف الذي توصل إليه المرحوم الدكتور فرانكفورت في تل أسمر في وادي نهر ديالى، أحد روافد نهر دجلة، وكان قطعة من نصل خنجر من أصل أرمني صنع قبل عام ٢٧٠٠ ق.م. ويوضح اكتشاف الحديد في شكر بازار صلة أرمنية

Twitter: @ketab_n

عريقة، فالحديد موجود في أرمينيا ويحتمل أن الحدادين الأوائل وُلِدوا هناك.

والاسم دميرجيان، ابن حداد، شائع في محلات الحدادين في حلب اليوم، أو كان شائعاً في ذلك الحين، وأعتقد أن الحدادة مهنة يمارسها الحدادون الأرمن منذ زمن سحيق.

عثرنا على دبوس نحاسي صغير جميل تتوّجه حمامتان، وعلى بعض الأسلحة النحاسية وخرزة فضية طويلة ذات نهايتين مفلطحتين تشبه الخرزات التي اكتشفت في المقبرة الملكية في أور.

عندما تعود بنا الذاكرة إلى موسمنا الأول في شكر بازار ينبغي ألا ننسى خرزة نحاسية نقية نقاءً استثنائياً لا أثر فيها للنيكل أو القصدير أو الزنك أو الكبريت عثرنا عليها في عمق كبير في طبقة تلي مباشرة طبقة عصر سامراء، وهنا كنا قريبين بوضوح من بدايات استخراج المعادن. وتؤكد هذا أدلة من الأربجية حيث اكتشفت قطعة من الرصاص في الطبقات المبكرة وبررت الرأي القائل بأنّ بعض أواني الحليب أو القشدة الجميلة ذات القواعد المشطوفة بزوايا حادة هي تقليد للمعادن. إن هذا الاكتشاف للمعادن البدائية أمر معقول، لأنه من الواضح أن خزّافي حلف بدأوا إجراء التجارب في أفرانهم، وكانوا يزيدون قدرتهم على السيطرة على النار، إضافة إلى إجراء تجارب في استعمال الأصباغ. ووجدوا أن استعمال طبقة خفيفة من صبغة حمراء على الإناء يعطي اللون الأحمر، بينما استعمال طبقة أثخن وحرارة أقوى يعطي اللون الأسود. إضافة إلى ذلك وجدوا أن طيناً رقيقاً شبه سائل ذا لون أصفر شاحب يتحول إلى لون المشمش عندما يعرض لنار أشد، وهو أمر يلفت النظر ومن أجمل سمات هذا الفخار المبكر، لذا كانت الأواني في البدء متعددة الظلال وليست متعددة الألوان، إلا أن

Twitter: @ketab_n

ذلك تطور فيما بعد إلى تعدد حقيقي للألوان. ويعود ذلك كله إلى تلك التجارب المبكرة في شي الفخار، مما أدى في نهاية المطاف إلى إحراز تقدم كبير في استخراج المعادن وخلطها. وربما عرقل ذلك التقدم ظهور أقوام العبيد في جنوب بلاد بابل الذين كان عليهم الحصول على بعض المهارات حصل عليها الأقوام الذين سبقوهم.

تأيدت الكفاءة غير العادية لخزافي حلف الذين سبقوا عصر العبيد بعد أربعين عاماً من التنقيب في شكر بازار وأثبتت بالتحليلات العلمية للخزف التي أجراها هيو مكريل وتوماس ديفدسن اللذان عرضا كسراً كثيرة من هذه المصنوعات لعملية التنشيط النيوتروني بينما حفر الأخير مجسات في وادي دارا، حيث يقع شكر بازار، لكي يفحص أنواع الطين الذي صنع منه هذا الفخار وتحليلها. وكان الاستنتاج أن الطين والغرين الذي تحتوي عليهما هذه الوديان لم يتغير طوال سبعة آلاف سنة ويمكن ملاحظة العناصر نفسها بما فيها الكروم والحديد والكوبالت وعناصر أخرى كما في الكسرات نفسها. وهكذا تأيد أن الأنواع الجيدة من الطين المستعملة هنا في صنع فخار حلف جاءت من الوديان التي استفاد منها خزافو شكر بازار البارعون الذين تاجروا بخزفهم إلى مسافات بعيدة. كانت أنواع الطين من وادي دارا ذات نوعية ممتازة. وقد تأيد ذلك أيضاً بفحص مواقع أخرى مثل تل عقاب الواقع في الوادي نفسه حيث يوجد تراكم لا يقل عن عشرة أمتار من آثار حلف. وبفضل هذه التجارب العلمية ثبت أن خزافي حلف كانوا أساطين حرفتهم.

لم تكن هذه اللقى المبكرة من المعادن أقل إثارة من اللقى في الطبقة الأولى وهي أعلى الطبقات كلها التي توصلنا فيها إلى أهم الاكتشافات في قبر ضمَّ بوتقة صغير مثيرة للاهتمام إثارةً استثنائية.

Twitter: @ketab_n

تألفت البوتقة من صندوق مفتوح ضمَّ قدحاً في الأعلى وموقداً في الأسفل. وكانت هناك في القبر نفسه بعض النماذج الجيدة لقوارير النبيذ من فخار الخابور مع دبوس نحاسي صُبَّ على نحو جميل ونقشت عليه أشكال مؤلفة من خطوط. وكان لهذا الدبوس رأس قرص دائري، وكان الطرف الأعلى من الجزء المستقيم من الدبوس مثقوباً ليحتوي على حلقة بحيث يمكن ربطه بعباءة كما يربط مسمار العقدة. وأعتقد أن هذا القبر كان لنحّاس ثري وتساءلت إن كان قد جاء من مكان ما في القفقاس أو في منطقة بحر قزوين حيث عثر ديمور كان على دبابيس مشابهة قبل قرن من الزمن. وفي الموسم التالي عثرنا لا على المزيد من البوتقات فحسب، ولو أنها ذات طابع مختلف، بل على قوالب بازلتية كبيرة لصب الأسلحة التي أيضاً، ولا ريب في أن هذا النشاط المهم استمر في شكر بازار حتى قبل ١٨٠٠-١٦٠٠ ق.م وكسب الصُّنّاع منه ثروة طائلة.

عثرنا على لقى صغيرة كثيرة أخرى مثيرة للاهتمام في الموسم الأول من التنقيب، وكل من يرغب في رؤيتها يمكنه الرجوع إلى المجلد الثالث من مجلة Iraq. ومن غير المناسب أن أمضي في مناقشتها هنا، إلا أنه ينبغي ألا أغفل ذكر اكتشافين آخرين، أحدهما طبعة ختم تمثل أرنباً برياً ختمت حوالي سنة ٢٩٠٠ ق.م وتعود إلى العصر المعروف بنينوى ٥. ومما يثير الاهتمام أن الأرنب البري هو الذي يظهر في هذه الطبعات وليس الأرنب العادي الذي يبدو أنه يستوطن أوروبا. ولا أعرف ما الذي دعاهم إلى اختيار نقش شكل أرنب بري على هذا الختم. وكان الاكتشاف الثاني تعويذة منحوتة بشكل رأس فرس اقتنيت في قرية العامودة. وربما كانت تمثل حصاناً، والأكثر احتمالاً حماراً وحشياً، وكانت قطعة منحوتة نحتاً جميلاً من

Twitter: @ketab_n

الحجر المائل إلى اللون البني ونموذجاً مبكراً جداً من عصر جمدة نصر. وكانت من أجمل ما اكتشف في هذا الموسم ولو أنها لم تكن من الحفرة.

أخيراً نتناول فن العمارة في الموقع. سنح لنا الوقت للتنقيب في أحد البيوت الواسعة المشيّدة بجدران من الآجر غير المفخور ويحتوي على حجرات صغيرة. وكان يدخل فيه من فناء مكشوف كبير وكان تصميمه يشبه تصميم المساكن الخاصة المألوفة في بلاد آشور وليس في بلاد بابل.

وكا تاريخ هذا البيت ينحصر بين عام ١٨٠٠ ق.م و١٦٠٠ ق.م ولا بد أنه كان يتكون من طابقين. وعلى أية حال، كان هناك سلّم يؤدي إلى السطح. ومن الواضح أن المكان كان موحلاً أكثر من الوقت الحاضر لأن الأرضية في أحد الأفنية الداخلية كانت مكسوة بحصى صغير. ومن المثير للاهتمام وجود تنورين ملاصقين للبيت وعثر على آثار لسطوح ذات أطناف من الآجر غير المفخور. وكان في المطبخ مجموعة متنوعة من أدوات المنزل والمطبخ المعتادة والمجارش والمطاحن وما أشبه. هذه الاكتشافات كلها وغيرها أوضحت بجلاء أننا كنا ننقب في موقع يستحق التنقيب على نطاق أوسع، ولذا قررنا العودة إليه موسماً ثانياً على الأقل في السنة التالية قبل الانتقال إلى موقع أكبر وأكثر أهمية. كان هدفنا اكتشاف المزيد من العمارة، وليس الحفر عميقاً إلى طبقات ما قبل التاريخ، بل حفر الطبقات العليا على أوسع نطاق ممكن آملين العثور على ألواح. وقد تطلب ذلك موسماً ثالثاً لكشفها، وما عثرنا عليه في السنة التالية برّر تماماً تصميمنا على مواصلة التنقيب.

هكذا شعرنا بالارتياح الشديد لاكتشافاتنا في الموسم الأول وتقرر

Twitter: @ketab_n

أن نعود حاملين توقعات عالية، ولم يكن أقلها متعة السكن في بيتنا الجديد المشيّد بالآجر غير المفخور بقبته المخروطية الأنيقة ورواقه الذي لم ينجز بناؤه وكنا نأمل إكماله يوماً ما، ولكن ذلك لم يتحقق أبداً.

عدنا إلى شكر بازار للتنقيب موسماً ثانياً في ربيع عام ١٩٣٦ وكان غزير الأمطار وممتعاً جداً. ثم تمتعنا بالسكن في بيتنا الجميل الطلق الهواء والمضيء بغرفة الجلوس الوسطى فيه تحت القبة التي لم تظهر فيها علامات تشير إلى احتمال سقوطها علينا. كان مساعداي بجانب أجاثا في ذلك الموسم عقيداً متقاعداً في الجيش الهندي اسمه أ. هـ. بيرن، الآثاري الهاوي الذي كان يتمتع بروح فكهة ويجيد التعامل مع العمال، لأنه تعوّد معاملة العمال. كان يميل إلى التصرف بصرامة العسكري إلى حد ما ويتوقع من العمال أن يقفوا في صفوف رباعية منتظمة ليتسلموا أجورهم، ولكن يبدو أنهم تمتعوا بذلك وكانوا ينظرون إلى المشهد بصبر وسرور. كان صديقاً طيباً لنا جميعاً. وثمّن صحبته كثيراً مساعدنا الشاب لويس أوسمان الذي اشتهر منذ ذلك الحين مهندساً معمارياً في إنجلترا. وأتذكر أننا لقبناه «Bumps» (نتوءات)، لأنه في أثناء الرحلة إلى القامشلي في قطار الشرق السريع أشار إلى التلال القديمة التي كانت تنتشر في السهل على أنها (نتوءات) ودهش إذ سمع أنها تمثل الأماكن المأهولة بالسكان سابقاً والتي كنا مقبلين على التنقيب فيها بوصفها جزءاً من مهمتنا، ولكنه أصبح يعرف بهذه الكنية. كان زميلاً مرحاً وعنصراً لا يستغنى عنه في أية بعثة آثارية.

ساعدنا هذان الزميلان الطيبان في تحقيق خاتمة ناجحة لتنقيباتنا في شكر بازار وهو ما أنجزناه في موسمنا الثالث معاً بجانب صديقنا المخلص روبن مكارتني. وأخيراً في عام ١٩٣٦ وعلى مسافة لا تزيد

Twitter: @ketab_n

على عشرين قدماً من حفرتنا التجريبية الأولى التي حفرناها قبل ذلك بعامين حققنا الهدف من بحثنا في نهاية مبنى من الآجر غير المفخور في حجرة صغيرة ضمت سبعين لوحاً مسمارياً معظمها كتب خلال عام واحد، وأرّخها القاضي الآشوري (ليمو) بحوالي عقد قبل عام ١٨٠٠ عندما كان شمس أدد الأول ملكاً على بلاد آشور وكان ابنه الأصغر اياسما ـ أدد مسؤولاً عن المنطقة. زودتنا هذه الألواح بمعلومات مرتبة زمنياً وثمينة جداً وثبتت تاريخ فخار الخابور المطلي الذي اكتشفناه، لأن الألواح كانت تستند إلى كسر صغيرة من الفخار كانت بمثابة صينيات.

اعتقد س.ج. كاد الذي فكّ رموز مجموعة الألواح في المتحف البريطاني بمهارته المعتادة ـ ويحتمل أن رأيه كان صحيحاً ـ أنها مكنتنا من تحديد شكر بازار بأنها الاسم الحديث لبلدة قديمة اسمها تيلشانيم وتعني «التل الذي جوابه نعم» وهو اسم مناسب لأنه احتوى على «بيت باري» أو «بيت العرافين». وقد حافظ الشيخ الكردي أحمد الذي كان يساعدنا على سمعتها القديمة، إذ كان ما يزال ساحراً معروفاً في المنطقة. ويحتمل أن المبنى الذي عثرنا فيه على هذه الألواح كان بيت باري نفسه، ولكن الأرجح أنه كان معبداً آخر ربما لإله الشمس المذكور في الألواح أو ربما كان قصراً.

تركنا مهمة بسيطة وجذابة إلى منقب آخر، وهذه المهمة هي استخراج بقية الألواح التي لا شك في أنها تنتظر من يكتشفها في المبنى نفسه.

ومن المثير للاهتمام أن الألواح تذكر تجهيز علف لإطعام الأيل في المعبد وكذلك الغزلان التي رسمت مراراً على الأختام الأسطوانية ذات الصلة بالأشجار كجزء من مشهد المعبد.

Twitter: @ketab_n

إن صلة شكر بازار بالعائلة المالكة في بلاد آشور، كما تؤيد ذلك الألواح، تتسم بأهمية استثنائية وتبرر اختيارنا للموقع لإجراء التنقيبات وتشير هذا الألواح أيضاً إلى مدينة ملكية آشورية أخرى هي ايكالاتي التي كانت المؤن ترسل إليها في أحوال كثيرة ويرد أكثر من مرة ذكر شوبات ـ انليل، عاصمة ملك بلاد آشور في ذلك الوقت، لذا اعتقد بعض العلماء بدعم من صديقي المرحوم الأستاذ كويتز أنه ينبغي تحديد هذه العاصمة بأنها شكر بازار. إلا أنني أعتقد أن هذا الرأي غير صحيح، لأن أحد الألواح يسجل إرسال المؤن إلى شوبات ـ انليل التي لم تتسلمها. كما أن موقعنا لا يبدو واسعاً أو مهماً بما فيه الكفاية ولا يحتل موقعاً استراتيجياً يؤهله لأن يصبح العاصمة الآشورية التي يحتمل أنها تقع في المنطقة على مسافة غير بعيدة. والدليل على قربه صلة الابن الأصغر للملك الوثيقة بشكر بازار، إذ يتكرر اسمه عدة مرّات في هذه الألواح ويؤكد ذلك حقيقة أنه احتفظ هناك بمجاميع من الخيول والحمير والثيران وعربة مشدودة إلى نِير بعهدة خمسة سوّاس ومدرب، وبذلك سبق بعدة قرون سلالة ميثاني الملكية الهندية ـ الآرية التي خلفت سجل مدرب خيول شهير اسمه كيكلولي. وفّر اياسمار أدد ابن الملك الآشوري، العلف بسخاء لخيوله، وبرر تأنيب والده إياه، إذ اتهمه في سجلات ماري بالتبذير وإضاعة أمواله على النساء. ووصفه والده بالتخنث ـ لأنه كان حليق الوجه ـ وقارنه سلبياً بشقيقه الأكبر الذي سرعان ما أضاع العرش. إن اياسمار أدد الابن الأصغر، الذي أدرك الخطر المحدق بمملكة بلاد آشور عندما مات أبوه، هو المفضل عندي ويذكرني بوضوح بيحيى الوغد الابن الأكبر لرئيس عمالنا حمودي الذي فضل اتزان ابنه الأصغر الأقل قابلية والميال إلى الروح الحربية.

Twitter: @ketab_n

تعطينا بقية الألواح صورة لمجتمع منشغل بممارسة الأعمال الزراعية وتربية الأغنام وزراعة الشعير لا يرد أي ذكر للقمح إذ لم تكن الأرض، التي ربما كانت تُروى بإفراط وتميل إلى الملوحة، ملائمة لزراعة القمح. واستناداً إلى السجلات القديمة فقد استعمل الشعير، الذي ما يزال المحصول الأساسي في المنطقة في الوقت الحالي، ليس للعلف ولصنع الخبز فحسب، بل مادة رئيسة في صنع البيرة أيضاً. وتشير السجلات إلى الجعة الجيدة وما يشبه البيرة.

شملت المدن المشار إليها في هذه السجلات مدينة تسمى كاهات، ربما يمكن تحديدها الآن بتل بيري الكبير بفضل قطعة آجر اكتشفت هناك على بُعد بضعة أميال إلى الشمال الشرقي من شكر بازار قرب نصيبين، وكان يرسل إليها نوع خاص من الخبز يدعى (ماكارو). ومن الأمور المثيرة للاهتمام الشديد الهدايا السخية من الخبز والبيرة التي أرسلها إلى معبد المدينة في يوم التطهير ٢٧٧٠ مواطناً من قيرداهات، وهي مدينة أظن أنها تقع إلى الشمال، تعبيراً عن التبجيل الكبير لشكر بازار بوصفها مدينة مقدسة. ويذكر أن المكيَالين المستعملين كانا الحومر والسوتو[٢]، وكانا مألوفين في بلاد آشور، وهذا دليل على هيمنة حضارتها.

كان معظم سكان المدينة كما نعلم من النصوص فلاحين من كل نوع، ورعاة وبستانيين ومربّي مواشٍ وقصّاري الصوف والحاكة والكهنة والكتبة وصبياناً وفتيات بينهم بعض المكفوفين. ومن المثير للدهشة أن

---

(٢) الحومر وحدة قديمة للكيل كانت مستعملة في بلاد الكنعانيين وتعادل عشر إيفات Ephah، والأيفة التي ورد ذكرها في التوراة تعادل كيلة سلطانية وسدسها. والسوتو وحدة كيل أكدية تعادل وحدة البان BAN السومرية أو ٨,٤٢ لترات تقريباً. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ليس هناك سوى إشارة واحدة إلى المعدن في دفع المبالغ ولا توجد أية إشارة إلى المشتغلين بالمعادن، ولا شك في أنه سيمكن سد هذه الثغرة عندما تكتشف بقية هذا السجل الذي كان كبيراً في وقت ما.

توجد أدلة وافرة على انتشار الزراعة. وكانت تشمل في الغرب منطقة يامخد حول حلب ويرد في الجنوب الشرقي ذكر لبلدة في عيلام.

ومن الأماكن الأخرى التي ترد إشارة إليها مدن على نهري دجلة والفرات وحوض نهر ديالى مثل كيش واكشك ومدن أخرى، إضافة إلى منطقة هانا في تدمر.

هكذا نستنتج أنه كان يعيش في هذا الموقع، في وقت ما، شعب نشيط ومرفه، يتكلم نصفه لغة سامية هي الأكدية (الرافدينية) أو العمورية (السورية الغربية). وكان حوالي ربع السكان حوريين لاساميين من تجار الخيول والجنود الذين أدمجوا فيما بعد على أنهم نواة سلالة ميثاني الهندية ـ الآرية. وكان هناك عنصر مهم آخر من السكان تنتهي أسماء أفراده بـ «ان» ولا نعرف من هم، لكنني ساءلت نفسي أحياناً إن كان تل موزان، الذي كان واضحاً أنه حافل بالآثار ويقع على بعد بضعة أميال شمال شرق شكر بازار، صدى لذلك العنصر.

بعد اكتشاف الألواح شعرنا أننا أحرار في الانتقال وتركيز جهودنا في تل براك الكبير، وهو أهم مركز في حوض الخابور كان يدعونا إلى التنقيب فيه. اكتشفنا في شكر بازار الأسس وبدأنا نفهم السلاسل الرئيسة في المنطقة. وأصبحنا قادرين الآن على تولي المهمة الأكثر تعقيداً وصعوبة والتي واجهتنا في براك.

على الرغم من حماستنا للشروع بمغامرتنا الجديدة والمثيرة،

Twitter: @ketab_n

تركنا شكر بازار آسفين. إلا أنني أحمل ذكرى سعيدة لزيارة قام بها إيرنست التونيان وزوجته دورا وأمضيا بضعة أيام معنا وفحصا المرضى ولا سيما رئيس عمالنا المريض عبد السلام الذي كان مصاباً بالسل مثل آخرين كثيرين من منطقة كركميش. وكانت مساهمة دورا رسمَ لوحة زيتية لأجاثا جالسة في غرفة الطعام تصلح الفخار وهي في غاية السعادة. وما زلت أمتلك هذا التذكار الجميل من عام ١٩٣٦.

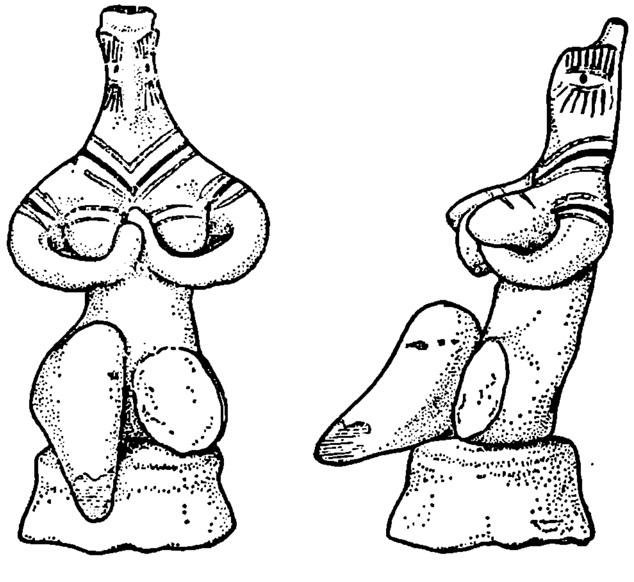

تمثال الأم الجالسة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

التنقيبات في تل براك

شاهدنا تل براك الكبير أول مرة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٤. وكان الأثر المهيمن في النهاية السفلى لمثلث الخابور مثلما كان تل حلف الأثر المهيمن في النهاية العليا للمثلث. ومنذ أول لحظة رأيت فيها التل قررت أن أنقب فيه يوماً ما. استغرق الشروع في ذلك زمناً طويلاً، لأننا، كما أوضحت سابقاً، كان يجب أن نتعلم الأسس بالتنقيب في تل شكر بازار الذي كان أصغر منه، إلا أنه كان مهماً.

تمكنا في الشروع في العمل في براك في موسم ربيع عام ١٩٣٧ وأكدت جهودنا الأولى تصميمي. ولذا عدنا لتنفيذ حملتين كاملتين في الربيع والخريف من عام ١٩٣٨ بينما كنا نبذل جهودنا النهائية في شكر بازار. وفي اللحظة التي اكتشفنا فيها مجموعة الألواح التي وصفتها في الفصل السابق شعرنا أننا أحرار في مغادرة شكر بازار والتركيز في براك وحده.

لا بدّ أن يثير هذا التل العظيم الإعجاب لأنه يبدو بارزاً في السهل ويطغى عليه. يقع التل على بعد ٣٠٠ ميل شرق البحر الأبيض المتوسط و١٣٠ ميلاً غرب نهر دجلة، ولذا فإنه كان يبحث عن الإلهام من دجلة. إن أقرب مدينتين إليه هما نصيبين على بعد خمسة وعشرين

Twitter: @ketab_n

ميلاً إلى الشمال والحسكة التي تبعد المسافة نفسها تقريباً إلى الجنوب، حيث يصب نهر جغجغة في الخابور الأسفل. يقع براك قريباً من المياه، إذ إنه لا يبعد سوى أربعة كيلومترات عن الضفة الغربية للنهر وللنهر المتكون من التقاء النهرين المسمى وادي راد الذي تقع شكر بازار نفسها عليه. وتل براك هو أكبر التلال في المنطقة وشكله بيضوي تقريباً وتبلغ أبعاده القصوى حوالي ثماني مئة متر في ست مئة متر. ويقل مجموع مساحته عن خمسين هكتاراً أو حوالي مئة وعشرين ايكراً. ويبلغ ارتفاع أعلى نقطة فيه ٤٠ متراً فوق مستوى السهل، أي أعلى بأكثر من عشرة أمتار من تل قوينجق أو نينوى.

يشير الحجم التكعيبي للموقع وحده إلى أنه يضم بقايا تتسم بأهمية قصوى لكل عصر تقريباً من عصور ما قبل التاريخ إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد على الأقل. وقبل زيارتنا إياه بسنوات كثيرة كان الأب پويدبارد قد حدده بأنه موقع يعتقد أنه كان معسكراً رومانياً كبيراً يغطي مساحة ما في السهل، ثم نسبه ديفيد أوتسن فيما بعد إلى العصر البيزنطي وإلى القرن الخامس تقريباً.

ينقسم الموقع طبوغرافياً نصفين يفصل أحدهما عن الآخر ميدانٌ فسيح واطئ كانت حركة المرور كلها تمر به بعد استكمال تطوره. وأعلى جزء من التل وأشده انحداراً هو الجناح الشمالي الغربي الذي تفصله عن الجناح الجنوبي الشرقي الأرض الواطئة نسبياً أو الوادي العريض ويمكن تفسير الاختلاف في الارتفاع بين الجناحين بسهولة.

كان الجناح الشمالي الغربي حياً سكنياً أساساً مخصصاً للبيوت بينما كان الجناح الجنوبي الشرقي مشغولاً بالدرجة الأولى بالمعابد والمباني العامة التي تراكمت بسرعة أقل لأنها كانت أقوى بناءً وأفضل ترميماً، زد على ذلك أن الجناح الجنوبي الشرقي يبدو قد هجر بعد

Twitter: @ketab_n

عام ٢٠٠٠ ق.م بقليل بينما بقي الجانب المقابل مشغولاً باستمرار ما لا يقل عن ستة قرون أخرى. وهكذا بعد عام ٢٠٠٠ ق.م كان لا بدّ للسكان من تسلق منحدر شديد الانحدار قبل أن يدخلوا بيوتهم، ولا بدّ أنه كانت هناك صعوبة شديدة في رفع مياههم إلى مستوى عالٍ فوق السهل. ومن المؤكد أن ذلك كان صعباً حتى باستخدام الآبار، ولذا فإن النقل بالعربات كان ضرورياً. إلا أن هذه المعضلة ربما عوضت بالأمن الأفضل الذي تمتع به السكان أمام غارات الغزاة أحياناً من الشمال.

لقد وأضحت أننا تعرضنا في منطقة الخابور لغارات صغيرة من تلال الأناضول وكنا نستخدم الحراس الليليين في معظم القُرى للتحذير من مثل هذه الغارات. وكان المرء ينظر من قمة تل براك عبر مسافة بعيدة إلى تلال جبل سنجار الأرجوانية التي يقع بعضها في سوريا وبعضها الآخر في العراق، ويدل هذا الوضع أيضاً على أن براك كان يقع على طريق دولي. وكان يقع أدنى منه ما أطلق عليه الرومان لاكوس بيبراكي الذي لا بدّ أنه يشير إلى بحيرة براك. وعندما يكتشف ذات يوم اسم الموقع القديم ربما سيكتشف أن اسم براك موجود في أصل الاسم. كانت المياه المالحة بعض الشيء لهذه البحيرة تقع على مسافة تقل عن اثني عشر ميلاً وكانت مكاناً مناسباً جداً للقيام برحلة ترفيهية في الأيام التي لا نعمل فيها. وكان من المعالم الكبيرة الأخرى التي تشاهد بوضوح بركان خامد هو جبل كوكب الذي لا بدّ أنه كان خامداً زمناً طويلاً عندما فكّر أقدم السكان في استيطان الأرض.

عندما وصلت أنا وأجاثا إلى براك سكنت أولاً في برج عال عند مدخل الخان. كان البرج أولاً يعج بالوطاويط وتعوّدنا تمضية جانب كبير من الليل في مطاردتها، ثم تولى المهمة العقيد أ.هـ. بيرن ولويس

Twitter: @ketab_n

أوسمان اللذان تناوبا في أداء المهمة معنا. وهكذا تناوبا معنا في المعاناة من الرحلة التي كنا نقوم بها مسافة عشرين ميلاً بين شكر بازار وتل براك.

كنا محظوظين على نحو استثنائي بقدر تعلق الأمر بمسكننا، فقد كان تحت تصرفنا خان فارغ كبير في تل براك، لأنه كان في موقع مثالي ملائم لبعثة تنقيب أجنبية بحجراته العشر وجناح الخدم والمطبخ. وهكذا وفّر لنا الخان مكان السكن الذي كنا نحتاج إليه كاملاً إضافة إلى فناء واسع يمكن لسيارة الشحن التابعة لنا إفراغ حمولتها فيه وحتى نشر الكسر التي نعثر عليها، إذ كان هناك مجال واسع لذلك. ولا أظن أنني حصلت على مكان سكن أكثر سخاء في أي مكان آخر. وأقمنا في الوقت المناسب مدخلاً خشبياً كبيراً ذا مصراعين وباب صغير، ورتبنا الدفاع عن القلعة وأمنها بشكل مناسب وجعلناها محكمة الغلق كما في القصور القديمة.

وعندما غادرنا الموقع بعد انتهاء عملنا وضعنا أثاثنا كله في غرفتين في أحد طرفي الخان، وتساءلت أحياناً عما حدث للأثاث لأن الحرب نشبت ولم نسترجع الأثاث. وأعتقد أنه ما زال في مكان ما بالقرية، وربما يفيد أية بعثة محظوظة تعود إلى هذا الموقع الرائع، إلا أن هذا المسكن المفيد كما علمت يستخدم حالياً مركز شرطة.

كانت إحدى مشكلاتنا المهمة في الأيام المبكرة من التنقيب في براك وشكر بازار الحصول على ما يكفي من النقود الفضية لدفع أجور العمال في نهاية الأسبوع، لأن النقود الورقية لم تكن منتشرة آنذاك. ولذا اعتدت التوجه إلى القامشلي على بعد أربعين كيلومتراً، ولعدم توفر القطع الفضية في المصرف دائماً فقد كنت أذهب إلى السوق وأحصل على المبلغ المطلوب والبالغ كالمعتاد بضع مئات الباونات من

Twitter: @ketab_n

الصراف الذي يدفع أعلى سعر مقابل الصك. كانت هذه العملية مسلية بعض الشيء. كنت أسير في الشارع حاملاً الصك عالياً معلناً كمية الفضّة التي احتاج إليها. وكنت أقبل أعلى عرض بعد قليل. وكانت تلك طريقة مذهلة للعمل التجاري لأن قطع العملة كانت تضم المجيدي، وهو قطعة عملة فضية كبيرة الحجم وتساوي في الحقيقة أكثر من قيمتها الاسمية البالغة عُشر البنس، وكانت قطع العملة الصغيرة تتألف مما سمّي البرغوث الكبير والبرغوث الصغير وكان ينبغي عد هذه القطع كلها ووضعها في حقيبتين ونقلها في سيارة الشحن دون أية حراسة، إلا أنني لم أتعرض لأي هجوم عدا إطلاق النار علينا مرة واحدة. اعتدت أولاً نقل المبلغ إلى مسكننا في العامودة وقضاء جانب طويل من الليل أعد قطع النقود من الحقيبة على سرير زوجتي. وأتذكر غضبها عندما تركتها مرة عشرين دقيقة، إذ نسيت النقود فقالت لدى عودتي: «ربما كنت سأتعرض للاغتيال»، لكنها لحسن الحظ كانت ما تزال هناك على قيد الحياة.

كانت الاكتشافات التي توصلنا إليها في تل براك ذات أهمية استثنائية آثارياً وتاريخياً وفنياً وبررت تماماً الجهد الذي بذلناه. لم يكن هناك كنز نفيس وافر من الذهب والفضة فحسب، وهو ما يثير اهتمام الهاوي، بل مبنيان كبيران أيضاً يعود تاريخهما إلى ما قبل عام ٣٠٠٠ ق.م وحوالي عام ٢٣٠٠ ق.م على التوالي. وكانت هناك أيضاً معالم بارزة تحتل الآن مكانها في السجل الآثاري كآثار بارزة وشعرنا تاريخياً بالرضى للعثور على بضع وثائق ولو أن اسم المكان الذي وجدت فيه لم يعرف، إلا أننا نأمل أن نعرف ذلك قريباً لأن الأستاذ ديفيد أوتس يوشك أن يَستأنف التنقيب (١٩٧٦).

وإذا أردنا الإشارة إلى أبرز الآثار ينبغي أن أختار رأساً من حجر

Twitter: @ketab_n

الكلس من عصر جمدة نصر يعود تاريخه ربما إلى ما بعد عام ٣٠٠٠ ق.م بقليل. وقد أعلن أحد الخبراء الألمان وهو الدكتور مورتكات أن التمثال قطعة ممتازة بعد أن أسهب في الحديث عنه وأطنب في مدحه القِيم الجمالية الاستثنائية المتمثلة فيه. وكانت بعض التعاويذ الصغيرة التي تعود إلى الفترة نفسها تقريباً ذات جمال مذهل ولمسات أخيرة لافتة للنظر وهي أيضاً تحتل مكاناً بارزاً في تاريخ المنحوتات الصغيرة التي تضاهي منحوتات اليشب الصينية وإن كان معظمها من الحجر الصابوني والأنواع الأخرى من الحجر الناعم. ومن اللقى البارزة الأخرى واجهة مذبح مزينة بالذهب والفضة والطفل الصفحي shale وحجر الكلس، وهو شكل تقليدي من الزخرفة لواجهة معبد عثر عليه هنا في موضعه الأصلي. وأعدنا اثنين من الألواح إلى وضعهما الأصلي.

لا بدّ من إضافة مبنيين لهما أهمية بارزة إلى السجل المعماري، الأول معبد سميته معبد العين، سأصفه بالتفصيل فيما بعد في هذا الفصل. وكان الاكتشاف الثاني قصراً أكدياً كبيراً أطلقنا عليه اسم قصر نرام ـ سين الذي كان ثالث عاهل بعد سرجون مؤسس مملكة أكد. كشف عن هذا القصر الكبير في الطرف الجنوبي من الجناح الشرقي لتل براك وكان اكتشافاً مدهشاً، إذ تمكنا من استعادة مخطط التصميم الأرضي كاملاً في أقل من أسبوعين وبتتبع الأقسام العلوية من الأسس، ولو أن الحجرات في بعض الأماكن احتفظت ببناء الآجر إلى ارتفاع كبير. وقد تعرض التل لكثير من التعرية بحيث لم تبق سوى حجرة واحدة بأرضيتها.

تألف المخطط من أربعة أفنية كانت أبعاد أكثرها أكثر من أربعين متراً مربعاً وكانت هناك حولها سلسلة من المخازن التي كانت تستخدم

Twitter: @ketab_n

لخزن الحبوب الغذائية. لم يكن هناك سوى مدخل واحد، ولا بد أنه كان محاطاً بزوج من الأبراج. وقد أكّد هذا المبنى الحقيقة التاريخية العريقة وهي أن هؤلاء الملوك الأكديين ثبتوا حكمهم في آسيا الصغرى لمسافات بعيدة، وكان واضحاً أن هذا كان معقلاً لحماية الخطوط الطويلة من الاتصالات بين عاصمة أكد، التي كانت قريبة من بابل، والإمبراطورية المترامية التي امتدت إلى كابادوكيا في قلب آسيا الصغرى.

لقد برهنت اكتشافات لاحقة لبعثة إيطالية في موقع ألبا المهم قرب حلب أن الهدف المباشر لنرام ـ سين كان تثبيت نفسه حاكماً على وسط سوريا، إذ يبدو أنه في أثناء حملاته العسكرية دمّر دولة المدينة التي كانت تسيطر على الفرات الأعلى والأوسط آنذاك.

اتسمت الهندسة المعمارية لقصر نرام ـ سين، أو «البيت الكبير» كما سمّاه الملك على آجره، بأنها كانت عملية وصممت تصميماً يثير الإعجاب من حيث تحقيق ما هدفت إليه.. غطى هذا الصرح الفخم سطحاً يزيد على هكتار أو زهاء ايكرين ونصف ايكر من الأرض، وهو أكبر مبنى كشف عنه من ذلك العصر، حوالي سنة ٢٣٠٠ ق.م.

كان الغرض منه استخدامه مخزناً ضخماً للحبوب التي كانت تجمع بشكل جزية وضرائب في المنطقة وقاعدة تموين لجيوش سلالة أكد في حملاتها الشمالية.

كان واضحاً من سمك الجدران الكبير أن نرام ـ سين أدرك أن قلعته تقع في منطقة معادية، ولكثرة الحبوب فيها كان لا مفر من جعلها منيعة. لقد شيّدت الجدران الخارجية بسمك عشرة أمتار أو ٣٢ قدماً، وكانت حتى الجُدران الداخلية صلبة نسبياً. ولأن أكبر عمق لأسس الجدران بلغ حوالي خمسة أمتار فيمكننا، آخذين بنظر الاعتبار

Twitter: @ketab_n

معادلة قديمة لعلاقة العمق بالارتفاع، أن نقدر أن الارتفاع الإجمالي للمبنى كان خمسة عشر متراً أو أقل من خمسين قدماً بقليل، وهو لا يحتمل أن يتسم بالمبالغة كثيراً عندما نقارنه بالقصور الآشورية المتأخرة.

كان ثمة مدخل واحد للقلعة التي كان يدافَع عنها ببرجين متينين بلغ ارتفاعهما في الأصل طابقين وصمما لمراقبة السهل البعيد من شرفات على سطح الحصن يستطيع منها رماة السهام في جيش الملك اتخاذ مواقع جيدة في مواجهة الهجمات. وكان المدخل المنفرد محاطاً على كلا الجانبين بمنطقة سكنية هي الوحيدة في المبنى وضمت كل منهما فناء تحيط به حجرات، ومن المحتمل أنها كانت تسند طابقاً أعلى. وقد أعيد تثبيت جزء من الخريطة، وبفضل وجود قمة عالية كانت تعيّن حدود المحيط استطعنا تحديد حدود المبنى القصوى.

يؤيد اكتشاف نموذج قيري لقدَم بشرية، كان واضحاً أنه مكسو بصفائح النحاس ويعود تاريخه إلى حوالي عام ٢٣٠٠ ق.م مهارةَ السكان العالية في عهد مملكة أكد في صنع البرونز والنحاس. وكنا في فصل سابق قد أبدينا إعجابنا بتمثال رأس سرجون الرائع المصنوع من البرونز الذي اكتشف في نينوى، كما نشر تقرير في عام ١٩٧٥ عن جزء من تمثال نحاسي رائع بالحجم الطبيعي أو قريب من الحجم الطبيعي نقش عليه اسم العاهل نرام ـ سين اكتُشف في منطقة زاخو في أقصى العراق شمال الموصل.

لا توجد حاجة إلى مناقشة قصر براك بالتفصيل لأننا فعلنا ذلك في التقرير الأول عن اكتشافه في المجلد التاسع من مجلة Iraq الصادر عام ١٩٤٧. وكان فيه فناء كبير يمثل مركزاً رئيساً للتوزيع قادراً على تسلم

Twitter: @ketab_n

حمولات ضخمة وحيوانات حملٍ كثيرة إضافة إلى سائقيها. ويمكن تصور جيش من الكتبة يتسلمون الرسوم بإشراف دقيق من مقرّ الحاكم في جناحي المدخل.

لم تبق أدلة على اللمسات الأخيرة داخل المبنى، إلا أن الجدران كانت مبيضة بالجص والطين وبقيت في بعض المخازن آثار خشب السطح وقد فحصت في مختبر أبحاث منتجات الغابات في برنسز ريزبورو.

وقد أمكن هناك تحديد خشب الدردار والبلوط من الصنف الأحمر والدُّلْب والحور. وعثر على خشب الصنوبر من النوع الصلب في البيوت المتأخرة في مكان غير بعيد. ولا يُعرف تماماً كم من الأشجار المذكورة كانت تنمو في هذه المنطقة، ويحتمل أنها كانت تضم أشجار البلوط والدُّلب التي ما تزال تنمو هناك الآن، وكانت بقية الأخشاب تجلب من شمال سوريا والأناضول. ونحن نعرف أنه كان يستورد الكثير من الخشب ويحمل بالسفن عن طريق نهر الفرات إلى بلاد الرافدين قديماً. وعثر على بقايا عظمية للأسد في القصر علاوة على فصيلة الكلبيات والخنازير والماعز (الصغير والكبير) والأبقار (المتوسطة والكبيرة والصغيرة) والخيول (الصغيرة) وكانت هناك آثار لماعز اعتيادي ذي قرون ملتوية.

لا شك في أن المخازن كافة كانت مغطاة بسطوح مستوية لحماية الحبوب وشوهدت آثار كثيرة من الشعير وبعض القمح. وعثرنا كما توقعنا على بضعة إيصالات بالحبوب في الفناء الرئيس الذي عثرنا فيه ونحن مندهشون على بعض الكسر من تطعيم من العظام منقوش نقشاً جميلاً يمثل بطلاً ملتحياً كث الشعر من سلسلة كلكامش وهو نجمة خماسية ورأس أسد. ولا بدّ أنهما كانا من أجزاء صندوق يعود إلى

Twitter: @ketab_n

أحد كبار ضباط الحرس. ويصور ختم أسطواني ملتوٍ محفور على نحو جميل أسوداً ووحوشاً بقرون وهي واقفة على أقدامها وفق الأسلوب الذي يرمز إلى ذلك العصر.

خاب أملنا لعدم العثور على أي أثر للمصنوعات المعدنية في القصر نفسه، لأننا نعرف أن صنع الأدوات المعدنية كان يمارس على نطاق واسع في براك حيث لم نجد الكثير من الأسلحة والأدوات النحاسية فحسب، بل وجدنا أيضاً قالباً بازلتياً كبيراً لصب عشرة أنواع مختلفة من الأدوات، وعثرنا في أماكن أخرى من الموقع على كنوز أخرى ولا سيما الحلي الذهبية والفضية. كانت براك معقلاً لمملكة أكد في حملاتها الشمالية على آسيا الصغرى، ولا شك في أن الهدف الرئيس لهذه الحملات كان ضمان الحصول على خامات المعادن الثمينة التي توجد هناك، علاوة على الحبوب من غرب سوريا. وربما ما تزال هناك في أماكن أخرى من براك مبانٍ صمّمت لخزن المعادن تنتظر اكتشافها ولكن يحتمل أن أي فائض منها كان يرسل مباشرة إلى عاصمة أكد، وأن ما بقي في براك توزع سريعاً بين صناع المعادن المقيمين هناك وحُوّل إلى مصنوعات بسرعة.

تبقى هذه القلعة الكبيرة شاهداً دائماً على الجهود التي بذلتها حكومة نرام ـ سين لتعزيز فتوحاته في الشمال. إلا أن نجاح هذا المشروع لم يدم طويلاً. وعثرنا في الفناء والحجرات على آثار كثيرة للرماد الأسود. فقد دمّر جنود الأعداء المكان بإحراقه وهدموا الجدران إلى مستوى الأرض.

وبعد تنفيذ ذلك ملأت سلالة أخرى الفراغ في أعقاب الهزيمة. فقد عثر على اسم أورنمو، أول عاهل لسلالة أور الثالثة القوية، على لوح وعلى ختم. ويبدو أن المكان أُعيد بناؤه ورفع مستوى الأرضية

Twitter: @ketab_n

حوالي ثلاثة أمتار إلا أن أعمال البناء الجديدة كانت رديئة مقارنة بالبناء القديم، لأن آجر نرام ـ سين صنع من مادة تحتوي على الكثير من القش وبني بأسلوب الآجر المواجه والآجر المجانب، وكان البناء الجديد من نوعية أقل جودة مقارنة بالقديم، وقُلص سمك الجدران حوالي المتر وشيّدت على الأسس القديمة. ويحتمل أن السيطرة الجديدة لم تدم أكثر من قرن وربع القرن، ويحتمل أن التدمير النهائي كان جراء ضغط العموريين، لأن ابي ـ سين، آخر هؤلاء الملوك، شيّد سوراً قوياً لمواجهة العموريين في محاولة غير مجدية لإنقاذ مملكته التي استسلمت لضغط مزدوج من العموريين في الغرب والعيلاميين في جنوب إيران الذين أسروه في النهاية.

كانت المسألة الأكثر غموضاً هي من دمّر قصر نرام ـ سين، ولكن يبدو أنه كانت هناك ضغوط من الشرق والغرب. إننا نعلم أنه بعد وفاته اضطر خلفه شار ـ كالي ـ شري إلى شن حملة على العموريين في بسار، أي السوريين في منطقة جبل بشري التي تقع بين نهري الخابور والبليخ في قلب أمورو، حيث ضمنت مملكة أكد موطئ قدم كما اكتشفنا في أثناء التنقيب في بلدة دائرية مسورة في جدِل بوادي نهر البليخ. والمرشحون الآخرون الذين يحتمل أنهم دمروا القصر المذكور هم الكوتيون الذين كانت لهم مملكة قوية في جبال زاغروس تعد مسؤولة أساساً عن انهيار الامبراطورية السرجونية.

تشير الصعوبة في تحديد أن الشرق هو الذي دمر القصر أو الغرب إلى خطر الهجوم الذي كان كل نظام حكم في حوض نهر الخابور معرضاً له.

وقد لا تُعرف هوية العدو الذي دمر المدينة إلا عندما نستطيع إثبات الاسم القديم لتل براك ونكتشف بفضل الحظ الحسن إشارة

Twitter: @ketab_n

تاريخية إليه في سجل معاصر. وقد نجازى بمثل هذه الإضافة إلى المعرفة شريطة أن تستمر أنشطة البحث الآثاري.

من المثير للاهتمام أنه يوجد في آشور، العاصمة الدينية لبلاد آشور، مبنىً لا بدّ أن له صلة تاريخية بتل براك. نقب فيه الآثاري الألماني العظيم فالتر أندريه الذي كشف عن تصميم ما وصفه بـ «أقدم قصر في آشور».

وعندما يوضع تصميما المبنيين جنباً إلى جنب يبدوان مختلفين جداً أول وهلة، ولكن الاختلاف وهمي. إن ما بقي من القصر في آشور لا يضم إلا أعمق أسسه، وهذه تتخللها جدران متعرجة متعددة لم تخدم سوى توزيع نقل هيكل المبنى، وفوق مستوى الأسس لا يبدو المبنيان مختلفين عند مقارنة أحدهما بالآخر، بل هما متشابهان في التخطيط. يُضاف إلى ذلك أن الأبعاد الكلية لهذين المبنيين الكبيرين هي نفسها تقريباً، إذ تبلغ أبعاد القصر في آشور حوالي ١١٢×٩٦ متراً وأبعاد القصر في براك حوالي ١١١×٩٣ متراً.

لذا يحتمل أن المهندس المعماري نفسه شيّد القصرين. وإضافة إلى ذلك تتطابق مقاييس الآجر في آشور مع حجم الآجر المستعمل في مسكن خاص من العصر الأكدي في براك.

وأخيراً لا بدّ من التأكيد أن القصر في آشور نقب فيه بطريقة حفر الأنفاق واكتشف في أحد الأنفاق لوح مسماري ذو نهايات مدورة من النوع المألوف في العصر الأكدي.

نسب فالتر أندريه هذا المبنى إلى عصر شمشي أدد الأول الذي حدث تداخل بين نهاية حكمه قبل عام ١٨٠٠ ق.م بقليل وحكم حمورابي، وذلك بسبب العمق الذي عثر عليه فيه وبسبب ما قيل عن تشابه مظهره مع المباني البابلية المبكرة، وبسبب حجم آجره أيضاً

Twitter: @ketab_n

البالغ ٣٤×١٠سم. لا يوفر أي من هذه الأسباب الدليلَ الكافي لنسبة المبنى إلى العاهل الآشوري شمشي أدد الأول. وأتمنى لو استطعت استحضار روح فالتر أندريه ومناقشته في المسألة، لأنني أعتقد أنه ارتكب خطأً واضحاً في الكتب. وفي رأيي أن القصر القديم في آشور ربما شيّد في العصر الأكدي، ويؤكد هذا، كما قلت سابقاً، اكتشاف لوح من العصر الأكدي في فناء القصر.

دُعمت الأدلة من القصر باكتشاف بيوت مشيدة بالآجر غير المفخور في أجزاء أخرى من التل. وقد قدمت هذه أدلةً وافرة على ثروة سكانه في العهد الأكدي وخلال قرن أو يزيد من تدمير القصر وإعادة ترميمه في عهد سلالة أور الثالثة.

كان في أحد بيوت براك، الذي ضم كنزاً من الحلقات الذهبية والفضية، لوح طين منقوش يحتوي على قائمة بالمواشي الصغيرة والأغنام والمَعْز وإناء خمر أشير فيها إلى أنها من أماكن مختلفة. كان صاحب الكنز رجلاً ثرياً. وفي كنزه من الحلي يمكن مقارنة تعويذة فضية مصغرة بهيئة خرزة ذات أربعة أطراف لولبية ملتفة بعصر طروادة ٢ الذي يعتقد علماء كثيرون أنه معاصر للعصر الأكدي. ويحتمل أن الكثير من المعادن صب في الموقع نظراً لاكتشاف قوالب معدنية في براك وفي شكر بازار كما رأينا، وكانت هناك أيضاً صناعة ناشطة في إنتاج الخرز صممت لها معدات كثيرة. وعثر على بضعة ألواح مكتوبة بعناية تمثل ذلك العصر وذات نهايات مدورة ونقشت بعناية، وتشير كلها إلى منتجات زراعية.

بعد العصر الأكدي تحت حكم سلالة أور الثالثة حوالي عام ٢١٠٠ ق.م استمر سكن المنازل الخاصة وعكست تأثيراً سومرياً.

وكان هناك مذبح أو منضدة قرابين ذات واجهة مزخرفة وغطاء

Twitter: @ketab_n

ذي حافة من النتوءات المدورة تشبه شبهاً كبيراً بقواعد الآجر غير المفخور المكتشفة في أماكن الصلاة المعاصرة في أور على بعد ٨٠٠ ميل أسفل نهر الفرات.

وكانت آنية الزهور المزينة بأشكال الثعابين والعقارب ربما تستعمل في بعض الطقوس البابلية الطابع، مثل الفخار المعاصر الذي عثر عليه في القبور المقببة، إلا أن هذه تعود إلى العصر الذي تلا سلالة أور الثالثة، أي حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م عندما كان يسيطر القوم الذين أدخلوا فخار الخابور المطلي.

كانت البيوت على الجزء الأعلى من براك، أي على الربوة العالية التي توجت الجوانب الشمالية ـ الغربية، تعود إلى تاريخ لاحق بعيد تراوح بين عامي ٢٠٠٠ ق.م و١٤٥٠ ق.م.

ولم نحصل منها على معلومات معمارية كثيرة، ومن المحتم أن التنقيب الدقيق سيسفر عن نتائج أكثر إثارة. هنا كشفت التنقيبات عن بعض الكسر الجميلة من الفخار المطلي باللون الأبيض الذي أعتقد أنه كان يلقى إقبالاً شديداً من أرستقراطيي سلالة ميثاني الهندية الآرية التي ربما مارس نبلاؤها مُربّو الخيول المعروفون باسم ماريانو سلطتهم هنا. رممت روزلند كريستي ابنة زوجتي بمهارة الأنواع الرقيقة من الأواني التي تحمل هذه الأشكال الجذابة في موقع التنقيب بعد أن أقنعت بتولي مهمة شرعت فيها بتردد وأكملتها متمتعة بها. هذه الأشكال الجذابة منفذة بطلاء أبيض على خلفية سوداء وحمراء وتتألف في أحيان كثيرة من لوالب ولفات قد تكون انعكاساً لمصنوعات معدنية، إضافة إلى دوائر منقطة، ولوالب ومثلثات وطيور محلقة. ومن المحتمل أن المساكن الملكية في ذلك العصر كانت مزينة بجداريات مشابهة ذات ألوان زاهية.

Twitter: @ketab_n

من اللقى الأخرى في سطوح البيوت التي تستحق الذكر قدحٌ مطليّ من الفترة نفسها يعود تاريخه إلى حوالي عام ١٤٥٠ ق.م (ينظر الشكل التوضيحي في نهاية الفصل).

يمثل القدح ملكاً يضع تاجاً على رأسه وقد طليت عيناه ولحيته بألوان برّاقة. ولا شك في أن الإناء كان يستعمل في شرب الخمر أو البيرة الشخصية القديمة الشهيرة المعروفة بالملك البديل الذي كان يسمح له بالتظاهر بأنه ملك مدة قصيرة، لكنه كان أحياناً يواجه عقوبة الموت في نهاية مدة حكمه.

حان الوقت الآن للعودة إلى معبد العين الذي شيّد على سلسلة من المباني من عصر أقدم بكثير يقع بين حوالي عام ٣٩٠٠ ق.م و٣٥٠٠ ق.م. وكانت مطمورة في منصة ضخمة من الآجر غير المفخور يبلغ حجمها ما لا يقل عن ستة أمتار من البناء بالآجر غير الأجوف.

استطعنا التنقيب الكامل في أحد هذه المباني وكان الثاني من الأعلى. أطلقنا على هذه المباني كلها اسم معابد العين لأننا عثرنا في أحدها على المئات من تماثيل العين الصغيرة من المرمر الأسود والأبيض التي سنصفها فيما بعد. تركت هذه التماثيل الصغيرة بصمتها على هذه المباني كافة ووجدنا في المعبد الرئيس أدلة على أن الجدران كانت مكسوة بصفائح النحاس التي كانت مزينة بأشكال لعيون بارزة. لذا فإننا واثقون باستخدام تسمية «معبد العين».

كان من المثير للاهتمام والمخيب للآمال في الوقت نفسه أننا عثرنا على بقايا صندوق من المرمر ذي قسمين كان محطماً ومتناثراً، ولا بدّ أنه كان يضم ألواح الأسس الأصلية للملك الذي أمر بتشييد المعبد. كما كان بوّدنا معرفة اسم العاهل المسؤول، وكم يكون مفيداً

Twitter: @ketab_n

في إلقاء الضوء، كما في ماري، لو أمكن الربط بين اسمه وإثبات الملوك السومريين وربما يكشف المزيد من التنقيبات عن الجواب.

تألفت سلسلة معابد العين ابتداءً من القمة أولاً من معبد العين المحدب المستوي في الطبقة العليا، وتحته معبد العين الثاني أو الرئيس الذي يمكننا نسبته إلى أواخر عصر جمدة نصر، أي إلى نهاية عصر أوروك، أو حوالي سنة ٣٣٠٠ ق.م كان ربما استمر مدة أطول بقليل. وتحته في الترتيب الثالث من القمة وعلى عمق كبير عثرنا على آثار أساس من الجص الأبيض وأرضية مبنى أطلقنا عليه اسم معبد العين الأبيض، وتحته في الترتيب الرابع عثرنا على الجدران المشيّدة بالآجر الرمادي التي تعود إلى عصر جمدة نصر الأقدم، وأخيراً عثرنا في أعمق مستوى، أي في عمق ستة أمتار، على المبنى الخامس والأقدم الذي بقيت منه جدران من الآجر الأحمر وسميناه معبد العين الأحمر الذي ربما يعود تاريخه إلى عصر أوروك نفسه، أي حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م. وقد يظن أننا متجرئون إذ نقول إنه توجد خمسة معابد مركبة فوق بعضها هنا، إلا أنني لا أؤيد هذا الظن، بل ربما كانت هناك في الواقع معابد أكثر لو حسبنا الفترات الفرعية. وآمل بقوة أن أحداً سيعود إلى هذا الموقع الرائع وينقب التلال كلها، وسيمكننا ذلك من ربط هذه المعابد الشمالية بالتعاقب الكبير الذي عثر عليه في ايريك نفسها في الجنوب.

إن تصميم معبد العين الرئيس علامة مهمة في تاريخ العمارة الدينية القديمة. كانت الجدران مشيّدة بالآجر غير المفخور ومبيضة، وكانت الأرضيات من الطين المكسو بالقار والقصب، وكما شرحت كانت صفائح النحاس التي تحمل أشكالاً بارزة للعين تزين جدران المصلى.

Twitter: @ketab_n

كان أهم حجرة في المبنى المصلى الرئيس الذي بلغ طوله ثمانية عشر متراً وعرضه ستة أمتار. وكان يوجد مدخلان في الجدار القصير في النهاية الشمالية، وكان يبرز من الجدار القصير مذبح أو منصة من الطين المبيض بارتفاع ثلاثة أقدام. هنا كان في انتظارنا اكتشاف رائع، إذ وجدنا أن الجزء الأكبر من الطّنُف النفيس الذي كان يزين جوانب المنصة الثلاثة ما يزال في مكانه. ووجدنا لوحتين سليمتين، ولم يكن إلا جزء من اللوح الثالث محطماً. لم يسبق ولم يحدث منذ ذلك الاكتشاف أن عثر على الواجهة المزخرفة لمذبح معبد. ضمت هذه الواجهة ثلاثة ألواح، نفذت كلها متماثلة، وكان طول كل لوح يبلغ ثلاثة أقدام وعرضه أربع بوصات ونصف البوصة وكانت محفورة في أشرطة مزخرفة من حجر الكلس الأزرق والمرمر الأبيض والطفل المموج الأخضر. وكان طوق اللوح إطاراً من الرقائق الذهبية وكان للطنف كله ظهارة خشبية. وكانت الأجزاء الحجرية مثبتة في مواضعها بمشابك نحاسية والأشرطة الذهبية مثبتة بمسامير ذهبية الرؤوس ذات سيقان فضية. ورُمم أحد هذه الألواح ترميماً كاملاً ويوجد الآن في متحف حلب والثاني في المتحف البريطاني. إن شكل الزخرفة معماري صرف ويمثل المظهر الخارجي لواجهات المعابد المعاصرة. والشريط الأعلى نسخة واضحة لفسيفساء مخروطية كانت تزين واجهات المباني السومرية في حوض الفرات الأسفل في ذلك العصر ويمكن مقارنة التموجات بما تضمه مباني ايريك. ويصور ختم أسطواني من براك المدخل المؤدي إلى مرقد ويحمل الشكل نفسه إلى حد كبير: على الجدار الخارجي الجنوبي للمعبد كان يوجد شريط من فسيفساء مخروطية مطْلية بألوان برّاقة ما يزال في موضعه. وكانت الجدران في ذلك الوقت تزين بمجموعات من الحلية المعمارية الوردية

Twitter: @ketab_n

الشكل ذات البتلات الثماني من حجر الكلس الأزرق والأبيض والوردي المثبتة في واجهات المعبد المبيضة، وحصلنا على نموذجين سليمين منها.

كان يحيط بالمصلى الرئيس للمبنى جناحان. وكان في الجناح الشرقي بناء متقن لم يعثر على مثيل له. وأظن الآن أنه كانت هناك أربعة أماكن للصلاة ربما كرّست لأربعة آلهة مختلفة، وكان يدخل فيها من فناء. وهناك مخازن ملاصقة للمصلى على الجانب الشرقي، وعلى الجانب الغربي سلسلة من حجرات أكبر لا بدّ أنها كانت تستخدم للخزن. ويحتمل أن الكهنة استعملوا بعض الحجرات في الجانب الشرقي.

نكاد نكون واثقين بأنه في الوقت الذي وضع فيه مخطط هذا المبنى كانت للمعماريين خبرة قرون كثيرة وتقليد طويل في تصميم المباني الدينية يحتمل أن أصله يعود إلى الجنوب، ولكن قد تنتظرنا مفاجأة عندما نحفر في أعمق الطبقات. إن المشكلة التي تنتظر الحل هي اكتشاف واضع التصميم الأصلي، غير أنني أعتقد أن هذا النوع اللافت للنظر من العمارة الدينية انتشر بسرعة فائقة في واديي دجلة والفرات في حوالي ذلك الوقت.

يحتم التصميم على المرء أن يفكر في الكنيسة المسيحية، ولا سيما الكاتدرائية المسيحية، بل يوجد جناح صليبي الشكل في النهاية العليا من صحن المعبد يوضح الشبه توضيحاً وثيقاً.

من سمات المعبد المحيرة أن المذبح الطيني، الذي كان في منتصف الجدار الجنوبي، مؤلف من آجر مفخور مصغر وجدنا منه نماذج كثيرة طليقة في التربة في أماكن أخرى. لذا لا بدّ أن استعمال مثل هذا الآجر المصغر تقليد اعتيادي في تشييد مثل هذه المنصات،

Twitter: @ketab_n

وربما كان هناك شيء سحري في بناء مذبح الإله بهذه الطريقة وله مغزى سري. ومهما كان الأمر فمن المؤكد أن المقاييس المستعلمة في المصلى، الذي كان طوله يبلغ ثلاثة أمثال عرضه، عكست أيضاً التقاليد السومرية الجنوبية التي يمكن ملاحظتها في عدد من المباني هناك.

نهب عدو مجهول المبنى ودمره كما هي حال المباني الأخرى كلها، وكان لا بدّ في نهاية الأمر من التمهيد لمعبد يخلفه بعد تجريده من محتوياته، ولكن لحسن الحظ دفن السطح الساقط نتيجة لنهب المذبح تماماً بحيث لم يكن لدى العدو وقت لنبش الألواح الذهبية التي بقيت شاهداً لنا على المجد القديم للمبنى.

حل محله في الوقت المناسب مبنى جديد هو المعبد المحدب المستوي في الطبقة فوقه. ولكن قبل تشييد المعبد الذي خلفه مُلئ المعبد القديم بالآجر غير المفخور الصلب والمضغوط إلى الأسفل لأن الأرض التي كرست للإله كانت ملكاً أبدياً له، والويل لكل من يحاول استخدامه لغرض آخر. كانت تلك أرضاً مقدسة ولم تهجر أخيراً إلا عندما هجرت المدينة نفسها.

لم تكن مهمة التنقيب في معبد العين سهلة، لأن تعبئة الآجر كانت شاقة وخدشت أيدي العمال وقرحتها وآذتها. ولم أتمكن من إقناعهم بإنجاز العمل إلا بالمثابرة مقابل المقاومة من جانبهم، ولكن كم كان الكشف عن هذا المبنى الرائع جديراً بالعناء المبذول في سبيله. وحصلنا أيضاً على فكرة بسيطة عما كان يضمه في زمن ما من التنقيبات في الطبقات الأكثر عمقاً.

في الوقت الذي شيّد فيه معبد العين الرئيس كان هذا الجزء من براك قد حُوّل إلى تل كبير جداً، ورُفع على نحو مصطنع فوق منصته

Twitter: @ketab_n

الكبيرة. ويحتمل أنه كان يهيمن على السهل من مسافة بعيدة. وفي النهاية أدّت هذه المباني المقدسة، التي هجر كل واحد منها على التوالي في طبقة أعلى من سابقتها، إلى تشييد الزقورات أو أبراج المعابد التي ظهرت في مرحلة متأخرة نسبياً في فجر تاريخ بلاد الرافدين.

كان سبر الطبقات العميقة من معابد العين تجربة رائعة ومفيدة، وفعلنا ذلك بسبب وجود ثماني حفر حفرها سراق المعبد في أماكن مختلفة من السطح، ولا ريب في أنهم حصلوا على آثار كثيرة في مرحلة متأخرة بعد أن هُجرت هذه المعابد. واستكشفنا الأعماق باستخدام الفتحات القديمة نفسها وذهلنا إزاء كمية الكنز الصغير ونوعيته التي كشفنا عنها في مدة قصيرة. وما يزال الكثير مطموراً يستحق عناء الاستكشاف. وبقدر ما يتسنى لنا الحكم كانت غالبية المخلفات التي أخرجناها ذات علاقة بما أعتقد أنه المعبد الرابع من القمة أي معبد العين الرمادي، لأنها ترتبط عموماً بطبقة الآجر الرمادي.

ضمّت هذه المخلفات بالدرجة الأولى عشرات التعاويذ الجميلة التي سأصفها بعد قليل، وهي قطع صغيرة جميلة تذكّرنا بعالم الحيوان الذي عاش معه الناس، وكانت ملساء ورقيقة الملمس مثل اليشب الصيني، وكانت هناك أيضاً المئات من تماثيل العين من المرمر الأسود والأبيض التي سبق لي ذكرها.

قبل أن نترك براك لا بدّ أن نشير إلى الخرزات التي عثرنا عليها بأعداد كبيرة جداً بلغت مئات الآلاف وذكرتها في تقريري الأصلي، ولم أبالغ في ذلك. كانت الأرض كأنما قد بذرت بها، وكان الكثير منها قد أضيف إلى الطين المستعمل في صنع الآجر غير المفخور في أسس المعبد.

Twitter: @ketab_n

وكان العدد الأكبر منها من الخزف المزخرف المزجج والحجر الصابوني المزجج، وبدا أن بعض الخرزات المزججة والمفصصة الأكثر ندرة هي أقدم الأنواع المعروفة من هذا النوع.

كان هذا البذر الواسع للخرزات بوضوح جزءاً من طقس ديني كان يمارس في الوقت الذي أسست فيه معابد العين المبكرة. ولا يحتمل أن أياً منها قد صنع بعد عام ٣٢٠٠ ق.م وقد ذكر الدكتور ج.ف.س. ستون، وهو خبير في الخرز بعد فحص خرزة مفصصة مزججة: «عثرنا في الحقل على نماذج مزججة متطورة إلى حد كبير من وادي الأندس» وربما يمكن تحديد تاريخ هذه الخرزات الآن بحوالي عام ٣٠٠٠ ق.م «إن خرزة براك تشبه النماذج من هارابا. وكلا النوعين من خزف مزخرف أبيض ناعم، وكلاهما كان في الأصل مكسواً بطبقة زرقاء رقيقة.. وليس مستحيلاً أن يكون لها أصلٌ مشترك. لذا لا شك في أن هذه الخرزة من براك ذات أهمية عظيمة. وهي ليست أقدم خرزة مفصصة ومزججة اكتشفت حتى الآن فحسب، بل إنها تكشف عن سمات ترتبط عموماً بخرزات من تاريخ لاحق بمدة طويلة ولا سيما الأسلوب المتطور جداً في الصنع»[١].

ربما نشأت هاتان الصناعتان المتشابهتان في الوقت نفسه وانتشرت تقنية مشتركة عبر جنوب إيران، ربما عن طريق مقاطعة كرمان، في موقع مثل تبه يحي حيث كان طريق تجاري يمر بحراً أو براً خلال وادي الأندس من جهة ويصل إلى نهر الفرات من جهة أخرى، كما أظهرت ذلك اكتشافات لامبيرك كارلوفسكي وآخرين. بقي أن نقول إن الحجر الصابوني المزجج في براك، كما في الهند، كان شائعاً وإن

(١) Iraq. ix, P. 255.

Twitter: @ketab_n

معظم خرزات الخزف المزخرف في براك كانت مكسوة بطبقة تزجيج زرقاء إضافة إلى اللون الأسود.

كانت غالبية الفتحات التي أوصلتنا إلى الحجرات تحت الأرض تقع في الجانب الجنوبي من المعبد، وعلى الرغم من أن حجرة أو اثنتين كانتا في مكان آخر حتى في فناء نرام ـ سين، فإننا عندما حفرنا قرب أسفل المنصة دخلنا منطقة مزدحمة أو متاهة من الحجرات تحت الأرض فحصنا ٣٢ منها. وكانت مهمة البحث فيها صعبة ولا تخلو من الخطورة لأن تلك المناجم القديمة كانت خالية من الهواء الطلق ولم يكن بوسع المرء البقاء تحت الأرض أكثر من عشرين دقيقة أو نصف ساعة في المرة الواحدة دون أن يصاب بالإنهاك. وكان علينا أن نعمل في وجبات مستعينين بضوء المصابيح المزودة بمداخن زجاجية والتي كانت تنطفئ أحياناً. وكان من المثير للإعجاب رؤية كتلة البناء بالآجر فوق رؤوسنا ـ البناء بالآجر في معبد العين فوقنا ـ وما أنجزناه كان تعبيراً عن الإعجاب ببنّائي عهد أوروك وجمدة نصر الذين كان عملهم محكماً ومتماسكاً بحيث إننا استطعنا، بأقل قدر من المجازفة، مثل اللصوص الذين سبقونا، أن نعمل تحت الأرض ولا نفقد أحداً أو تقع إصابة.

في هذه الأرض المقدسة عثرنا على المئات من تماثيل العين ولا بدّ أنها وضعت هناك بالآلاف أصلاً (ينظر الشكل التوضيحي في آخر الفصل). تكوّن الشكل العادي للتمثال من مجرد جسم منبسط يشبه قطعة البسكويت محاط بعنق وعينين كانت في الأصل مليئة بالطلاء المصنوع من معدن الملكيت. وكانت هناك أمثلة كثيرة لتماثيل بأربع عيون بدت تشبه تماثيل لاثنين من الأفراد، وكان هناك تمثال بثلاث عيون وعدد قليل بست عيون. وكان من الأنواع الغريبة تماثيل لها عدد كبير من الحواجب المرسومة فوق العينين، وأنواع أخرى

Twitter: @ketab_n

بشكل تمثال يقف فوق الآخر. وكانت تلك هي الأنواع الرئيسة مما أدعوه بالشكل الطبيعي من تمثال العين.

كان في الكثير من هذه التماثيل علامات في مقدمة الجسم وكان لبعضها مظهر أنثوي، لأنها مغطاة بملابس طويلة ذات عنق بشكل حرف ٧ ومزينة بعلامات ربما تمثل تقليداً للمجوهرات. وكان يوجد أيضاً نموذج فريد حفر عليه شكل أيل وطير. وأعتقد أن لهذا التمثال علاقة بالإلهة السومرية نين هارساك التي تقرن بوضع الأطفال، ويعتقد أن الكثير منها كرّس لنيل عطفها.

ويدعم هذا التفسير طور تماثيل كثيرة تحمل أطفالاً في المقدمة وتمثل بوضوح الأم والطفل، وربما الأم تحمل طفلاً.

كان التضرع لإنجاب الأطفال متوقعاً في مجتمع تطلب زيادة عدد السكان من أجل توسيع أنشطته الزراعية والرعوية. وكانت هناك تماثيل كثيرة مزينة بقبعة عالية أو شكل خاص من العمامة، وكانت التماثيل التي تعتمر أغطية الرأس الأكثر تعقيداً تمثل الطبقات العليا من الهيكل الهرمي.

سبق لنا أن أشرنا إلى وجود أمثلة في شكر بازار لتبرعات سخية من مراكز سكنية خارج المدينة نفسها وكانت هناك مساهمات من أحد تلك المراكز واسمه قرداحات لمناسبة مهرجان ديني للشعير لغرض صنع الخبز والبيرة البسيطة من عدد لا يقل عن ٢٧٧٠ شخصاً. وتشير هذه الأعداد الضخمة من تماثيل العين في براك إلى أن قرابين مشابهة كانت تقدم في مناسبات معيّنة في هذا المكان المقدس وأن أعداداً كبيرة من الناس كانت تأتي لا من المدينة وحدها، بل من مناطق بعيدة لتقديم الهدايا إلى إله أو إلهة يحتمل أنهما كانا موضع التبجيل والتقديس حتى خارج المنطقة. كان كل واحد من تماثيل العين هذه

Twitter: @ketab_n

سهل الحمل، ومن الواضح أنها صنعت ليقدمها الأشخاص إلى الآلهة أو الإلهات في المعبد. ولم يكن أي من المئات الكثيرة من التماثيل التي عثرنا عليها أكبر مما يمكن حمله في اليد المفتوحة، وكان واحد أو اثنان في غاية الضآلة، ولكن كانت كف اليد تمسك بها بسهولة.

ولا بدّ أنه كان هناك مركز يرجح أنه كان في المدينة نفسها، إن لم يكن في أطرافها، مكرس لإنتاجها. ويُذكّر تقديمها المرءَ بإشعال المتدين شمعة في الكنيسة الكاثوليكية، إذ إن تقليد إشعال الشمعة معادل لذلك تقريباً. ويثير شكل هذه التماثيل الصغيرة ومظهرها أسئلة كثيرة ويدعو إلى التأمل، من كانت تمثل تلك التماثيل؟ ظننا في البدء أنها مثلت إله العين، إذ توجد أمراض عيون كثيرة في هذا الجزء من البلاد مثل الرمد وغيره، وربما كانت للمصلى في براك خاصية إشفاء فاعلة خصوصاً للمصابين بأمراض العيون، إلا أنني أعتقد أنه من غير المحتمل أن يكون ذلك هو الجواب. ويبدو من الأرجح أن العينين تمثلان إلهاً مهيمناً وأن تمثيل الوجه والشكل البشري كان محرماً. إذ كان هذا النوع من الحظر شائعاً في المجتمعات البدائية.

ربما يتمثل حل مغزى هذه التماثيل في نحت من ختم معاصر يعود تاريخه إلى حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م عثر عليه في حوض نهر ديالى، أحد روافد دجلة، في تل يدعى تل عقرب. ويوضح هذا الختم الفريد مرقداً نموذجياً من عصر جمدة نصر يحيط به زوج من الأعمدة من كل الجانبين، وسمي في الكتب «أوريكالو». ويوجد في الفضاء فوق المعبد وجه له أسلوب معيّن، وأبرز سماته زوج من العيون الواسعة بشكل لا يناسب حجم الوجه. ورُسم الحاجبان والأنف والفم بإيجاز ترافق الوجه ورديات ثمانية البتلات في الفضاء أيضاً، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمعابد مثلما كانت في براك وأوروك على

Twitter: @ketab_n

واجهات المباني الدينية. بدا في هذا الختم أن المعبد كان تحت سيطرة السماء ممثلة في إله مهيمن وهذا ما أعتقد أنه كان الغرض.

لقد أشرت سابقاً إلى أن تمثالاً أو اثنين غير عاديين قد نحتا وعلى رأس كل منهما تاج، ولذا يبدوان من أفراد الفئة العليا في التسلسل الهرمي. وأحد هذه التماثيل ذو أهمية خاصة لأنه نحت وعلى رأسه شكل متقن لتاج، وهذا هو المثال الوحيد الذي وجدت له نظيراً قريباً، كان يعود إلى تاريخ متأخر جداً. ويلاحظ في حجر حدود كشي من حوالي القرن التاسع قبل الميلاد كرسه حاكم المناطق البحرية من جنوب بلاد بابل لإله سمّاه كول ـ ايريش. ويوضح حجر الحدود هذا رموزاً كثيرة لزهاء عشرة آلهة يمثل بعضها المعابد أو الأضرحة المقدسة نفسها، ولذا لا نستطيع ربط التاج بأي إله معيّن، ولكن ذُكِر أربعة من الآلهة العظيمة مرتين في النص وهم انو وانليل وايا ونينماخ، السيدة العظيمة. وهناك ميل لربط التاج ذي الريش الممثل على هذا الحجر بأحد الآلهة.

وضع هذا التاج في حجر الحدود على منصة عالية ربما تمثل الضريح المقدس نفسه أو منصة داخله. وأميل إلى نسبة أصله إلى تمثالنا الذي عثرنا عليه في تل براك.

هناك صلة وثيقة أيضاً لمجموعة أخرى من التماثيل بالشكل الذي سميته تماثيل النظارة. الجسم بسيط أيضاً لكنه متوج بزوج من الحلقات المخرمة، على شكل دوائر مفتوحة عموماً، ونادراً ما تملأ بطلاء. وأعتقد أن هذه التماثيل أقدم من النوع المألوف من تمثال العين ويحتمل أنه يعود إلى أقدم المعابد. ويوجد نموذج صغير جميل من الحجر الصابوني حيث ثبت التمثال على منصة ونحت نحتاً واضحاً كما كان موضوعاً في المعبد ذات مرة. إن واجهة التمثال محفورة

Twitter: @ketab_n

بأشرطة متوازية وتوجد حزوز في قاعدة المنصة، تمثل بلا شك زخرفة تشبه تلك التي عثرنا عليها في مذبح المعبد.

فسر أندريه هذه التماثيل على أنها رموز كوخ مصنوعة من القصب، إلا أنني لا أستطيع رؤية أي سبب قوي لهذا الرأي. ويوجد مثال مثير للاهتمام الشديد لختم مثلث الزوايا من الحجر الصابوني من مجموعة هوكارث السورية الشمالية في متحف اشموليان تمثل زوجاً من المنصات أو قواعد المذبح بتماثيل لها عروات. وفي الوسط بين هذه التماثيل بالعروات وتماثيل العين نماذج أخرى لا تكون فيها الثقوب كاملة، وبدلاً من ذلك توجد دوائر بسيطة يحتمل أنها كانت تملأ ذات وقت بالطلاء، وهذا يقودني إلى الاعتقاد أن بوسعنا أن نميّز هنا المرحلة الأقدم التي تطورت منها تماثيل العين. وعثرنا أيضاً على كسر من تماثيل النظارات الكبيرة جداً مصنوعة من الطين النضيج ولا أشك في أن هذه كانت تماثيل نصبت في المعبد للعبادة. إن تماثيل النظارة تنتشر انتشاراً واسعاً وعثر عليها في أماكن متباعدة مثل أور وسوسة في جنوب إيران، وفي بابل وسوريا.

في تلخيص استنتاجاتنا أكرر أن شكل العين لم يقصد به إلا تأكيد طبيعة الإله المهيمنة ويوجد بعض الحظر على تمثيل الوجه المقدس.

ومما لا شك فيه أننا نواجه تكريسات عائلية إضافة إلى تكريسات فردية. إن أشكالاً من تماثيل المرمر معروفة أيضاً في منطقة مراش، ولكن لا يوجد شيء يمكن مضاهاته تماماً. ويمكن القول إن انتشارها يمتد من شمال سوريا إلى جنوب شرق إيران.

إذا استثنينا تماثيل العين فإن الاكتشافات التي أدخلت أكثر السرور في نفوسنا كانت الأختام والتعويذات الكثيرة. توضح هذه الحيوانات المألوفة في المنطقة والجبال المجاورة توضيحاً كاملاً، إذ انتشرت

Twitter: @ketab_n

الأسود والدببة والأغنام المدجنة والبرية والمعز والقردة والأرانب البرية والخنازير والثعالب والقنافذ والضفادع والبط والنسور. وحُفرت أشكال الأيل ذي القرون والعقارب والقطط. كما حفرت رموز سرية على الأختام المربعة.

وأفضل التعويذات التي تمثل حيوانات هي قطع فنية من الحجر المرقش، وتعد النظائر الرافدينية لليشم الصيني بسبب مظرها الفخم والاقتصاد الرقيق للشكل. وأفضل هذه التعويذات قطع مصغرة من نوعها وكان لصنّاعها وعي قوي بالحيوية والتوازن اللذين تتمتع بهما هذه النماذج من الحيوانات. أنتج هذه المصغرات صُنّاع مهرة تعودوا ملاحظة الحيوانات البرية والمدجنة في بيئاتها الطبيعية. وكانوا يمتلكون المواهب الفنية في الاختيار التي مكنتهم من إهمال ما لم يكن ذا أهمية. وحققوا تأثيراتهم بتكوين سلسلة من السطوح المستوية المتناقضة بجرأة واتباع أسلوب بسيط يجمع القوة التشكيلية مع تناغم طبيعي. وتتسم بأهمية أشكال القردة خاصة بما فيها الرباح ذو الرأس الكلبي، وهو الحيوان الوحيد من مجموعة الحيوانات كلها الذي لم يكن موطنه هذا الجزء من العالم، لكنه ربما كان مألوفاً في آسيا الصغرى.

يمكن أن نفترض أن الأسد كان شائع الوجود في هذه الأرجاء آنذاك، إذ عثر على البقايا العظميّة للأسد كما ذكرنا سابقاً في وصفنا قصر نرام ـ سين. ويمكن أن نستنتج بثقة أن الأسود كانت شائعة في بلاد بابل وفي الشمال في وقت أسبق من ذلك بكثير، أي قبل عام ٣٠٠٠ ق.م، إذ عثر المنقبون الألمان في أوروك ـ الوركاء على هيكل عظمي لشبل في صندوق أساسٍ من عصر جمدة نصر[٢].

---

(٢) UVB VIII, P. 31 (تقرير أولي عن أوروك، برلين).

Twitter: @ketab_n

كان هناك نوع آخر من التعويذات التي انتشرت انتشاراً واسعاً وهي لقى بشكل الكلية من الحجر الصابوني غالباً. وحفرت على الوجه المنبسط إما أشكال حيوانات ذات قرون أو رموز سرية. وقد خطر لي أنها ربما استعملت الرجم بالغيب. وحفر على تعويذة مربعة شكل يمثل شخصين يضع كل منهما رأسه عند قدمي الآخر وظهرا مثل زوج من الأقدام البشرية بينهما ثعبان. وعثر لامبيرك كارلوفسكي على تعويذة تشبهها في موقع تبه يحي الشهير في جنوب إيران وهو الموقع الذي ينقب فيه بمقاطعة كرمان، حيث عثر على ألواح من عصر جمدة نصر. ويثبت هذا الاكتشاف وجود صلة لبراك بجنوب وسط إيران قبل عام ٣٠٠٠ ق.م. وزُين ختم دائري صغير جميل في جانبه المنبسط بشكل مؤلف من خمس إناث إيَّل مُقعيات وهو ختم جميل يكشف عن براعة فنية حقيقية وتقدير جيد للمسافات. وكان من الأشياء النادرة الأخرى التي عثر عليها ختم وطبعة ختم يصوران خطاً رُسم عمودياً وينتهي بأربع نهايات لولبية. ومن الواضح أن هذا كان رمزاً لقدرة سحرية عالية، لأنه طبعة ختم من العصر نفسه حملت شكلاً لرجل جالس أمام هذا اللولب السحري وفوقه ظبي تعلوه وردية سباعية البتلات. وليس من المثير للدهشة أن الشعارات السحرية من هذا النوع مثبتة في المعابد وموضوعة هناك للعبادات.

عثرنا أيضاً على أعداد كبيرة من التعويذات بأشكال تمثل الدببة، وهي حيوانات توجد في الجبال فعلاً، ومن المؤكد أنها كانت منتشرة في ذلك الوقت وبقيت الآن في كردستان. كما نفذ على العظام نحتٌ ماهر بدرجة عالية للبط والأسود وتمثال رائع لكبش (Iraq, Ix, pl. XI, no. 3). ويشير وضع القرون إلى أنه فصيلة برية من الأغنام الأرمنية بالمقارنة بالفصيلة المدجنة المرسومة أيضاً. وكان عدد معيّن

Twitter: @ketab_n

من هذه النماذج، كما أعتقد الآن، من العاج، ويحتمل أنها أنياب خنازير برية، وإن كنت لم أميزها على أنها كذلك آنذاك. ولسنا بحاجة إلى مناقشة هذا النوع الرائع من اللقى بمزيد من التفاصيل، وآمل أن يرجع القُراء المعنيون إلى مجلة Iraq المجلد ٩ (١٩٤٧) حيث تكافأ جهود تصفّح هذا المجلد بالاطلاع على أطباق كثيرة توضح هذه اللقى.

قد يبدو من المثير للدهشة أن تعويذات كثيرة وضعت في المعبد، ويتساءل المرء عن السبب. وأعتقد أن الجواب بسيط. لم تكن هناك قطع نقدية في تلك الأيام وعلى كل من يتضرع إلى الآلهة تقديم هدية من نوع ما. لم تكن تلك مبالغ يتبرع بها للكنيسة، بل أثمن ما يقدم بهيئة أحجار منحوتة شبه ثمينة كانت تملأ خزائن المعبد دون شك، وكانت تلك، بجانب الآلاف الكثيرة من تماثيل العين، هدايا شخصية في المعبد. ومن المثير للاهتمام أيضاً أن أسلوب التعويذات الحيوانية مشابه جداً لتلك التعويذات التي اكتشفت في ايريك وغيرها من المدن السومرية في حوض الفرات الأسفل. ولكن، على الرغم من أن أوروك بخاصة عُدّت حتى الآن مصدر أجمل منحوتات الحيوانات الضئيلة، فهي لا تفوق من حيث النوعية المنحوتات التي اكتشفناها هنا في براك العاصمة الشمالية.

كانت العلاقة الفنية لكثير من اللقى في براك باللقى في أوروك، ومن ذلك فن العمارة، تجعل المرء يعتقد أن المدينتين كانتا تحت سلطة مشتركة وأن النفوذ البابلي الجنوبي ربما امتد شمالاً إلى وادي الخابور. إن هذا محض تخمين، إلا أن العلاقة بين الاثنين معمارياً وفنياً ومنزلياً لافتة للنظر، إذ تنطوي على أكثر من التماثل في منتجات ذلك العصر الفنية.

Twitter: @ketab_n

وتتضمن أوثق أشكال التجارة والصلاة الشخصية بين هاتين المدينتين العظيمتين، مع العلم أن أوروك كانت الأكبر فعلاً.

كان من الاكتشافات المهمة الكثيرة في الطبقات العميقة من معبد العين رأس مرمري رائع ارتفاعه حوالي ١٧ سنتمتراً أو حوالي سبع بوصات، ويبدو أن له علاقة بمعبد العين الرمادي.

يُمثل هذا التمثال غير العادي ذو العينين الواسعتين والأذنين المختزلتين والأنف الكبير والفم المزموم بطربوش مثبت على الرأس من خلال فتحتين ثقبتا في جانبيه. ويُظهر أخدود عميق وواسع يصل إلى الظهر أن التمثال كان مثبتاً على الخشب، وعلينا أن نتصور جسماً خشبياً ربما كان مكسواً بمعدن. وقد حظي هذا التمثال بأسمى آيات الإطراء من آثاري ألماني بارز هو الأستاذ أنتون مورتكات.

إننا نشعر بالارتياح إزاء مثل هذا التقدير من عالم آثاري هو عميد المختصين بالفن والعمارة الشرقيين في ألمانيا. وما كتبه عن بدايات هذا التطور ورد في كتاب بعنوان (فن بلاد الرافدين القديمة The Art of Ancient Mesopotamia) طافح بالأفكار التي تدعو إلى التأمل. وفي رأيي أن هذا الرأس الرائع، الذي يعد أثراً فريداً في مداخل النحت السوري، خليط من التجريد ومحاولة لتمثيل الشكل الطبيعي الذي يكشف عنه في استدارة الوجه وامتلاء الرقبة. إلا أن العينين الواسعتين سعة غير متجانسة والأنف الضخم المتحد بالحاجبين، والشفتين المكتنزتين، والأذنين، اللتين تتألف كل منهما من شكلين بيضويين متحدي المركز، تقليد فاعل للشكل تبناه النحاتون الدينيون المبكرون. ولا بدّ أن هذا الرأس عندما يثبت على جسم خشبي يحتمل أنه كان مكسواً بصفائح النحاس، كان يجتذب الانتباه بوصفه شخصية مهيمنة في مصلى المعبد. وتكشف رؤوس أخرى أصغر سمات مشابهة.

Twitter: @ketab_n

إن المنحوتات المعاصرة في أنحاء أخرى من سوريا نادرة جداً، ولكن يوجد رأس مثير للاهتمام على نحو استثنائي اكتشفه هارالد انكهولت في حماة في وادي نهر العاصي (Sept Campagnes de Fouilles a Hama en Syrie سبع حملات تنصيب في حماة بسوريا) يحتمل أنه نحت في الفترة نفسها، لذا يعد دليلاً على أن هذا المستوى من النحت كان واسع الانتشار في ذلك الوقت.

كان تمثال هذا الرأس بالحجم الطبيعي، وهو مصنوع من حجر الكلس وكان مغطى بالجص المطلي (عثر على آثار طلاء أسود وأحمر) ويعتمر غطاء رأس عالياً وله أنف كبير وفم لوزي صغير وتجويفات للعينين. كان النحاتون يعملون كثيراً آنذاك ويسعون لإيجاد أسلوب للتعبير. ولا أشك في أن الرأس الكبير من حماة، الذي لم يكن أقل تعقيداً، كان معاصراً تقريباً لتلك التماثيل من براك وعثر عليه في طبقة احتوت على تمثال من معبد النظارات وإناء بسيط مشطوب من النوع الذي كان شائعاً في عصر جمدة نصر في أوروك. وتظهر هذه الاكتشافات الموازية في غرب سوريا وشرقها على التوالي أنه بقيت آثار كثيرة تنتظر اكتشافها تتعلق ببدايات نحت الآثار البارزة في غرب آسيا.

كان تحت معبد العين الأسفل ركام طبقات أقدم يعود إلى ما قبل التاريخ. وكانت بين الكسر أمثلة جميلة لجرار شمع الختم ذات حافات من الواضح أنها تقليد للمعدن، وتعود إلى سلسلة مبكرة من عصر أوروك ويمكن مضاهاتها بلقى في أوروك نفسها وفي أور وفي سوسة بإيران. وهذه الكسر أدلة أخرى على ثراء طبقات ما قبل التاريخ التي تنتظر التنقيب في أماكن عميقة تحت الأرض. بقي تحديد أية مرحلة من عصر العبيد، الذي يعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد، تركت آثاراً في براك وإن كنا نعرف أن كسر عصر العبيد قد شوهدت في تلال

Twitter: @ketab_n

أخرى في المنطقة المجاورة. إلا أن كسر عصر حلف قبله، ولا سيما المرحلة المتأخرة منه التي شهدت إنتاج الفخار الملون والمطلي باللون الأبيض، كانت كثيرة، وعندما توقفنا عن التنقيب كنا قد توصلنا إلى طبقة لا يعود تاريخها إلى أقدم من سنة ٥٠٠٠ ق.م وما يزال جزء كبير ينتظر الاكتشاف، ليس تحت معابد العين وحدها، بل في قاعدة التل العالي التي تحيط بالجانب المقابل من براك، حيث لا تكاد أربعة أو خمسة عقود من التنقيب تكفي للوصول إلى أسفل التل. وأترك هذه المهمة للأجيال المقبلة.

تمثال العين

الملك الزائف

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

التنقيبات في وادي البليخ

قررنا إيقاف تنقيباتنا في تل براك بسبب ضغوط شيوخ عشيرة شمر الذين اتضح أنهم صمموا على إقناع عمالنا بالإضراب عن العمل. توقعنا تلك المتاعب فارتأينا مغادرة الموقع في الوقت المناسب، لأن الوقت كان يعني المال عندنا ولا يسعنا التعرض لتلك الأساليب. وبعد أن أنجزنا ما استطعنا إنجازه في معابد العين وتل براك وضعنا الترتيبات للرحيل.

أتذكر أننا قبل مغادرة القرية استدعينا الشيخ الكردي أحمد، شيخ شكر بازار، لنقدم له هدية وداع. ومن المؤكد أن أفضل هدية كانت البيت المشيّد بالآجر غير المفخور في موقعه، إلا أنني كنت قد وعدته بحصان وأعطيته حصاناً فعلاً. لم أكن محظوظاً أبداً في الهدايا التي أهديتها إلى هذا الرجل الطيب لأن الحصان كانت له خصلة شعر بيضاء في مؤخر القائمة فوق الحافر مباشرة. قال عندما افترقنا «خصلة شعر بيضاء ـ الموت ـ قبلة الموت»، وكانت تلك آخر مرة رأيته فيها.

بعد ذلك انتقلنا أكثر من مئة ميل غرباً إلى وادي البليخ وإلى منطقة مستنقعات هي حقاً فردوس للعالم الآثاري مهما كانت نائية. بقيت آثار كثيرة تنتظر الاكتشاف من العصور كلها، وبعضها مجهول

Twitter: @ketab_n

تماماً، ويمكن ربط بعضها بالعصور التاريخية وعصور ما قبل التاريخ مع ما عثر عليه في مناطق أخرى تقع إلى الشرق وإلى الغرب وذات أهمية أكبر.

اخترنا في وادي البليخ مقراً لنا قرية تل أبيض التي تقع على الطرف الأعلى للوادي تحت الحدود السورية التركية مباشرة، ومن هناك تستطيع أن تشاهد في اليوم الصحو تل حران الرائع الذي نقب فيه كثيرون ومنهم سيتون لويد مؤخراً، ولكم تمنيت أن يسمح لنا باجتياز الحدود لفحصه.

تكمن أهمية تل أبيض في وجود عين تقع على بعد كيلومترات قليلة إلى الجنوب منه تدعى «عين العروس» يعتقد أن مياه نهر البليخ تبدأ منها. تقع هذه البئر في منبع النهر. وعلى الرغم من أن هناك من يدّعي وجود مصادر أبعد إلى الشمال تقع في تركيا وتكاد تجف في الصيف، فإنني أعتقد أن «عين العروس» لها شرف كونها المصدر الحقيقي لهذا النهر. كان هذا هو المكان التقليدي للقاء خادم إبراهيم ورفقة، ويعقوب وراحيل أيضاً. يتخذ النهر نفسه مجرى متعرجاً خلال منطقة المستنقعات ولا بدّ أنه غيّر مجراه مرّات كثيرة. يبلغ طول المجرى الرئيس من الضفة الغربية حوالي خمسة وستين ميلاً حتى يلتقي بنهر الفرات، أي من تل أبيض إلى الرقة، ويعني الاسم الأرض التي يغطيها الماء ثم ينحسر عنها. لم يكن النهر صالحاً للملاحة أبداً ولم يكن يستعمل سوى الطريق البري. كانت تلك أرضاً صالحة للرعي إذ إن المياه وافرة، إلا أن الطبيعة السبخة للمنطقة لم تكن ملائمة لنمو المدن الرئيسة. وفي حين أنّ هناك بعض الأدلة على وجود مواد قديمة ولقى نموذجية من غرب سوريا ووادي نهر العاص، فمن الواضح أن وادي البليخ كان طوال تاريخه في دائرة نفوذ

Twitter: @ketab_n

بلاد الرافدين. وكانت الصلات في الأغلب بالشرق، وفي درجة أقل بالشمال. وسنصف بإيجاز شديد المواقع الخمسة التي فحصناها في بقية الفصل.

كانت رحلتنا إلى هذه المنطقة غير المعروفة نسبياً مثيرة للاهتمام، وإن لم تخل من المتاعب. فمع أننا سكنا في منزل صغير يفي بالحاجة، لكنه كان مشيداً وسط مستنقع وكنت أستيقظ في الصباح أعاني من الروماتزم، وكثيراً ما أواجه صعوبة في النهوض من فراشي. ولا شك في أن القرية نفسها كانت ذات أوضاع صحية سيئة لأن مجرى المياه الرئيس كان يمر خلال الشارع العالي، أو الشارع التجاري الرئيس، وكثيراً ما كانت النساء يشاهدن وهن يغسلن الأواني المنزلية وسط المجرى. وعندما كنت أعترض أحياناً كن يؤيدن أن الأمراض منتشرة في البلدة، إلا أن الناس ينجون بصورة ما ونجونا نحن أيضاً.

كنا محظوظين، إذ خدمنا رجل طيب المعشر هو الطباخ السوري ديمتري، وكان من أنطاكية أو المنطقة القريبة منها وقد تمتعنا بطعامه. كان شخصية ساحرة وكان يتحمل أعباء عائلية ثقيلة بسبب زواجه أرملة شقيقه المتوفى الذي ترك له، كما أعتقد، اثني عشر ولداً.

وكان الشخص الآخر المثير للإعجاب من الذين عملوا معنا كبير الخدم صبري، وهو مسيحي كان يقيم في تركيا ثم طرد في عهد مصطفى كمال الذي لم يكنّ له أي حب. كان رجلاً عنيفاً وكثيراً ما كان ينام وهو يضع سكيناً بين أسنانه. دربه العقيد بيرن وبرهن أنه نموذج للخادم الشخصي والساقي وخادم المنزل وكنت مستعداً لاصطحابه معي إلى إنجلترا. ويؤسفني القول إنه سبب مشكلة روتها أجاثا في كتابها: (هَلُمَّ احكوا لي كيف تعيشون Come Tell Me

Twitter: @ketab_n

(How You Live) وأدعو القراء إلى الرجوع إليه[١].

انضم إلينا في تل أبيض صديقي العزيز جون روز الذي عمل معي في أور والأربجية، وأدعو القارئ إلى مطالعة مجموعته من المسوحات والرسوم للتلال المختلفة التي فحصناها. لقد وضعها بسرعة في ستة أسابيع وهي تقويمات للمواقع التي زرناها.

ولم يكن أي شيء آخر أفضل منها في القدرة على إيصال معلومات أوسع بوضوح أكثر وحس بالأسلوب إذ كانت نموذجاً للمسوحات من هذا النوع. ويشكل شريط الأرض الذي يحده من الغرب نهر البليخ متوازي أضلاع تقريباً مع نهري البليخ والفرات وحران في الطرف الشمالي، والرقة في الطرف الجنوبي. وكانت المنطقة تعرف لدى الرومان بمحافظة أوسروين وكانت مجاورة لمحافظة اديابين، التي تعني حرفياً «يتعذر اجتيازه» أو الأرض التي لا يمكن اختراقها، ويصعب فعلاً اختراق هذه المناطق لوجود المستنقعات المخيفة. ومع ذلك، فقد اجتذبت الناس من الأقاليم الأكثر ازدهاراً، وربما اجتذبت الرجال الميالين إلى العنف الذين لم يكن بوسعهم الاستقرار في المدن الأكثر تحضراً. إلا أن المنطقة كانت غنية غنىً غير عادي ومثلت فيها كل العصور التي لاحظناها شرقاً على نهر الخابور، يُضاف إلى ذلك أنها تضم آثاراً هلينية ورومانية وبيزنطية كثيرة. وتثير هذه المنطقة الاهتمام الشديد للمتخصص بالقرون الوسطى، إذ كانت محتويات بعض التلال من العصور الوسطى أساساً ومرتفعة جداً. وكم أتمنى لو عشت مرتين أو ثلاثاً لكي أفحصها. وعندما أفكِّر في ما يوجد تحت

---

(١) لم أترجم عشرة سطور من النص الإنجليزي تتضمن تفاصيل المشكلة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الأقدام وفوق الأرض في انتظار الاختبار التاريخي والآثاري أشعر بالذهول وأدرك مدى ضآلة مساهمتنا في إغناء المعرفة بالماضي مقارنة بالقدر الأعظم منها الذي ما زال ينتظر الاكتشاف.

لا أستطيع سوى تقديم عرض موجز للتلال الخمسة التي فحصناها، وسأقول كلمات قليلة عن كل واحد منها.

هناك أولاً تل أسود الذي يقع على بعد حوالي خمسة عشر كيلومتراً جنوب تل أبيض على نهر هو فرع من البليخ. وتل أسود تلٌّ مرتفع جداً يبلغ ارتفاعه أكثر من عشرين متراً فوق مستوى السهل ويغطي مساحة مسكونة تبلغ زهاء ثلاثين ايكراً. وهو قديم جداً لأننا عثرنا على نماذج كثيرة من رؤوس السهام المصنوعة من الشرت(٢) من العصر الحجري الحديث، إضافة إلى بقايا سكن واسع من عصر حلف والسلاسل السابقة له. نجحنا في قمة هذا التل غير العادي في التوصل إلى تحديد المخطط الأرضي لمعبد صغير يعود إلى ما قبل التاريخ. وكانت هناك حجرة طويلة لا بدّ أنها كانت المصلى الرئيس وتجاورها حجرة أصغر منها وثمة جمجمة ثور على عتبتها وهو قربان سحري في المدخل. وكان هناك سطح منبسط مصنوع من القصب وطين مثقل بالحصى، وعثر في المبنى وحوله على عظام حيوانات هي عظام خنزير وخروف ومعزاة وثور وحصان صغير، وكلها مدجنة كما يبدو. ومن الواضح أن هذه المجتمعات المبكرة في وادي البليخ كانت تمارس الزراعة المشتركة بما فيها تربية الحيوانات، إضافة إلى زراعة القمح والشعير وعثر على نماذج كثيرة منها في تل آخر يدعى مفيش سأصفه فيما بعد. وكنت أظن أن المبنى في قمة التل المسمى أسود يحتمل أن

(٢) الشرت صخر صواني غير نقي. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

يعود إلى عصر حلف، لكنني ربما حددت له تاريخاً مبكراً، لأنني لست واثقاً بأن الكسر فيه كانت معاصرة حقاً. إلا أنه عثر على تراكمات كبيرة من عصر حلف في أماكن أخرى. وإذا كان هذا الربط صحيحاً فلا بدّ أن التل نفسه قديم جداً وتوجد سلسلة طويلة من ذلك العصر تحته. وربما كان هذا المعبد أقدم تاريخاً مما قدرت، إلا أنه يوجد هنا أيضاً ما يجتذب المختصين بدراسة عصور ما قبل التاريخ إلى زيارة الموقع ذات يوم.

بعد التنقيب في تل أسود الذي تركز أساساً في عصر حلف المبكر بحثنا عن تل يحتمل أن يعطينا نماذج من السلسلة التالية واخترنا تلاً يدعى تل مفيش يقع قريباً من واد جاف الآن غالباً، ولكنه يمتلئ بمياه الأمطار في فصل الشتاء. وربما كان هذا الوادي نهراً ذا أهمية عندما سكن التل آخر مرة في عصر العبيد. ويُقال إنه يمكن تتبعه باتجاه الشمال الغربي إلى عرب بونار وهناك يجري باتجاه الجنوب الشرقي عموماً إلى البليخ. تقع هذه المستوطنة على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً جنوب تل أبيض وسبعة أميال ونصف الميل غرب نهر البليخ على مسافة قريبة من الطريق الحديث إلى الرقة. يبلغ ارتفاع التل خمسة عشر متراً وتبلغ مساحة السكن حوالي ثمانية ايكرات ونصف ايكر، وهي مستوطنة إقليمية صغيرة ربما تكشف عن معلومات أكثر بكثير مما كان بوسعنا التوصل إليه في الأيام الخمسة التي خصصناها للتل، وهو كل ما أمكن توفيره لهذا التل.

عندما أتذكر تلك الأيام أدرك كم كانت سعيدة وسهلة، إذ كان كل ما ينبغي لنا أن نفعله هو إظهار أننا منقبون أكفاء ثم نطلب الحصول على إذن بحفر حفر اختبار في المنطقة التي نختارها. ثم يسمح لنا بالتنفيذ دون عائق شريطة أن نكون قد اخترنا المواقع التي نرغب في

Twitter: @ketab_n

تركيز العمل فيها ونعطي وعداً بتقديم تقرير مكتوب عنها عندما ننتهي من عملياتنا. وجد العمال أيضاً هذه الرحلات مثيرة وممتعة، وكان هناك تنافس شديد في الانضمام إلى مجموعة ركاب سيارة الشحن الصغيرة التي كانت تغادر مقرّنا في تل أبيض صباح كل يوم متجهة إلى مواقع مختلفة في وادي نهر البليخ، وأحياناً إلى مسافات طويلة. إلا أن حماستهم كانت تميل إلى التلاشي في الفجر المظلم البارد وفي الأيام الممطرة، لا سيما في شهر كانون الثاني/ يناير، يكونون قد أوشكوا على التجمد من البرد قبل أن نصل الموقع الذي نقصده. إلا أن العمل بالفأس والمسحاة سرعان ما يطرد البرد، وفي نهاية المطاف يتمتعون بتلك الرحلات القصيرة مثلنا. وفي الأيام الخمسة التي استطعنا تكريسها لحفر حفرة اختبار في مفيش لم يكن ممكناً تحديد مخطط أرضي واضح، إلا أن التنقيبات كشفت عن مجموعة من أربع حجرات صغيرة مشيدة بالآجر غير المفخور الذي كان حجمه أكبر بكثير من الآجر الصغير المستعمل في عصر حلف. وكان من السهل فعلاً التوصل إلى تحديد الفرق في العصر من حيث الجدران في هاتين المرحلتين المتعاقبتين لذلك السبب وحده.

وفي الفناء الذي كان بجانب الغرف اكتشفنا عدداً من صناديق الحبوب الدائرية التي احتوت على كميات كبيرة من الشعير. واحتوت إحدى الغرف على بقايا سقف ساقط كان يتكون من عوارض من خشب الحور بيضوية المقطع، ولأنها كانت تغطي عرض الحجرة كله فلا بدّ أن طولها الأصلي كان يزيد على المترين ونصف المتر.

وكانت هناك أيضاً آثار قصب كان يغطي العوارض الخشبية. وربما يمكن الافتراض أن أشجار الحور والصفصاف والقصب كانت تنمو بكثرة في وادي البليخ في تلك الفترة. وكشفت حبوب الشعير

Twitter: @ketab_n

والقمح والبيوت عن تأثير النار، وهي ملاحظة أبدتها الآنسة د.م.أ. بيت حيث فحصت بعض البقايا الحيوانية التي ظهرت فيها آثار الاحتراق أيضاً.

ولأن الفخار المعني كان يعود إلى عصر العبيد ربما يمكن الافتراض أن السكان الذين جاءوا بعد سكان حلف احترقوا وانتهوا. غير أن العدو غير معروف ولاحظنا بين البقايا الحيوانية آثار معزاة كبيرة ذات قرن ملتف، وثور كبير وحصان صغير. وكان الفخار المكتشف في البيت مثيراً للاهتمام إثارة خاصة لأنه رغم كونه من عصر العبيد دون أدنى شك، فقد كشف عن سمات مرحلة حضارة حلف السابقة وبيَّن أن سكان عصر العبيد في مفيش تأثروا في نوع الخزف الذي أنتجوه بأسلافهم إلى حد كبير. وكشفت أنواع الفخار المطلي عن أشكال من الأواني واستعمال طلاء أسود وطلاء حلقة حول قاعدة الإناء يمكن مقارنته بوثوق بفخار العبيد المعاصر الذي عثر عليه في الأربجية. وكان هناك نموذج من إناء من عصر العبيد في تقليد حلف وعثر على كسرة من عصر حلف ذات تصميم يمثل رأس ثور ونقطاً. ولذا ليس لدينا شك في أن هاتين السلسلتين من التطور توجدان في هذا التل الذي يعد فردوساً صغيراً للمنقبين المعنيين بتلك العصور، لأنهم سيكتشفون نماذج كثيرة من بقايا الحيوانات والنباتات، وهكذا يتمكنون من تقديم بيانات مفيدة جداً عن علاقات الكائنات الحية ببيئتها في المنطقة. ولسوء الحظ لم تكن طريقة تحديد التاريخ بطريقة الكاربون ١٤ قد اخترعت في وقت تنقيباتنا، إذ كان في مفيش قدر ضخم من البقايا العضوية. ويعرف المنقب في المستقبل أين يذهب للحصول على المزيد من المعلومات.

أخيراً لا يود المرء مغادرة مفيش دون أن يلفت الانتباه إلى قطعة

Twitter: @ketab_n

مثيرة للاهتمام من تمثال الإلهة الأم المصنوع من الطين المجفف في الشمس الذي اكتشف في ركام البيت. ويبدو هذا التمثال كأنه يعتمر قبعة عالية، ولو أنه يمكن تفسيره على أنه رأس ذو قرن وعلٍ يعلو جسماً آدمياً وأعتقد أن هذا هو الواقع. تذكر الفكرة العامة لهذا التمثال بتماثيل الإلهة الأم ذات القبعات العالية والرؤوس شبه الحيوانية التي اكتشفت في طبقة حفرة الطوفان من عصر العبيد في أور، وهذا مثال مثير للاهتمام للخليط المشوش من الأشكال في مثل هذه التصويرات من عصور ما قبل التاريخ للآلهة أو إلهات بدائية.

عثرنا في مرتفع على سفوح تل الشويخ، وهو تل من عصور ما قبل التاريخ في المنطقة القريبة من مفيش، على نموذج مثير للإعجاب لأقدم نوع من فخار حلف هو إناء كبير بسيط نوعاً ما له ثلاثة أشرطة أفقية من أشكال المعين المرقنة[٣]. ومثّل أحد الآنية من عصر العبيد بألواح من طيور طويلة العنق ورؤوسها إلى الأرض وهي تأكل وأعتقد أنها ربما مثلت الحبارى، وربما الحبارى الكبير الذي يحتمل انتشاره في المنطقة آنذاك لا كما هي الحال الآن. ولا حاجة إلى أن نقول المزيد عن مفيش نفسه عدا أنه مثال نموذجي للاحتمالات الواسعة لهذا الجزء من وادي البليخ من حيث اكتشاف السلاسل المبكرة من عصور ما قبل التاريخ، وأن العدو حفظ بأفعاله في نهاية عصر العبيد للأجيال القادمة نماذج كثيرة من الصناعات اليدوية من تلك الفترة وكان واضحاً أنها غير ذات فائدة للمهاجمين.

كان المكان الثالث الذي فحصناه تل صهلان في المناطق السبخة

---

(٣) الترقين: استخدام خطوط قصيرة في الرسم والحفر للتضليل وللدلالة على اختلاف السطوح بخاصة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

على الضفة الغربية من نهر التركمان، أحد روافد البليخ على بُعد حوالي نصف ميل باتجاه أعلى النهر من تل أسود، وهي ليست مسافة بعيدة عن تل أبيض. كان الوصول إليه غاية في الصعوبة ولم نستطع تمضية سوى يومين أو ثلاثة هناك. وكان على العمال في كثير من الأحيان الوصول إلى المكان سباحة ووجدنا نحن أيضاً صعوبة في الوصول. إن صهلان أضخم التلال التي مسحتها البعثة ويبلغ ارتفاعه ما لا يقل عن ٤٠ متراً. وتغطي المنطقة السكنية حوالي ٢٦ ايكراً. وأقدّر أن السلسلة الكبيرة من الطبقات التي ضمها هذا التل لا بدّ أنها تعود إلى مدى سكن يتجاوز ستة آلاف سنة، ولذا توجد مواد يستطيع فحصها الخبراء من كل نوع تقريباً، لأن السكن بدأ في العصور المبكرة قبل التاريخ وانتهى في عصرنا. وربما كان أهم اكتشاف قطعة من لوح مسماري، وللأسف لا يمكن قراءتها، عثرت عليها على سفوح التل ويقودني ذلك إلى افتراض أنه لا بدّ من وجود مزيد من الوثائق التي تنتظر الاكتشاف في مكان ما من الطبقات الوسطى من التل.

احتوت الطبقات العليا من تل صهلان على آثار رومانية ورومانية - بيزنطية وإسلامية خلال ما لا يقل عن عشرة أو خمسة عشر متراً من التراكمات. وفي الجانب المقابل من التل المطل على النهر، وعلى ارتفاع ثمانية أمتار، كشفنا عن واجهة سور حجري عرضه لا يقل عن أربعة أمتار ومؤلف من كتل جبسية صلبة تحيط بالتل. وعثر على قطعة من قنينة طينية مطلية ذات شريط أحمر من الطلاء على الكتف وقد ثبتت في الحجارة، ومن الواضح أنها كانت جزءاً من الحشوة الخشنة بين الكتل. ولأن هذه كانت قطعة من فخار الخابور فيمكننا القول إن السور المصطبة شيّد بلا شك قبل عصر سلالة بابل الأولى، ويمكن أن نحدد تاريخه بحوالي عام ١٨٠٠ ق.م.

Twitter: @ketab_n

إذا لخصنا النتائج التي توصلنا إليها في صهلان يمكننا القول إنه موقع ذو تاريخ طويل جداً ولا يسهل الوصول إليه بسبب المنطقة السبخة المحيطة به، وإنه في فترة ما خلال الألف الثاني قبل الميلاد كان هناك جدار مصطبة ثقيل يوفر حماية قوية للموقع. ولسنا متثبتين من تاريخ أقدم استيطان، ولكن يحتمل أنه كان بعد عصر حلف عندما سكن موقع تل أسود المجاور آخر مرة، وربما استوطن صهلان أولاً في وقت أصبح فيه تل أسود عالياً علواً غير ملائم وربما كان محاطاً تماماً بمستنقع في المراحل الأخيرة منه.

ويُثار سؤال عن سبب استمرار السكن في صهلان بعد أن وصل إلى ذلك الارتفاع الكبير. وقد يكون الجواب: عندما أصبح الموقع جزءاً من المناطق الحدودية في عهد الإمبراطورية الرومانية فإن تلاً مرتفعاً ومهدماً مثل صهلان كان يعد أنسب موقع لقلعة صغيرة يصعب الاستيلاء عليها ويمكن منها مراقبة منطقة شاسعة. ولأسباب مشابهة كانت مواقع قديمة مثل هذا في العصور التركية تنتخب في حالات كثيرة مواقع للشرطة وهكذا يكرر التاريخ نفسه.

يدعى الموقع الرابع الذي نقبنا فيه تل جدل وكان موقعه مناسباً لنا، لأنه كان يقع على بعد ميلين ونصف جنوب منبع المياه في عين العروس، على الضفة الغربية من النهر. نادراً ما شاهدت بقعة أكثر بهجة أو ذات موقع أجمل.

كان تلاً متماسكاً ذا سفوح شديدة الانحدار، يبلغ ارتفاعه خمسة عشر متراً ويغطي أربعة ايكرات ونصف ايكر. كانت قمة التل تطل مباشرة على مياه النهر الزرقاء الصافية والشفافة حتى القعر والمليئة بالسمك وعلى ضفتيْ النهر أشجار بلوط، وكان الوجود الوحيد للسكن البشري بيت صغير يعود إلى طحان يعيش وحيداً كان يطحن القمح

Twitter: @ketab_n

والشعير للناس في هذه المنطقة وكم تمنيت أن نكتشف آثاراً في هذا التل، إذ كنا مستعدين للاستقرار هنا عدة سنوات في منطقة مبهجة، إلا أن ذلك لم يحدث. وعلى الرغم من أننا حصلنا على معلومات كثيرة، فقد كانت العمارة مخيبة للآمال. كانت هناك بعض المستوطنات المهجورة والمليئة بالرمل الذي حملته الريح، إلا أن السلسلة كانت ثمينة وضمت إحدى الطبقات مزيداً من الأدلة على وجود دفاعات من العصر السرجوني تعود إلى نحو عام ٢٤٠٠ ق.م.

في المتر الأعلى كانت هناك بقايا رومانية بيزنطية يحتمل أنها تعود إلى الفترة ٣٠٠-٦٠٠ بعد الميلاد وكانت الجدران مشيدة من كتل خشنة من الجص والآجر الطيني. كان واضحاً أنه كانت توجد في المنطقة المجاورة مصادر كثيرة لمواد بناء جبسية غير جيدة جداً وكان باستطاعة سكان الطبقة استخراجها. وضمت محتويات هذه الطبقة أواني دفن بقايا حرق الجثث مع عظام أطفال وبضع قطع من المصابيح الطينية وبعض قطع من العملة البرونزية التي لا يمكن تحديد تاريخها. وقد وصفت دورق ماء طينياً وحيداً في هذه الطبقة عثر عليه كاملاً في مجلة Iraq (vol. VIII, 1946).

كانت الطبقتان التاليتان نزولاً في السلسلة من القمة هما جدل ٢ وجدل ٣. يعود تاريخ طبقة جدل ٢، التي لا يزيد ارتفاع أسسها على ثلاثة عشر متراً ونصف فوق مستوى النهر، إلى الفترة ما بين عامي ١٤٥٠ و١٣٥٠ ق.م. وشهدت نهاية سكن مزدهر. هنا عثرنا على قطع من فخار مطلي مزين بطلاء أبيض على خلفية حمراء أو سوداء هي من سمات الحوريين. وبادت المستوطنة طبيعياً وشهدت انتهاء العصر الحوري. وكان الحوريون فلاحين شماليين ومحاربين أيضاً نظمتهم كمجموعة متماسكة السلالة الهندية الآرية المعروفة بالميثانيين،

Twitter: @ketab_n

وازدهرت في هذا الجزء من بلاد الرافدين عدة قرون قبل عام ١٤٠٠ ق.م. وعكَسَ بعض الضغط الخارجي، ربما من الشرق، القوة المتعاظمة للمملكة الآشورية الوسطى التي بدأت ترغم السكان على ترك المنطقة. ولكن يحتمل أن الآشوريين اعتقدوا أن ليس هناك جدوى من بذل جهودهم في تلك المنطقة النائية التي تميل إلى إثارة الاضطرابات.

إلا أن القرية الأكثر ازدهاراً كانت ممثلة بالطبقة تحت جدل ٢، أي جدل ٣، حيث اكتشفنا أيضاً بعض الفخار الحوري المميز. وكانت الصفة المثيرة للاهتمام في هذه المستوطنة هي أن الغزاة أحرقوها تماماً ونهبوها كما دلت على ذلك الآثار الكثيرة من الرماد في أرجاء الطبقة كلها. وحل المصير نفسه بالمستوطنة المعاصرة لها المسماة تل حمام على بعد نصف ميل من منبع النهر على الضفة المقابلة. يوضح المسح الكنتوري البسيط الذي وضعه جون روز بوضوح الموقع النسبي لتل حمام وتل جدل ونهر البليخ الذي يمر بينهما. ولا نعرف تماماً تاريخ نهب جدل ٣ وأسباب ذلك. إلا أن نهاية القرية ربما كانت بسبب الضغط على سلالة ميتاني إمّا من سوريا أو من أرجاء أخرى في آسيا الصغرى. ويبدو لأسباب آثارية أن حوالي منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد يعد تاريخاً معقولاً لنهاية جدل ٣. وقد امتلأ قسم كبير من هذه المستوطنة بتراب سفّته الريح ويبرهن ذلك على أن المستوطنة هجرت قبل سنوات قليلة من تأسيس المستوطنة التي خلفتها والتي تمثل كما رأينا محاولة فاشلة لتجديد الصلات بالمستوطنة التي سبقتها. إن الفترة بين المستوطنتين لا يمكن أن تتجاوز عقداً واحداً، ومن المؤكد أنه لم تكن هناك أية فترات انقطاع طويلة بسبب الاستمرار الكامل للفخار. وفي جدل ٢ كانت المباني رديئة التشييد وتحمل

Twitter: @ketab_n

علامات إعادة سكن متدهور وغير منتظم نوعاً ما. إن تاريخ جدل ٣ مشكلة آثارية لا نريد إشغال القارئ بها هنا، ولكن يحتمل أنه لم يبدأ قبل حوالي عام ١٧٠٠ ق.م. وعثر على لقى قليلة مثيرة للاهتمام في هذه المستوطنة: تمثال من الطين النضيج للإلهة الأم ترضع طفلاً، وختم أسطواني من النوع القبرصي يشير إلى تجارة واسعة امتدت بعيداً.

تحت جدل ٣ كان عمق الأسس الجدارية لجدل ٤ يصل إلى حوالي أحد عشر متراً ونصف المتر تحت قمة التل، وكانت أرضية المصلى تقع على ارتفاع اثني عشر متراً فوق مستوى النهر. ولم يبق من هذا المصلى سوى ثلاثة جدران من الآجر الطيني لحجرة مستطيلة الشكل ومذبح من الآجر الطيني يزيد ارتفاعه على ثلاثة أقدام لصق الضلع الطويل من الحجرة. وعثرنا في منطقة المصلى على تمثال الإلهة الأم «عشتار» الملون والمزين بطلاء أحمر، ويحتمل أن تاريخه لا يعود إلى ما بعد سلالة أور الثالثة، أو حوالي عام ٢١٠٠ أو ٢٠٠٠ ق.م وهي الفترة التي كانت تماثيل بلاد الرافدين فيها تُصنع بالأسلوب الطبيعي. واكتُشفت بعض الكسر من فخار الخابور ونوع من الآنية غير الملونة تشبه الفخار المقترن بسلالة أور الثالثة في مدينة أور نفسها. ويشير ثانية الاستعمال الواسع للصخور الكلسية المنحوتة بوجوه خشنة إلى توفر هذه المواد في المنطقة المجاورة. ولا نريد عرض الأدلة التي تشير إلى تداخل أواخر سلالة بابل الأولى بأوائل سلالة أور الثالثة. ويحتمل وجود فترة انقطاع لا تقل عن مئة وخمسين سنة بين جدل ٣ وجدل ٤ وأحدد تحديداً غير نهائي تأريخ هذه المستوطنة الرابعة بالفترة بين عامي ٢١٠٠ و١٨٠٠ ق.م.

كانت أكثر طبقة مثيرة للاهتمام في هذه المستوطنة جدل ٥. ولم

Twitter: @ketab_n

تكن الأسس على مستوى ثابت، بل تبعت الخطوط الكنتورية للتل وكان يضمّها سور المدينة البيضوي الكبير الذي يرتفع باعتدال وهو يحيط بالمدينة بعيداً عن النهر. كان الجزء الأكثر انخفاضاً من سور المدينة عند الينبوع على الضلع الشرقي من الموقع، وعندما يصبح السور عند الجانب الغربي المقابل من نهر البليخ كان يرتفع ما لا يقل عن أربعة أمتار. كان هذا السور الدفاعي الذي يبلغ طوله ٣٥٠ متراً ولا يقل سمكه عن متر واحد متراساً قوياً أمام الهجمات. وكان كل عدو يحاول اجتياح المدينة يضطر إما إلى إحداث ثغرة في الأسوار أو اجتياز النهر الذي كان يمثل عقبة طبيعية على الجانبين الشمالي والشرقي.

كانت نوعية البناء أفضل منها في أية فترة أخرى من استيطان جدل، إذ كانت الجدران مبيّضة بماء الكلس ونوع من الجص السمنتي، وكانت أحجام الآجر تذكّر ببناء الآجر المستعمل في العصر السرجوني في براك. ودعمت بعض أقسام سور المدينة بكتل جبسية خشنة وكانت بعض أجزاء السور في الجانب الشرقي مؤلفة كلها من الجص. وكان هناك رصيف حجري على ارتفاع عشرة أمتار ونصف.

يبدو أن المدخل الرئيس المؤدي إلى المدينة في هذه الفترة كان فتحة في الضلع الجنوبي من التل. وربما كان السور في ذلك الوقت مؤلفاً من الحجر تماماً وربما كانت هناك أبراج محيطة كان البناؤون في فترة تالية يجردونها من الحجارة. ويحتمل أنه بُني طريق معلق يمتد إلى مسافة ما بعد البوابة الرئيسة في الأرض السبخة في المنطقة المجاورة مباشرة لسور المدينة.

تدل شواهد الفخار على أن سور المدينة كان قائماً في عهد سلالة أكد، ويحتمل في فترة حكم رموش أو نرام ـ سين الذي شيّد قصراً في

Twitter: @ketab_n

براك، وبذلك دعم فتوحات سرجون مؤسس السلالة، كما رأينا في وصف ذلك الموقع. لذا فإن اكتشاف دفاعات قوية على نهر البليخ في هذا العصر هو ما ينبغي تماماً توقعه من معرفتنا الأنشطة البنائية الواسعة في براك في عهد السلالة السرجونية ويشير إلى صلة أخرى تدعم خطوط الاتصال بآسيا الصغرى.

مقابل الواجهة الداخلية لسور المدينة في الربع الجنوبي الغربي من التل كانت هناك بقايا قبر بشري من العهد السرجوني عبث بها وضمت عقداً من تعويذات من الخزف المزخرف وخرزات حلقية من العقيق الأحمر تشبه الحلي المكتشفة في الطبقات السرجونية بشكر بازار في وادي الخابور. ويحتمل أن سور المدينة البيضوي الكبير الموضَّح في جدل ٥ يتبع سلسلة من الطرق الدائرية المشار إليها بالآجر المحدب المستوي بشكل الوسادة التي كانت شائعة في حقبة أقدم سبقتها. ويحتمل من الأدلة المتيسرة أن طبقة جدل ٥ غطت جزءاً كبيراً من العصر الأكدي في نحو عام ٢٤٠٠-٢٢٠٠ ق.م، وأن هذه المستوطنة أصبحت بحاجة إلى الترميم خلال أزمنة عمّت فيها الفوضى عندما غزا الكوتيون بلاد الرافدين، وكان غزواً تمخض عن عواقب واضحة واضطرابات في سوريا نفسها بسبب تقليص سيطرة الحكومة المركزية القوية التي طبقت بنجاح متي سنة في العصر الأكدي.

لم نعثر في الطبقات ٦-٨ التي سبقت طبقة جدل ٥ على أي شيء سبق عصر أوروك، ويحتمل جداً أن أول تأسيس لجدل لم يكن بعد زمن طويل من هجر تل مفيش نهائياً الذي لم نلاحظ فيه شيئاً أحدث من عصر العبيد. ويمكن أن نفترض أن جدل سُكنت أولاً في الربع الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد في العصر الذي سبق عهد التاريخ المدون المباشر.

Twitter: @ketab_n

كان آخر تل فحصناه هو تل حمام. كانت قمة هذا التل المتماسك الذي توّج منطقة مأهولة تبلغ مساحتها حوالي ثلاثة ايكرات، ترتفع ما لا يقل عن أحد عشر متراً فوق مستوى السهل وضمّت تحتها كل الطبقات الرئيسة التي اكتشفناها في أماكن أخرى. سُكن الموقع أولاً في عصر حلف، ويحتمل قبل ذلك العصر، في العصر الحجري الحديث، إذ عُثر على بعض الأدوات الصوانية الجيدة الصنع ورؤوس الرماح والسهام وما أشبه، إضافة إلى اللقى من الحجر البركاني التي جُمعت من جوانب التل وقاعدته وضمّت نصلاً لنوع من الصخور المائلة إلى اللون الأخضر من منطقة بحيرة فان في آسيا الصغرى.

يوضح المخطط الكنتوري الذي وضعه جون روز الوضع في تل حمام، إذ تُظهر تلَّي جدل وحمام على جانبي النهر ويقع الأعلى وهو تل حمام على الضفة الشمالية ويقع تل جدل على الضفة الجنوبية. إن هاتين المستوطنتين متكاملتان، ولا بدّ أن الدفاع عنهما كان مشتركاً حيث يحرس كل واحد ضفته وامتداد النهر، وكان هذا واضحاً خصوصاً في المستوطنات في حمام التي كانت تقابل جدل ٢ وجدل ٣ على مستويات عالية نسبياً من التل.

تحت طبقة السكن الرومانية البيزنطية الأخيرة في قمة حمام، كما في جدل، كانت هناك مواقع مساكن من منتصف الألف الثاني قبل الميلاد واستطعنا وضع خريطة لبيت من الآجر الطيني ضمّت أربع حجرات، وبعض أفران الخبز. وتشير الحجرات، التي وُجِدت مغطاةً بشريطة من الرماد فوق هذه الطبقة مباشرة، إلى أنه بعد التدمير مرّت فترة قصيرة من إعادة السكان تتطابق وجدل ٢، حيث هُجرت المستوطنة بسرعة، لأن البقايا كانت مليئة بالرمل الذي سفّته الرياح.

وعثرنا في هذه الطبقات على قطع من الأواني المسطحة من طين

Twitter: @ketab_n

قرنفلي غامق بحاشية عريضة من الطلاء الأحمر اللامع، وهو نوع من الفخار يوجد أيضاً في الطبقة ٤ التي ضمّت القصر في موقع الالاخ في وادي العاصي التي نقب فيه ليونارد وولي. وعثر أيضاً على قطع قليلة من هذا الفخار نفسه في المستوطنات المقابلة في جدل. وقد أظهرت هذه الاكتشافات أهمية العثور على فخار مميّز مرتبط بطبقة معينة، لأنه مكّننا لا من ربط سكن هذين التلّين بعضه ببعض في وادي البليخ فحسب، بل ربطهما بسكن يقع على مسافة بعيدة نحو الغرب في موقع معروف هو الالاخ في وادي نهر العاصي حيث وضّح التاريخ سلسلة الأحداث.

توافرت أدلة أخرى عن تاريخ موقع المسكن الذي نقبنا فيه في حمام باكتشاف ختم أسطواني خزفي بخانتين، تصور السفلى صفاً من الغزلان أو ربما المعز، وبين أزواج منهما نجمةٌ مثبتة على عمود وهو رمز ديني، بينما زُيّنت الخانة العليا بدوائر متحدة المركز ونجمة في الحقل. وأعتقد أن هذه كانت صوراً لحيوانات كان يحتفظ بها في المعابد في ذلك الوقت، لأن لدينا أدلة من الألواح في شكر بازار على الاحتفاظ بالغزلان في المعابد.

يظهر سجل تنقيباتنا في وادي البليخ وجود شح في الأدوات المعدنية، وهذه علامة مؤكدة أن أجواء وادي البليخ الصعبة والممطرة والسبخة اجتذبت مستوطنين أكثر بدائية وأقل ثراءً وتمدّناً بالمقارنة بالمنشآت في وادي الخابور. وبالمثل فإن بعض الأدوات المصنوعة من الصوان والصوان غير النقي، إضافة إلى الزجاج البركاني، كانت عالية النوعية وتستحق مزيداً من الاهتمام عندما يكون بوسعنا ذلك.

برهنت رحلاتنا في هذا الوادي التي لم تستغرق أكثر من ستة أسابيع على أنها جهود رائدة، لأنه لم يكن يعرف سوى القليل عن هذه

Twitter: @ketab_n

المنطقة قبل ذهابنا إلى هناك، وإن كان المرحوم الأستاذ ألبرايت فَحَصَ حوالي عام ١٩٢٦ تلاً واحداً من عصور ما قبل التاريخ يدعى زيدان في الأسفل. إلا أنه لم يمض آثاريٌّ على وفق علمنا أكثر من بضعة أيام هنا ليدرس الاحتمالات غير العادية في المنطقة. وقد أورد دبليو. ف. ألبرايت وصف رحلته في الكتاب الذي يحمل عنوان (الإنسان Man (1926 P. 25f)، إلاّ أن رائدين أبديا اهتماماً نظرياً بالوادي. وينبغي أن لا ننسى في هذا المجال ر. دوسو الفرنسي الذي ضمّن كتابه: (الطبوغرافية التاريخية لسوريا القديمة وفي القرون الوسطى). (Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale) خصوصاً في الصفحة ٤٨١، مناقشة ممتعة عن أصل البليخ، وتوجد ثانياً إشارات إلى المواقع الرومانية على النهر نفسه في تقرير الأب أ. بوادبار الشامل: (آثار روما في صحراء سوريا La Trace de Rome dans Le désert se Syrie).

في رأيي أن أكثر جوانب التلال إثارة في هذا الوادي هي الأدلة التي يمكن أن توصلنا إلى أنها كانت سكناً رومانياً بيزنطياً، وهي أدلة كثيرة جداً لم تفحص حتى الآن، وينبغي أن نتذكر الرأي الذي يدعو إلى التأمل والذي طرحه الأب أ. بوادبار عندما قال: «أية سياسة توسع باتجاه بلاد الرافدين بدءاً بعهد الإمبراطور تراجان هدفت إلى جعل الخابور حدوداً. وكل سياسة تراجع قادته إلى منحنى نهر الفرات». وهو مبدأ توضحه الحملات الشرقية للأباطرة تراجان وسبتيميوس سيفيروس وجوليان والتخلي المؤقت عن الجبهة الشرقية بعد موت جوليان.

أتمنى أن ينقب آثاري معنيٌّ بالعصر الروماني البيزنطي في هذه المنطقة ويعرض استنتاجاته عن كيفية دخول الاستيطانات، في تلك

Twitter: @ketab_n

الفترة، في تأسيس الفكرة المعروفة بالسلم الروماني Pax Romana[٤] التي سعت إلى اتباع المبدأ المتضمن في القول المأثور parcere subjectis et debellare superbos.

كنا محظوظين، إذ انتزعنا أنفسنا من وادي البليخ في نحو نهاية السنة لأن الطُرق في تلك المنطقة تصبح صعبة الاجتياز حالما تسقط أمطار الشتاء. إلا أن الحظ حالفنا ورحلنا من تل أبيض إلى حلب دون حدوث حادث وإن كنا استخدمنا أحد الطرق غير المعروفة عبر السهل الخالي من الأشجار وانغرزت عجلات السيارة في يوم حار بعض الشيء دون أن يكون لدينا ماء كثير.

وسررنا أخيراً بالوصول إلى ضفة نهر الفرات والعبور بزورق شراعي متداعٍ والوصول إلى مسكن رئيس عمالنا في كركميش في وقت تناول الفطور ونحن في أشد حالات الجوع.

على الرغم من أننا كنا نأمل أن نتناول وجبة بسيطة من الخبز والشاي أو القهوة، فإن مضيفنا، الذي كان أحد أبناء حمودي، قال إن أحداً لم يسمع بمثل ذلك ورفض السماح لنا بالذهاب إلا بعد أن أعدت العائلة وجبة فخمة. وكان ذلك يعني الذهاب إلى القرية وذبح خروف وطبخه. ترددنا في أن نخيب أمله وكان رفضنا يعني تصرفاً فظاً. وبعد انتظار دام ما لا يقل عن ست ساعات قدمت أخيراً وجبة فخمة تألفت من خروف محشو وكمية كبيرة من الرز. في ذلك الوقت كنا جياعاً جداً بحيث لم نكد نستطيع تناول شيء، ولكن بعد التعبير عن الامتنان والصداقة لمضيفينا الكرماء انطلقنا أخيراً في رحلة السبعين

---

(٤) السلم الروماني هو السلم الذي كانت تفرضه الإمبراطورية الرومانية على الدول الأخرى. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ميلاً إلى حلب التي وصلناها مساء ليضيفنا في فندق البارون كوكو المضياف وهو أرمني اسمه الحقيقي ماز لوميان وكنت أتسلم منه بطاقة تهنئة بعيد الميلاد بانتظام منذ الأيام التي تقابلنا فيها قبل حوالي أربعين عاماً.

كان كوكو إنجليزياً أكثر من الإنجليز وخدم في القوة الجوية فترة من الزمن وكان كثير الضيوف دائماً ولا سيما الآثاريين الذين يمكثون فترة في حلب، وهناك أسباب قوية تجعلنا ممتنين له لسخائه وصداقته ولطفه. إنه شخصية صمدت بوجه أعاصير كثيرة وكان متزوجاً بامرأة إنجليزية.

كانت الشخصية العظيمة الأخرى في حلب صديقنا العزيز إرنست التونيان وهو نصف إيرلندي ونصف أرمني تزوج شقيقة ر.ج. كولنكود الفيلسوف والمؤرخ في أوكسفورد. وكان والد إرنست مسناً ورائعاً وقد أصبح متخصصاً في جراحة المخ ذا شهرة عالمية. عمل في شبابه غاسل قنانٍ ونشأ بين المبشرين الأميركيين في مراش، واجتذبهم فيه ذكاؤه الفطري فأرسلوه للدراسة في استانبول.

وتخرّج في جامعتها ورحل إلى باريس ثم أسس المستشفى الذي كان شهيراً في حلب وبقي بفضل جهود ابنه، ولكن لم يعد للمستشفى وجودٌ الآن. وكان هذا الرجل المسن يرفض معالجة المريض إلا بعد أن يضع قطعة ذهبية في راحة يده. وكان كل شخص في سوريا مستعداً لتدبير الحصول على القطعة الذهبية لكي يعالجه هذا الرجل الذي كان يعتقد أنه ساحر ويحتمل أن يكون خالداً. كان رجلاً رائعاً تزوج في سن التسعين امرأة إنجليزية تصغره زهاء ستين عاماً وأجرى لها عملية استئصال ورم في الدماغ لم يجرؤ أي جراح آخر على لمسه.

Twitter: @ketab_n

السائق مايكل والعقيد بيرن وماكس في شكر بازار

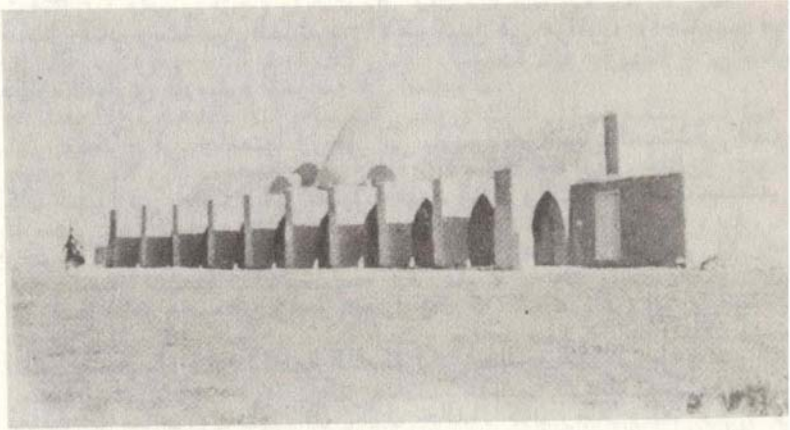

مبنى بعثة التنقيب في شكر بازار

Twitter: @ketab_n

جيرترود بيل وليونيل سمث في أريدو عام ١٩٢٦

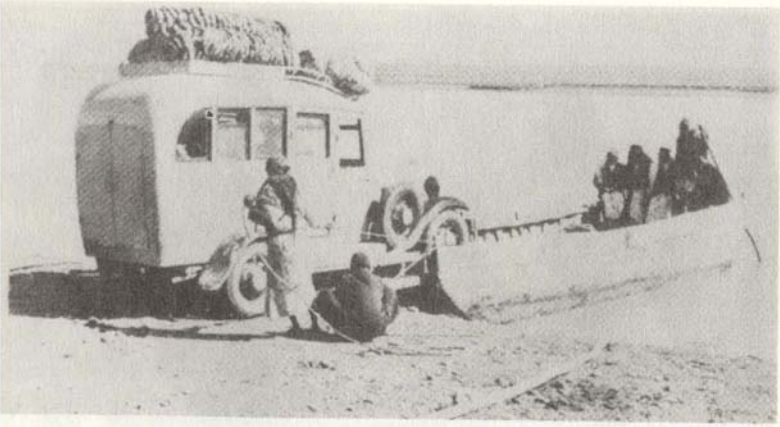

السيارة (الملكة ميري) التي استعملتها البعثة على العبّارة في الرقة (على نهر الفرات)

Twitter: @ketab_n

أجاثا على ضفة نهر جغجغة عام ١٩٣٥

ماكس والعمال في براك حوالي عام ١٩٣٥

Twitter: @ketab_n

القسم الثاني

الحرب

(١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

لندن والقاهرة

في نهاية عام ١٩٣٨ وبعد موسمنا الثالث والمثمر في براك جمعنا قدراً كبيراً من المعلومات كان ينبغي إعدادها للنشر. لذا كان من حسن الحظ آثارياً أن الوقت لم يكن مؤاتياً للمزيد من التنقيب. وكان واضحاً أننا كنا مقبلين على الحرب، وفي صيف عام ١٩٣٩ رفضت دعوة لحضور مؤتمر آثاري في برلين لذلك السبب. وفي الواقع أن أعمال المؤتمر توقفت فجأة قبل موعد اختتامه المقرر.

أنجزت كتابة الكثير خلال السنة الأخيرة من السلم، وأنا مدين في ذلك ديناً لا حد له للمبادئ التي غرسها فيّ ليونارد وولي الذي كان يؤكد سنة بعد أخرى الحكمة القائلة إن التنقيب دون نشر جريمة بشعة.

حالفني الحظ في عملية تحضير التقرير التحريري عن براك وشكر بازار، لأن أجاثا، بسبب إلحاحي إلى حد ما، قررت بيع أشفيلد، المنزل الواقع في مدينة توركي والذي وُلِدت فيه لتشتري جرينوي وهو بيت من الطراز الجورجي في منطقة ريفية تبعد أربعة أميال ونصف الميل عن دار تموث على الضفة اليسرى من نهر دارت مقابل ديتيشام.

كم أتذكر جيداً الإصغاء في المطبخ هناك إلى إعلان الحرب على

Twitter: @ketab_n

ألمانيا من الإذاعة في أيلول/سبتمبر ١٩٣٩، حيث بكت باستن السخيفة التي كان زوجها يعيش في كوخنا الجميل في كالمتن كي، وهي تحضر الخضر، وإن كان احتمال تأثرها بالحرب أقل من بقية الناس.

خلال السنة الأولى قضينا صيفاً رائعاً من سلام الحرب الزائفة[١] وهدوئها ولو أن أموراً خطيرة كانت تحدث. عند الجلاء عن دنكرك في عام ١٩٤٠ كان أسطول صيد الأسماك البلجيكي برمّته راسياً تحت منزلنا فترة من الوقت. كان مشهداً بديعاً من الأشرعة والصواري الكثيرة لم تشهد دارت مثله منذ أيام الملكة إليزابث الأولى.

كانت معنا آنذاك دوروثي نورث التي فقد ولدها اللورد نورث الملازم الأول في البحرية البريطانية حياته عندما دمرت سفينته بطوربيد.

كانت تلك هي الأيام التي أعلن فيها ونستن تشرتشل للأمة: «إن الأنباء الآتية من فرنسا سيئة جداً».

وهو اعتراف منحنا الثقة به بقية الحرب. ومهما تكن عيوب ونستن فإنه كان من العمالقة..

ترتبط بتلك الأيام المبكرة في جرينوي أيضاً ذكرى تانكس تشيمبرلين الذي قاد سفينة صيد الأسماك العائدة له وأنّب زوجته بقسوة لتعبيرها عن أسفها لنشوب الحرب وذُكر أنه قال: «لقد حان اليوم المبهج الذي نتولى فيه أمر الألمان». عرفت تانكس تشيمبرلين أول مرة قائداً للسرب ٣٠ التابع للقوة الجوية البريطانية في الموصل.

---

(١) الحرب الزائفة Phoney War فترة في بداية الحرب العالمية الثانية من ١١ تشرين الأول ١٩٣٩ حتى الهجوم الألماني في ١٠ أيار ١٩٤٠. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

وحلق بي في طائرته فوق نينوى والأربجية عندما أردت فحص الأرض من الجو وكشف لي ذلك أن النهاية الشمالية من التل السابق هي التي تنطوي على احتمالات جيدة للمنقب.

كانت تحدوني رغبة شديدة في المشاركة في المجهود الحربي، لكننا كنا غير مستعدين حد أن أياً من أصناف القوات المسلحة لم يرغب في الاستفادة من مؤهلاتي، زد على أنهم لم يكونوا بحاجة إلى أية خبرة في الاستشراق. وفي عام ١٩٤٠ شعرت ببعض الرضى المضحك في فرع الحرس الأهلي في بركسام.

كنا بحاجة شديدة إلى الأسلحة، إذ لم تكن لدينا بادئ ذي بدءٍ سوى بندقيتين لتوزعا على عشرة، ويشك في فاعليتهما في حالة الغزو لأنه عثر على إحدى دورياتنا وقد استلقى أفرادها على ظهورهم وهم سكارى في الطريق في الثالثة صباحاً خارج كوخ الحراسة في وندي كورنر. وعندما أعطي الإنذار بأن الغزو وشيك وطلب من أحد فلاحينا اتخاذ موقع مشرف قال: «لست خائفاً يا أعزائي، ولكن يجب أن أذهب لحلب البقر».

في أوائل عام ١٩٤٠ عثرت أخيراً على ميدان لممارسة حياة أكثر فعالية، إذ دمر زلزال في الصيف بلدة ارسنكان في شرق تركيا ووجد السكان الناجون أنفسهم مشردين في العراء. كانت الأسباب التي دفعت إنجلترا إلى تقديم المساعدة إنسانية وسياسية. فقد كان من الأمور المهمة إرضاء الأتراك، لأننا كنا بحاجة ماسّة إلى التجهيزات التركية من معدن الكروم الذي لم يكن هناك أي مصدر آخر له آنذاك. وهذا المعدن عنصر ضروري في صناعة الفولاذ. غير أن الإنسان العادي تأثر حقاً كما هي الحال دائماً في الملمات عندما يوجه إليه نداء لتقديم المساعدة.

Twitter: @ketab_n

صادف أن الأستاذ كارستانك، وهو آثاري صديق، عرف أنني قد أستجيب لنداء لتقديم المساعدة. كان من أصدقاء تركيا البارزين وأسس المعهد البريطاني للآثار في أنقرة وشرع على الفور في تشكيل لجنة إغاثة إنجليزية ـ تركية ضمّت مجموعة من الشخصيات وكان رئيسها اللورد لويد اف دولوبران وكان سير جورج كلارك مديرها ودعيت لتولي منصب أمين اللجنة الفخري وقبلت ذلك بحماسة، وإن لم تكن لدي سوى فكرة غامضة عن مهمتي.

كان كارستانك يتمتع بقدرة رائعة على تحديد المصادر التي يمكن أن تقدم المساعدات، إلا أنه لم يتوقع حجم المتاعب التي ستواجهه.

بذل جهداً رائعاً لضمان غرفة صغيرة في المؤسسة الملكية(٢) في شارع البيمارل، إلا أن ذلك أدى بسرعة إلى إرهاق ذلك المكتب المسكين بأمانة اللجنة التي سرعان ما شغلت غرفة كبيرة في الطابق الأرضي.

بعد انضمامي إلى اللجنة أميناً لها طلب مني اللورد لويد إعداد نداء موجز إلى البريطانيين لتقديم التبرعات النقدية والعينية.

رسمنا صورة قاتمة لآلام الشعب التركي في موسم الشتاء، وأتذكر أننا أوردنا عبارة مقتبسة من رسالة تلقيناها من امرأة فقيرة في ضواحي لندن هي: «لا أملك سوى سترتين أبعث بإحداهما»؛ ربما يمكن وصف الاستجابة للنداء بأنه كان رائعاً. لذا انهالت الرزم على دائرة

---

(٢) المؤسسة الملكية Royal Institution جمعية في لندن تعنى بنشر العلوم والمعرفة المفيدة تبرعت بنفقات أربعة كراسي أستاذية (في الفلسفة الطبيعية وعلم الفلك والكيمياء وعلم وظائف الأعضاء) وترعى محاضرات عامة بما فيها محاضرات للتلاميذ في موسم عيد الميلاد. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

البريد العامة حتى وصلت الشارع، ولم يكن هناك مكان آخر لتلقّي التبرعات.

ترتبط حكايات مسلية كثيرة بلجنة الإغاثة الإنجليزية ـ التركية. وقدم لي بعضها مسؤول العلاقات العامة في اللجنة وهو كاتب رياضي وصحفي معروف تحدّث إلى الجمهور عن عواء الذئاب في الريف التركي وأدخل الرعب في نفوس العامة. وقرر اللورد لويد بادئ ذي بدء عقد اجتماع كبير في مانشن هاوس حضره ستة سفراء وأبلغني أن الاجتماع ينبغي ألاّ يفشل.

كان بالمستطاع في تلك الأيام ملء أي عدد من المقاعد بسادة مفلسين يرتدون السترات الرجالية السود الطويلة، وكان بوسع المرء حشد عدد كبيرة بدفع باون واحد لكل واحد. نظمنا مجموعة احتياطية من هذا النوع، وتطوع الصحفي وينتورث دي بجمع عدد من بائعات البرامج الحسان بمساعدة عدد من الفتيات من ساحة ليستر. وطلب منهن ايسم نيكول على عجل الجلوس في الصفوف الخلفية، إذ كان حازماً دائماً في مثل تلك المناسبات.

نجح الاجتماع نجاحاً منقطع النظير، وأتذكر أن نفيل هندرسن، سفير بريطانيا في برلين وأحد الضيوف البارزين، قال: «لن يتنبأ سوى الأحمق، إلا أنني أجرؤ على القول إن الحرب لن تدوم أكثر من ستة أشهر». ورغم هذه النبوءة، أو ربما بسببها، بدأت لجنة الإغاثة الإنجليزية ـ التركية بداية جيدة وجمعت مبلغاً ضخماً إضافة إلى المواد العينية والخدمات.

في نهاية عام ١٩٤٠ انتهى عمل صندوق الإغاثة وأعتقد أن اللورد لويد قدّر خدماتي لأنني عندما التقيته آخر مرة عرض عليّ مساعدته في أي أمر أردته. وقال: «اذكر ما تريد وسأنفذه لك». فقلت له إن كل ما

Twitter: @ketab_n

أردت هو الانضمام إلى القوة الجوية البريطانية. دهش وسألني عن السبب. أجبت، لأنها الطريق إلى تحقيق أسرع نجاح ولذا فإنها أكثر الأصناف العسكرية جاذبية، ولأن والدي كان نمساوياً وعُدَّ أجنبياً فقد كنت أواجه صعوبة في الانضمام إليها. ونفذ وعده وانهارت الحواجز كلها أمام هذا الوزير. وخلال أسبوع واحد قُبِلتُ في فرع الاستخبارات بالقوة الجوية البريطانية.

بعد ذلك بأسبوع واحد توفي لويد بعد إصابته بالأنفلونزا ثم بذات الرئة المزدوجة. إنني أحمل ذكريات تتسم بالمحبة لآخر سياسيينا البارزين الذي لو كان أصغر سناً لكان أفضل حظاً.

كان في انتظاري في القوة الجوية البريطانية زميل مختلف تماماً هو قائد السرب س.ك.ر. جلانفيل الذي أصبح أستاذاً فيما بعد وعميداً لكلية الملك في كامبردج، وكان رجلاً موهوباً وجذاباً وربما أحبَّ شخص التقيته. كان جلانفيل، أو ستيفن كما سأدعوه، صديقاً قديماً ـ منذ حوالي عام ١٩٢٥ عندما انضم إلى هيئة موظفي قسم الآثار المصرية في المتحف البريطاني.

كان ستيفن يحمل رتبة قائد سرب في فرع من وزارة الطيران أصبح يعرف بمديرية الاتصالات المتبادلة الحليفة والأجنبية. وبوصفه صديقاً قديماً كان يعرف أنني سأكون زميلاً ملائماً واعتقدَ أنني بفضل خبراتي في الأقطار الأجنبية قد أكون مفيداً له في المهمة الصعبة المتمثلة في التعامل مع القوات الجوية الحليفة. كانت هناك عقبات كثيرة لا بدّ من تذليلها، لأن القوة الجوية الملكية البريطانية كانت تعاني من شحّ في المعدات، وكان كثير من الضباط النظاميين يعارضون بقوة توزيع أية معدات على الأقطار الأجنبية التي كانوا يعتقدون أنها لم تفهم طرقنا في نظام الطيران، ولذا كانت تتسم بالتمرد. إلا أن التشيكيين

Twitter: @ketab_n

كانوا قد وافقوا على أن يصبح سربهم جزءاً من القوة الجوية البريطانية وأُدمِجَ بها مباشرة. ولكن بقينا نواجه صعوبات في تجهيزهم. ولحسن الحظ اكتشفنا مذكرة مقتضبة كتبها رئيس الوزراء قال فيها: «أعطو التشيكيين ما يريدون». واعتدنا الإشارة إلى هذه المذكرة في حالة الحاجة الماسّة وكان التأثير فورياً.

كانت إحدى مهماتي تمثيل وزارة الطيران في لجنة لورد هانكي التي كانت معنية بتنسيق عمليات تجهيز المعدات لحلفائنا من أقسام القوات المسلحة الثلاثة. وأرسلَ الجيش والبحرية إلى هذه الاجتماعات ضباطاً برتب عالية، أي برتبة جنرال أو أميرال، إلا أن القوة الجوية لم تبدِ اهتماماً، بل اكتفت بتمثيلها برجل يحمل رتبة أدنى، وكان ينبغي لجلانفيل، قائد السرب آنذاك، تولي هذه المهمة. وفي اللحظة التي انضممت فيها إلى وزارة الطيران أنابني في المهمة وشعرت بالخوف حقاً من اضطراري إلى العمل مع تلك المجموعة من كبار الضباط. كان اللورد هانكي يتصدر منضدة طويلة مع أنواع الخبراء المدنيين والعسكريين وكنت أجلس في نهايتها ضابطاً في القوة الجوية أحمل أدنى رتبة فيها.

أتذكر جيداً أول تجربة لي عندما سأل لورد هانكي: «وما هو رأي القوة الجوية في الموضوع؟» واتجهت الأنظار كلها إلى نهاية المنضدة ودهشوا لأن ضابطاً صغيراً كان الخبير الوحيد الموجود هناك. وكان السؤال يتعلق بطلب السوفيات تجهيز سرب من الطائرات المقاتلة الأميركية من طراز توماهوك التي أرسلناها إلى السوفيات وطبيعة الأسلحة التي ترسل معها. لم تكن المعلومات التي أعطيت لي مفصلة، وعلى الرغم من أنني حاولت الإجابة عن السؤال بأحسن ما أستطيع، فقد شعرت بالحيرة الشديدة وساعدني في الخروج من

Twitter: @ketab_n

المأزق جنرال طيب. لم أستطع تقديم تقرير جيد عن عملي في اللجنة إلى ستيفن جلانفيل لدى عودتي، ولذا دهشت عندما كتب اللورد هانكي الطيب، رغم مشاغله الكثيرة، رسالة إلى دائرتي قال فيها إن القوة الجوية مثلت تمثيلاً مناسباً جداً بالضابط الذي أرسلته. وقد أثر فيَّ مثل هذا التقرير السخي وأدهشني.

كانت السنة الأولى التي أمضيتها في وزارة الطيران في عام ١٩٤٢ حافلة بالأحداث ومثيرة ومسلية في أحيان كثيرة. كنت أعيش مع أجاثا في هامستيد بشمال لندن، وفي كثير من الأحيان كان لا بدّ لي أن أعود إلى البيت في أثناء الغارات المبكرة على لندن. وأتذكر أنني كنت أسير في شارع ستراند في أثناء غارة جوية شديدة عندما كانت القنابل تنهمر كالمطر وكانت مبانٍ كثيرة تحترق. وكان من الغريب مشاهدة شرطي متماهل يحتمي برواق متجر بين نافذتين زجاجيتين كبيرتين. لم يكن أحد يهتم على نحو جاد بالغارات حتى ذلك الحين، وفي صباح اليوم التالي عند عودتي من العمل كان الطريق مليئاً بالحطام وانتشرت فيه كميات كبيرة من الورق من مصرف مدمر، إلا أنني لاحظت أنها كانت جميعها تتعلق ببيانات ضريبة الدخل ولم أرَ أثراً لورقة نقدية. وكان هناك شيء من الدهشة عندما وصلت إلى مكتبي لأن زميلاً متشائماً كان قد ذكر أنني كنت أسير تحت وابل من القنابل ولا بدّ أنني قتلت. ولم تكن هي المرة الأولى التي يرد فيها تقرير عن موتي ثم ظهوري حياً.

في نهاية الشهور الاثني عشر طلب من دائرتنا إرسال ضابطين إلى الشرق الأوسط لتأسيس فرع في القاهرة لمديرية الاتصالات المتبادلة الحليفة والأجنبية. وتطوع فوراً اثنان منا اتصل بهما جلانفيل لرغبتنا في الاقتراب من ميدان الحرب ورؤية حلفائنا يقاتلون في شمال أفريقيا. ثم رُقيتُ إلى رتبة قائد سرب ونُقلتُ إلى القاهرة حيث تقرر

Twitter: @ketab_n

أن ألتحق بمقر القوة الجوية البريطانية في القاهرة. إلا أنني قبل الانتقال إلى الحديث عن عملي في مكان آخر لا بدّ من تحية الرجل الذي تركت العمل معه وهو ستيفن جلانفيل.

كانت سيرته العملية خير ممثل له. لم يمنح نفسه الوقت لاكتساب معرفة عميقة وكان سجله الأكاديمي الجامعي غير جيد، إلا أنه منح كرسي بيتري لعلم الآثار المصرية في يونفرستي كولج بجامعة لندن وشغل منصبه بتفوق. كانت اهتماماته واسعة جداً لم تسمح له بأن يبرز متخصصاً في أي فرع في حقل تخصصه، والواقع أنه كان معنياً بالبشرية والمواضيع الإنسانية أكثر بكثير من اهتمامه بعلم الآثار المصرية. وعندما وجد صديقة له هي الآنسة بوك تؤلف كتاباً في علم البصريات اضطر إلى إعادة كتابته.

وكان الوحيد الذي استطاع إقناع أجاثا بتغيير نهاية إحدى رواياتها خلافاً لرأيها كما قالت، إذ كانت التي وضعتها أكثر إثارة وكانت أحداث الرواية تدور في مصر القديمة وحملت عنوان (الموت يحل في النهاية). تمتع بالحياة كاملة وكان مستعداً لأية تجربة جديدة سواء كانت جلسة استحضار الأرواح مع وسيط أو التنقيب في مصر.

كان له بعض الأعداء، ولم يكن يأبه لمن لا يتعاون معه، إلا أنه وضع حياته كلها في خدمة أصدقائه. ولم يتردد في الانغماس في مشاكل الآخرين. وبسبب استعداده التدخل في متاعب الأزواج كان يجد نفسه مراراً متعاطفاً تماماً مع طرفين متخاصمين وضع كل منهما ثقته التامة فيه.

بعد أن عمل أربع أو خمس سنوات بمنصب زميل في كنكز كولج بجامعة كامبردج اختير بالإجماع عميداً للكلية، على الرغم من سجله غير الجيد في الدراسة الجامعية الأولية. وعندما توفي أعلن

Twitter: @ketab_n

الحداد المنتسبون إلى الكلية جميعاً من الأساتذة الكبار إلى أبسط المستخدمين.

كانت مهمتي الجديدة في القاهرة إدامة اتصال فاعل بالقوة الجوية التابعة لفرنسا الحرة وبالقوة الجوية البولندية والتشيكية. وأثارت القوة الجوية البولندية إعجابي غير المحدود، إذ كانت كفاءة أفراد السرب البولندي وشجاعتهم ممتازتين في القوة الجوية البريطانية. وفي معركة بريطانيا كان وجودهم مهماً وكان من حسن حظنا أن أفراد القوة الجوية البولندية شقوا طريقهم من وطنهم إلى بريطانيا مؤمنين بأننا كنا في ذلك الحين الأمل الأخير لأوروبا الحرة. ولو كانت بريطانيا قد خسرت تلك الحرب الجوية في عام ١٩٤٠ لاستسلمت لنظام هتلر. وينبغي ألا ننسى أبداً أن واحداً من كل اثني عشر طياراً في تلك الحرب الجوية الملحمية كان بولندياً.

كان كثيرون من أولئك الرجال من خيار الناس وكان انضباطهم رائعاً. وقال لي ذات يوم أحد أصدقائي وهو ملازم طيار بولندي: «أريد أن تحصل على إجازة أربع وعشرين ساعة غداً لتتناول طعام العشاء معي». وعندما سألته لماذا لا أستطيع تناول العشاء معه دون الحصول على إجازة أوضح أن كل فرد من الحضور في الحفلة سيكون مخموراً في نهاية الأمسية وأن المشترك في الحفلة الذي يحضر لأداء الواجب وهو ما زال تحت تأثير الخمر يقدم إلى المحاكمة العسكرية وقد يعدم. والواقع أنه في دارتماوث، حيث أحاطت جماعة من البحارة المخمورين بمركز الشرطة شُيّع أكثر من واحد إلى البحر في صباح اليوم التالي على ما قيل. لم أتناول شيئاً أفضل من الفودكا المنزلية الصنع التي اعتاد البولنديون تقديمها في مثل تلك المناسبات. وسرعان ما تعلمت عدم حضور حفل عشاء بولندي ما لم أتناول وجبة

Twitter: @ketab_n

كبيرة أولاً. وقال لي الضابط البولندي نفسه الذي كان يدعوني إلى مثل تلك المناسبات قبل توديعي: «كنت صديقاً طيباً لي وأود مكافأتك بنصيحة. عندما تدخل السجن تأكد أنه سجن مانشستر، فالطعام هناك أفضل من أي سجن آخر في إنجلترا». إن ملاحظاتي عن البولنديين هي للمزاح ولا تبين سوى الجانب المرح فيهم. ولكنني أكرر أنهم من أخيار الناس. كانوا شديدي الحساسية وينبغي أن يحرص المرء على عدم إغضابهم سواء عمداً أو من غير تعمد. وكانوا مجدّين في العمل وذوي عود صلب. ولا يسع المرء أن يتمنى الحصول على أصدقاء أكثر مرحاً وإمتاعاً منهم، وسمعت أن سائق ترام بولندي من وارشو نجح، رغم سنواته الستين، في أن يقبل للعمل في قيادة الطائرات عبر شمال أفريقيا بغية تسليمها إلى مستعمليها ولم يضيّع دقيقة واحدة في رحلة العودة. كانوا رجالاً وهبوا أنفسهم للخدمة. وأعتقد أن ما بين نصف مليون ومليون شخص منهم مُنحوا الجنسية البريطانية بعد الحرب تقديراً لخدماتهم لبريطانيا. لم تكن هناك خميرة أفضل مما في خبز هذا البلد. وكلما ألتقي بولندياً يرف له قلبي.

لا بدّ للمرء أن يسأل كم أسهم حلفاؤنا البولنديون والتشيكيون والفَرنسيون الأحرار واليونانيون في مجهودنا الحربي وإذا كانت تلك المساعدة تعادل تضحياتهم وتضحياتنا. وواضح أنه بالمقارنة بحجم قوتنا الجوية كانت أسرابهم قليلة ولا تمثل سوى جزء صغير من الكل، إلا أن إسنادهم إيانا كان لا يقدّر بثمن. قدموا لمساعدتنا في أحلك الساعات عندما اعتقد معظم الناس، خلافاً لما اعتقدنا، أننا لم نكن مستعدين أبداً للحرب وأننا سنرضخ لطغيان النازية وألمانيا تحت حكم هتلر.

لذا جاءنا هؤلاء الأصدقاء مثل منارة للإرشاد وكانوا حافزاً لا

Twitter: @ketab_n

يمكن تقديره لمعنوياتنا، إضافة إلى أنهم كانوا في نظر الأقطار الأخرى دليلاً على أن الصراع مع العدو استمر من اتجاهات كثيرة، وأن الأقطار المحتلة لم تغلب تماماً. إننا مدينون ديناً كبيراً مفعماً بالامتنان لكل أولئك الرجال الذين اتخذوا قراراتهم المهمة لأسباب مختلفة وطنية وشخصية في وقت عصيب عليهم وعلينا.

في مجال العمليات، وإن كان ذلك قد يبدو مثيراً للاستياء، قام البولنديون بالدور الأكبر، إذ لم يكن عددهم كبيراً فحسب، بل إن مهارتهم وشجاعتهم جعلتا منهم ساعداً لقوتنا الجوية، إضافة إلى أنهم ضحوا من أجل قضيتنا باطراد.

في القاهرة عشت أولاً في فندق كونتننتال ثم شاركت شقيقي سسيل السكن في بيت. وأخيراً استأجرنا بيتاً مطلاً على نهر النيل مقابل نادي الجزيرة الرياضي حيث كان بوسعنا مشاهدة والتر هاموند يلعب الكريكت.

كان لقائي بشقيقي مصادفة حقاً، إذ في يومي الأول في القاهرة التقيته في فندق كونتننتال جالساً على السطح يتناول كوباً من القهوة. وكان قد تطوع في عام ١٩٤٠ للقتال في فنلندا ضد الغزو السوفياتي، وعندما استسلم ذلك البلد الشجاع وأصبح بحكم الظروف حليفاً لألمانيا بعد ذلك بفترة قصيرة أسره الفنلنديون الذين تصرفوا من خلال المارشال مانرهايم تصرفاً صحيحاً إزاء المتطوعين الأجانب. وبعد فترة قصيرة عمل خلالها مع المجلس الثقافي البريطاني أُجلي إلى السويد وعمل في قطع أخشاب الغابات. وبعد عدة أشهر نجح الوزير المفوّض البريطاني في هلسنكي جوردن فيريكر في مفاوضات عَقْد اتفاقية تبادل مع الفنلنديين حيث أعيد هؤلاء إلى بلادهم بينما أعيد المتطوعون البريطانيون في السويد آنذاك إلى إنجلترا. ويقال إن

Twitter: @ketab_n

الفنلنديين وبّخوا فيريكو رسمياً لأنه سُمع يغني «أغنية زورق الفولغا» بينما كان يجذف في بحيرة فنلندية. وسُئِل عما إذا كان إنشاد رجل أجنبي في أثناء الحرب أنشودة «ألمانيا فوق الجميع» في نهر التيمس يسبب شعوراً مشابهاً بالسخط.

أعيد سسيل وبقية المتطوعين بعد رحلة حافلة بالقطار عبر فرنسا وألمانيا دامت نهارين وليلتين. وشهد غارة ليلية شنّتها طائرات القوة الجوية البريطانية على هامبورغ وهو أمر غير عادي لإنجليزي، وبعد أن أقام ستة أشهر في البرتغال المحايدة وصل إنجلترا ومنها أرسل إلى المجلس الثقافي البريطاني في مصر مديراً لمعاهد المجلس في المنصورة والمحلة والمنيا. كان التقاؤنا سعيداً. كان سسيل دمثاً محباً للصحبة ويستقر راضياً أينما يعمل. وبعد الحرب تزوج فتاة فنلندية اسمها دولوريس كافاليف كانت صديقته في هلسنكي وأنجبت له ولدين هما جون، وهو عالم في التلوث الآن وبيتر، وهو محام وكلاهما متزوجان وقد أصابا نجاحاً.

مرت بي حالتان طريفتان للطريقة التي تعمل بها الاستخبارات البريطانية. علمت في فندق كونتننتال من النادل بفاجعة سقوط طبرق بعد ساعات قليلة من وقوع الحدث وقبل أن تصل الأنباء رسمياً إلى مقر القوة الجوية البريطانية في الشرق الأوسط. وفي مرة أخرى أبلغت، وأنا جالس في ترام إلى جانب السائق، أن ونستن تشرتشل شوهد يدخن سيكاراً في القاهرة. والتقيت، وأنا أتناول الغداء، صديقي ايدون ادواردز عالم الآثار المصرية وكان يعمل آنذاك في السفارة البريطانية وسألته إن كانت الإشاعة صحيحة. فنظر إليّ بدهشة ونصحني بعدم تصديقها. ثم اكتشفت فيما بعد أن هيئة موظفي السفارة كانوا قد استدعوا في صباح ذلك اليوم وطلب منهم أن يتعهدوا

Twitter: @ketab_n

بالمحافظة على أقصى السرية بشأن مسألة معروفة لدى شركة خطوط الترام في القاهرة.

توصلت إلى الاستنتاج أنه لم يبق سرٌّ طويلاً في أثناء الحرب، ولكن نظراً لتداول الكثير من المعلومات الكاذبة والمضللة فقد فشل العدو تماماً في معرفة الحقيقة عند وصولها إليه. وتجلى ذلك بأوضح صورة في غزو النرويج. فعلى الرغم من أن الألمان كانوا يعرفون التوقيت المقترح، لم يصدقوا أننا سنشن الهجوم الفاعل على مثل رؤوس الجسور غير المحتملة تلك.

في عام ١٩٤٣، وبعد أن خدمت عاماً كاملاً في مقر قيادة القوة الجوية في الشرق الأوسط تطوعت للعمل موظفاً للشؤون المدنية في إقليم طرابلس بليبيا حيث كانت هناك حاجة إلى أشخاص لهم معرفة بالوطن العربي. وسررت بمغادرة مدينة القاهرة القائظة والمغبرة وإن كانت الحياة هناك ممتعة.

بعد مقابلة المسؤولين في إدارة أراضي العدو المحتلة غادرت القاهرة في أوائل الصيف متوجهاً إلى مدينة طرابلس في ليبيا وطلب مني وجوب الوصول إلى هناك بأسرع ما أستطيع مستقلاً القطار أولاً إلى دابا التي كانت في نهاية خط سكة الحديد ثم الطائرة من هناك. وأبلغني موظف في وزارة النقل أنني سأجد طائرة في انتظاري. كان هذا الموظف، مثل كثيرين مثله، قد قبَّل حجر بلارني(٣). وكالمعتاد، أرسلت فجأة من غير صندوق يحتوي طبقاً معدنياً وأدوات مائدة أو جرايات، إلا أنني تناولت ألذ الطعام الذي كان يطبخه الأسرى

---

(٣) بلارني قلعة إيرلندية قرب مدينة كورك تضم صخرة يزعم أنها تجعل من يقبلونها ماهرين في التملق والإقناع. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الإيطاليون في محطات سكة الحديد الصحراوية، وكان رفاق السفر الكرماء مستعدين دائماً لإعارتي أدوات الطعام. كم يصبح المرء صعب الإرضاء عندما يتقدم في السن، وكم هو ممتع أن يتذكر أنه مرَّ عليه وقت طبّق فيه المثل القائل: «لا تأخذ حقيبة صغيرة ولا موظفين ولا تهتم بيوم غد».

كانت رحلتي إلى طرابلس سهلة. وعثرت قرب دابا على سفينة تنقل معدات حربية إلى مدينة طرابلس. وكانت سفينة قديمة استخدمت في وقت السلم في نقل اللحم المجمد من فانكوفر، ولأنني كنت الموظف الأقدم في السفينة فقد اضطررت إلى إقناع القبطان بإطعام العسكريين فيها كافة لأن البحارة كانوا يرفضون التخلي عن جراياتهم. وكانت الغواصات الألمانية نشيطة في البحر الأبيض المتوسط في ذلك الوقت وأغرق جزء من القافلة. وربما كان ذلك مصدر الإشاعة القائلة إنني غرقت في هجوم لغواصة، كما أعلمني زميل لي بعد الحرب عندما فوجئ بظهوري أمامه حياً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

طرابلس

وصلتُ مدينة طرابلس وأُرسلت إلى جناح مريح في فندق ودان الذي كان رومل قد أخلاه قبل يوم أو يومين. وفي الليلة الأولى تمتعت بتناول وجبة عشاء مقبولة على أنغام فرقة موسيقية مدنية كانت تعزف للألمان قبل بضع ليال. ولم أكد أكمل عشائي حتى هاجمت الطائرات الألمانية سفننا في جهة البحر وبدأت بضرب المباني. وظهر على بعض رفاقي الذعر وتوجهوا إلى ملجأ الغارات الجوية في السرداب، إلا أنني كنت معتاداً الغارات الجوية على لندن وأكدت لهم أن الأمر هيّن واقترحت أن ننام فوق الأرض. إلا أن ثقتي لم تكن في محلها، إذ أصابت قنبلة المسجد المجاور إصابة مباشرة وكان علينا أن نعمل نصف ساعات الليل لنحاول إخراج الرجال المحاصرين هناك. لم تُسهّل مهمتنا مساعدةُ بعض البحارة المخمورين.

كانت مهمتي الأولى في طرابلس العمل مساعداً للعقيد هـ.س.أ. روثد مسؤول الشؤون المدنية الأقدم في المحافظة الغربية التي كانت تمتد من الزاوية إلى زوارة قرب الحدود التونسية.

كان مقر المحافظة في صبراته، وهي مدينة فينيقية قديمة مطلة على البحر غنية بالخرائب والمعابد والحمامات والبيوت الرومانية

Twitter: @ketab_n

وضمّت مسرحاً ممتازاً عمّره الإيطاليون واستعملوه لعرض المسرحيات الكلاسيكية. ولا بدّ أن ملاكاً حارساً هداني إلى هذا المكان البديع حيث كنت أتمعن في المساء البارد باعتدال في النقوش التذكارية أو أزور المتحف الصغير بفسيفسائه الملونة الجميلة وأتصفح في المكتبة العامرة كتب آداب الإغريق والرومان وكتب التاريخ والآثار.

كانت هذه المدينة مسقط رأس الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس الذي دعي لقيادة الإمبراطورية الرومانية عندما كان يشن حملات في هنغاريا ومات في يورك. لم يكن بوسع أحد تصور مكان مثير أو حافل بالذكريات التي تؤثر في شخص قَدِم من إنجلترا أكثر منه. وكالمعتاد صمّم الإيطاليون المتحف والمنطقة المحيطة به وفق ذوق جمالي رقيق. وكان يحيي الزائر بساط من الميزيمبر يانيمم[١] يخفف منظر الرمل ويتحول إلى ساحة زرقاء رائعة عندما تتفتح الأزهار.

كنا نسكن فيلا إيطالية ذات فناء مكسو بالقرميد وشرفة مطلة على البحر وكانت مياهه ترتطم بجدرانها. وفي وقت السلم كانت هذه الفيلا مسكن أمير صقلي يدعى باترنو كان يمتلك مصنع سمك التن القريب. وكنا نخرج إلى البحر أحياناً نحمل شباك صيد سمك التن ونراقب الضحايا في غرفة الموت. إلا أن سمك التن والزيتون المحلي كانا تغييراً مرغوباً بعد جراياتنا الأبدية من لحم البقر المعلب.

كانت أمتع مهماتنا توزيع جرايات الحبوب على سكان منطقتنا الفقيرة. وأدار روث عملية التوزيع بمهارة. أرسلني في أول مسح للحبوب في المنطقة الداخلية المسماة الجفارة الواقعة بعد زوارة،

---

(١) الميزيمبر يانيمم نبات من جنوبي إفريقيا ذو أوراق ممتلئة وأزهار قرنفلية أو بيض. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ونادراً ما عهد إليّ بمهمة ممتعة أكثر من هذه، وإن لم تكن لدي خبرة سابقة فيها. ولكن بفضل مشورة مفتاح الأرغيب، الرجل الساحر والذكي مدير سورمان، أعتقد أنني أديت المهمة أداء مرضياً.

تضمنت خطتنا التجوال بالسيارة جنوباً إلى أبعد ما نستطيع قبل أن تنغرز عجلات السيارة في الرمل.

ثم ركبنا الخيول التي أرسلت أولاً وكانت جاهزة في انتظارنا مع جملين يحملان قناني من النبيذ الإيطالي ضخمة واسعة الجوف ضيقة العنق تحيط بها ضفائر مجدولة وخيمة لاتقاء حرارة منتصف النهار المحرقة. وكانت معنا أيضاً لجنة من أربعة رجال لتقدير كمية الشعير وخبير في الضرائب وبعض الموظفين المحليين. كان الوقت وقت الحصاد وكانت مهمتنا أن نقدر للإدارة العسكرية البريطانية الغلة المتوقعة. وكان أصحاب الأراضي، وعددهم بالمئات، قد أبلغوا وجوب الحضور شخصياً أو إرسال ممثلين عنهم لتسلم بطاقة تقدير الضريبة.

طُلب من صاحب كل قطعة أرض أن يقدر الغلة ويقدم تقديره، وكان واطئاً دائماً، وكان أعضاء لجنة التقدير يميلون إلى المبالغة في التقدير. وكان علينا، أنا ومدير سورمان، أن نقدر رقماً نعده عادلاً. وكان بين مجموعتنا رجل مسن ذو خبرة طويلة اكتشفت أنه يتفوق على الجميع في تقدير الغلة الحقيقية. كانت أرقامه قريبة من الصواب دائماً لأنه كان خبيراً وأميناً. كيف اكتشفت ذلك؟ كلفت مجموعة من الحاصدين بحصد الشعير في أية قطعة أرض اخترتها لفحص سريع. وحصدنا ودرسنا ووزنا الحبوب وقدرنا في نهار واحد بهذه الطريقة عدداً كبيراً من الحقول ووضعنا تقديرات لمئات الحقول الأخرى في سهل الجفرة.

Twitter: @ketab_n

كان بوسع الرجل المسن حكيم المجموعة تقدير الخسائر الناجمة عن مرض صدأ الحبوب بمهارة لا تصدق. كان يتجول حول حقل وخلاله ويُمر أصابعه على عرانيس الذرة ضمن اختباراته ثم يقدر الأضرار. وسرعان ما اكتشفت أن أصحاب المحاصيل يميلون إلى توزيع أراضيهم في أماكن متباعدة ليضمنوا أنفسهم جرّاء الإخفاقات المحلية، وليجعلوا التقدير أكثر صعوبة. ولكننا استطعنا من خلال الوسائل التي وصفتها أن نقلل إلى الحد الأدنى فرص الرشوة وتزوير التقديرات، إذ لم يكن أحد في اللجنة يعرف متى أو أين سنقوم بالفحص السريع الآتي. وبهذه الطريقة أدى موكبنا المتنافر عملاً جيداً للإدارة في موسم حصادها الأول.

لاحظت في ذلك الحين ظاهرة مثيرة للاهتمام وهي أن امتلاء السهل الزراعي الواسع المعروف بسهل الجفرة بالرمال كان مستمراً، واكتشفت أن الإيطاليين كانوا قد أبدلوا شفرات المحراث الفولاذية بالشفرات الخشبية القديمة التي هي قطع أقل كفاءة، وأنقذت من الدمار مساحات واسعة من الأرض ذات الأشجار الواطئة التي كانت قد أوقفت زحف الرمال.

أنهيت الشهور الستة من بداية عملي السعيدة في طرابلس بأمر من الحاكم العسكري العميد موريس لش الذي رغب في أن أتولى مسؤولية موقع في المحافظة الشرقية في واحة منعزلة تدعى هون على حافة منطقة فزان المجاورة للصحراء والتي كان يديرها الإيطاليون من قلعة تضم حامية ضخمة من عدة آلاف من الرجال.

وكانت إدارتنا تفخر بحقيقة أن وجود ضابط بريطاني واحد كان كل ما تطلّبه حفظ النظام.

تطلّب نقلي من المحافظة الغربية إلى المحافظة الشرقية القيام

Twitter: @ketab_n

برحلة عبر مدينة طرابلس وواحة هون عندما قمت بواحدة من زياراتي الكثيرة للمدينة الرومانية القديمة الرائعة ليبتس أو ليبسس ماكنا. يمتد طريق معبد مستقيم من الطرف الشمالي للموقع إلى البحر مسافة زهاء ميل وتحفّ به مبانٍ كبيرة ذات أعمدة وكتابات كرسها للمدينة المتبرعون البربر. وكان في أحد المتاجر مقياس خياط روماني. وهناك سوق سمك واسع. وفي آذار/ مارس عندما مررنا بإطارين مزينين بزوج من الملائكة المجنحة شاهدنا ممراً ضيقاً رائعاً يمتد على طول الشارع الرئيس وكان يصب فيه شلال صغير بهيئة نباتات بيض من كلا الجانبين. وفي الطرف البعيد كان هناك سد مرفأ كبير وكان بعض أعمدة حبال المراكب ما يزال سليماً.

قريباً من ليبسس كانت زليتن، البلدة الرومانية الجميلة التي تظللها الكروم المعرشة، حيث اكتشف الإيطاليون رصيفاً من الفسيفساء يمثل اصطياد الحيوانات البرية ونزالاً في المصارعة الرومانية القديمة يصارع فيه رجل يحمل شبكة خصماً يحمل سيفاً.

زرت في مصراتة، مقر المحافظة، الضابط المسؤول ثم توجهت جنوباً بسيارة الشحن عبر الصحراء ومنطقة مليئة بالصخور نحو واحة الهون.

كانت رحلة المئتين وخمسين ميلاً تتطلب حذراً لأنه كان ينبغي شق طريقنا خلال حقل ألغام كانت جوانبه مؤشرة بالأسلاك الشائكة الصدئة على الأرض. إلا أنني أصبحت أعرف الطريق جيداً وتطوعت في إحدى المرات لقيادة قافلة عبره ليلاً.

كانت واحة هون قد زرعت بألغام الإيطاليين قبل جلائهم. وكانت الحياة هناك تنطوي على مجازفة حولت إلى ميزة في إحدى المرات، إذ أُرسلت إلى المقر في طرابلس إشارة تستفسر عن حالة المطار لأن

Twitter: @ketab_n

موظفاً كبيراً رغب في زيارتي وكان لا ريب بصحبة موظفيه، إلا أنني لم أرغب في أن أتعرض للإزعاج في منطقتي التي كنت أديرها بأقل قدر من التدخل. ولذا أبرقت قائلاً: «مطار هون محاط بالألغام من ثلاثة جوانب والمقبرة في الجانب الرابع». وهي عبارة لا تعوزها الصحة. ولم أسمع بعد ذلك بالمتطفل.

كانت البلدة جميلة الترتيب. وكانت واحة صغيرة وملمومة وكان منزلي ومقر عملي في نهاية طريق طويل من جهة فزان تحيط أشجار الدِّفْلى بجانبيه. عشت وحيداً وسعيداً هناك من غير حراسة حتى قرر ضابط في طرابلس دون استشارتي أنني بحاجة إلى مجموعة حماية. وفي الليلة الأولى كلف شرطي شاب من طرابلس بالحراسة في الشارع ليس بعيداً عن مكتبي وأمر بالتزام أقصى الحذر. وعدما ظهرت فجأة من مكتبي أطلق النار عليَّ مباشرة من مسافة عشرين ياردة، إلا أنه لحسن الحظ، لم يكن يجيد التصويب ومرت الطلقة فوق كتفي دون إصابتي بأذى.

تقع الهون بين واحتين هما: سوكنا على مسافة أربعة عشر ميلاً غرباً وودان على بعد المسافة نفسها شرقاً. وكانت ودان قلعة بربرية قديمة وتضم حصناً جميلاً ما زال قائماً استُخرجتْ منه قبل سنوات كثيرة حليّ ذهبية ثقيلة تعود للطوارق.

كان سكان واحتي هون وودان طيبي المعشر على نحو يكفي للتعامل معهم ولم يسببوا لي سوى متاعب قليلة، إلا أنني وجدت رجال سوكنا محبوبين جداً. والغريب أن سكان ودان وسوكنا لم يتبادلوا الزيارات منذ عشرة أعوام على الرغم من أن المسافة بينهما لا تزيد على ثمانية وعشرين ميلاً كما ذكرت. ويعود فقدان الاتصال بين المكانين، وهما أول موقعين مأهولين على مسافة ٢٥٠ ميلاً من

Twitter: @ketab_n

الساحل، إلى ثأر قديم بينهما. ويبدو أن اثني عشر رجلاً من الهون حوكموا وأعدموا إبان الحكم الإيطالي بتهمة التآمر واتهم رجال سوكنا بالإبلاغ عنهم، سواء كان ذلك صحيحاً أو لا. ومنذ ذلك الحين توقف الاتصال بين الواحتين.

خلال إقامتي كلها في الهون لم يقع سوى حادث مثير واحد فاقت أهميته الأحداث الأخرى كلها. وحدث ذلك بسبب نزاع على آبار بين قبيلتين لهما أراضي رعي متجاورة وهما المجرحة وتضم حوالي ثمانية آلاف في الغرب وأولاد سليمان وهي قبيلة أصغر من الأولى بكثير ولها صلة نسب بسوكنا. استمر هذا النزاع ما لا يقل عن عقدين من الزمن قبل دخولي طرابلس، وتقرر بعد نقض القرار عدة مرّات إحالته إلى المحكمة العليا في روما. وكنت متهوراً وتعوزني الخبرة الكافية فتصورت أن بوسعي تسوية المسألة بالتعاون مع السلطات الفرنسية التي كانت تدير أراضي مجاورة تقطنها قبيلة المجرحة، بينما كانت قبيلة أولاد سليمان في أراض تديرها السلطات البريطانية. وبدا لي أنه إذا أُظهر للقبيلتين أن البريطانيين والفرنسيين متفقون اتفاقاً تامّاً بشأن مسألة تعني كِلا الإدارتين والقبيلتين، فإن الجماعتين المتحاربتين ستقبلان حكمنا بشأن مياه الآبار الثمينة التي كان ينبغي قدر الإمكان أن توزع توزيعاً عادلاً.

لذا أمضيت أسابيع كثيرة أخطط لكي يجتمع في هون عدد من الشيوخ المسؤولين من القبائل كلها وإقناعهم بحضور محكمة أترأسها أنا والضابط الفرنسي في واحة يأوي إليها أفراد قبيلة المجرحة. كان زميلي الفرنسي ملازماً شاباً ذا معنوية ضعيفة يرى أنه يعيش في المنفى في بقعة منسية ونائية. إلا أنني أكدت له أهمية تسوية هذا النزاع الطويل نهائياً وعيّنه آمره وكيلاً مسؤولاً لفض النزاع، وكان آمره

Twitter: @ketab_n

الضابط العقيد الرائع المتعاون الذي نسيت اسمه.

توافد رجال القبيلة على الهون طوال عدة أيام، وجلبوا معهم حوالي مئة جمل. وعندما وصل من يعنيهم الأمر كلهم جمعتهم وأعطيتهم مهلة يومين أو ثلاثة أيام يناقشون فيها المسألة معاً ليتوصلوا إلى حل مقبول. وقلت إن عليهم بعد تحقيق ذلك أن يأتوا إليّ، ثم نضع أنا والضابط الفرنسي ختمينا على الاتفاق الذي يصدق بعد ذلك رسمياً. وأخيراً أضفت أنهم إذا فشلوا في التوصل إلى اتفاق أقوم أنا والضباط الفرنسي بإملاء الشروط وتنظيم تخصيص الآبار واستخدامها، إلا أنني حذرتهم أن حلنا المفروض من سلطة خارجية سيكون نهائياً.

تناقشوا طوال ثلاثة أيام في قاعة الاجتماع القائظة، لكنهم لم يتوصلوا إلى حل. وفي زهاء نهاية اليوم الثالث وصلتني إشاعة أفادت أن القبيلة الأكثر عدداً وهي المجرحة توشك أن تهرب من الهون للتخلص من حكمي. لذا احتجزت جمالهم كلها وبذلك منعتهم من الهرب، لأنهم كانوا مرتبطين بحيواناتهم الثمينة.

في هذه المرحلة زاد قلقي بشأن الإجراءات لعدم حضور زميلي الفرنسي، وبدا لي ذلك نكسة خطيرة لأن نجاح العملية كان يعتمد على إظهار الانسجام الإنجليزي ـ الفرنسي.

بعد أن فقدت الأمل وصل زميلي الفرنسي الذي يفتقر إلى الحيوية في آخر لحظة وعرضت عليه خطتي فوراً بشأن توزيع المياه الثمينة واستعمال الآبار وإعطاء قبيلة المجرحة بعضاً منها وقبيلة أولاد سليمان بعضاً ومشاركتهما في بعض. كان الفرنسي الشاب ذكياً وفهم الوضع جيداً، لكن موقفه كان يتسم بالسخرية التامة وربما يمكن تلخيصه بعبارة «لا يعنيني ذلك البتة»، وقال إنه مستعد ليوقع معي بحضور القبائل المجتمعة في اليوم التالي.

Twitter: @ketab_n

امتلأ المكان بالحضور، وبعد أن عبّر رئيسا المجموعتين عن عجزهما عن التوصل إلى اتفاق طلبت من مترجمي تلاوة القرار الإنجليزي ـ الفرنسي. وبعد ذلك تخلى رئيس جماعة المجرحة عن مهمته فوراً، لأنه بيَّن أنه لا يستطيع العودة إلى قبيلته ملتزماً بهذا القرار. وقلت له: «الانسحاب مرفوض. وتعد أنت مسؤولاً عن اتباع هذا الحكم وتطبيقه».

أعلنت ثانية بموافقة الضابط الفرنسي أنه يحق لقبيلة المجرحة التي عارضت القرار تقديم استئناف إلى العميد لش رئيس الإدارة العسكرية في مدينة طرابلس، وأن قراره بالموافقة أو الرفض سيكون نهائياً. استشرت من أجل التوصل إلى ما عُدّ حلاً منصفاً ثلاثة أو أربعة رجال مسنين ذوي لحى رمادية يعيشون بين الهون ومصراته، وعندما اعترض سلفي بيكارد كامبردج، الذي كان قد انتقل إلى أراضي المجرحة آنذاك، على قراري بوصفه قراراً متسماً بالتحيّز استطعت إثبات صحة القرار بدليل هذا الدعم المستقل.

كان رئيس قبيلة أولاد سليمان، وهي القبيلة الأصغر، يتعرض دائماً للضغط من قبيلة المجرحة الأكثر عدداً. وعندما فهم الشروط أعلن أنني صديق دائم وحزن عندما أوضحت له أنني لا أستطيع قبول أية هدية حتى لو كانت خروفاً. ومن الغريب أن اللهجة التي كانت تستعملها تلك القبيلة كانت مفهومة لدي بينما كانت اللهجة المختلطة لمنطقة طرابلس غريبة عليّ وتساءلت عن سبب استطاعتي التحدث بسهولة إلى أفراد قبيلته. وبعد الاستفسار اكتشفت أن قبيلته كانت قد نزحت قبل مئتي أو ثلاثمئة سنة من نجد وأن أفرادها يتحدثون بلهجة عربية تعودت عليها في أور حيث كان عدد كبير من عمالنا على صلة وثيقة بالنجديين. وتحافظ النساء على اللهجة العربية للقبيلة عندما

Twitter: @ketab_n

يربين الصغار في السنوات الأربع أو الخمس الأولى من حياتهم ويعلمنهم طريقة الكلام التقليدية وهكذا تحفظ اللهجات القبلية من الهُجْنة فيما بعد.

بعد ثلاثين يوماً من اتخاذ القرار الإنجليزي ـ الفرنسي أيّده العميد لش في مدينة طرابلس وتلقيت التهنئة الرسمية، ولكن لا أعرف إن كانت التهنئة مبررة، إذ ليست لدي فكرة عن مدى استمرار تطبيق القرار أو عن الوضع الحالي. وفي الواقع يمقت أفراد القبائل أية تسوية رسمية بشأن نزاعات الأراضي والمياه ويفضلون استمرار مثل تلك النزاعات في حالة متقلبة.

أصبحت بعد ذلك صديقاً حتى لشيخ قبيلة المجرحة الذي كنت قد سببت له الاستياء الشديد، إذ زارني بعد عدة أشهر عندما رقيت إلى وظيفة مستشار في الشؤون العربية في مدينة طرابلس وطلب مني إبدال كمية كبيرة من العملة الإيطالية الملغاة بالعملة الجديدة التي أصدرها نظام الحكم العسكري البريطاني في ليبيا. وعلى الرغم من فوات الموعد المقرر بفترة طويلة، فقد أقنعت الموظف المالي بتبديل الأوراق واصطحبت شيخ قبيلة المجرحة إلى بداية صف طويل لاستبدالها. وأعجب بذلك ولم يثر المتاعب لنا بعدها أبداً.

ركبت الطائرة لتفتيش الآبار المتنازع عليها في أثناء زيارته. وبعد تأخيره صباح يوم واحد في مدينة طرابلس أصبح بوسعي أن أعلن ارتياحي للوضع وأنني لم ألاحظ أي خرق لحقوق المياه. كانت تلك هي الأيام الأخيرة من أيام الإمبراطورية البريطانية القديمة عندما كان قرارنا ما زال محترماً.

بعد زهاء عام واحد نقلت بعيداً عن الهون وغادرتها آسفاً لأنني عقدت صداقات كثيرة هناك، ولكن الحياة هناك اتسمت بالوحدة وكان

Twitter: @ketab_n

المرء يشعر بأنه منقطع عن التفاهم بلغة المرء. إلاّ أنني سررت بتسليم شؤون مهمتي إلى صديق هو النقيب فرانكلن كاردنر الذي كان كثير التعاطف مع العرب. ولا شك في أنه بفضل مسعاه أطلق اسمي على الساحة الرئيسة في بلدة الهون، إذ سميت «ميدان مِلْوان». ولكن سرعان ما رُفع الاسم في عهد نظام آخر أقل تعاطفاً.

منذ كنت في بلدة الهون تعرضت المنطقة لخطر اكتشاف النفط فيها، ولكن، لحسن الحظ، دلت الاختبارات على أن استخراج النفط منها لن يكون مربحاً وأن المصدر الوحيد الذي يستحق الاستغلال كان بجوار سبها في فزان التي أعدت فيها الترتيبات اللازمة لضخ النفط إلى الساحل. إلا أنه كان محتماً أن يؤثر ثراء ليبيا، الذي جاء في أعقاب عمليات استخراج النفط الواسعة، في السكان البسطاء في الهون وسوكنا وودان، حيث هاجر عدد كبير منهم إلى المدن الكبيرة على الساحل، وقد علمت أن مدنهم الأصلية مهجورة نسبياً الآن. ولو كان هوراس حياً لقال: «النفط الذي لا يضخ يكون في مكان أفضل».

بعد مغادرة هون في عام ١٩٤٣ نقلت مؤقتاً إلى بلدة مصراته الساحلية لكي أحل محل العقيد س.س. أولتن الذي كان قد حصل على إجازة. كان الطابع المديني نسبياً لبلدة مصراته يعد تغييراً منعشاً بعد حياة التقشف في هون، إلا أنني وجدت العمل الإداري في إدارة أكبر وأكثر تعقيداً أمراً يصعب عليّ تحمّله. وأتذكر بخاصة حادثة مؤثرة، إذ كان اللورد كاوري، حاكم أستراليا العام في وقت ما، قد فَقَد ابنه في القتال ودفن الفتى في مقبرة عسكرية على الساحل تبعد ميلاً أو ميلين عن مصراتة مطلة على البحر. وعبّر الأب عن رغبته في الحصول على صورة لقبر ولده، وأرسل عريف من مدينة طرابلس لأداء هذه المهمة. ولسوء الحظ اكتشف أن الكثير من الصلبان الخشبية

Twitter: @ketab_n

التي ثُبتت على القبور رُفعت وأبلغ طرابلس أن القبور قد تعرضت للتدنيس وسمع المارشال جمبو ولسن، القائد العام في القاهرة آنذاك، بالموضوع وأمر باتخاذ إجراء فوري وعقابي وطلب تقديم تقرير إليه خلال ثمان وأربعين ساعة. كان العميد ترافرز بلاكلي يتولى القيادة في مدينة طرابلس آنذاك وأبلغت بالتحقيق فوراً واتخاذ إجراءات فاعلة ومناسبة.

عندما زرت المقبرة اكتشفت أن بعض الصلبان الخشبية رفع فعلاً، إلا أنني لم أستطع التوصل إلى أية علامات تشير إلى تعرض القبور للتدنيس. والحق أن القبائل التي تجوب المنطقة كانت بحاجة ماسة إلى خشب الوقود، إذ إن الفِرَق العسكرية المختلفة التي استعملت كل عود من خشب الوقود كانت قد عسكرت في المنطقة في طريقها إلى الانضمام إلى ميادين القتال أو في طريق العودة منها ومن ضمنها الفرقة الهندية الخامسة. ولم يكن ذلك يبعث على الدهشة لأنها كانت تقاتل في البرد الشديد، وكثيراً ما كانت بحاجة إلى الوقود ليلاً. ولكي تعوض عن النقص في الوقود رفعت كل باب خشبي في الدور المهجورة وقطعت كل شجرة. لذا لم يكن لدى رجال القبائل الذين لم يسعفهم الحظ مواد قابلة للاحتراق وأعتقد أنهم عندما رفعوا الصلبان لم يكونوا يدركون ما يفعلون، لأنه لم يكن هناك سبب يدعو إلى اطلاعهم على تقاليد الدفن المسيحية.

رغم ذلك كان واضحاً لي أن جريمة كهذه لا بدّ أنها من فعل رجال القبائل المحليين، وتأكدت أن هذا الجزء من مصراتة كان منطقة رعي لقبيلتين معينتين تمتلكان جمالاً فاستدعيت شيوخهما إلى مكتبي.

عقدنا اجتماعاً جاداً للشيوخ حضره ستة ضباط بريطانيين ـ كانوا كل الضباط الذين استطعت استدعاءهم آنذاك ـ وبحضور ليبي بارز هو

Twitter: @ketab_n

صادق المنتصر الذي كان مستشاراً لنا وعمل بعد سنوات كثيرة سفيراً لليبيا في واشنطن، وألقيت كلمة رزينة أبلغتهم فيها ما حدث وطلبت أن تقوم القبيلتان بدفع غرامة تبلغ مليون ليرة خلال سبعة أيام وإلا فرضت عقوبات شديدة على الشيوخ أنفسهم إذا تكرر ما حدث[٢].

بينما كنت أنتظر ما سيحدث اتصلت بي هاتفياً السلطات في مدينة طرابلس لمعرفة الإجراء الذي اتخذته، وعندما سمعت به كادت تصاب بالرعب. وسُئِلت: «ماذ ستفعل إذا لم يأتوا بالمبلغ؟» فأجبت: «لقد فكرت في الأمر والحل بسيط غاية البساطة. فاللحم غال ونادر جداً الآن في المنطقة حتى إن ثمن الجمل الواحد يبلغ نصف مليون ليرة وسأتوجه إلى القبيلتين وأصادر جملين». لم تنشأ حاجة إلى ذلك الإجراء. فقد جلب إلى المكتب خلال أربعة أيام مبلغ ميلون ليرة من أوراق نقدية متسخة وأمضينا عدة أيام أخرى نعدها. وبنيت خزانة في الجدار وأودعت المبلغ فيها. وبعد انقضاء ستة أشهر وعدم وقوع حوادث أخرى أعدت المبلغ. واكتشفت فيما بعد أن شيوخ القبائل الذين لم يكونوا قد سمعوا بالغرامة الجماعية توصلوا إلى الاستنتاج أن تلك أسهل طريقة لجمع المال وواجهت بعض الصعوبة في منعهم من فعل ذلك لمصلحتهم.

بعد عدة أشهر أمضيتها في مصراتة رُقيت إلى منصب مستشار في الشؤون العربية في طرابلس خلفاً للرائد كندي شو الذي نقل أخيراً إلى إنجلترا بعد أن خدم خمسة أعوام خارجها. وهكذا أمضيت سنة بين كبار المسؤولين في الإدارة البريطانية في ليبيا وعُيِّنت أخيراً نائب الأمين الأول برتبة مقدم طيار.

---

(٢) تُرجم الخطاب باختصار. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

على الرغم من أن العمل الذي توليته في مدينة طرابلس منحني اطلاعاً شاملاً على شؤون ليبيا عامة، فقد وجدته أقل ملاءمة من إدارة المحافظات في منصب أكثر تواضعاً لأنني لم أعد على اتصال بالبدو والملاكين الصغار والفلاحين والأشخاص البسطاء في الريف. في البدء عندما كان البريطانيون هم الحاكمين الجدد كانت هناك فترة شهر عسل رحب بنا خلالها بوصفنا محررين بعد طرد المستعمرين الإيطاليين المكروهين الذين كانوا يحكمون البلاد منذ عام ١٩١١ بعد طرد الأتراك العثمانيين منها.

نظم الإيطاليون في المناطق الساحلية نوعين من المزارع: الأول مُلِّك لمزارعين إيطاليين قديرين والثاني طورته الدولة ولقي نجاحاً أقل من النوع الأول بكثير. وكان بين المزارع من النوع الأول ملكيات صغيرات منحها موسوليني إلى الرعاع الذين أراد إخراجهم من الوطن الأم إيطاليا. وفشل الكثير من هذه الملكيات وسرعان ما هجرت. وتدل البيوت الفارغة والأراضي القفر على فشل المشروع.

أسست الإدارة الإيطالية نظاماً قضائياً مستنداً إلى القانون الإيطالي وأداره قضاة إيطاليون بعدالة. ولكن يبدو أنه لم تبذل سوى محاولة بسيطة أو لم تبذل أية محاولة لإدماج قانون مستند جوهرياً إلى القانون الروماني بنظام قبلي أو أفريقي ملائم للبلاد أو محاولة التوفيق بينهما. ومن ناحية أخرى فإن أخطر نقد يوجه إلى فترة الثلاثين عاماً من الحكم الإيطالي هو أنه لم تبذل محاولة في الواقع لتأسيس أي نوع من الحكم الوطني.

اعتنى الحكم الإيطالي بالمدن والمعالم القديمة وصيانتها ولا سيما لبسيس ماجنا ومدينة طرابلس وصبراتا إضافة إلى بعض التنقيبات المفيدة التي قادت إلى مزيد من الأبحاث المكثفة. ولكن

Twitter: @ketab_n

الفضل يعود إلى الإيطاليين في إحساسهم الفني بمظهر لبسيس وصبراتا حيث استثمروا الإطار الطبيعي استثماراً كاملاً.

كانت المهمة الأخيرة، وإن لم تكن الأقل أهمية، التي عهد إليّ بها قبل انتهاء فترة عملي في مدينة طرابلس هي إعادة النظر في هيكل الرواتب التي تدفع إلى الموظفين العرب والبربر بمن فيهم موظفو المحاكم والقضاة. أنجزت تلك المهمة في أقل من ثلاثة أشهر بمساعدة ضابط مالي اسمه بدفوت. كان يحسن التقدير وماهراً في الحساب. وكان واجبي ضمان تجنب مكافآت مثيرة للحسد، وأن يستشار كبار الموظفين في كل محافظة، والحفاظ على احترام كرامة المنصب، وأن تسند تغييرات الأجور كلها إلى حساب منصف ومعقول. وكانت زيادة الأجور مستحقة منذ مدة طويلة ولولا أن الإدارة البريطانية أدركت وجوب تطبيق المعالجات الضرورية بسرعة لحدثت متاعب خطيرة. وهكذا تمكنا من تجنب التهديد بإثارة اضطرابات، ولمّا كان مثيرو الاضطرابات يعرفون أن الإصلاحات وشيكة فقد حافظوا على الهدوء. تجولنا في بعض المحافظات الليبية خلال مهمتنا في البحث عن الحقائق وكانت خدمتي في أماكن كثيرة خارج مدينة طرابلس مفيدة.

عندما أعدنا النظر في جداول الرواتب في ليبيا واستطلاع الرأي المحلي والعام صُنف الموظفون كلهم وفقاً للدرجة الوظيفية أينما كانوا يعملون بغض النظر عن كلفة المعيشة الأعلى في المراكز الأكثر ازدحاماً بالسكان. كانت هناك عوامل كثيرة ينبغي أن تؤخذ بنظر الاعتبار، لكن مهمتنا اختتمت على نحو مُرضٍ بمنح زيادة متواضعة لو منحت اليوم لأثارت السخط الشديد. إلا أن المستخدمين كانوا عموماً راضين غاية الرضا بالمكافآت.

Twitter: @ketab_n

في أثناء عملي فترة قصيرة بوصفي الضابط الأول للشؤون المدنية في سوق الجمعة بمدينة طرابلس تمكنت من إحباط ما قصد به أن يكون مظاهرة كبيرة في المدينة، إذ قبل أن يسنح الوقت للمحرضين في تنظيم أنفسهم، وبالاستخدام الحكيم للضغط البوليسي المعتدل منع الجمهور من التجمع وحققنا ذلك دون اعتقال شخص واحد.

وفي أثناء فترة عملي في سوق الجمعة ساعدت أيضاً في إنقاذ مدينة طرابلس من خطر أشد بكثير حيث ورد تقرير عن إصابة بالطاعون في بيت معيّن فتوجهت إليه فوراً للتحقيق. وكان مسكناً واسعاً من الطين وشديد القذارة قرب مركز المدينة وكان من الضروري للقضاء على المشكلة إحراق البيت كله بما في ذلك الشراشف والبطانيات وعزل سكانه فترة من الزمن. كانت تلك الإجراءات حاسمة ولم تقع حالة طاعون أخرى كما قد يحدث في مدينة سوق كبيرة يتجمع الآلاف من سكانها في وسط المدينة كل يوم جمعة.

أخيراً حان موعد عودتي إلى الوطن بعد خدمة دامت ثلاثة أعوام في ما وراء البحار. كنت متعباً ومتشوقاً إلى الرحيل.

طرت من مطار كاستيل بنيتو، وكان رحيلي على النقيض من دخولي الصعب عن طريق معسكر العبور الكبير في العدم في منطقة برقة التي كان الماء فيها لا يمكن تناوله. هبطت الطائرة في صقلية بمدينة باليرمو المدمرة والآيلة إلى السقوط آنذاك، حيث أصابت الغارات الأميريكية غير الدقيقة كنائس كثيرة بأضرار. ولم نلق الترحيب الحماسي ونحن في زي القوة الجوية البريطانية. هبطت الطائرة في سوندن بإنجلترا. كان ذلك في شهر أيار/مايو وكان أول منظر رأيته أشجار الكستناء العالية التي كانت تحمل شموعاً منتصبة مرحة من الأزهار المرحبة بالعائد إلى الوطن، وأخيراً رأيت سماء ملبدة بالغيوم.

Twitter: @ketab_n

كما شعرت بالحنين إلى غمامة بعد الزرقة الأبدية للسماء الليبية. كانت عودة إلى الوطن لا تنسى.

وصلت، وأنا أنوء بثقل متاعي وكان يساعدني عابر سبيل طيب، إلى المسكن الذي أقمنا فيه إبان الحرب في هامستيد حيث كانت أجاثا، التي لم تكن تتوقع عودتي، قد عادت من زيارة ابنتها روزلند في ويلز قبل وصولي بدقائق قليلة. وهناك التقينا ثانية بعد فترة انفصال طويل وشاق. وبدا لي أن أجاثا، التي طاردتها القنابل الطائرة وكانت تعمل في صيدلية بمستشفى تابع لجامعة لندن، قد شهدت خدمة عسكرية أشق مني. لقد رأف اللّه بنا واستمتعنا بالتقائنا ثانية على نحو لا يمكن وصفه.

ليس هناك سوى القليل مما أقوله عن الشهور الستة الأخيرة من خدمتي في أثناء الحرب حتى تسريحي من الخدمة العسكرية في عام ١٩٤٥. عملت في وزارة الطيران بإمرة عميد طيار لم أجده ملائماً لمزاجي. لم يكن تفكيره وطريقة كلامه يضارعان شجاعته. وكان هناك بعض المتطوعات الفاتنات في وزارة الطيران ومنهن أليسن والترز التي فقدت الاتصال بها لسوء الحظ، وموظفة إدارية صغيرة أمرها العميد تسليم عدة مئات من قسائم الملابس إلى ضابط أجنبي زائر بارز، لكنها رفضت بصراحة وهو أمر تقدر عليه إذ كانت تحمل أدنى رتبة، إلا أنها لم تأبه لغضب رئيسها القوي.

عندما سُرّحت من الخدمة العسكرية أُهديت لي في اكسبرج(٣) بدلة مدنية من نوع ممتاز، وكانت مكافأة تلقيتها بامتنان.

---

(٣) ضاحية في غربي لندن. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

القسم الثالث

أجاثا

(١٩٣٠ ـ ١٩٧٥)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر

أجاثا: الإنسان

بعد تسريحي من الخدمة العسكرية شرعت في العمل ثانية في إنجاز كتابي عن براك وشكر بازار الذي كنت قد أكملت نصفه عندما نشبت الحرب. وكتبت جزءاً كبيراً منه في بلدة كرينوي في ديفن كما في السابق.

يقع البيت الأبيض على هضبة صغيرة مطلة على النهر وأمامه ضفاف شديدة الانحدار مكسوة بالحشيش وتحيط به أشجار الصنوبر الداكنة. جعل المناخ المعتدل المنطقة ملائمة لنمو المغنولية والوردية. وتحجب أشجار البلوط الكبيرة البيت عن النهر. وتوجد بالقرب منه حديقة كاميليا مسورة فيها شجرة فلين واحدة، وتحف بالنهر أشجار الزان التي يبلغ عمرها ١٥٠ عاماً من جانب وأشجار اليوكريفياس والمغنولية والوردية والأزالية من الجانب الآخر. ولا يزيد مجموع المساحة على خمسة وثلاثين ايكراً، وأبدى معظم الزوار إعجابهم بهذا الفردوس الصغير.

جعلت أجاثا من مسكننا مكاناً جميلاً بفضل براعتها في تزيين البيوت. وعندما أتذكر الأيام الجميلة التي أمضيناها هناك لا بدّ أن أقول شيئاً عن حياتنا العائلية وأُكرّس بضعة فصول لأجاثا الإنسان والمؤلفة.

Twitter: @ketab_n

كانت أجاثا الإنسان تتصف بالمراوغة التي يعود أصلها إلى أيامها المبكرة وتمثلت بالمقاومة الدفاعية إزاء سبر الغور الفضولي، والوقاية المتأصلة التي تجعل أية أسئلة تبدو مثل سهم عديم النفع. ورغم ذلك كانت أكثر سخاءً من معظم الكتّاب في الكشف عن الذات، لأنها كتبت مذكرات مفصلة لمّا تنشر بعدُ ورواية بالاسم المستعار ميري ويستماكوت بعنوان (صورة غير منجزة Unfinished Portrait) (١٩٣٤). نرى فيها لمحات خصوصية كثيرة من الطفولة المبكرة إلى بداية منتصف العمر. لا تُعدّ هذه الرواية إحدى أفضل رواياتها لأنها، على خلاف الروايات الأخرى، مزيج من الأشخاص الحقيقيين والأحداث الخيالية. وليس بوسع غير المطلع معرفة مدى سجل الأحداث الفعلي الذي تتضمنه الرواية، ولكننا نجد في شخصية سيليا صورة أجاثا أكثر من أي كتاب آخر.

أحيطت أجاثا منذ البداية بحب أبوين حنونين ورعاية أم ذات خيال غير مألوف كان محفزاً لها. وكان مسكنها عشاً متسماً بحميمية الجو العائلي وضمَّ مربية مسنة كانت تدافع عن أعلى مستويات الفضيلة والمعتقدات التقليدية التي كان يصعب أحياناً التوفيق بينها وبين واقع الحياة في العالم.

وفي رواية (صورة غير منجزة) تسمى الطفلة سيليا وتسنح لنا فيها فرص نادرة للإطلال على سعادتها المبكرة. كانت صورة حياتها المبكرة مزيجاً من الواقع والخيال. وكان جزء من الواقع يتمثل في الطباخة الضخمة الجثة التي كانت تعد حلوى لذيذة تتخللُ دروسَ تعلم أجاثا التهجئة بنفسها، إذ كانت أمها تعارض تعلم الأطفال القراءة في سن مبكرة قبل السادسة من العمر، إلا أن أجاثا توصلت إلى طريقتها الخاصة لتعلم القراءة في سن الخامسة، وتعلمت القراءة من الشكل

Twitter: @ketab_n

وليس بتهجئة الكلمات. كانت تسأل مربيتها على سبيل المثال: (أهذه الكلمة «جشع» أم «أناني»؟ لا أستطيع التذكر). لم يكن تعلم التهجئة سهلاً، ولكن أجاثا اقتحمت عالماً جديداً من الجنيات والجن البشع المؤذي والأقزام والعمالقة ـ كانت الحياة الواقعية أقل أهمية عندها وسرعان ما أصبحت تعيش في عالم من الخيال الذي يقطنه ناس من صنعها، وكان هناك عنصر التكتم الذي أثارها وأبهجها كثيراً. ومن الأمور التي كشفت عن شخصيتها أنها أفشت مرة لمربيتها سر دائرة كانت الشخصيات الرئيسة فيها السيدة بنسن والقطيطات، إلا أن المربية أفشت السر. سمعت أجاثا مصادفة وبذعر بكشف سرها، ولم تكشف ثانية أبداً عالمها الخيالي السري. علمها أبوها مبادئ الرياضيات، وسرعان ما اكتشف أنها موهوبة في الرياضيات. وأعتقد أن هذه القابلية تظهر في كتبها وفي الحل البارع لأكثر العقد تشابكاً وتتمثل في القدرة على التحليل وعلى التجميع أيضاً.

وأعتقد أن أجاثا لم تكن استثناءً في التقليد المتبع آنذاك إذ إنها، مثل فتيات كثيرات من العوائل الموسرة، تلقت تعليمها في البيت، عدا فترة دوام قصيرة في صف لتعليم الحساب. كانت غير عادية لأنها لم تتلق أي تعليم رسمي حتى التحقت بمدرسة تكميلية في باريس. وأرجِّحُ أنها لو كانت قد دخلت المدرسة وأُرغمت على نمط قسري من التعليم لكان التأثير ضاراً ولأعاق اندفاعها في الإنتاج والإبداع، ولَقَيّد خيالها الطبيعي الرائع.

تُبرز رواية (صورة غير منجزة) سجيتين شاطرت أجاثا أمها فيهما وهما حساسية باطنية وفهم بديهي لحالات تخفى عن البشر العاديين. ومن الصعب القول كم من الخيال الذي رافق هذه الأمور كان سبباً أو نتيجة.

Twitter: @ketab_n

كشفت الأم أن أجاثا في صباها، وفقاً للتقاليد الفيكتورية الحقيقية، تمتعت بتخيل نفسها مستلقية على أريكة وهي تموت بسبب حب بائس. «كان ذلك سخيفاً جداً، إلا أنه كان مفيداً على نحو ما ـ كل ذلك الخيال...». وتكشف حادثة أخرى في طفولة أجاثا في أثناء رحلة إلى الجبال خلف كوتيريتس[1]. عندما ركبت بغلاً وشرعت في رحلة العودة ثبّت سائق البغال فراشة حية ترفرف بجناحيها على قبعتها. وراحت الدموع الغزيرة تنهمر على وجهها طوال طريق العودة ولم يستطع أحد فهم السبب. كانت أجاثا مسحورة بصمت مؤلم، عاجزة عن كشف سبب حزنها، وكان سبب ذلك إلى حد ما خوفها من إغضاب الدليل. واقتيدت باكية إلى أمها التي لاحظت السبب فوراً وأطلقت الفراشة من قبعتها. كم تمتعت وتنفست الصعداء لأنها لم تضطر إلى إيضاح حزنها الخفي. ولا أظنّ أن هذا الخجل الداخلي قد زال عنها، ورافقت ذلك القدرة على فهم الآخرين الذين هم في وضع مشابه، وهي قدرة اتفق وجودها مع خيال خصب.

أبرزَ تعليم أجاثا في باريس حُبَّها الموسيقي أكثر من أي شيء آخر. كانت قابليتها الطبيعية وأسلوبها في العزف على البيانو قادرين على التطور إلى مستويات مهنية. كانت مستعدة لمواصلة التدريب ست ساعات يومياً وكانت تعزف مقطوعات لبرامز وبيتهوفن وموزارت ببراعة غير عادية. ولكن على الرغم من أنها كانت في خلوتها عازفة من مستوى عالٍ، فقد كانت تميل إلى التوقف بسبب التوتر العصبي عندما تعزف أمام الناس. لذا أوضح لها أستاذ في الموسيقى حاد الملاحظة

---

(١) كوتيريتس بلدة فرنسية في جبال البيرينيس على الحدود مع أسبانيا. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أن من الأفضل لها أن تتخلى تماماً عن فكرة احتراف الموسيقى لأن الفنان ينبغي أن يكون أكثر من منفذ موسيقي وأن يتمتع بمزاج للاستحواذ على مشاعر المستمعين معه كجزء من عالمه الفني.

ومما يثير الاهتمام أن هذا الخجل كان يختفي عندما تغني. وكان بوسعها ممارسة هذه الهواية دون أن يبدو عليها أي أثر للتوتر العصبي، وكانت ممتلئة بالثقة. كانت تمتلك صوتاً عالي النبرات ويحتمل أنها كانت تستطيع أن تغني بوصفها محترفة في الحفلات الموسيقية. وربما كان دخولها سهلاً لأنها كانت جميلة جمالاً يفوق المعتاد وشقراء ذات عينين زرقاوين من النوع السكندنافي ومحيّا جميلٍ آسر. كانت تعتقد أن صوتها ليس جزءاً من نفسها، بل هو موجود خارجها ولذا لم يصاحبه أي أثر للخجل. كان طموحها الحقيقي أن تصبح مغنية أوبرا، لكنّ مدرّسيها جعلوها تدرك أنها لا تمتلك حجم الصوت المطلوب في الأوبرا. وهكذا كان لا بدّ من التخلي عن طموح آخر في الفنون. ولكن رغم خيالات أجاثا الفنية كلها، فقد كانت واقعية ولم تبدد أي وقت في إدراك حدودها. كان هذا الإحساس الواقعي قد أفادها كثيراً عندما تبنّت المهنة التي كانت ملائمة لها حقاً.

جمعت أجاثا بين التدريب الموسيقي في باريس وزيارات كثيرة إلى قاعات عرض اللوحات وتلقّي الدروس في الرسم. أدت زياراتها لمتحف اللوفر التي أُكرهت عليها إلى بغض شديد لأساطين الرسم الزيتي في القرنين السادس عشر والسابع عشر استغرق التخلص منه سنوات كثيرة، على الرغم من حب الشكل واللون، وهذا مؤشر آخر إلى الضرر الذي كان يمكن لتعليم رسمي إحداثه فيها. لم تكن لها موهبة في الرسم، ولم يكن بوسعها ملاحظة الظل خلف الزهرة، ولم تستطع أن تفهم الرغبة في تشريحها النباتي وتحليلها.

Twitter: @ketab_n

بعد باريس عادت إلى مسكنها العزيز في ديفن المسمى أشفيلد، الفردوس الهادئ. كانت أمها، التي أصبحت فقيرة بعد موت أبيها، تعيش عيشة الكفاف وإن كانت عيشة مريحة نسبياً. ولم تهنأ أجاثا بسعادة أو انسجام أكثر مما لقيت بصحبة أمها. ودُبّر المال اللازم بطريقة ما لقضاء عطلة طويلة في مصر، وساعد هذا في تقليل المدى الشاذ من حيائها الطبيعي وإن لم يجعلها تتخلص منه. وكانت جدتها الفيكتورية تعيش سنواتها الأخيرة في أشفيلد. وكانت تبلغ من العمر ٩٩ سنة، مستبدة ومتمسكة بممتلكاتها وواثقة تماماً بقيمها وبمعايير السلوك الصحيح والخطأ، متعجرفة، حازمة وطيبة، ومحبة لعائلتها وإن كانت تخالفها الرأي في كثير من الأحيان. تركت لنا أجاثا صورة حية لهذه الشخصية الأخّاذة النموذجية من منتصف العصر الفيكتوري، مرسومة بروح مرحة وبحنان.

وكانت حياة أجاثا في أشفيلد سعيدة عندما كانت في العشرينات من العمر ولدينا معلومات عن سلسلة من الخاطبين الأثرياء والميسورين والفقراء الذين طلبوا يدها، لأنها كانت تتمتع بجمال متألق، زد على ذلك فتنة طبيعية ورقّة وظرفاً. وأخيراً خطبها رجل مُجِدٌّ مخلص ورقيق متمهل ورقيق الفؤاد كانت ستجد معه سعادة آمنة ورائعة. أُطلق عليه في رواية (صورة غير منجزة) اسم بيتر ميتلاند وصوّر شخصية دمثة ومتواضعة. لم يستطع تصديق أنه جدير بخطيبته كما أوضح لأم أجاثا التي أجابته قائلة: «لا تكن متواضعاً جداً فالنساء لا يقدرن ذلك». كان عسكرياً في الخدمة وحان موعد عودته إلى الهند لتمضية عامين هناك، واعتقد أن من الإنصاف أن تكون لأجاثا خلال تلك الفترة فرصة العثور على رجل جدير بها أكثر منه إذا أعجبها. أرادت أجاثا أن يتزوجها فوراً وقالت: «لو كنت تحبني حقاً لتزوجتني

Twitter: @ketab_n

حالاً ولصحبتك» فأجاب: «يا حبيبتي ألا تدركين أنني أفعل هذا لأنني أحبك كثيراً؟». وبعد خمسة عشر شهراً تزوجت أجاثا رجلاً آخر.

كانت الحرب العالمية الأولى قد نشبت في عام ١٩١٤ وخطب ود أجاثا في مغازلةٍ سريعة أحد أفراد القوة الجوية الذي كان يتمتع بسحر كبير وتصميم، وكان رجلاً لم يعجز أبداً عن الحصول على ما يريد. كانت التوقعات من الحياة في تلك الحرب وجيزة، وسرعان ما تزوجا. تلقّى بيتر النبأ بأسف، ولكن دون استياء. وأقر بفشله بحزن. فقدت أجاثا فرصة السعادة الثابتة وتنازلت عنها لقاء الجاذبية المبالغ فيها للمغامرات المرحة. أثار سحر آرتشي ووسامته وقابليته وعزمه إعجاب كل من التقاه، إلا أن والدة أجاثا أدركت فوراً قسوة معيّنة في الخُلق كانت نذير سوء للمستقبل وخشيت منها لإدراكها مزاج أجاثا الضعيف والحساس غير المستعد للتحرر من الانفعال والخضوع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة والذي لا يؤهلها لتحمّل التعاسة. انبهر آرتشي (الذي أطلق عليه اسم ديرموت في الكتاب) بجمالها. قال: «سيليا ـ أنت جملية جداً، جميلة جداً. عديني أن تكوني جميلة دائماً». وسألته: «هل كنت تحبني أيضاً لو لم أكن جميلة؟» فأجاب: «كلا. لن يكون الأمر نفسه تماماً. عديني أنك ستكونين جميلة دائماً..».

تُصور رواية (صورة غير منجزة) بحيوية السنوات السعيدة في هذا الزواج، ومتعة التخطيط له مرحلة فمرحلة، والنمو التدريجي للازدهار، وتواضع أجاثا وحياءها غير العادي في مواجهة المساعدة المنزلية، وولادة ابنتها التي كانت تشبه أباها كثيراً ولم تكن تتسم أبداً بخيال والدتها الواسع، وبعد فترة ظهر حاجز تافه هو لعبة الجولف التي سببت انفصالاً في الاهتمامات. أدّت هذه التسلية في العطلة

Twitter: @ketab_n

الأسبوعية إلى زوال الصحبة السعيدة المبكرة أيام السبت وحتى أيام الأحد. وربما ينبغي إدخال بند عن لعبة الجولف في العقد الاجتماعي على أمل تطبيق إصلاح ما لهذه التسلية وتعديل لها. في تلك الأيام كان يُقال إن الأزواج لم يكونوا يتوقعون من زوجاتهم إلا أن يكنّ ربات بيوت ورفيقات فراش، أما الآن فقد تغيّرت الأمور كثيراً.

ومهما يكن الأمر فإن لعبة الجولف كانت بداية النهاية، ولم أكن أدرك مدى القوة التي انتزعت بها وعداً مني بعدم ممارسة اللعبة، حتى قرأت كتاب أجاثا.

مثل معظم الزوجات كانت الرفقة في رأي أجاثا عنصراً جوهرياً في السعادة ومشاطرة الخبرات والمشاعر، والتعبير المبهج عنها. أما في رأي زوجها آرتشي فإن الاستمتاع نفسه بما يفعله المرء يعد كافياً، وكان من الإرباك والسخف الضرب على هذا الوتر. كان هناك حمق في الحديث الودي والتباهي في حفلة عشاء على الرغم من أنه كان يميل بقوة إلى المرح. ولكن فقدان الرفقة هو الذي أدى إلى ابتعاد أحدهما عن الآخر. بدأت أجاثا تجرب الكتابة في وقت مبكر، ووضعت قصصاً خيالية غير جيدة عن ويلز كانت محض تلفيقات من خيالها. نصحها زوجها أن تجرب الكتابة في موضوع تعرفه أو تحاول أن تعرفه. فهي لا تعرف شيئاً عن ويلز على سبيل المثال. ونصحها ناشر آخر أكثر تفهماً خلاف ذلك قائلاً إنها راوية قصص بالفطرة وبوسعها جعل الجميع يصدقون أن ما تقوله حقيقي. ونصحها أيضاً أن تكتب عن العالم الذي لا تعرفه وليس عن العالم الذي تعرفه، كان هذا التشجيع صحيحاً في منحاه. وقبل مضي زمن طويل أصبحت أجاثا تكسب دخلاً محترماً من كتابة الروايات البوليسية. كانت الكتابة في البداية للتخلص من الملل ولرغبتها في الابتعاد التي شعرت بها بقوة

Twitter: @ketab_n

أحياناً والشبيهة برغبتها في السفر - إلى فارس وأصفهان وشيراز وحتى إلى بلوشستان. واعتقدت أن مثل هذه المغامرات البعيدة لن تكون في متناولها أبداً. ورغم ذلك لم تكن تلك سوى الإحباطات العادية الشائعة في معظم حالات الزواج، ولم يكن بوسعها تصور الحياة دون الزوج الذي اقترنت به إحدى عشرة سنة وأنجبت منه بنتاً جميلة قبل تسعة أعوام من ذلك التاريخ.

فجأة نشبت الأزمة. عندما كانت أجاثا بعيدة، توفيت أمها التي كانت تحبها كثيراً وتعتمد عليها. ونصحتها شقيقتها بالعودة على عجل، إلا أنها وصلت متأخرة جداً ولم تودعها. وفي طريق عودتها بالقطار أدركت الحقيقة وهي أن أمها قد ماتت. انتابها شعور كئيب بالبرد الشديد واكتشفت فيما بعد أن أمها ماتت في الوقت الذي خامرها ذلك الشعور في القطار. لم تشعر بالأسى الشديد فحسب، بل تحملت أيضاً المهمة الكئيبة والمرهقة في إخلاء البيت في ديفون من الممتلكات الشخصية المتراكمة لجيل كامل. كانت تلك الفترة هي الفترة التي أغرم فيها آرتشي بامرأة أخرى.

من الظواهر القاسية والمحزنة في الحياة أن الكوارث لا تحل واحدة واحدة بل مجتمعة، ولم تكن أجاثا استثناءً منها. في غمرة مصيبتها تلك أبلغها آرتشي بأنه عشق امرأة أخرى وأنه وصل نقطة اللاعودة. جاء النبأ ضربة مفاجئة ومحطمة ولم يخامرها، ولو من بعيد، أي شك في احتمال حدوثها. كانت فاجعة إنسانية واجتماعية وإطار يذكر بمسرحيات ابسن. تبدو قوانين الطلاق في ذلك الزمن لا تصدق الآن، وأعتقد أن المرحوم أ. ب. هيربرت قام بدور مهم في إصلاحها. وعلى الرغم من تحسنها ما زالت ضارة باستقرار الزواج.

كانت الصدمة أقوى من أن يتحملها مزاج أجاثا المفرط في

Twitter: @ketab_n

الحساسية واستسلمت ليأس تام وفقدان الذاكرة وأعمال قاربت إعلان حكم الإعدام. ولا يوجد داعٍ إلى اختصار ما ورد في (لوحة غير منجزة)، وهو وصف ما يزال يحرك في القارئ أعمق مشاعر العطف. ويكفي القول إنه لا يمكن تحمّل الحزن إلى الأبد، كان موقف بضعة أصدقاء مخلصين وولع أجاثا الطبيعي بالحياة بلسماً شافياً رغم بقاء آثار عميقة لم تختف تماماً. وبعد أربعة أعوام تزوجت أجاثا ثانية وتمتعنا معاً بمباهج رفقة نمت ونضجت طوال أربعة وخمسين عاماً من الزواج.

هناك خاتمة غريبة لنهاية زواجها الأول المفجعة، إذ لا بدّ من القول إن آرتشي كان عسكرياً بالفطرة ورجلاً ذا قدرة ممتازة أصبح عقيداً في القوة الجوية البريطانية ومُنح وسام القديس مايكل والقديس جورج ووسام الخدمة الممتازة. وكان بوسعه أن يتبوأ أعلى المراتب لو أنه رغب في البقاء في القوات المسلحة، إلا أنه كان مصمماً على كسب المال، وفضّل الحياة في المنطقة التجارية بلندن حيث حقق نجاحاً كبيراً. وبعد ستة عشر عاماً من زواجه الثاني توفيت زوجته وكتبت إليه أجاثا، التي كانت تعيش حياة استقرار جديدة وسعيدة، رسالة رقيقة تعزيه فيها. وأجاب قائلاً إنه تأثر كثيراً لأنها لم تَحقد عليه رغم ابتعاده عنها ستة عشر عاماً. وبذلك انتهى انفصال مؤلم ودياً.

أنجبت أجاثا من آرثر بنتاً واحدة هي روزلند، وقد تزوجت هوبرت بريتشارد في عام ١٩٤٠. وكان هذا عسكرياً بالفطرة يميل إلى الشّعر وقُتل في الحرب بعد يوم الإنزال في نورمندي بقليل.

في عام ١٩٤٩ تزوجت روزلند سعيدة أنتوني هكس حيث أصبح أباً حنوناً وناصحاً لابنها ماثيو الذي كان رياضياً بالفطرة وعندما كان رئيساً لفريق الكريكت في ايتن فشل بفارق بضع ركضات في تسجيل مئة ركضة في ملعب لورد بلندن في مباراة مهمة أمام فريق هارو

Twitter: @ketab_n

بحضور المدير الشهير روبرت بيرلي. إن ماثيو الآن في العقد الثالث من العمر وله ثلاثة أطفال وأصبح أصغر محافظ لمنطقة كلاموركان في جنوب ويلز. وسيكون أيضاً آخر محافظ لها لأنها قسمت الآن ثلاثة أجزاء مختلفة. ورث ماثيو السخاء والمزاج المرح عن أمه روزلند التي جعلت جرينوي منزلاً سعيداً للكثيرين بفضل فتنتها ومحبتها الطبيعية وكياستها الاجتماعية إضافة إلى مواهبها الفنية وقدرتها على إدارة عائلة كبيرة بكفاءة ودون ضجة.

لا بد من العودة إلى أنتوني هكس الذي يذكرني بشخصية ديفي الساحرة الذي كان مصاباً بوسواس المرض في روايتين من روايات نانسي متفورد هما (حب في مناخ بارد) و(البحث عن الحب). كانت لدى ديفي معلومات عميقة من نوع غير متوقع ولا سيما المعلومات المتعلقة بالأشياء القديمة، وكان مستعداً دائماً لتتبّع أي نخر في الأشياء وأي وهن في نفسه، وكان بفضل حديثه الطلي مصدر متعة دائمة لمن يعرفونه. لقد ميّزت في هذا كله أنتوني.

كان أنتوني قد تعرّف إلى روزلند في جرينوي وقضى الكثير من الوقت يقرأ معجماً ضخماً للغة التبتية، إذ كان آنذاك يدرس اللغة التبتية واللغة السنسكريتية في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، وكان بوسعه أن يتولى تدريس هذين الموضوعين لو أراد لأنه كان شديد الاهتمام بالديانات الشرقية خصوصاً بعد فترة قضاها في الهند خلال الحرب. تدرب ليصبح محامياً وحصل على عضوية نقابة المحامين. إلا أنه مقت فكرة ممارسة المهنة، ورغم تمتعه بالقدرة، فإنني لا أعتقد أنه كان يمتلك الشخصية الملائمة لتلك المهنة، لأنه كان يفتقر إلى سرعة الخاطر المفيدة جداً في المحاكم. كان عالماً بالفطرة ورجلاً له اهتمامات عميقة وواسعة وقادرة على أن يبز الكثيرين من المحترفين في

Twitter: @ketab_n

مواضيع مختلفة، لكن ذكاءه المتقد الطبيعي لم تصحبه ذرة من الطموح الشخصي. وأعتقد أنه أطيب إنسان عرفته ويأبى إيذاء حتى ذبابة بسبب ميوله البوذية. وأخيراً حوّل اهتمامه إلى البستنة وأفاد جرينوي لا بفضل معرفته النباتات فحسب، بل من خلال ميل طبيعي إلى اقتصاد هذا الحقل.

واجهتنا في البدء متاعب كثيرة في جرينوي، لأنه لم تكن لدى أجاثا أو لديَّ خبرة في إدارة حديقة نادرة هجرت سنتين وكانت جزئياً أجمة عندما انتقلنا إلى المنزل. ولم يكن البستاني الوحيد هانافورد، الذي وُلِد في ديفون ونشأ فيها، مجداً في العمل، إلاّ أنه كان مرتبطاً بالمكان لأن جون فورد مذكور في كتاب الإحصائيات[٢]، ووفقاً للحقوق فإنه، مثل كلب الصيد الهجين العائد له والذي كان يشبهه، كان يجب أن يموت في المكان نفسه.

كان كل مشهد في جرينوي يبعث السرور ومن دواعي الرضا أيضاً أننا نعرف متى زرع الكثير من النباتات النادرة. ففي عام ١٩٢١ على سبيل المثال، زرعت أشجار المغنولية ديلافي البديعة ونمت أفضل النماذج بنحو قدم واحد في السنة منذ ذلك الحين. وتوجد أمام البيت شجرة رائعة أقدم منها، وفي ساحة التنس شجرة أخرى أمام نافذة قاعة الاستقبال تملأ الجو برائحتها وهي ذات أوراق لونها بنّي ضارب إلى الحمرة ويبلغ عمرها الآن قرناً من الزمن. وزرعنا في نحو عام ١٩٥٠ شجرة جميلة من نوع فيتشي تسر الناظرين عندما يتطلع المرء من الشرفة الأمامية، وهناك شجرة مغنولية كامبيلي تزهر ألف زهرة قرمزية

---

(٢) كتاب الإحصائيات Domesday Book: سجل يتضمن مسحاً لإنجلترا أجراه وليم الفاتح من عام ١٠٨٥ إلى ١٠٨٦. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

إذا كان شهر شباط/ فبراير معتدلاً. وقد أزهرت كما توقعنا في السنة الخامسة والعشرين من غرسها إذ كانت عند غرسها حوالي عام ١٩٤٥ في سنتها السابعة تقريباً. إلا أن الشجيرات والأشجار النادرة كلها ليست أجمل من الضفاف الخضر التي تكتسي في الوقت المناسب بزهور الربيع والنباتات ذات الزهرات الشبيهة بالأجراس، وهو مشهد بديع حقاً. وسيكشف المستقبل كم يستطيع جرينوي الصمود في الظروف الاقتصادية الصعبة التي نعيشها، ولكن ربما، الشيء الجميل متعةٌ إلى الأبد كما قال الشاعر كيتس.

ضمّنت أجاثا وصفاً لجرينوي باسم آخر في روايتها (حماقة رجل ميت) يمكن فيه تمييز معالم مألوفة في الحديقة. والآن أنتقل إلى الحديث عن كتب أجاثا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث عشر

كتب أجاثا

في الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور أكملت أجاثا ٨٥ كتاباً، أي بمعدل كتاب واحد لكل سنة من عمرها، وهو رقم خارق من حيث الإنتاجية نادراً ما فاقه أحد. كيف نفسّر هذه الظاهرة؟ إنها ناشئة عن حالة دائمة من الخيال الجامح. منذ طفولتها المبكرة وهي تعيش في عالم خيالي من صنعها وتحيا باستمرار مع مخلوقات من تصورها. ومنذ طفولتها تقريباً وجدت في أحلامها رجلاً مسلحاً مخيفاً. كان على مربيتها التي تحبها وعلى والدتها أن تطمئناها من ظهوره. إلا أنها لحسن الحظ كانت تعيش في دائرة أوسع بكثير من الأصدقاء الخياليين والطيبين المنشغلين بمختلف الاهتمامات الساحرة. كما أن أمها كانت راوية قصص رائعة تخترع حكايات مشوقة وترويها ولا تستطيع إعادتها أبداً. كانت أجاثا تقول لها: «إحكي لي قصة آلام الشمعة»، فتجيبها قائلة: «لا أستطيع تذكرها يا عزيزتي». وتقص حكاية أخرى لا تقل عنها غرابة. وعندما جاء دور أجاثا كانت تبتكر الحكايات أيضاً لحفيدها ماثيو الذي كان يقول لها: «احكي لي قصة أخرى من قصص الأرانب».

بعد أن ذاعت شهرة أجاثا كان من المعتاد أن يكتب إليها

Twitter: @ketab_n

المعجبون برواياتها عارضين حبكة، إمّا بدافع الهواية أو بدافع الكسب. وكان الجواب دائماً: إن أعظم متعة يحس بها المؤلف هي اختراع الحبكات، أما البقية فإنها محض عمل شاق. وإذا كانت لديك حبكة جيدة احتفظ بها لنفسك. وكانت هناك في دفاتر ملاحظات أجاثا تخطيطات موجزة لستِّ حبكات لم تكملها، لأنها انشغلت بأفكار أخرى. حفلت حياتها بالابتكار الذي لا حدود له. ولذا ليس مستغرباً أنها نظمت الشعر أحياناً، وأن قصائدها الأولى كانت بعنوان (طريق الأحلام) ونشرت آخرها بعنوان (قصائد) في عام ١٩٧٣.

ربما كانت أكثر مؤلفاتها رواجاً وإبداعاً سلسلة قصيرة من القصص الدينية لموسم الميلاد بعنوان (نجمة فوق بيت لحم) (١٩٦٥). لقد أدخلت هذه الحكايات الجميلة المتعة الخالصة في نفوس الكثيرين، ويمكن تسميتها «القصص البوليسية المقدسة». ونجحت أيضاً في كتابها المتضمن رحلة في الحياة الآثارية بعنوان (تعالوا احكوا لي كيف تعيشون)، وتصف فيه الحياة اليومية في بعثة آثارية إلى شمال سوريا بين عامَي ١٩٣٥ و١٩٣٨ تقريباً. والمشاهد فيه مألوفة لكل آثاري عمل في الشرق وتتسم بالفكاهة. هنا تعرض أجاثا ببراعة موهبتها الروائية وفي سرد المحادثات الطريفة بين مختلف النساء والرجال في أوضاع غير مألوفة. وقد ظهرت دعوات كثيرة لإعادة نشر هذا الكتاب المسلي على نحو غير عادي وصدر ثانية في عام ١٩٧٥. لقد اجتذب الكثير إلى علم الآثار الشرقية، إلا أنه لم يتسنَّ لغير القليلين أن يخلفوا سجلاً سعيداً مثل هذا عنه.

من بين الأجناس الأدبية الأخرى التي جربتها أجاثا القصص التي تحمل عنوان (السيد كُوِن الغامض)، وقد نشرت أولاً في مجموعة في آذار/ مارس ١٩٣٠. وهي قصص بوليسية كُتِبت بأسلوب خيالي يقرب

Twitter: @ketab_n

من قصص الجن وهي نتاج طبيعي لخيال أجاثا الفريد. يظهر السيد كُوِن الغامض ذو الوجود غير المرئي، الذي يعمل وسيطاً في إحداث التغيير في الأوقات الحرجة، دون أن يعرف له مكان ومن غير تقديم أية مساعدة ظاهرية، ويوحي إلى السيد ساترثويت التفكير في حل أي لغز يصادف أن يشغله حينئذ. ويصل السيد ساترثويت المتعجرف بالفطرة، الذي يفضل التنقل في الأوساط الأرستقراطية العليا ويقدر الفنون، إلى المكان، وهو مكان جريمة القتل عموماً، في أوقات حرجة. وينشغل بـ «دفع المصراع والنظر عبر النافذة إلى حقيقة حياة الناس» (ص ١٢٨).

القصتان المفضلتان لدي هما (روح مدير اللعبة في نادي القمار) وتدور في الكبرياء والإذلال، و(الرجل القادم من البحر) التي تعطي سبباً قوياً لردع أي انتحار. وطرحت فكرة مشابهة في رواية (نحو الصفر) (١٩٤٤). وأروع مجموعة قصصية هي (زقاق هارلكوين) التي تختتم بها هذه المجموعات، تشهد هذه القصص على ولع أجاثا بالموسيقى وكذلك ولعها الأولي بالفن الحديث. وقد نشرت القصة الأخيرة في هذه السلسلة وهي بعنوان (طقم شاي هارلكوين) مستقلة في (جرائم الشتاء ٣) (مكميلان ١٩٧١).

ثمة شكل ناجح آخر من الحكاية الخيالية وضعته أجاثا هو سلسلة من القصص جمعت تحت عنوان (پاركر پاين يحقق) (١٩٣٤).

السيد پاركر پاين استشاري من نوع فريد، إذ إنه يمتلك المهارة العلمية لمعالجة شؤون القلب ومن قصصي المفضلة (قضية الزوجة الكهلة)، وفيها ينقذ تدخّل پاركر پاين السيدة من فقدان زوجها عندما تحشد الظروف كلها ضدها.

هناك قصتان نموذجيتان. الأولى بعنوان (البيت في شيراز) وهي

Twitter: @ketab_n

تذكّر خيالي يستند إلى زيارة قمنا بها إلى هذا المسكن المنعزل في نحو عام ١٩٣٣. وكان له سقف مطلي غير متوقع ضم سلسلة لوحات تمثل زيارة مالك البيت إنجلترا في العقد التاسع من القرن الماضي. وكانت بينها لوحة تمثل جسر هولبورن وأعتقد أن الشاه استعمل هذا البيت قصراً صيفياً وتتسم قصة أجاثا التي تدور فيه بالأصالة وهي تحفة رائعة في علم النفس. والقصة الأخرى المرتبطة بمكان تحمل عنوان (لؤلؤة الثمن) وهي تسجل زيارة البتراء التي قمنا بها في زهاء الوقت نفسه. وتُوضح هذه المجموعة من القصص أيضاً المدى غير العادي لخيال أجاثا.

ليس من المناسب أن يجعل زوج من نفسه ناقداً لكتب زوجته ولن أحاول القيام بذلك، إذ لست مؤهلاً لهذه المهمة على الرغم من أنني قرأت الكتب باستمتاع لا يقل عن القارئ العادي. فعندما يتصل الأمر بالنقد يبدو لي أن ناقد الروايات البوليسية الأدبي يعاني من وضع غير مؤاتٍ، لأنه ملزم بعدم الكشف عن حلّ العقدة الرئيسة للرواية. إن جوهر كتابة الروايات البوليسية وهو وضع مشكلة وفكّ خيوطها المتشابكة غالباً مرحلة بعد أخرى. لذا فإن التحليل الأدبي يمكن أن يفسد الكتاب على القارئ. إنني أحس بشعور، ربما غير منصف، أن ناقد الروايات البوليسية التحليلي مخادع أو أحمق. وهذا الرأي يجعلني لا أعرض إلا بضعة تعليقات عن التأثير الشخصي للقصص فيَّ وعلاقتي بقليل منها.

يكتب المعجبون إلى أجاثا في أحيان كثيرة. وبعد أن يكشفوا عن أفضلياتهم يسألونها عن القصص المفضلة لديها. وجوابها هو أن آراءها تتبدل من حين إلى آخر، لكنها تذكر دوماً رواية (قتل روجر أكرويد) (١٩٢٦)، و(الحصان الشاحب) (١٩٦١) و(الإصبع المتحرك)

Twitter: @ketab_n

(١٩٤٣) و(الليلة اللانهائية) (١٩٦٧). والرواية الأخيرة من الروايات المفضلة لدي أيضاً، ويعود السبب جزئياً إلى بنيتها: الفهم العميق لشخصية منحرفة سنحت لها فرصة التحول إلى الخير واختارت سبيل الشر. إن الدراسة الضمنية للخير والشر لا تغيب عن معظم كتب أجاثا مع فهم أصيل وبديهي للدراسة النفسية المرافقة له. وفي رواية (الليلة اللانهائية) يمسرح المنظور بمكان الحقل الملعون المسمى جبسيز ايكر (أرض الغجري) وقد أشير إليه بحضور أجاثا في أرض سبخة في ويلز وترك في نفسها تأثيراً عميقاً. حولت الرواية إلى فيلم تضمن الكثير من التصوير الفوتوغرافي الجميل، إلا أن إخراجه بدا لي صعباً وفقدت الشخصيات عمقها. وفي رأي أجاثا والكثير من قُرائها أن كل شيء أفسد بإدخال مشهد جنسي في نهاية الفيلم كان غريباً تماماً عن أفكار أجاثا.

في رواية أخرى مفضلة بعنوان (الحصان الشاحب)، وهو عنوان يشير إلى سِفْر الرؤيا للقديس يوحنا المعمدان، تمتعت أجاثا على نحو خاص باستعمال سم أشار عليها به طبيب في أميركا.

يمكن أن يؤدي هذا السم إلى أنواع كثيرة مختلفة من الموت، ولكن هناك عارض تشخيصي واحد للطريقة التي قتلت بها الضحية. ولفهمه ينبغي أن تقرأ الرواية المستندة إلى معرفة علمية فنية. للرواية نتيجة نادرة وغير عادية في الحياة الواقعية أُبلغت بها أجاثا في رسالة من معجبة من أحد أقطار أميركا اللاتينية مؤرخة في ١٥ حزيران/ يونيو ١٩٧٥. أدركت كاتبة الرسالة، التي ستبقى مجهولة الاسم، أنها تواجه حالة محاولة اغتيال كانت فيها زوجة شابة تحاول قتل زوجها بدس السم له بجرعات صغيرة متكررة في فترة طويلة نسبياً. واختتمت الرسالة بهذه السطور: «أنا واثقة بذلك تماماً ولو أنني لم أكن قد قرأت

Twitter: @ketab_n

رواية (الحصان الشاحب)، وعرفت آثار التسمم بالثاليوم لما نجا (س) الذي لم ينقذه سوى التطبيب السريع، وحتى لو توجه إلى المستشفى لما عرف الأطباء المشكلة في الوقت المناسب. مع تقديري المخلص وإعجابي».

في رواية (المرأة المكسورة من جانب إلى آخر) استعمال غير عادي للمعلومات الطبية متمثلاً في التحويل المتعمد والشرير للحصبة الألمانية في ظروف غريبة.

تدور حوداث رواية (الإصبع المتحرك) في قرية إنجليزية نائية وتتناول مجتمعاً صغيراً مغلقاً يمارس أفراده هوايات جيدة بسيطة. وطبيعي أن القِيل والقال عماد الحياة. نكتشف في هذا الوسط أن قلماً مسموماً كان فاعلاً وسبَّب مآسي. وحدثت سلسلة جرائم قتل محيرة بمساعدة «شخص ما يعرف الشيء الكثير عن الشر». وهو الاسم المستعار للآنسة ماريل المولعة بالتحليل. يضيف حبٌّ ذو طابع غير مألوف بريقاً إلى حلية مبتذلة. وتحل القصة المعقدة للجريمة بمساعدة أساليب أجاثا الأصيلة وغير المتوقعة إطلاقاً. إن هذه الرواية مفضلة حقاً لدى الكثيرين من القُراء.

أشرت إلى رواية (قتل روجر أكرويد) في فصل آخر. وربما تعد أشهر روايات أجاثا بسبب عنصر المفاجأة وصعوبة تتبّع القاتل. ومن الغريب أن الفكرة الأساسية للرواية اقترحها في رسالة كتبها لورد مونتباتن وهو في منتصف العمر، وقبله جيمز واط نسيب أجاثا.

تدور حوادث روايتين في مصر، ويعود أحد الأسباب في ذلك إلى أننا سافرنا معاً، ولكنهما لا تشيران إشارة خاصة إلى علم الآثار. إن بعض الأماكن التي أقمنا فيها مثل قصر الشتاء وإحدى رفيقات السفر، وهي ليدي فيرنون الشخصية اللطيفة المسنة، تثير ذكريات

Twitter: @ketab_n

شخصية. ويرد ذكرها في رواية (موت على النيل) وهي من روايات بوارو حُوّلت في عام ١٩٤٦ إلى مسرحية بعنوان (جريمة قتل على نهر النيل). والرواية الثانية التي تدور أحداثها في مصر هي (الموت يأتي في النهاية) (١٩٤٥).

تعد رواية (جريمة قتل في بلاد الرافدين) (١٩٦٣) أوثق صلة بعملنا. ولم يكن في الإمكان كتابتها إلا بفضل معرفة أور الكلدانيين ودوري مدير البعثة اللذين تولاهما المرحوم ليونارد وولي وزوجته كاثرين النزّاعة إلى السيطرة. هنا ربما اقتربت أجاثا من الوقائع وأظهرت قلقاً على ما يمكن أن تقوله هذه الشخصية الروائية. ولحسن الحظ، وربما لم يكن ذلك أمراً غريباً، لم تميّز كاثرين صفات معيّنة ربما كانت تنطبق عليها ولم تظهر استياءً. وفي هذه الرواية صُورت على أني ايموت، الشخصية الثانوية المحترمة.

إذا استعرضنا سلسلتها الطويلة من القصص البوليسية نجد أنها تشترك جميعها في العنصر الروائي المثير الذي يسحر المولعين بمطالعة الروايات. هناك الكثيرون ممن لا تجتذبهم الروايات البوليسية، إلا أن عدد المولعين بقراءتها بلغ الملايين. كتبت القصص بلغة المحادثة الإنجليزية اليومية الواضحة الممتازة في بساطتها وغير المتكلفة وأحياناً غير الصحيحة نحوياً، كما هي المحادثة في أحيان كثيرة، والتي هي في صميم الموضوع. هناك دعابة وأحداث متضاربة وانفعال شديد، ويبقى القارئ مسلوب اللب حتى النهاية. ورسم الشخصيات متين ورشيق. ويقول بعض النقاد إنه يفتقر إلى العمق، ولكنها، على ما قال أحد الفرنسيين، «ليست شخصيات، بل تخطيطات لشخصيات». وهذا أمر ممتع أكثر لأن القارئ كثيراً ما يترك له بذل جهوده الخاصة لاختراق السطح. هناك، قبل كل شيء، براعة لا تصدق وعنصر

Twitter: @ketab_n

مفاجأة كثيراً ما يترك القارئ خائب الأمل مخدوعاً، وأخيراً يواجه حلاً غير متوقع ومقبولاً تماماً. تبذل أجاثا عناية شديدة بالنواحي الفنية وتحصل على الحقائق المرتبطة بالمسائل الطبية والسموم وترياقاتها. ومن خبرتها وتدريبها وعملها في صيدليات المستشفيات أصبحت لها خبرة الصيدلي المحترف. وعُنيت أيضاً باستشارة الثقات المهنيين في شؤون الشرطة والقانون وإجراءات المحاكم. ولذا فإن المدربين تدريباً علمياً يقرأون كتبها. وتلقت أجاثا في حياتها آلاف الرسائل من المعجبين برواياتها. كان القليل منها انتقادياً ومعظمها يعبّر عن الامتنان. وشعرت بالارتياح عندما كتب محامٍ يشكو من جهلها بقانون الميراث لأنها تبذل أقصى عناية بهذه المسائل. وفي تلك المناسبة استطاعت أن تظهر أن معلومات المحامي نفسه قديمة، وأن القانون عُدّل، وأنها مصيبة. وستعود بعد قليل إلى قانونها الأخلاقي، ولكن لأننا أشرنا إلى تخطيطات شخصياتها لا بدّ أن نمحصها ثانية باسم ميري ويستماكوت.

كان لنجاح أجاثا بوصفها كاتبة روايات بوليسية ضرر واحد، إذ إن ناشري رواياتها عارضوا أية رغبة لها في التأليف بوسيلة أدبية أخرى. لم يؤلف أي كاتب روايات بوليسية بهذا الشكل مدة طويلة. وتخلت دوروثي ل. سيرز، التي كانت أشهر معاصراتها، عن تأليف الروايات البوليسية بعد سبع أو ثماني روايات ناجحة وتحولت إلى الكتابة عن الدين ودانتي وأشكال أخرى من الأدب.

رغم ذلك حان الوقت الذي أصرت فيه أجاثا على الإذن لها بالنشر وشرعت تكتب باسم ميري ويستماكوت. إن موهبتها في كتابة الروايات جيدة بحيث إن تلك الكتب لقيت رواجاً على الفور. ومرت سنوات كثيرة قبل الكشف عن الاسم الحقيقي. واستطاعت أجاثا،

Twitter: @ketab_n

بوصفها ميري ويستماكوت، أن تكتب عن أفكار كثيرة كانت تعنى بها وهي الموسيقى، والمسرحية، والتحليل النفسي للطموح، ومشاكل الفنانين. وتناولت في (خبز العملاق) مثل هذه الأفكار. إلا أنني أعتقد أنها في هذا الشكل من الكتابة حصلت في الواقع على حرية تناول الشخصيات بعمق وتحررت من قيود الحبكة البوليسية التي كان لا بدّ من إخضاع كل شخصية لها. في القصة البوليسية التي يواجه فيها القارئ تحدي الكشف عن القاتل يصعب ترتيب دراسة مستمرة لشخصية واحدة، والأصعب من ذلك دراسة عدة شخصيات. وتحررت من القيد باسم جديد.

ابتداءً من رواية (خبز العملاق) (١٩٣٠) المكرسة لذكرى أمها كتبت قصة عن مؤلف موسيقي عبقري كان عليه أن يحرر نفسه من حب الروابط الإنسانية لتحقيق هذه الغاية وخلق آثاره الفنية.. هل كان الثمن أكبر مما ينبغي؟ يترك للقارئ اتخاذ القرار. أعتقد أن هذه القصة المأساوية هي جزئياً نتيجة الاتصال بموسيقي كان أبواه معروفين جيداً لشقيقة أجاثا وهو روجر كوك الذي توفي منذ زمن بعيد. تلت ذلك رواية (لوحة لم تنجز) (١٩٣٤) وهي سيرة ذاتية يختلط بها الخيال وكتبت عنها بإسهاب في الفصل السابق.

وتأتي بعد ذلك رواية (غائب في الربيع) (١٩٤٤). وكانت لها خلفية مألوفة، إذ إنها كانت قصة امرأة عائدة من زيارة ابنتها في العراق وهي مشلولة الحركة في القطار بسبب غرق خط السكة الحديدة بمياه الفيضان. القصة تقوم على الاستبطان وهي إعادة تقويم الشخصية وتأمُّل خطر التظاهر بالتفوق على الآخرين في المعرفة. ولقيت تقديراً عالياً في صحيفة نيويورك تايمز من دوروثي هيوز حيث كتبت: «لم أتأثر عاطفياً بقصة منذ قراءتي رواية (لقاء قصير)... مثلما تأثرت

Twitter: @ketab_n

برواية (غائب في الربيع). إنها تجربة تتطلب القوة وهي أثر أدبي من الطراز الأول».

فكرة رواية (الابنة هي الابنة) (١٩٥٢) مألوفة في الحياة وهي علاقة الحب ـ الكراهية الكامنة بين أم وابنتها الوحيدة وتتضمن لحسن الحظ إدراك الصلات التي تقود إلى المصالحة النهائية.

تعالج رواية (العبء) (١٩٥٦) عبء أن يُحِب المرء وأن يُحَب والرفض السهل للمشورة الحكيمة، وهي أيضاً دراسة تقوم على الاستبطان، وإدراك أن الهرب التام مستحيل في نهاية المطاف.

إن رواية (الوردة وشجرة الصنوبر) (١٩٤٧) في رأيي أكثر روايات ميري ويستماكوت قوة وإثارة، ووصفت بأنها رواية غرامية وتقوم على التشويق وتتركز في شخص جابريلا الرجل الشجاع والشديد الطموح والقادر على الخير الوافر والشر والحاصل على وسام صليب فيكتوريا الذي يمتلك القدرة على المعاناة ونكران الذات.

وتمتعت في هذا الكتاب بصورة السيدة الأرستقراطية تربسليان، والتناقض المرسوم على نحو فاعل بينها وبين إيزابيلا الأرستقراطية والمتودد إليها المتسم بالخشونة. في رأيي إن هذه الرواية تعد من الآثار الأدبية الممتازة ولن يكون مصيرها النسيان.

تتسم روايات ميري ويستماكوت بنوعية غير متساوية، إلا أن كل واحدة منها ممتعة القراءة وتضم دراسات عن الشخصية التي تستوعب بسهولة بفضل موهبة أجاثا غير العادية في رواية القصص. هذه الروايات في أحسن الأحوال مثيرة وتركز الاهتمام على حل الحالات التي تنشأ عن التوتر الشديد في الحياة. ومن المؤسف أن تنسى وسط إنجاز الروايات البوليسية الكبير. ولا أعتقد أنها ستنسى.

نعود الآن إلى الروايات البوليسية. ما الذي ساعد في نجاحها

Twitter: @ketab_n

الساحق الذي أدى إلى أن يقرأها ألفا مليون شخص[1]؟ أولاً، الفن الممتاز لرواية القصة الذي يحافظ عليه خيط مستمر بحيث إنك عندما تقرأ فصلاً لا تستطيع مقاومة المضي إلى قراءة الفصل الذي يليه وتحس بألم عندما تترك الكتاب. والمؤلف الوحيد الآخر الذي أعرف أنه يتمتع بهذه الموهبة سواء بسواء هو جراهام جرين. الأسلوب يقوم على المحادثة وجزء من الحياة الواقعية وقد أدركت ذلك بجلاء عندما تعودت سماعها وهي تملي باستخدام المملاة (الدكتافون). تعودت أن أقول لنفسي: «من جاء لزيارتنا اليوم؟» وأنا أستمع إلى محادثة شيقة في غرفة الصباح الصغيرة أسفل السلم في والنكفورد.

شعرت بذلك عندما كانت أجاثا تكتب آخر رواية لها هي (باب القدر) (١٩٧٣). كان تومي وتپنس محققين سريين عملا معاً في الحرب العالمية الأولى وظهرا الآن في سن السبعين ومنحا كثيرين من القُراء متعة جديدة. كان ترتيب هذه الرواية الزمني ناقصاً، ولكن من متع قراءة مؤلفات أجاثا أنه أحياناً ونادراً ما يستطيع البارع الملم بكل شيء والعاجز عن وضع عمل خيالي بنفسه أن يكتشف وجود خلل.

من المتع الإضافية المحققون السريون الذين أصبحوا الآن أبطال هذا الشكل من الروايات. كان لبوارو مساعد، هو هاستنكز الذي يبرز محاسنه بالمغايرة مثلما كان واتسن يظهر محاسن شيرلوك هولمز بالمغايرة. وصفت كلمات بوارو العلاقة جيداً (قضايا بوارو الأولى) (١٩٧٤ ص ٢١١): «أحياناً يا هاستنكز أشعر بالأسف لأنني أمتلك

(١) في عام ١٩٧٥ قدر على نحو موثوق أن مبيعات كُتب أجاثا بلغت ٤٠٠ مليون نسخة وإذا حسبنا على وفق الأساس المتبع في مكتبات الإعارة أن كل نسخة يقرأها خمسة قُراء نحصل على مجموع ٢٠٠٠ مليون قارئ.

Twitter: @ketab_n

هذه النزعة الأخلاقية وسيكون من الممتع لأجل التنويع العمل ضد القانون» (الصفحة ٢٩٤) و«لكم أشتاق إلى صديقي هاستنكز، إذ إنه كان يتمتع بخيال خصب. إنه رومانتيكي التفيكر! صحيح أنه كان مخطئاً دائماً إلا أن ذلك نفسه كان الدليل». وعلى الرغم من أن بوارو أصبح مزعجاً لأجاثا، فإنه بفضل تهريجه وغرابة أطواره وسلوكه الغريب وغروره أصبح محبباً لدى قُراء رواياتها وناشري كتبها بحيث لم يسمح لها بالتخلي عنه. نشرت قضية بوارو الأخيرة (الستارة)، التي كتبت قبل زمن طويل، في عام ١٩٧٥ وهي عمل أدبي قصير رائع متسم بالمهارة الرائعة ذو نهاية مثيرة وممتازة.

الشخصية المفضلة عموماً هي الآنسة ماربل المرأة المسنة الحكيمة التي تجلس في ردهتها بهدوء تراقب كل ما يجري حولها وهي مراقبة بارعة لا سبيل إلى تغييرها، تميل إلى الاستنتاج والتكهن ولطيفة على نحو خادع وواقعية ذات ذوق لاذع وخبرة في الطبيعة البشرية جعلتها متهكمة بإقناع. احتلت هذه الشخصية الرقيقة والحازمة في آن واحد، دائماً مكاناً في قلوب قُراء أجاثا. وهناك رواية أخرى هي (اغتيال نائم) تبرز فيها الآنسة ماربل، نشرت بعد وفاة أجاثا. وإذا نجحت مثل رواية (الستارة) فإنها ستسجل رقماً قياسياً آخر.

كان آخر المحققين السريين ذوي الخيال الخصب السيدة أولفر التي رسمت شخصيتها برشاقة، ولكنها صورة لأجاثا نفسها، على سبيل المثال في رواية (الفيلة تستطيع أن تتذكر) (١٩٧٢) و(بطاقات على الطاولة) (١٩٣٦) وهي رواية بارعة. وكان من سمات السيدة أولفر الحمق والتصرفات التي لا يمكن التنبؤ بها. تضمنت رواية (بطاقات على الطاولة) وصفاً ممتازاً لألم الكتابة وكدحها وأعتقد أن المقطع الذي يتناول هذا الموضوع لا بدّ أنه كتب لفضح زيف بعض

Twitter: @ketab_n

القُراء الذين كتبوا إليها مرّات كثيرة قائلين إن الكتابة شيء رائع بلا ريب.

لا شك في أن أكثر المحققين السريين شهرة في روايات أجاثا هو هيركول بوارو الذي امتدت شهرته بوصفه بطلاً لفيلم (جريمة قتل في قطار الشرق السريع) إلى أرجاء العالم كافة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع عشر

قطار الشرق السريع

لا أستطيع أن أتذكر سوى أشياء كثيرة أكثر بهجة من السفر بقطار الشرق السريع مخترقاً الأقطار الواحد بعد الآخر ومخلفاً أوروبا وراءه ثم مواصلاً الرحلة عبر السهول الواسعة وجبال آسيا الصغرى إلى سوريا. كانت رحلة غاية في المتعة بينما يتفرج المسافر على المشهد المتغيّر باستمرار من سرير مريح في عربة القطار أو عبر النافذة الزجاجية الكبيرة في عربة الطعام. ولن أنسى أبداً ما حدث لي في ذلك الموقع.

كنت جالساً وثلاثة رفاق نتناول الغداء وكان أحدهم الآثاري الفرنسي الشهير كلود شيفر وكان في طريقه إلى أوغاريت[١] للتنقيب فيها، بينما كنت في طريقي إلى شكر بازار. وفجأة مال مساعده جورج شينيه وقال لي: «هل قرأت قصة بوليسية بعنوان (اغتيال روجر أكرويد)

---

(١) أوغاريت أو رأس شمرا مدينة كنعانية تقع شمالي اللاذقية في سوريا، كانت لسكانها علاقات تجارية بمصر وبلاد الرافدين. احترقت بزلزال شديد عام ١٣٦٥ ق.م لكنها ازدهرت ثانية ثم أسقطها الأيجيون عام ١٢٠٠ ق.م واكتشف فيها شيفر عام ١٩٣٢ قصوراً ملكية وألواحاً مسمارية كثيرة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

لأجاثا كريستي؟، أجبت: أجل بلا شك إنها رواية أصيلة حقاً لا يمكن أن تنسى بسهولة». فمضى قائلاً «وهل قرأت رواية (الرجل في البدلة البنية) و(اغتيال في قطار الشرق السريع)؟ فأجبت: أجل، وقرأت روايات الكاتبة الأخرى لأنني زوجها». لم يصدق أحد تلك الملاحظة في البدء، وكان السبب يعود إلى حد ما إلى أن اثنين من رفاقي كانا يعرفان حقيقة الوضع وعدّا الأسئلة الموجهة إليّ دعابة.

لم تكن رواية (اغتيال في قطار الشرق السريع) مسألة تثير الضحك وأشعر باعتزاز خاص بهذه الرواية التي أهديت إليّ في عام ١٩٣٣. وكنت قد اقترحت على أجاثا شكلاً جديداً لمعالجة روايات جرائم القتل، ولا أنوي الكشف عنه خشية إفساد متعة القُراء، إلا أن أجاثا هي التي اختارت كما اعتادت إطاراً غير متوقع وناجحاً جداً هو قطار خاص اختفى منذ زمن بعيد. ولحسن الحظ أنها بقيت حية وألفت الرواية، إذ قبل كتابتها بفترة قصيرة وبينما كانت تقف في محطة قطار كاليه زلّت قدمها على الرصيف وسقطت تحت القطار. ولحسن الحظ كان أحد الحمالين قريباً وانتشلها قبل أن يشرع قطار الشرق السريع في الحركة.

كانت الرواية جيدة، وتمتع بها عدد لا يحصى من القُراء، وهكذا ساعدت في تحقيق سجل فريد، وذلك عندما حولت إلى فيلم عام ١٩٧٤ في أنجح محاولة لتحويل رواية إلى فيلم. لم تكن هناك متعة مشاهدة قطار الشرق السريع يعود بعد توقف طويل فحسب، بل إن مجموعة الممثلين لم تضم سوى النجوم المنسجمين جيداً انسجاماً غير متوقع. وعلى الرغم من أن ألبرت فيني لا يشبه بوارو فقد قدم عرضاً رائعاً. ومن الجانب الفني كان تناول الشخصيات ضمن الحدود الضيقة لممر في قطار بارعاً، وكان حل عقدة الحبكة في الفيلم أسهل مما في الرواية. كانت أجاثا نفسها تنفر دائماً من إعداد أفلام تستند إلى

Twitter: @ketab_n

رواياتها، إلا أنها اقتنعت بإطراء هذا الفيلم الذي وصف في صحيفة التايمز بأنه «التزم وعلى نحو مؤثر» برواية السيدة كريستي. وأضاف الناقد ديفيد روبنسن يقول:

«إن الفيلم يبقى تماماً في مستوى أجاثا كريستي، ويتطلب التعديلات نفسها والترقب غير المستقر نفسه لعدم التصديق».

ليس هذا نقداً غير منصف إذا أدركنا أن معظم قُراء أجاثا لا يجدون شيئاً غير مستقر لأن لديها، من خلال الإقناع، الفن السحري لنقلنا إلى عالم أحلامها مهما كانت غرابتها. إن الحبكات التي قد تعد في مرتبة عالية في ترتيب اللااحتمالية لا يمكن عدّها مستحيلة وتصبح حالياً حقيقة واقعة. هذا التحول الشديد إلى الواقع هو الذي يستطيع الكاتب الذي عاش في الخيال أن يحدثه. وعلى خلاف الرأي المعلن تعامل الحقائق الصغيرة بعناية شديدة وبواقعية. شطح قلم ناقد صحيفة التايمز عندما ذكر أن مخرج الفيلم سدني لوميت «لا يحاول حتى إخفاء الغرابة التي يلاحظها المرء في الرواية وهي أن قطار الشرق السريع في هذه الحالة قصير وركابه قليلون». إلا أن أجاثا كانت تعرف من الخبرة الطويلة أنه توجد عربة واحدة في أحيان كثيرة، ولهذا السبب تماماً كان ينبغي حجز كل مقصورة في القطار مسبقاً وقبل فترة طويلة. إن المعالجة الصحيحة للتفاصيل غير المتوقعة من هذا النوع تضيف سحراً إلى متعة القارئ المدرك.

حدث في أفلام أخرى بعض حالات المحاكاة المضحكة والمخزية لا سيما ما فعلته الممثلة الممتازة مارجريت رذرفورد التي أسند إليها دور الآنسة، وكان ذلك خطأً كبيراً، وربطت بطريقة مضحكة بإسطبل مؤسنسة لتأجير العربات. إن حالات التحريف من هذا النوع تثير حنق المؤلف، إلا أنها تصبح أصعب تحملاً عندما يكتب

Twitter: @ketab_n

المعجبون قائلين إنهم تمتعوا كثيراً بالفيلم دون التفكير لحظة واحدة إن كان الفيلم يعكس بصدق الرواية الأصلية التي بني على أساسها.

لم يظهر أي من هذه التحريفات في فيلم قطار الشرق بفضل الخيال البارع لمخرجه لورد برابورن الذي يستحق الإطراء التام لتصوره صلاحية الرواية لسينما. والواقع أن هذا الفيلم أحرز من دون مناقسة جائزة عام ١٩٧٤ بوصفه أكبر صادرات بريطانيا كما أحرز نجاحاً عالمي النطاق. بدأ عرض الفيلم بداية رائعة في إحدى دور العرض في شافتسبري أفنيو بلندن برعاية ملكة بريطانيا. حضر العرض الأول معظم ممثلي الفيلم وممثلاته وما زلت أحمل انطباعاً شخصياً قوياً عن سحر أنجريد بيرجمان وذكائها الحاد كما أنها تدربت على نطق الإنجليزية بلكنة سويدية لأجل تمثيل دورها في الفيلم. وأحرز هذا الفيلم ثلاثاً من مجموع الجوائز السنوية البريطانية لعام ١٩٧٥ واختير أفضل فيلم لعام ١٩٧٥ واختير ألبرت فيني أفضل ممثل واختيرت وندي هيلر أفضل ممثلة في ذلك العام.

احتفل في ليلة العرض الأول بإقامة مأدبة في فندق كلاريجز وكانت تلك آخر مرة سمحت فيها صحة أجاثا لها بحضور عرض عام في لندن وكان عمرها حوالي ٨٥ سنة وتمتعت كثيراً بالعرض وما زلت أحتفظ بصورة لورد مونتباتن وهو يرافق أجاثا إلى خارج قاعة الطعام في منتصف الليل ويرفع ذراعها مودعاً. ورغم خجلها تمتعت بتلك المناسبة متعة تامة.

أُعدّ عدد من الأفلام الناجحة المستندة إلى روايات أجاثا أو مسرحياتها. وأول هذه الأفلام (أليباي) الذي أعد عن رواية (قتل روجر أكرويد) وحقق نجاحاً كبيراً أيضاً ولعب فيه فرانسز سليفان الدور الرئيس. وكان أنجحها (شاهد الادعاء) المعد عن المسرحية وأخرجه

Twitter: @ketab_n

بنجاح بيلي وايلدر في أميركا. برز في هذين الفيلمين اثنان من الممثلين الكبار في ذلك الوقت هما تشارلز لوتن والرجل الضخم والشخصية الساحرة فرانسز سليفان.

أحرزت بعض مسرحيات أجاثا ما حققته رواياتها من شهرة ورواج وأعتقد أن معظم النقاد يضعون مسرحية (شاهد الادعاء) في القمة.

اجتذبت محكمة أولد بيلي، التي اختيرت مكاناً لمشاهد المسرحية، الجمهور بقوة، إذ شعر كأنه في قفص الاتهام. ولن يستطيع أي شخص شاهد المسرحية أن ينساها وهذا أعلى إطراء لعمل فني. كانت باتريشيا جيسيل بارعة في أداء الدور وكان متوقعاً أن يستمر عرضها فترة طويلة، إلا أن عدد الممثلين واتساع مسرح ونتركاردن وموقعه غير الملائم كل هذا منع استمرار عرض المسرحية فترة طويلة وهو ما كانت تستحقه. وعندما انتقلت المسرحية إلى نيويورك كان من الصعب إقناع المسؤولين عنها بعدم نقل المشهد من محكمة أولد بيلي إلى مجلس اللوردات. وفي لندن كانت هذه المناسبة الوحيدة التي عرفت فيها أن أجاثا تمتعت بليلة العرض الأولى. وكان واضحاً من البداية أن المسرحية حققت نجاحاً كبيراً. وفي نهاية العرض انحنى الممثلون والممثلات مجتمعين للمؤلفة. وقال بيتر ساوندرز، الذي قدم قصة سينمائية رائعة ولم يقيد أي إنتاج، إنه لم يسبق أن شاهد مثل ذلك العرض الذي أعرب الجميع فيه عن إعجابهم المخلص.

في رأيي، إذا كانت مسرحية (شاهد الادعاء) أفضل مسرحية لأجاثا فإن المسرحية التي تلتها وهي (التجويف) كانت معروفة أقل منها بكثير ولم أشاهدها تقدم بأسلوب جديد ببنائها سوى مرة واحدة في مسرح برنسيس بمدينة توركي عام ١٩٧٣، حيث أخرجها برقة تشارلز فانس الذي جعلها وحدة متماسكة تنبض بالحياة واستحوذت

Twitter: @ketab_n

فيها الحبكة على اهتمام الجمهور المستمر طوال تمثيل المسرحية وهو إنجاز كبير عندما تكون المسرحية بوليسية، إذ إن الانتباه المركز ضروري من غير إنهاك ذهني. لم يكن في هذا العرض نجم، لكنّ المشتركين في التمثيل قدموا المسرحية كفريق وكان ذلك فاعلاً جداً.

وكانت الحال على النقيض من ذلك في إنتاجات أخرى للمسرحية نفسها، كما حدث على سبيل المثال عندما بدأ عرضها في لندن ومثلت فيها الممثلة الكوميدية الشهيرة جان دو كاسالي، إذ كانت في المسرحية كلها كأنها ملكة النحل مما أضر بالآخرين.

بعد عدة سنوات شاهدت المسرحية تعرض في كليفورد وكانت نجمتها سسيلي كورتنيج الشخصية المحبوبة والساحرة التي أحب الجمهور تهريجها، إلا أن أداءها أفسد المسرحية في رأيي. هنا جاءوا لمشاهدة سسيلي وليس أجاثا. وتمتع الجمهور فعلاً بتمثيل سسيلي، إلا أنني صفقت لجاك هلبرت الذي مثل دوره ببراعة مثيراً إعجابي مثل أي ممثل بارز.

غير أن مشاهدة سسيلي ذكرتني أنه كثيراً ما يكون إنتاج مسرحية ما معركة بين المؤلف المسرحي والممثل، وما أصعب أن ينجح المخرج في التوفيق بين الاثنين. وعندما ينجح فإنه يستحق نصراً فنياً.

أعدّت أجاثا نفسها ببراعة مسرحية (التجويف) عن رواية لها بأسلوب يظهر ميلها إلى المسرح. ومما يثير الاهتمام مقارنة الرواية التي نشرت عام ١٩٤٦ بالمسرحية التي قدمها بيتر ساوندرز في مسرح فورتشن عام ١٩٥١. هنا استثمرت أجاثا الإمكانية الدرامية للرواية استثماراً كاملاً مع أقصى الاقتصاد في تجميع الحبكة واستبعاد بوارو أحد شخوص الرواية. ليست الرواية في رأيي إحدى أفضل رواياتها لأنها مفككة وكانت تضم على نحو غير عادي عدة قصص عاطفية، إلا

Twitter: @ketab_n

أن تصوير النساء فيها اتسم بعمق نتيجة استشراف أنثوي متسم بالتبصر. وهناك إشارة ترتبط بحدث في حياتي أود أن أذكرها وهي تقليد طريف للحقائق، إلا أنه مقارب للواقع. يقول سير هنري (الصفحة ٥٣ من الكتاب) وهو يتذكر حادثاً خطيراً على البوسفور: «هل تتذكرين يا عزيزتي أولئك الأشقياء الذين هاجمونا في ذلك اليوم في الجانب الآسيوي من البوْسفور؟ كنت أصارع اثنين منهم كانا يحاولان قتلي. وما الذي فعلته لوسي؟ أطلقت رصاصتين. لم أكن أعرف أنه كان لديها مسدس. أصابت أحدهما في ساقه والآخر في كتفه. كانت أصعب نجاة في حياتي. ولا أعرف كيف أنها لم تصبني». هذه الحكاية حقيقية والفرق الوحيد هو أن أجاثا، على خلاف الليدي انكاتيل، كانت قد سلحت نفسها ليس بمسدس بل بصخرة مدورة كانت مستعدة لإسقاطها على رأس خصمي. نادراً ما شعرت بخطر الموت يحيق بي رجماً بالحجارة أكثر مما شعرت به آنذاك. ولحسن الحظ كانت لدي في تلك الأيام يدان قويتان وأصيب خصماي بالرعب وهربا. وسررت جداً لأنني كنت في المصرف قبل ذلك بقليل وكانت جيوبي ممتلئة بالليرات التركية. وهناك ملاحظة واحدة عن بوارو أحبها حباً خاصاً (الصفحة ٦٢): «لم يعن بالأشجار في أي وقت، لأنها تنفض أوراقها باستمرار. وكان بوسعه تحمل أشجار الحور وأطرى شجرة صنوبر، إلا أن هذا التمرد لأشجار الزان والبلوط جعله يتمسك برأيه. ويتمتع المرء حقاً بذلك المشهد من سيارة في عصر يوم جميل». وتجتذبني ملاحظة أخرى وردت في إشارة أخرى (الصفحة ١٨٦): «في رأي النحات تأتي الحقيقة أولاً. إلا أن الحقيقة مهما كانت مرة يمكن قبولها وإفراغها في خطة للمعيشة».

نأتي أخيراً إلى مسرحية (مصيدة الفئران) التي استمر عرضها أكثر

Twitter: @ketab_n

من أية مسرحية أخرى في العالم، ونجحت نجاحاً منقطع النظير بحيث إنها اجتذبت اهتمام الوحش الأخضر العينين ـ الحسد. شعر النقاد المعادون أن من الآثام التي لا تُغتفر احتكار مسرحية واحدة مسرحاً مدة طويلة كهذه. إلا أنني لا أكترث لمثل هذه الإخفاقات.

تنبأت أجاثا نفسها باستمرار عرض المسرحية ثلاثة شهور عندما بدأ عرضها في مسرح امباسادورز الصغير الجميل، ولم يكن رأي الآخرين مختلفاً وربما نستثني بيتر ساوندرز. وفي الواقع احتفل في ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٥ بالذكرى الثالثة والعشرين لبدء عرض المسرحية[٢]. وساهمت عدة عوامل في نجاحها الهائل، إضافة إلى العبقرية الطبيعية للمؤلفة، وهي عوامل يسهل نسيانها في التحليل. هناك قبل كل شيء صغر المسرح الذي يتسع لجمهور لا يزيد تعداده على ٥٠٠ متفرج أو ٤٩٠ متفرّجاً بالتحديد. وتبلغ سعة مسرح سنت مارتن المجاور الذي انتقل إليه عرض المسرحية ٥٥٠ متفرجاً. وبعد نجاح المسرحية بدأ التنافس على مشاهدتها، بل الرغبة الشديدة في الحصول على مقعد.

استغل بيتر ساوندرز الذي قدم المسرحية استغلالاً تاماً، وربما لم يكن بوسع أي شخص آخر أن ينجح مثله في التنظيم البارع واهتمامه بالدعاية وشجاعته في مواصلة عرض المسرحية خلال فترات صعبة، إذ كان لا مفرّ من أن تمرّ المسرحية بمثل تلك الفترات. ولحسن الحظ أن المسرحية بدأت وكان من ممثّليها نجمان مسرحيان كبيران هما ريتشارد اتنبره وزوجته الجميلة شيلا سيم، وكلاهما محبوبان وفنانان عظيمان يتمتعان بتقدير متقن للتوقيت.

---

(٢) يستمر عرض المسرحية في لندن في الربع الأخير من عام ١٩٨٧. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

إنها لطويلة سلسلة مجموعات ممثلي المسرحية على امتداد المدة الطويلة التي مضت منذ افتتاحها عام ١٩٥٢. فقد مثّل ما لا يقلّ عن ١٣٢ ممثلاً وممثلة فيها حتى الآن(٣).

بعد أن ذاع صيت المسرحية أصبح إيقاف عرضها صعباً، وأصبحت مشاهدة مسرحية (مصيدة الفئران) جزءاً من جولة السيّاح الأميركيين في لندن وهي تعادل في الأهمية إلقاء نظرة على قصر بكنهام وزيارة برج لندن. لديّ صديق هو الدكتور فيرنر، مدير مختبرات الأبحاث في المتحف البريطاني مدة طويلة، اصطحب زوجته لمشاهدة المسرحية بعد زواجه بقليل في السنة الأولى من بدء عرضها، وبعد سبعة أعوام اصطحب ابنته، وبعد ٢١ عاماً اصطحب حفيدته إلى المسرحية. وهكذا امتدت المسرحية عبر الأجيال.

إن مكان المسرحية وزمانها جزء من الحياة الإنجليزية، إذ تدور أحداثها في بيت ريفي يدعى منكسويل مانر استُخدم فندقاً بإدارة غير مؤهلة والوقت هو منتصف الشتاء ونحسّ نحن بمحاولة النزلاء تدفئة أنفسهم. ويستحوذ علينا حتى النهاية شعور الترقب والدهشة والحيرة والانتظار المتوتر لحل عقدة جريمة القتل. وهناك شيء آخر يضاف إلى ذلك كلّه وهو شعور بالحميمية وأن المتفرج جزء من الحياة الإنجليزية. نصبح جزءاً من العائلة مثلما يحدث عندما نشاهد مسرحية لكلبرت وسليفان(٤) حيث يتوقع الجمهور النكات ويترقبها بشعور

---

(٣) زاد العدد فعلاً منذ صدور هذا الكتاب بطبعته الإنجليزية عام ١٩٧٧. (المترجم).

(٤) أوبرات جلبرت وسليفان الهزلية ألفها سير آرثر سليفان ونظم أغانيها الطريفة و.س. جلبرت وقدمت في الفترة من عام ١٨٧٥ إلى عام ١٨٩٦ في مسرح سافوي بلندن. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

سعيد من الحدس. إن الجو في مسرحية (مصيدة الفئران) مشحون بهذه الطريقة ويسحر الأجانب الذين يشاهدونها كلهم بتأثيرها. وأتذكر مفاجأة سارة عندما شاهدت عرض المسرحية بالفرنسية في مسرح ايبرتو. كان الجمهور الفرنسي مبهوراً على الرغم من أنني كنت أتوقعه متحيراً إزاء الحياة الإنجليزية وإجراءات الشرطة. استمر عرض المسرحية هناك فترة طويلة على نحو يبعث على الدهشة بين عامي ١٩٧١ و١٩٧٣. وباختصار نجحت مسرحية (مصيدة الفئران) وسارت الأمور على ما ينبغي منذ بدء عرضها في ظل برج ملائم.

من ناحية أخرى لم يكن البرج الذي شرع في ظلّه في عرض أجمل وأعمق مسرحية كتبتها أجاثا وهي (أخناتون)[٥] التي تتسم بالبراعة في رسم الشخصيات وتحفل بالأحداث المتضاربة بعنف وتشويق. تتناول المسرحية شخصية ملك مؤمن بالمثالية ومتطرف في التدين وغير عملي أبداً استحوذ عليه حب الحقيقة والجمال استحواذاً يائساً وقدر له أن يكابد ويستشهد، إلا أنه كان مندفعاً في الإيمان ولم يشعر بخيبة أمل رغم تحطم أحلامه كلها.

أراد أخناتون الشاعر، الذي كره الملموس وعشق المجرد، أن تتخلى مصر عن الدين القديم للإله المبهرج أمون الذي أدخله أجداده، وإحلال عبادة حرارة قرص الشمس أتون محل تماثيل أمون البشعة. وصمم على هدم المعابد القديمة وتحطيم تماثيل الآلهة القديمة وحث على إلغاء الخنافس السود الصغيرة التي كان يقدمها الناس المؤمنون

---

(٥) أخناتون فرعون مصر (حوالي ١٣٧٠-١٣٥٣ ق.م) من ملوك السلالة الثامنة عشرة الذي تخلى عن عبادة أمون واعتنق ديانة أتون القائمة على التوحيد وأسس عاصمة جديدة في تل العمارنة الذي سيأتي شرحه فيما بعد. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

البسطاء إلى أوسايرس[٦]. ويشبه ذلك إيقاد الكاثوليكي الورع شمعة وتقديم النذور أمام مريم العذراء. وكان، شأنه شأن المفكرين المتعمقين جميعاً، يسبق عصره ويختلف عن الناس التقليديين والناس العاديين ويكره الكهنة طرّاً ورجلاً يحب السلام ويعارض دعاة الحرب جميعاً ويحب الفنانين ونحات بلاطه بيك وأتباعه المتخنثين. وكان واضحاً أيضاً تعلّق الملك الشاب المؤثر بقائد جيشه حور محب الذي يبدو كأنه خارج من ساندهرست[٧] مصرية قديمة وقد قدر له أن يصبح قائداً عسكرياً. أقسم حور محب أن يخدم الملك والبلاد ولكنه وجد نفسه قبل مضي وقت طويل نهباً لصراع الولاءات وهذا هو مركز اهتمام المسرحية.

هل المعاناة التي تفرضها المؤسسة الحاكمة أسوأ من معاناة تفرضها دولة مضطربة يكتنفها نوع آخر من الفساد، وهل الآلهة القديمة التي يسهل فهمها أقل شرعية من مفهوم الإله المجرد الواحد، وهل الفن الجديد والمعابد الجديدة وقصر الأُفق الذي صمم بترف (والذي ما تزال خرائبه في تل العمارنة) أفضل من الأشكال المعمارية والنحتية القديمة؟ إن مشاكل مصر القديمة تبقى معنا إلى الأبد. والتضحية بالقديم تنطوي لا محالة على نوع جديد من المعاناة والتخلي عن الرجال الطيبين والمخلصين الذين يُحكم عليهم بالموت بدلاً من أعداء الملك.

---

(٦) أوسايرس Osiris الإله المصري القديم للعالم السفلي الذي كان يصدر الأحكام على الموتى، وكثيراً ما يعد رمزاً للخصب ومصادره ولنهر النيل والشمس. (المترجم).

(٧) ساندهرست: هي الأكاديمية العسكرية البريطانية في كيمبرلي بسري لتدريب الضباط لوحدات الجيش كافة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ليس هناك في رأيي أي تصوير للشخصيات أبرع مما في هذه المسرحية في أية مسرحية أخرى كتبتها أجاثا، إذ رسمت كل واحدة من الشخصيات بعمق وأبرزت بمضاهاة الواحدة الأخرى. لدينا صورة أخّاذة للملكة الأم تي المسنة الماكرة المحنكة والماهرة في إخضاع الرجال ومحاولتها العقيمة نصح نفرتيتي الحمقاء الجميلة التي كان الفرعون يحبها كثيراً بحيث إنه ربما أُلهم لينحت أجمل رأس في العالم. ونرى الكاهن المسن آي يُعلِّم الملك الديانة الجديدة ويحذره في الوقت نفسه من حماقة اضطهاد دين الدولة الرسمي القديم.

دأبت نزموت، الطموحة والشريرة وشقيقة الملكة والمعجبة بحور محب، في إضعاف مكانة الملك بشبكة من الدسائس مصممة على الاستحواذ على حور محب وعدّت الفرعون مهووساً يفتقد روح الدعابة ولا يتسم بالنزعة العملية ومصمماً على تحطيم مصر. تتجه المسرحية إلى خاتمتها مثل مسرحيات أسخيلوس(٨). ويضطر حور محب إلى الاعتراف بأن لكل إنسان نقطة ينهار فيها، بينما بقي الملك يقدم حب العالم على حب بلاده، على الرغم من أن كل شيء حوله محطم. هنا صورة أقدم للمسيح مهجوراً ومنبوذاً لكنه غير نادم وهو في يأسه.

إن مصر بين عامي ١٣٧٥ و١٣٥٨ قبل الميلاد انعكاس قديم للعالم اليوم، ومأساة متواترة وأبدية. وربما تعرض هذه المسرحية الجميلة التي أصدرتها دار كولنز للنشر عام ١٩٧٣ على المسرح. لقد

---

(٨) اسخيلوس Aescgylus (حوالي ٥٢٥-٤٥٦ ق.م): كاتب مسرحيات شعرية إغريقي وضع حوالي ٩٠ مسرحية بقيت منها سبع مسرحيات تراجيدية كاملة وكانت حبكاته بسيطة وتعنى غالباً بإظهار العدل المطلق للإلهة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

عدها خبراء المسرح جميلة، إلا أن متعهدي المسرحيات يشعرون بالرهبة بسبب التكاليف الباهظة للمسرحية والعدد الكبير من الممثلين. رغم ذلك لا أعرف سبباً يحول دون عرض المسرحية بلا معدات معقدة، بل أمام ستارة بسيطة بالأسلوب نفسه الذي عرضت به المسرحية الصينية (سيدة الجدول الثمين). إن الجمهور في بريطانيا، كما في أقطار كثيرة أخرى، مستعد لتقدير الموضوع بعد التمتع في أنحاء العالم بمعرض كنوز ضريح توت عنخ أمون. وهكذا لن تضيف مسرحية أخناتون أي تمرين ذهني صعب.

قبل أن تكتب أجاثا المسرحية أعدّت لها إعداداً طويلاً. وكنا قد زرنا في عام ١٩٣١ الضريح في الأقصر وعقدنا صداقة مع هوارد كارتر، الشخصية التهكمية الممتعة الذي اعتدنا أن نلعب الورق معه في فندق قصر الشتاء. ثم قدّم ستيفن كلانفيل، وهو من أصدقاء العمر وأحد علماء الآثار المصرية البارزين اليوم وعميد إحدى كليات جامعة كامبردج، المساعدةَ لأجاثا في تتبع مصادر الموضوع. كان فاعلاً في دفع أصدقائه إلى العمل وزوّد أجاثا بالمصادر القديمة بحكمة ومنها رسائل تل العمارنة(٩) وسجلات أخرى حتى أصبحت واسعة الاطلاع على الموضوع. وتقترب المعالجة من الواقع التاريخي كما هي حال أية مسرحية عن الماضي. تعود حياة البلاط المصري وتقلبات الديانة المصرية نابضةً أمامنا. وهذه هي طريقة الاطلاع السهل على مصر

---

(٩) تل العمارنة يقع على مسافة ٣٠٠كم جنوبي القاهرة وهو موقع العاصمة التي أسسها أخناتون مقراً لعبادة الإله الواحد أتون ولمنافسة مدينة طيبة عثر فيه على وثائق تسلط الأضواء على العلاقات والأحوال السياسية في الشرق الأدنى القديم في القرن الرابع عشر قبل الميلاد كتبت بالخط المسماري وباللغة الآكدية. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

القديمة والتشرب بالاهتمام بها. ويبدو لي أن الشخصيات نفسها تخضع هنا لمعالجة تحليلية عميقة، لأنها لا تساعد على حلّ حبكة جريمة اغتيال فحسب، بل إن كلاً منها عامل رئيس في تطوير مسرحية تاريخية حقيقية. إن المسرحية مرصعة ببعض القطع الجميلة من الشعر المصري القديم ويحمل الغلاف صورة تمثال غير معروف للملك أخناتون وهي، أي المسرحية، صورة للمشاعر الحساسة والرقيقة تثير الإعجاب.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس عشر

براعة أجاثا

في النهاية يجد هواة قراءة مؤلفات أجاثا في رأيي متعة في التحليل النفسي ونفاذ بصيرة في الطبيعة البشرية المرسومة من غير تعقيد والحكم عليها دون مبالغة، مما يوفر اهتماماً ثابتاً وتأملياً. إن رواية (نحو الصفر) (١٩٤٤) نموذج جيد للمعالجة الرشيقة للشخصية البشرية في قصة تدور حوادثها في سالكومب على مصب نهر يلم قرب مدينة بليموث (على ساحل إنجلترا الجنوبي) حيث يمكن تمييز المعالم كافة. هناك مكان حج لأولئك الذي يميلون إلى تحديد مكان جريمة خطط لها بأقصى البراعة.

من الروايات المفضلة لديَّ (البطاقات على المنضدة) (١٩٣٦) لأسلوبها البارع الذي يستخدم ما لا يزيد على أربع شخصيات ارتكبت إحداها جريمة قتل. والصعوبة هي في تحديد القاتل رغم البساطة الظاهرية للظروف. ولسبب شخصي أحب رواية (عشرة زنوج صغار) (١٩٣٩)، وهي إحدى الروايات القليلة التي خمّنت فيها مرتكب الجريمة بشعور يتسم بالثقة لأسباب نفسية صرف. قرئت هذه الرواية... واختبرت في حفلة منزلية في ديفون (في جنوب غرب إنجلترا) وشعرت أجاثا بسخط شديد عندما فزت بالجائزة لأنني عرفت القاتل ـ لسبب غير صحيح.

Twitter: @ketab_n

لقد حال دون متابعة الكثيرين هذا النوع من الأدب كره غريزي لموضوع القتل والقسوة الملازمة له. ربما هذا غير ملائم لسريعي الغثيان، إلا أن أجاثا اتبعت دائماً بدقة، وربما من غير تعمد، وصية هوراس التي تقول: «يجب أن تحجم ميديا[1] عن اغتيال أطفالها على المسرح» وهي وصية رائعة. إن القتل وحشي دائماً، إلا أنه من حقائق الحياة. ولا تتأمل أجاثا فيها بارتياح أو تصفها بتفاصيل تزيد عما هو ضروري ولا توجد أية أشياء فاحشة. وما أكثر ما أطرى رجال الدين وآباء الأطفال نظافة كتبها وغياب أية سمات لاأخلاقية أو مخزية. إن من يستهجنون قصص جرائم القتل ويفعلون ذلك لأسباب تافهة ولا يدركون أن كتب أجاثا هي النسخة الحديثة من المسرحيات الأخلاقية التي شاعت في القرون الوسطى والتي تعنى بالكشف عن الشر وتدعو الشرير لتحمّل تبعة أعماله الإجرامية ونيل العقوبة الملائمة. إن مهمة هيركول بوارو والآنسة ماربل والآخرين جميعاً في كتبها المعنيين بتعقب الجريمة هي البحث المتواصل والجريء عن الأشرار. لا مجال هنا لأي تساهل في المستويات الأخلاقية. فالشر ينبغي أن يلاحق حتى النهاية.

إن إعلان هذه المبادئ في فترة الانحطاط الأخلاقي لقي الثناء من الكثيرين، ولكن أفضله كلمات جيفري جاكسن في كتابه (سجن الشعب).

---

(١) ميديا: ساحرة أسطورية ساعدت البطل الإغريقي جيسِن في الفوز بالصوف الذهبي عندما وعدها بالزواج وقتلت شقيقها لتسهيل هربهما، وعند وصولها بيت جيسِن رتبت قتل بيلياس. وحين هجرها جيسِن أرسلت إلى عروسه رداءً أحرقها حتى الموت كما قتلت أطفال جيسِن، ثم هربت إلى آسيا لتصبح الجدة العليا للميديين. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كان سير جيفري سفيراً لبريطانيا في أورغواي. وفي عام ١٩٧١ عانى من تجربة قاسية عندما اختطفه التوباماروس وهم عصابة من الإرهابيين المصممين على تحدي الحكومة والأشخاص الذين يعدون أعضاء في السلطة. ويبدو أن هدفهم كان لفت الانتباه إلى ما عدّوه مجتمعاً مبنياً على هيكل شرير بارتكاب أفعال العنف المدني. وبعد اختطاف السفير أُخفي في مكان تحت الأرض في برجين محصنين متتابعين لا تزيد مساحة الواحد منهما على بضعة أمتار ورقد على سرير عارٍ. وكان المكان مضاءً بمصباح كهربائي خافت. ومع مرور الوقت خف تأثير الوحدة القاسي أخيراً بتوفير عدد كبير من مواد القراءة بلغات مختلفة. كانت كلها معروفة لهذا الشخص الذي يجيد عدة لغات. وكان التحمل البطولي للسفير المختطف يعود سببه جزئياً إلى نزعة فلسفية طبيعية مع حسن التقدير الخاص وقدرة على الدخول في علاقة مقبولة بمختطفيه من خلال فهم عميق لهم واهتمام حقيقي بدوافعهم. مكنته هذه المواهب من تحمّل احتجازه بجَلَد نادر، ووقار لم يقلل أبداً من مركزه بوصفه سفيراً لبلاده. اعتمدت ديمومته الذهنية في الغالب على إيمان ديني عميق وفّر الحماية للضحية في أقسى ساعاتها.

إن الفصل الذي تضمّنه كتاب (سجن الشعب) (الناشر فيبر ١٩٧٣)، الذي يصف الكتب الكثيرة المتنوعة التي ساعدته في تحمّل محنته، ذو أهمية خاصة. وأكثر جزء مدعاةً للامتنان هو المقطع التالي: «إلا أن أصدق تهرب من الواقع تحقق في اليوم الذي استفسر مني أحد السجانين عما إذا كان بوسعي إخباره بأي شيء عن إحدى مواطناتي التي تسلموا بعض كتبها واسمها «أجاثا كريستي». ومنذ تلك اللحظة لم أفتقد أي تهرب من الواقع، إذ زرت بلادي عدة مرات عبر كتبها، وكانت طريقة هرب ذت فاعلية آنية أقوى من «حبل الفضاء»

Twitter: @ketab_n

الذي أُغرم به كتّاب الروايات العلمية. وبمساعدة السيدة كريستي وجهد قليل للإرادة سُدّت فجوة الانفصال اللامتناهي بين المجرات فوراً وضمت معاً الأبعاد المتضاربة للأسر والحرية في بوابتها الزمنية، وتحقق تجاوز افتراضات أنشتاين وقوانين الديناميكا الحرارية تجاوزاً فاعلاً. ويمكن أن يُضاف إلى المتعة الذاتية لهذه الرحلة غير المحتملة في الزمن مكافأة ذهنية خاصة هي مشهد الثوريين الشباب المشبعين بنظرة نسبية إلى المجتمع والمعجبين بمدافعين ثابتين عن القِيم الأخلاقية المطلقة هما الآنسة ماربل والسيد بوارو. وكشف المختطفون في المناقشة الفكرية بثبات أنهم مؤمنون إيماناً تاماً بالذرائعية. وكان معيارهم سياسياً وتكتيكياً دائماً «هل ينجح عملنا؟»، إلا أنهم كانوا هنا يكشفون عن حنين شديد إلى المحك الأكثر تصلباً وهو «هل أنه صحيح؟» أو «هل أنه خطأ؟». تمتلك الآنسة ماربل، وكذلك السيد بوارو بطريقته الأكثر تعقيداً، صفة الصراحة، بل البراءة، إضافة إلى مقدرة على تمييز الشر مما يدفع أياً منهما إلى تعقب رائحة جريمة القتل إلى النهاية... إلا أن هاتين الشخصيتين، اللتين ترمزان إلى نظام كامل من المبادئ الأخلاقية، اجتذبتا إعجاب الإرهابيين الشباب غير المحدود الذين كان بوسعهم، رغم ذلك، تبرير حتى القتل على نحو يقتنعون به. ولا أعرف أكان يجب أن أبكي على براءتهم الضائعة أم أعلّق آمالي على تلك الأدلة الملطفة المشيرة إلى بقائها الأثري».

إن الكثير من رسائل القُراء المعجبين تتسم بالرقة والتبصر، إضافة إلى الامتنان. وجاء في أحدها: «لقد طرق سمعنا أنك ربما تكونين صلبة العود، ويؤمل أن تعارضي في المستقبل تحويل أية رواية من رواياتك إلى فيلم أو تمثيلها على المسرح». وورد في رسالة أخرى: «الشباب والمسنون معجبون كثيراً بكتبك، وأعرف الكثيرين من

Twitter: @ketab_n

المرضى العاجزين الذين يلهجون بالثناء عليك. . . باركك اللّه للسعادة التي منحتِها الملايين من الناس».

وكتبت سيدة فقدت أباها وابنها وزوجها تقول: «ربما تدهشين، إلا أن الشكل الذي اتبعه في الهرب من الواقع هو قراءة رواياتك. وأعني بالنوعية. . . لا الأبطال الذين يكثرون من استعمال السلاح أو السعداء في الفراش، بل النوع الذي تكتبينه. قرأت مؤخراً رواية (قطة بين الحمامات) (١٩٥٩) وأعجبت كثيراً بأسلوبك في عرض مبادئك الاجتماعية الأخلاقية المتينة عرضاً مخفياً ببراعة».

تتسم بعض الرسائل الخطية بالطرافة. ويواجه القُراء من الخارج أحياناً صعوبة في التعبير بلغة أجنبية، ومنها رسالة من ألمانيا الغربية جاء فيها: «عزيزتي السيدة كريستي، أنا أعلم أن ملايين الأشخاص يكتبون إليك، وأعني أشخاصاً يكتبون إليك قائلين إنك امرأة رائعة. أريد أن أقول ذلك تماماً. . . لقد أسعدتني دائماً. . . وأحبك كثيراً».

ومن المكسيك كتب قارئ يقول: «رغم المليون رسالة التي لا بدّ أنك تتلقينها من معجبين مجهولين، ألتمس منك قراءة رسالة أخرى من شخص يحمل في دمه إعجاباً شديداً بمؤلفاتك وشخصيتك. ولا بدّ أنني ورثت هذا عن جدي الجنرال الجمهوري الإسباني مياجا الذي اشتهر بالدفاع عن مدريد في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية. كان يحب قراءة رواياتك لتريحه ذهنياً من مشاغله الكثيرة».

وكتب قارئ آخر يقول: «أهنئك في هذه الرسالة تهنئة عميقة جداً لنجاحك المطلق روائيةً».

ولا بدّ أن أشكر لك ما أحسه من سعادة عظيمة كلما أحاول تخمين شخصية القاتل في شبكة واحدة من حبكاتك. وفي الواقع ينبغي أن تكوني وديكنز المؤلفين اللذين أتمتع بمطالعة كتبهما أكثر من

Twitter: @ketab_n

الآخرين. كيف أستطيع أن أنسى متعة قراءة رواياتك من مثل (السيد كُوِن الغامض، ومهام هرقل، والليلة اللامتناهية)؟ لقد تمتعت حتى بقراءة كتب مثل كتاب (رجل مصيدة الفئران) لبيتر ساوندرز الذي ابتعته من مسرح امباسادور في العام الماضي وكتب أخرى أستطيع أن أتعلم منها المزيد عن شخصيتك... أعتذر عن لغتي الإنجليزية التي أدرسها عندما تسمح لي دراسة الهندسة الكيميائية وعلم الإجرام (هوايتي)».

أحياناً كانت هناك مصادفات غريبة مثل الرسالة التي تلقتها أجاثا من ميري آن زيركوفسكي، مديرة مدرسة أماندا أ. ستاوت الابتدائية في مدينة بولاية بنسلفينيا الأميركية التي جاء فيها: «أكملت تواً قراءة روايتك (مسافر إلى فرانكفورت) (١٩٧٠) وذهلت عندما وجدت نفسي ألعب دور عميلة سرية. لقد ارتعشت لأدائي مثل هذا الدور، إلا أنني أعجب قليلاً كيف أطلقت اسمي على شخصية الجاسوسة في الرواية. لقد أثار كتابك ضجة كبيرة في بلدتي ردنك بولاية بنسلفينيا. وأتلقى مكالمات هاتفية ورسائل كثيرة من أصدقاء يخاطبونني بالكونتيسة زيركوفسكي».

ردت أجاثا بأسلوب رقيق قائلة إنها ربما اختارت اسم زيركوفسكي بالمصادفة المحض من دليل الهاتف أو من عمود المواليد والوفيات والزواج في إحدى الصحف، وهنأت هذه السيدة الطيبة لأنها أصبحت كونتيسة.

ووردت من مورسا سير أورج[٢] رسالة كتبت بالفرنسية وجاء فيها: «سيدتي، أنا فنان رسام في السادسة والثلاثين من العمر. أفتقر إلى حدة

---

(٢) مورسا سيرا ورج: مدينة فرنسية تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من باريس. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ذهن السيد بوارو وظرفه ولا تعجبني الآنسة ماربل. ولكنني قرأت في الصحف الفرنسية أنك أغنى مؤلفة في العالم، مما أثار إعجابي (المتسم بالحسد). وعندما علمت أن والدك لم يعمل أبداً في حياته أثار ذلك إعجابي أيضاً! يا لها من عائلة! ولأدخل في صلب الموضوع. لماذا أكتب هذه الرسالة إليك؟ ربما هذا لغز قد ترغبين في حله. مع تقديري وإعجابي». ربما يود كاتب الرسالة أن يعلم أن أجاثا تنازلت عن ثروتها منذ زمن بعيد ومعظمها ودائع لأغراض البر، إضافة إلى الضرائب!

ربما يمكن اختتام هذه الباقة الصغيرة من بريد المعجبين اختتاماً مناسباً برسالة من كاتب من مدينة كولمبوس بولاية أوهايو الأميركية يقول فيها: «أنا مغرم بقراءة كتبك منذ كنت في سن الثانية عشرة وقد قرأت رواية (ثم لم يبق أحد) [العنوان الأميركي لرواية عشرة زنوج صغار]. إنني مغرم بالرواية وقرأتها مرّات كثيرة. إنك تتمتعين بحس يتسم بالبراعة والظرف مع نزعة إلى التشويق والإثارة. لا تنقطعي عن التأليف!».

وصلت رسائل المعجبين من مثل هذه الرسائل من أنحاء العالم كافة بما فيها أقطار مثل تشيكوسلوفاكيا حيث يوجد معجبون كثيرون. كتبت عناوين كثيرة بطرافة، لكنها وجدت طريقها في النهاية إلى المؤلف، والعنوان الآتي: «السيدة أجاثا كريستي، السيدة الأولى للجريمة، بريطانيا» مألوف ويعكس معرفة وتمييزاً من جانب دائرة البريد.

وصفت أجاثا حقاً بأنها أكثر الأشخاص تواضعاً في العالم. وليس من صفاتها الغرور على الرغم من أن عدد اللغات التي ترجمت إليها كتبها يزيد على عدد اللغات التي ترجمت إليها مسرحيات شكسبير وأن عدد قرائها بلغ حتى عام ١٩٧٣ حوالي ملياري قارئ منتشرين في أنحاء

Twitter: @ketab_n

العالم كافة. ترجمت رواية (مصيدة الفئران) إلى ٢٢ لغة ومثلت في ٤١ قطراً. وقالت أجاثا مرة: «أعد عملي غير ذي أهمية ولم أرغب إلا في التسلية».

تتمتع أجاثا بذكاء حاد واستقامة، إلا أنها لم تدّعِ أبداً أنها مثقفة. وكانت امرأة دون طموح. كان بوسعها التألق في هوايات كثيرة ولذا لم يكن ضرورياً لها أن تُعنى بحركة تحرير المرأة. كانت أجاثا دائماً تكنّ احتراماً حقيقياً لقُرائها ولذكائهم وقالت صادقة إنها لا تغش أبداً «هذه هي القاعدة الثابتة الوحيدة التي لم أكسرها». تتمتع حلول مشاكلها بسمة التفكير المنطقي والرياضي إضافة إلى الإبداع. ومن أنشطتها اللافتة للنظر ميلها إلى رواية قصة تُزامن تحولاً جديداً في سلوك المجتمع. زامنت رواية (مسافرون إلى فرانكفورت) (١٩٧٠) على سبيل المثال إحدى حوادث الاختطاف الأولى للطائرات. وقالت هي نفسها إن الرواية البوليسية ينبغي أن تكون بارعة ومشوقة مثل لغز الكلمات المتقاطعة الجيد، والواقع أن هذا سر نجاحها. إن كتبها مشاكل تستحوذ على الاهتمام الكلي مثل لعبة الورق. إنها تتطلب تلك الدرجة من التركيز التي تكفي لفرض عزلة تامة عن العالم المحيط بالقارئ. ويصبح القارئ القلق سعيداً كأنما بفعل ساحر ويتمكن من التخلص من همومه فوراً. إنّ هذا عقار مسكن حقاً لمن يستطيعون تناول الدواء.

نظمتُ قصيدة لأجاثا بمناسبة عيد ميلادها الثمانين في ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠. وتتضمن إشارات إلى كلبنا المحبوب بنكو الذي كان قد سبب بعض المتاعب لنا إضافة إلى جلب المتعة. ورسمت له صورة قلمية في رواية لأجاثا اسمها (ممر القدر) (١٩٧٣) ونشرت صورته على الغلاف الأخير.

Twitter: @ketab_n

القسم الرابع

نمرود وآثارها

(١٩٤٥ ـ ١٩٧٥)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس عشر

معهد الآثار

في حديثي في هذا الكتاب عن حياتي العائلية، أنا وأجاثا، وكتبها ومسرحياتها ابتعدت عن الحديث عن عملي الآثاري ولا سيما إعداد كتابي عن التنقيبات في براك وشكر بازار، واستغرق الانتهاء منه سنتين من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٤٧.

رأى صديقي الطيب الأستاذ سدني سمث مسودة الكتاب في أثناء زيارته منزلي جرينوي. وأعتقد أنه أعجب به لأنه شرع وستيفن كلانفيل في البحث عن وظيفة أكاديمية لي. وفي الوقت المناسب، وبدعم من الأستاذ كوردن تشايلد عُيّنت بصفتي أول من شغل كرسي الآثار الآسيوية في معهد الآثار بجامعة لندن.

كان موقع المعهد آنذاك في بوت هاوس بمنطقة ريجنتس بارك التي كانت أجاثا قد تناولت فيها الشاي مع عائلتها في صباها. لم أكن أبداً أدرك مزايا العيش في مبنى مستدير، إذ موظفو المعهد يعملون معاً تحت القبة الكبيرة فوق القاعة المركزية، ولأن معظمنا كان يُدرِّس والأبواب مفتوحة فقد كان الجميع يعرفون ما كان يجري. وأعتقد أن المزايا المعمارية لمسجد إسلامي تعبّر عن نفسها بالطريقة نفسها وتوحد المصلين. وهم يتمتعون في ذلك بميزة مقارنة بالكنيسة

Twitter: @ketab_n

المسيحية التي تضم صحناً وجناحين. ومن المؤكد أن مبنى المعهد القديم كان مفضلاً على المبنى الجديد الذي انتقلنا إليه في عام ١٩٥٧ وكلف حوالي نصف مليون باون وربما أكثر. أصبح لكل واحد في المبنى الجديد جناحه الصغير ولم يكن أي باب مميزاً برقعة وأصبحنا، كما بدا لي، مؤسسة لا شخصية وانقطع الاتصال ببعضنا. وأصبح الآن واجب كل مدير للمعهد إعادة الشعور الذي يسود مجتمعاً وثيق الوشائج ولحم أنشطته المتنوعة.

كان المبنى الأصلي القديم للمعهد مكاناً ممتعاً إذ كان ما يزال يحمل روح الريادة السعيدة التي يتسم بها الهواة ولم يكن قد تأثر بأسلوب الاحترافية الشديد الذي لا بدّ أن يسود في نهاية المطاف الجمعيات العريقة. واضطرت إدارة جامعة لندن بعد تردد إلى أن تدمج المعهد أخيراً بالجامعة وتحمل حجر الرحى الآثاري الذي تحوّل في النهاية إلى ذهب.

شارك أعضاء معهدنا في أيامه الأولى في ثلاث بعثات تنقيبية شرقية اشتهرت في أنحاء العالم، وهي التنقيبات في أريحا[١] وموهينجو دارو[٢] ونمرود وأدارها بالتعاقب كاثلين كينيون ومورتيمر ويلر والمؤلف، ومثلت البعثات الجهود الآثارية البريطانية في فلسطين وفي الهند وباكستان وفي العراق. حققت هذه الأنشطة، إضافة إلى الأنشطة في بريطانيا نفسها، شهرة للمعهد الذي اجتذب عدداً كبيراً من

(١) أريحا Jericho إحدى أقدم مستوطنات عصور ما قبل التاريخ. استوطنت قبل حوالي عشرة آلاف سنة وتقع في الأردن. (المترجم).

(٢) موهينجو دارو: المركز الرئيس لحضارة وادي الأندس في باكستان على نهر الأندس شمال حيدر آباد وتميّز بشوارعه المخططة وشبكة تجهيز المياه والمجاري المغطاة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الآثاريين الشرقيين. كما يجب ألا ننسى وجود الأستاذ ك. دوب كودرنكتن، الشخصية الغريبة الأطوار الصعبة الفهم. شغل كرسي الآثار الهندية الذي كانت تشاركنا فيه كلية الدراسات الشرقية والأفريقية. والنشاط الشرقي الآخر الذي لا بدّ من ذكره هنا هو الجهد المخلص لأولغا تفنيل التي أمضت عدة سنوات في إنجاز كتاب عن لشيش[٣].

أثارت كتابات المدير الأول للمعهد الأستاذ ف. جوردن تشايلد، ذي القدرة الذهنية البارعة، الإعجاب حتى خارج الوسط الآثاري. كان يتقن عدة لغات قديمة وحديثة، إذ كان يستطيع قراءة السنسكريتية ومطلعاً على مؤلفات بندار[٤] وكان ذا آراء سياسية متطرفة. هذا الرجل اللاعملي البسيط في الخارج والأخرق في استعمال يديه والمنقب اللامبالي أثار، بقدرته الذهنية الواسعة الخيال، الحماسةَ في أي نشاط عمل فيه وكان ذا جاذبية شديدة في الوسط الآثاري. كان زميلاً طيباً ومن أطيب الناس وكان اختياره يلائم المعهد المؤسس حديثاً. كان سخياً في الضيافة ويتمتع بالحياة الطيبة، وعندما كان أفراد الأسرة المالكة يزوروننا كان يحسن التصرف ويلتزم بالأدب الجم. لم يأخذ سوى القليلين منا آراءه السياسية على محمل الجد وكان أشد المرحبين بالأستاذ البولندي المنفي الرائع ت. سولمرسكي من مدينة كراكاو... لم يكن إدارياً ناجحاً واعتزل العمل في المعهد قبل عامين

---

(٣) لشيش أوتل الدوير يقع غربي مدينة الخليل ويطل على السهل الساحلي في فلسطين. (المترجم).

(٤) بندار (حوالي ٥١٨-٤٣٨ ق.م): شاعر غنائي إغريقي اشتهر بالأغاني التي تؤديها الفِرَق للاحتفال بالفائزين في الألعاب الرياضية الإغريقية وامتداح الآلهة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

على الأقل من الموعد المحدد. شعر أن الحياة، رغم تعدد اهتماماته، ليس لها سوى مستقبل بائس. وعاد إلى بلده الأصلي أستراليا في زيارة أخيرة، ثم استأجر سيارة حملته إلى المنحدرات الصخرية الشاهقة عند الشاطئ في أطراف سدني. ترك نظارته على الجرف فأصبح أعمى كالوطواط ومشى بتعثر وعُثر عليه ميتاً في القاع. وفي رأيي لا شك في أنه انتحر، ومثل البنّاء، إحدى شخصيات اپسن، تعمد اختيار هذه الطريقة المثيرة برمي نفسه من مرتفع. وكان قبل فترة غير طويلة من وفاته قد كتب رسائل رقيقة إلى معظم أصدقائه، ومن بينها رسالة إلى أجاثا. وكتب مقالاً أخيراً نُشِر في نشرة معهد الآثار وفُسِّر بهذه الطريقة.

وهكذا انتهت حياة هذا الرجل غير العادي وأقبح رجل رأيته، إذ كان النظر إليه يثير الألم. وكيَّف أنفه الأزرق الشبيه بأنف سيرانو دي بيرجراك طبيعته، ولولا أنه أصيب بالشلل الذي شوّهه في طفولته لكان بوسعه الانسجام طبيعياً مع المجتمع الذي عاش فيه. إلا أن علم الآثار انتفع كثيراً بعلمه. طورت آراؤه المتطرفة ونظرته الاقتصادية التفكير الآثاري، وإن أولئك المؤرخين الذين يعتنقون آراء صحيحة في جمع الغذاء وإنتاجه مدينون لعمله.

قام تشايلد بدوره من وقت إلى آخر في محاولة توحيد التدريس في المعهد وشجعنا الاشتراك في المحاضرات العامة في المبنى لكي يحدث كل منا الآخرين في أنشطة المعهد. كما دعي محاضرون كثيرون من الخارج وطلب إلى كل من شارك في مجهود آثاري بارز إسماع صوته. وعلى الرغم من أن تشايلد نفسه كان مشوقاً، فقد كان لا يجيد الإلقاء، وفي أحيان كثيرة كانت جملة تنتهي بصرير مصطنع. كان سماعه مؤلماً مثل رؤيته، وكان التأثير قوياً دائماً.

Twitter: @ketab_n

تعرفت من خلال الكرسي الذي شغلته في المعهد إلى مهنة التدريس التي تمتعت بها كثيراً، إذ لدي الرغبة في مشاطرة الآخرين المعرفة وملاحظة إلى أي مدى أستطيع إقناعهم باستيعابها. وجدت التدريس قبل كل شيء عملية ذات اتجاهين متقابلين، لأن الطالب، وإن كان هو المتلقي، يعد لوح اختبار لا بدّ أن ينعكس على المدرس. إنّ تدريس الأشخاص طريقة لتوشيج ذهني مخلوقين بشريين ولا بدّ أن يعتمد على قدر معيّن من التجانس. وهكذا نستنتج أن الأستاذ والطالب ينبغي أن يؤسسا ألفةً ويحاولا أن يصبحا متجانسين. وعلى الرغم من أنني وجدت تدريس الطلبة الأذكياء يمنح الرضا لا محالة، فإنني لا أعرف شيئاً يقارن بمتعة مشاهدة طالب كان يبدو أبله في البداية وهو يستجيب إلى حافز. إنني أعتقد أن بعض المدرسين الجامعيين أكسل ذهنياً من أن يعنوا بمثل هؤلاء البلهاء إذ يميلون عموماً إلى إهمالهم بالمقارنة بالطلبة الأكثر موهبة. كانت أول طالبة درّستها مارجريت ـ من ـ رانكن التي شجعتها على ترك الخدمة المدنية لدراسة علم الآثار. كانت أكاديمية بالفطرة وبرزت محاضرةً في تاريخ الشرق وآثاره بجامعة كامبردج وهي خبيرة معروفة ربما تستطيع تأليف المزيد، إلا أن ما نشرته بقلمها يتسم ببذل الجهد البارز. انضمت مارجريت إليَّ موسماً في نمرود، لكنها كانت تميل إلى الانكماش على نفسها ولم تكن مشاقّ الحياة في الخارج تلائم مزاجها الخجول والمتواضع. إنها مدرّسة حية الضمير وواسعة الاطلاع إطلاعاً غير عادي، وقد استفاد طلبة كثيرون من تدريسها في جامعة كامبردج.

إن الحلقات الدراسية والوقت المكرس لطالب واحد طريقة أفضل على نحو جلي لتبادل المعرفة من خلال المحاضرات. وفي الصفوف الصغيرة كنت أدعو المستمعين إلى مقاطعتي كلما شاءوا، إلا أنني

Twitter: @ketab_n

وجدت أحياناً أن هذا الموقف المتساهل كان غير صحيح، لأن أحدهم لا بدّ أن يستغل الوضع ويضايق الجميع. واضطررت مرةً أن أسأل معلقاً مهذاراً أهو الذي يلقي المحاضرة أم أنا، وقلت إنني مستعد لترك المنصة. كانت تلك الانفجارات تسلية مثيرة وتتفق ورأيي أن التدريس الممل إثم لا يُغتفر. وأحياناً كان لا بدّ من التثبت من أن المحاضرة مفهومة، لأن الطلبة الشرقيين يكونون أحياناً خجولين أو مؤدبين جداً بحيث لا يعترفون بأن كلمات المدرس غير واضحة لديهم. وقرأت مرة في رواية بعنوان (رامي القوس ينهض) أن الكثيرين من المتدربين الصينيين على الطيران في الأيام الأولى قتلوا لأنهم كانوا مؤدبين جداً بحيث لم يوضحوا أنهم لم يفهموا تعليمات مدربهم. وبالطريقة نفسها اكتشفت أن طالباً عراقياً بقي مدة طويلة يتصور أنني عندما أتحدث عن سطح الماء الباطني Water Table كنت أعني نوعاً من الأثاث المائي. كانت غلطتي وليست غلطته. وفي هذه الأيام التي منع فيها تمييز الجنسين بعضهما من بعض قد يبدو هذا القول يستحق التوبيخ، إلا أنني اعتدت الافتراض أنني في حالات كثيرة كنت أبدأ بإحراز تقدم في العلاقة بطالبة عندما أجعلها تنفجر باكية وهو أمر يسبب الأسى لكلينا، لكنه مفيد تماماً. ومهما تكن الحال لم أتصور أبداً أن وقتاً ينفق على طالب هو وقت مبدد. كنت أفهم صعوباتهم واستأنس بصحبتهم. كنت أرى، إلى أن بلغت سن السبعين، أنني ما دمت بصحة جيدة فإن من واجبي الرد على أية رسالة يطلب كاتبها توضيحاً يتصل بجانب معيّن من المعرفة الآثارية، ولم أشعر أبداً بالاستياء بسبب الوقت الذي قضيته في الرد على الرسائل.

كانت راشيل ماكسويل ـ هسلوب أقرب المساعدين الذين عملوا معي في المعهد وقد ساعدتني في القسم الذي كنت رئيساً له، وبرهنت

Twitter: @ketab_n

على أنها صلة وصل تثير الإعجاب بالمختبرات التي كانت على تماسٍ وثيق بها دائماً. وهكذا استوعبت المعلومات العلمية وأصبحت خبيرة معروفة في علم المعادن الآثارية واقتصاد توزيع المعادن في العالم القديم. كتبت مقالات قيمة كثيرة وأحرز كتابها عن الحلي الشرقية القديمة الإطراء وهي منجم معلومات في الطرق القديمة لإنتاج المعادن.

يبرز مساعدان آخران لي في معهد الآثار في ذاكرتي. أحدهما سير مورتمر ويلر الذي كان لزوجته الأولى تيسا، بطاقتها واندفاعها، الكثير من الفضل في تأسيس المعهد. كان ويلر أو ريك، كما كان معروفاً لدى أصدقائه الكثيرين، عالماً وبدا كذلك دائماً. مضى هذا الرجل الضخم المتدفق حيوية في الحياة ينفث ناراً كانت تحرق المعارضين أو تظهر على نحو خارق في عملية معالجة بالكيّ كانت تشفي وتعيد الأحياء. كان يمتلك ذلك النوع من العبقرية التي كانت لدى أستاذي القديم ليونارد وولي. كان كل ما يلمسه تبعث فيه الحياة سواء كان معهد الآثار أو الأكاديمية البريطانية أو موقع موهنجو دارو.

لم يكن هناك رجل أكثر فاعلية منه في أعمال اللجنة. وعندما كان أميناً للأكاديمية البريطانية، وهي المؤسسة التي أعاد تنظيمها وطوّرها، أدّى أكثر أدواره فاعلية. كان مولعاً بالمسرح ويستحوذ على اهتمام الحاضرين بالفطرة وبدا في كرسي الرئاسة بجمعية الآثار مثل الملك لير، إذ كان حضوره طاغياً. وفي الأكاديمية البريطانية، حيث مارس صلاحيات مطلقة شوهد في أفضل أحواله لأنه كان يعرف ما يريد تماماً، وكان ذهنه سريعاً ويقظاً ولا يبطئ في اتخاذ الإجراءات، ولم يُبال كثيراً بالدبلوماسية، وبعبارة أخرى لم يخشَ شيئاً.

وفي الاجتماعات التي لا يصل فيها الحوار إلى نتيجة كان مستعداً

Twitter: @ketab_n

لاستخدام سلطته في حل العقدة الغوردية[٥]. كان مزيجاً نادراً من الفنان ورجل الشؤون العملية. وكان، بوصفه فناناً، شخصية بارزة في عالم التلفزيون ولن ينسى أحد براعته في البرنامج الذي يحمل عنوان (أحيواني أم نباتي أم معدني) الذي كان يقدمه بنجاح كلين دانيل. يظهر من ذلك كله أنه لم يكن يلائم الجميع، بل كان هنالك أشخاص لا يستطيعون تحمّله. كان قاسياً مع غير الأكفاء.

ومع استعداده للمقامرة على الطبيعة البشرية، كان نادراً ما يخطئ في حكمه، على الرغم من استعداده للانخداع بالتملق.

كان إنجازه البارز، بوصفه آثارياً، استنباطه طريقة في التنقيب هي أنه لا يمكن إجراء تنقيب ناجح ما لم يكن هناك فهم مناسب لعلم الطبقات وقابلية على كشف سلاسلها وتوضيحها. هنا كان مديناً بالكثير إلى بت ريفرز، إلا أن تعليمات ويلر بهذا الشأن روعيت في العالم كله، وهكذا حظي بتقدير آثاري دولي. إنه أستاذ في التنظيم، وخلال مدة عمله في الهند مديراً عاماً للآثار أعاد تأسيس الخدمات وأعاد الحياة إلى قسم كفء ونشيط وأسس في دلهي مدرسة الآثار التي واصلت طريقته. وسرعان ما كسب بشخصيته الجذابة والمحببة في أغلب الأحيان ولاء مساعديه الهنود رغم نزوعه إلى الحزم وعدم تحمّل المعارضة. وحصل بسرعة على ثقة نهرو. نقّب في مواقع كثيرة، ولكن ربما كانت قلعة التل في ميدان كاسل[٦] والحفرة

---

(٥) العقدة الغوردية: عقدة أحكم شدها غورديوس ملك فريجيا، وقد زعم أنه لن يحلها سوى سيد آسيا المقبل فجاء الإسكندر الكبير وقطعها بسيفه. (المترجم).

(٦) ميدن كاسل: موقع يبعد ميلين عن دورشستر في جنوب غرب إنجلترا نقب فيه ويلر في أعوام ١٩٤٣-١٩٣٧. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الصغيرة في أريكاميدو[٧] حيث أثبت وصول الرومان إلى الهند أكثر المواقع ارتباطاً باسمه. كان قبل كل شيء يتمتع بحاسة تمييز. وكان ذلك جانباً من شخصيته، أما الجانب الآخر فقد جعله يلقب أحياناً بـ «المشعوذ العجوز و«ألف الزائف» لأنه لم يكن يستطيع مقاومة الدعاية لنفسه. لم يحقق أحد أكثر مما حققه للشبان المكافحين لتثبيت أقدامهم. كان يحب التودد إلى النساء وكان بوسعه نيل أقصى الإخلاص منهن، إذ على الرغم من أنه لا يطاق أحياناً، فقد وجدنه يتسم بالطرافة ومنحنَهُ تفانيهن، رغم افتقاره إلى مراعاة مشاعر الآخرين، إضافة إلى سلوكه القاسي أحياناً، وكان رجل إنجاز يميل إلى عدم التحمل وكان ذرعاً دائماً بالعيوب البشرية. وكان بوسعه أن يهاجم علناً أقرب صديق له هجوماً عنيفاً لعدم التزامه بقاعدة ما وضعها لنفسه. وأتذكر رسالة قاسية كتبها إلى صحيفة التايمز بعد موت صديقه العزيز إيان ريتشموند. وكان إيان قد عجز عن نشر تقاريره عن تنقيباته كلها خلال حياته ولذا أنّبه ويلر علناً، ربما لأنه كرّس جانباً كبيراً من وقته للعامة وإلقاء المحاضرات في الجمعيات المتواضعة مجاناً، وهو أمر لم يكن ويلر يقبل أن يفعله. وهذا ما يشرف إيان. إنني أتحدث بوصفي قزماً بجانب ريك العملاق، ولكن لا بدّ أن يسمح للأقزام بأن يعربوا عن رأيهم وأفخر بأنني خدمت في معهد الآثار إلى جانب هذا العملاق.

كانت الشخصية البارزة الثانية في معهد الآثار كاثلين كينون أو

---

(٧) أريكا ميدو موقع في جنوب الهند عثر فيه ويلر عام ١٩٤٥ على فخاريات باللونين الأسود والأحمر من العصر الحديدي ذات صلة بفخار مستورد من منطقة البحر الأبيض المتوسط. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

السيدة كاثلين التي اشتهرت منجزاتها أيضاً وإن لم تصبح أبداً شخصية تلفزيونية. ويلٌ لمن كان يعارض أو لا يتفق معها في الرأي. سُئِلت مراراً كيف كنا نتفاهم في الجامعة وكنت أجيب دائماً: «على نحو كامل لأنني كنت أتنازل دائماً». وفي الحقيقة إنني غفرت لها عنادها منذ زمن طويل، لأنها رغم كونها مندفعة غالباً في المواجهة، فقد تمتدح المرء في غيابه وتناقض خشونة سلوكها أحياناً بطيبة قلبها، مما يجعل المرء يغض النظر عن ميلها إلى السيطرة. وأتمنى أن تغفر لي ميولي الأوتوقراطية بالطريقة نفسها.

كانت كاثلين في المعهد صارمة في دعم مصلحته وأضْفت عليه بريقاً من خلال تنقيباتها في أريحا ثم في القدس. حلّت ألغاز أريحا الموقع المعقد بفضل طريقة كاثلين البارعة في التنقيب وكانت اكتشافاتها مثيرة. وأصبح واضحاً أن الموقع يعود إلى زهاء عام ٨٠٠٠ ق.م وكان واحة فريدة اعتمدت مصائرها على ينبوع طبيعي. وكشفت تحصيناتها وبرجها الحجري الكبير عن الإنجاز البشري المتمثل في ثورة الانتقال من العصر الحجري الوسيط إلى العصر الحجري الحديث. ولم يكن هناك أمر أكثر إثارة من اكتشافها جماجم أريحا التي قطعت وكُسيت بطبقة من الجص وملئت العيون بالأصداف. ثم أعيد دفن هذه الجماجم تحت أرضيات المساكن، وهذه عبادة دفنية للموتى توازي بغرابةٍ ممارسةً مشابهة جزئياً في أثيوبيا استناداً إلى هيرودوتس.

بدا أن كاثلين ستتولى منصب مدير معهد الآثار الذي ربما كان بوسعها السيطرة عليه بتصميمها الشديد. إلا أنها عُيّنت عميدة لكلية سنت هيو في جامعة أوكسفورد وسيَّرت أمورها بتفوق. وبرقّتها الطبيعية وإنسانيتها، إضافة إلى نفوذها ودهائها في إدارة شؤون الكلية،

Twitter: @ketab_n

حققت نجاحاً كبيراً. وكانت أيضاً نشيطة في جمع التبرعات للكلية. وكان السبب الجوهري لهذا التعيين غريباً.

كانت كاثلين تحب الكلاب ولا سيما الكلاب الهجينة الشاردة التي تنقذ من ملاجئ الكلاب في منطقة باترسي (في جنوبي لندن)، ولكن هذه الحيوانات لم تكن مقبولة لسوء الحظ في المعهد حيث عُدّت مصدر إزعاج عام ومسببة للضوضاء وغير صحية. لم يكن أمين المعهد ولا مديره و.ف. كرايمز متعلقين بالكلاب، وأدّى عدم تحمّلها هذا إلى مواجهة مباشرة بين كاثلين والكلاب من ناحية ومدير المعهد من الناحية الأخرى. وبينما كنت في منتصف موسم التنقيب في نمرود تلقيت رسالة من كرايمز تبيّن المأزق ويعبّر عن أمله في تأييدي آراءه. إلا أنني أجبته معارضاً قائلاً إنني فضلت الكلاب دائماً على البشر وإن طالباً قبلي في الكلية الجديدة بجامعة أوكسفورد كان لديه دب في جناحه ولم تحتج سلطات الجامعة. لست حقاً ضد الممارسات التي توصف بأنها غير صحية للحيوانات وأعتقد أن الاهتمام الزائد بالصحة العامة يضعف مقاومتنا الطبيعية. وحسم الوضع في الوقت المناسب بالعرض المقدم إلى كاثلين لتولي عمادة كلية سنت هيو. وفي رأيي أنه لولا الكلاب لاختارت كاثلين البقاء في المعهد الذي تركناه في الوقت نفسه، إذ أصبحت أنا زميلاً في كلية أول سولز. منحتني السنوات التي قضيتها في المعهد من عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٦٠ إحساساً بالرضى وجعلتني أوزع طاقتي بمتعة. حينما عينت زميلاً في الكلية كان لي من العمر ٤٣ سنة وكنت قوياً ونشيطاً، وإذ أتذكر ذلك، وأنا في العقد الثامن من العمر، أحسد نفسي على صحتي وقوتي آنذاك لأن قوتي في العمل المركز، إلى جانب القدر اليسير من الاسترخاء والاستمتاع، استحوذت على معظم الساعات الأربع

Twitter: @ketab_n

والعشرين من النهار والليل. قسّمت عملي بالسوية بين إنجلترا والخارج وأمضيت في كل عام عدة أشهر في السفر والعمل الحقلي في نمرود بالعراق ويلي ذلك تفسير النتائج في إنجلترا. كانت المحاضرات العامة تبعث النشاط في النفس وفي الجمهور أيضاً كما أظنّ وكان أكثر من خمس مئة شخص يحضرون الاجتماعات العامة السنوية للمدرسة الآثارية البريطانية في العراق التي كانت تعقد في مبنى الجمعية الجغرافية البريطانية.

كانت هناك أربع عواصم آشورية في العراق أستطيع اختيار إحداها للتنقيب فيها وهي: نينوى ونمرود وآشور وخورسباد. كانت العواصم الثلاث الأولى تحتل مواقع استراتيجية اختيرت من أجل تلاحم الإمبراطورية. كانت نينوى ونمرود (كالح)، الواقعة على بعد حوالي عشرين ميلاً إلى الجنوب من نينوى، على الضفة الشرقية من نهر دجلة، وتبعد المدينة الثانية مسيرة نهار واحد. وتقع آشور على الضفة الغربية على بعد حوالي ٤٠ ميلاً نحو الجنوب. كانت العاصمة الآشورية الرابعة التي فكرت في التنقيب فيها هي خورسباد الواقعة على بُعد ١٢ ميلاً إلى الشمال الشرقي من نينوى قريباً من الجبال، إلا أنها كانت جهداً آشورياً لم يكتب له النجاح، إذ لم ينجز بناؤها ليتخذها الملك المغتصِب سرجون (٧٢٢-٧٠٥ ق.م.) مقراً له ولم يبدِ خلفه سوى اهتمام قليل بها[٨]. إلا أن الفرنسيين سبق أن أجروا تنقيبات واسعة في هذا الموقع الرائع بإشراف بوتا وبلاس ثم نقبت فيه بعثة

---

(٨) يراجع في وصول سرجون إلى السلطة وتأسيسه مدينة خورسباد كتاب «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة» لطه باقر، الجزء الأول الصفحات ٥١١ و٥١٤-٥١٥. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أميركية من جامعة شيكاغو. وفي رأيي لم يكن في الإمكان إضافة سوى القليل من الأهمية التاريخية إلى سجلاتها، وإن كنت لا أشك في وجود المزيد من الآثار فيها، وأعرف أين ينبغي التنقيب.

فكرت فعلاً في استئناف التنقيب في نينوى، حيث توصل منقبون بريطانيون كثيرون هم ريتش ولايارد وجورج سمث ورسام الكلداني وبدج وكنك وكامبيل تومسن إلى اكتشافات جيدة فيها. إلا أن تجربتي في العمل مع تومسن (١٩٣٠-١٩٣١) أقنعتني بأن أي تنقيب واسع النطاق في نينوى يتطلب أموالاً تفوق إمكانياتنا. إن العشرين قدماً العليا من القلعة هي كتلة مضطربة من الأطلال التي نهبت وهدمت على نطاق واسع منذ العصور الآشورية. وهناك حاجة إلى عدة أجيال من العمال لتنظيم هذه الفوضى الهائلة. ولكن تحت الغطاء العلوي يوجد تتابع رائع لآثار ما قبل التاريخ تمتد عبر فترة لا تقل عن أربعة آلاف سنة. وأعتقد أنه في يوم ما سيعمل فريق من الرجال الشجعان في هذا المشروع الآثاري الكبير وسيلقون الأضواء الساطعة على عصور ما قبل التاريخ في بلاد الرافدين كلها. ومنذ أن عملت هناك بقيت معجباً بمنطقة نينوى الواسعة التي يبلغ مجموع مساحتها ١٨٠٠ ايكر يضمها الموقع والمخطط المثير للاهتمام للمدينة الخارجية الواقعة خلف القلعة إضافة إلى الدفاعات القوية وهيدروغرافيا الري الآشوري وبقاياه الرائعة. لكن ما يؤسف عليه أن هذه المنطقة محاطة الآن بمبانٍ حديثة، إلا أن نينوى في الوقت الذي نقبت فيه كانت تكاد تكون مثلما رآها لايارد محتفظة بجمالها البدائي غير المفسد وحتى سد سنحاريب الحجري الكبير كان قائماً. ولكن لم يكن هناك أمل لي في التنقيب في المستودع الآشوري الضخم المعروف بالنبي يونس بسبب المسجد المقدس الذي تذكر التقاليد أنه يضم رفات النبي يونان أو يونس.

Twitter: @ketab_n

ورغم ذلك غامر فؤاد سفر ثم طارق مظلوم[٩] بإجراء بعض التنقيبات في إحدى البوابات التي كشف فيها عن مجموعة تماثيل الفرعون المصري طهرقة (حوالي عام ٦٥٠ ق.م) بينما أجرى طارق مظلوم تنقيبات ناجحة في بوابات نينوى وعثر على نقوش بارزة خلّفها لايارد وراءه في قصر سنحاريب.

كان الألمان قد نقبوا من عام ١٩٠٣ إلى عام ١٩١٢ على نطاق واسع في آشور العاصمة الدينية القديمة التي كان يدفن فيها الملوك الآشوريون وثبّت معالمها المنقب الألماني البارع والتر أندريه الذي التقيته عندما زار ليونارد وولي في أور. وكان قد نشب خلاف بينهما بسبب ملاحظات انتقادية عبّر فيها الخبراء الألمان عن عدم تصديقهم تاريخ البيوت السومرية الذي حدده وولي تحديداً صحيحاً، إلا أن الخلاف انتهى باعتذار رقيق وتقديم عِذْقٍ كبيرٍ من الموز في قمة الزقورة بأور. كان أندريه آنذاك يوشك أن يشرف على نهاية حياته العملية وكان قد توج مساعدته كولدڤاي في بابل بإنجاز لا يقل روعة في مدينة آشور.

وأصبحنا نعرف أن هذا الموقع المقدس كان أيضاً مركزاً تجارياً مهماً لتبادل المعادن ولا سيما نحو عام ٢٠٠٠ ق.م عندما كان القصدير يُستورد من إيران وكانت الملابس تُستبدل بكميات كبيرة من النحاس عن طريق مستعمرة كول تبه التجارية الآشورية في كابادوكيا.

وأصبحت قصة الدور الكبير لآشور في تاريخ آسيا الغربية معروفة معرفة كافية.

لذا كان واضحاً لي أن إمكانية نمرود كانت أكبر من أي موقع آخر

---

(٩) أعلمني الدكتور طارق مظلوم أنه لم ينقب في هذا الموقع. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

في بلاد آشور، وإن كانت مؤشرات مهمة كثيرة ربما اجتذبت منقبين آخرين إلى أماكن أخرى. في نظر رحالة كثيرين لا يوجد موقع أكثر إثارة من نمرود حيث كانت قبل أربعين عاماً رؤوس ملتحية لتماثيل حجرية تمثِّل نصفَ رجل ونصف وحش تبرز من الأرض خارج بوابات القصور القديمة، وكانت تلك التماثيل آخر الخدم المخلصين الذين حرسوا ملوك بلاد آشور المحاربين الكهنة. هكذا أتذكر آشور عندما زرتها أول مرة في عام ١٩٢٦ بعد موسم العمل الأول لي بصحبة ليونارد وولي في أور الكلدانيين في السهل الأجرد في جنوب بلاد بابل. أدركت في آشور أن الموقع فردوس آثاري ربما أستطيع دخوله يوماً ما بعد إكمال فترة تدريبي. ولم أتخل أبداً عن ذلك الأمل وأنا أسافر بالسيارة عدة سنوات في الطريق الملكي القديم الذي كان يربط سوسة بسارديس في زمن الأخمينيين، وهو الطريق الذي تنتشر على جانبيه التلال من كركوك إلى أربيل والموصل.

سنحت الفرصة لإجراء تنقيبات واسعة أخيراً لأن وظيفتي في معهد الآثار سمحت لي بالعمل خارج إنجلترا ثلاثة أشهر أو أكثر سنوياً. وهكذا عندما قررت العودة إلى بغداد في عام ١٩٤٧ سنح لي الوقت الكافي للتفكير فيما يمكن أن أفعله بالمدخرات من فترة الحرب العالمية الثانية التي تجمعت لدى المدرسة البريطانية للآثار في العراق وبلغت ألفي باون.

بعد عامين، أي في عام ١٩٤٩، كنت جالساً في مكتب الدكتور ناجي الأصيل مدير الآثار العام الذي كان آنذاك يدعم تنقيبات واسعة ترتبط بعصور ما قبل التاريخ في أريدو بإشراف فؤاد سفر وسيتون لويد وكانت مهمة ناجحة أُنجزت ببراعة. قال لي ناجي الأصيل: «لقد منحت تواً جامعة شيكاغو إذناً بتجديد التنقيبات في نفر وقد تكون

Twitter: @ketab_n

معنياً بسماع هذا النبأ»، فأجبت فوراً: «أجل من غير شك، لأنني كنت أوشك أن أطلب الحصول على موافقة مديرية الآثار على قيامي بالتنقيب في نمرود وهي موقع جيد للآثاريين من بلادي».

كان الوقت مناسباً لتقديم الطلب لأن قرناً كاملاً انقضى على بدء تنقيبات لايارد في الموقع نفسه. وسرعان ما وافقت مديرية الآثار القديمة في العراق على طلبي بفضل التأثير الحميد لمديرها. ولم يكن لدى أي منا سبب يدعونا إلى الأسف على هذا الاتفاق السعيد.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع عشر

نمرود: الحصن

لا يوجد في بلاد آشور كلها تل أجمل من نمرود في منطقة منعزلة ما زالت لم يمسّها التطور الحديث. وحصنها الكبير الذي يضم نحو خمسة وستين ايكراً مرجٌ يُعد منطقة رعي للأغنام مفضلة. يطل التل وزقورته على السهول المحيطة ويسيطر على مياه نهر دجلة المتدفقة التي تجري بين ضفتين شديدتي الانحدار زهاء ميلين باتجاه الغرب. ومن قمة الزقورة يبصر المرء المنظر الطبيعي الشمالي لأرض منحدرة وبلدة السلامية الإسلامية على بعد أربعة أميال والتي توجد بالقرب منها مخاضة يعبر منها النهر بسهولة دائماً. وإلى الجنوب ثمة منظر يمتد سبعة أميال من السهل الخصب إلى الزاب الأعلى حيث يمثل تل كشاف العالي بقايا قلعة كانت قوية في زمن ما وحصناً قديماً من حصون نمرود نفسها. وإلى الشرق يقع جبل مقلوب وجبال زاكروس البعيدة التي يمكن تمييز قممها في الضوء الأرجواني الرقيق الذي غالباً ما يرتبط بها.

إن هذه الأرض جيدة للرعي في السنوات الملائمة، والواقع أن ظهور الأغنام كانت في زمن لايارد تصبغ في الربيع باللون القرمزي باستعمال نبات الحَوْذان وهو منظر نادر في وقتنا. أما في الصيف

Twitter: @ketab_n

فعلى الرغم من أن المنطقة جرداء فإنها ما تزال مأوى قطعان الغزلان التي كانت، قبل أن توشك على الانقراض بسبب صيدها بإطلاق النار عليها من السيارات دون إذن، منظراً مألوفاً وجميلاً عبر السهل في الطريق من الموصل.

في أوائل ربيع عام ١٩٤٩ رافقني أحد موظفي مديرية الآثار القديمة في العراق وهو الدكتور محمود الأمين إلى الموصل لوضع الترتيبات الأولى وإيجاد مسكن لنا في قرية نمرود نفسها. وبعد سقوط الأمطار الغزيرة انغرزت سيارتنا في الطين عندما وصلنا الزقورة. إلا أن محمود المقدام والمبتسم دائماً قال إنه ثابت العزم طوال بقية الرحلة، ومع أننا كنا بطيئي الحركة وغارقين إلى الوسط في الطين، استطعنا شق طريقنا اللزج إلى منزل الشيخ عبد اللّه النجفي، وهو ليس أذكى أفراد عائلة كانت موسرة من أصحاب الأراضي، إلا أنه كان رجلاً مهذباً وجديراً بالاحترام. كنا محظوظين، إذ كان شيخنا، رغم وجود شكوك الفلاح الطبيعية المبررة فيه، مضيافاً وودوداً ومتعاوناً إلى أقصى ما يستطيع وأظهر ذلك فوراً.

عندما وصلت برفقة محمود إلى مسكنه أخيراً، بعد ساعة ونصف الساعة من الخوض في الوحل، أمر خادماً بغسل أرجلنا بالماء الدافئ وتلا ذلك تنشيفها وتدليكها بكفاءة لا تقل عن كفاءة العاملين في الحمامات التركية التي كانت موجودة في زمن ما في شارع جيرمين بلندن.

كانت تلك زيارة مرضية من كل ناحية لأننا رتبنا مكان إقامتنا إضافة إلى إقامة حوالي عشرين شرقاطياً وهم عمال ماهرون من منطقة آشور تقرر أن يقيموا في غرفتين كبيرتين تطلان على فناء خان الشيخ. وكان الأمر الأكثر أهمية هو أنني اكتشفت في تلك الزيارة من خلال

Twitter: @ketab_n

محمد النجفي عم الشيخ عبد الله الأجر المناسب لأبسط العمال وأكثرهم عدداً وهم عمال السلة. وأراد هذا الرجل المسن إنجاز عمل في ذلك النهار فاستدعى عاملين وأعطى أمامي كلاً منهما مبلغ ١٥٠ فلساً. وكان المبلغ يعادل ثلاثة شلنات أو ١٥ بنساً جديداً وكان يعادل تماماً ثلاثة أضعاف الأجر الذي كنا ندفعه في نينوى قبل ذلك بنحو عقدين، ويمكن قياس سير التضخم عندما نعيد إلى الذهن أن لايارد كان يدفع إلى عماله في عام ١٨٤٩، أي قبل قرن كامل، قرشاً واحداً أو بنسين ونصف بنس (قديم) في اليوم. وهكذا، منذ زمن لايارد زاد أجر العامل اليومي أكثر من أربع عشرة مرة.

في الموسم الأول لم تكن الهيئة المشرفة تضم سوى أربعة أشخاص هم أجاثا ومحمود الأمين وروبرت هاملتن وأنا. سبق أن كرّست أربعة فصول لأجاثا. كانت مساعدة رائعة ومضيفة دائمة الابتسام ورفيقة شجاعة وسيعدة في تنقيباتي كافة وكانت أيضاً مصورة فوتوغرافية وساعدتني في تنظيف اللقى الصغيرة وتسجيلها.

كان محمود الأمين ممثل مديرية الآثار القديمة العراقية يدوّن المعلومات عن اللقى باللغة العربية وكان مصدراً دائماً للابتهاج والتسلية. وكان خلال الحرب قد حصل على الدكتوراه في اللغات الشرقية من جامعة برلين في الفترة النهائية الحرجة قبل انتهاء الحرب. وأخيراً وجد حقل اختصاصه مدرساً في جامعة بغداد.

لا يمكن تصور نقيض له أكثر من روبرت هاملتن، إلا أن الرجلين كانا رفيقين متجانسين مع تحمّل طبيعي لأحدهما الآخر. كان روبرت خريج كلية ونشستر ومتخصصاً في آداب الإغريق والرومان وكان يتكلم العربية بطلاقة. ونادراً ما التقيت رجلاً أكثر تواضعاً وموهبة ونكراناً للذات منه. كان رساماً موهوباً ومساحاً ومسؤولاً عن السجل

Twitter: @ketab_n

المعماري وكان قد سبقني في العمل في نينوى وأحب العراق. كنت محظوظاً لحصولي على خدماته. كان سريع الغضب مع العمال على ما وصفه كاميل تومسن واتصف بسرعة البديهة وروح الدعابة.

بعد نينوى، ومع أنه لم يكن يتجاوز الثلاثين من العمر، عُيّن بتوصية من تومسن مديراً لدائرة آثار فلسطين وسكن القدس. وكانت فترة عمله بارزة في حوليات تلك الدائرة والمتحف لأنه كان فناناً وحرفياً ماهراً ومنظماً. شجع نهجه غير الشخصي المستقل موظفيه على العمل بانسجام وكان إغلاق الدائرة الأصلية مأساة لهم وله. وعلى الرغم من عدم تحيزه في تعامله، كان مدافعاً قوياً عن عدالة القضية العربية وحقوق العرب.

كان إنجازه الرئيس في ميدان عمله هو التنقيب في القصر الأموي في خربة مَفْجَر. وحاز بفضل إعادته الماهرة إعادةً لا تصدق السجل المعماري للموقع إطراء المرحوم الأستاذ سير آرتشيبالد كريسويل وكان إطراءً عالياً حقاً.

بعد أن غادر فلسطين وجد وظيفة في جامعة أوكسفورد وعُيِّن مديراً لقسم الآثار الشرقية في متحف اشموليان. ولكن من الغريب أن أسلوبه القائم على التمسك الشديد بالشكليات لم ينسجم وعدم تعاون إدارة الجامعة معه ووجد ذلك محنة. كان يميل إلى العزلة بالفطرة وكان فيلسوفاً وأعتقد أنه ربما كان سعيداً أيضاً بوصفه ميتافيزيقياً. وعلى الرغم من أنه كان مستعداً لاختلاط بالآخرين، كان لا بد من السعي إلى كسب صداقته، وكان يبدو أن كآبة باطنية عميقة تستحوذ عليه.

سكنّا نحن الأربعة في الموسم الأول من نمرود عام ١٩٤٩ جناحاً من مسكن الشيخ عبد اللّه المشيّد بالآجر الطيني. شاطرت أجاثا غرفة

Twitter: @ketab_n

نوم في الطابق الأعلى وشاطر روبرت محموداً غرفة أخرى مقابلة لها. وفي الأسفل كانت هناك غرفة جلوس وغرفة طعام وقاعة آثار وغرفة مظلمة لتحميض الأفلام معاً، وكان المطبخ ومكان الخدم في الجهة المقابلة. عشنا في ظروف تكاد تقرب من ظروف الأكواخ، إلا أننا كنا سعداء تماماً ونادراً ما كنا غير مبتلّين لأن الأمطار استمرت بالهطول طوال الشهر الأول.

طبخ لنا خادمنا الهندي إبراهيم أكلات كري هندية شهية من رز الزعفران وأعد لنا كعكاً ممتازاً، ولكن بعد انتهاء موسم التنقيب جعلني أعده بعدم اصطحابه إلى نمرود ثانية. لم يأتِ لزيارتنا مخترقاً أوحال نمرود سوى الآباء الدومنيكانيين وفيليب براد بيرن نائب القنصل البريطاني الشاب (في الموصل) الذي كان مساعده نسطورياً اسمه أَبرم. وكان الرجل الثالث في القنصلية ذا أنف كالمنقار. وكرّست ايسم زوجة فيليب حياتها للعناية بالمقبرة الإنجليزية واشتهرت بأعمالها الصالحة. وكان هناك أيضاً جون سبرنكفورد مدير معهد الآثار البريطاني وزوجته فيليس اللذان كانا متحمسين كثيراً لشروعنا في العمل. كانت ذروة ضيافتنا تقديم الشاي في غرفة الجلوس الصغيرة إلى أفراد الرهبنة الدومنيكانية كلهم في الموصل عندما زارونا والذين بلغ عددهم أربعة عشر قساً جلس معظمهم على الأرض باستثناء الأب تنمار الرئيس الساحر والكفء لمجموعة الرهبان والآثاري الأب جون الذي وضع باسم الأب فييه كتباً قيمة في مواضيع عويصة عن تاريخ العراق والموصل وبلاد آشور.

كنا نطرد بين الحين والآخر من غرفة الجلوس في منزلنا الصغير، إذ كانت أجاثا بحكم الظروف تضطر إلى استعمالها غرفة مظلمة لتظهير مسودات الصور وكان تحويلها إلى غرفة مظلمة سهلاً لأنه لم يكن

Twitter: @ketab_n

هناك ضوء كثير فيها! وكان يحظر علينا آنذاك صعود السلم إلى الطابق الأعلى وإلا كان الوحل يسقط في أواني التصوير محدثاً صوتاً عالياً.

كان ذلك الموسم الأول في الواقع محنة قاسية ابتلينا فيها بالطين الذي لم نشاهد له مثيلاً لحسن الحظ مرة أخرى. استطعنا التغلب على عقبة الأرض السبخة بين التل والقرية بفضل شرائنا في بغداد بمبلغ ١٥٠ باوناً سيارة (ستيشن واكن) من طراز دودج ذات قوة حصانية هائلة، وكانت تسير في البر والبحر معاً. كانت السيارة تشق طريقها مساء كل يوم خلال الطين مليئة بالقدور والأواني بينما العمال يتشبثون بجوانبها مثل ركاب الترام في القاهرة. وكان الصراع الآخر لقطع طريق الرحلة الذي يبلغ ٢٢ ميلاً إلى الموصل لشراء المؤن عمليّةً شاقة في تلك الطرق التي لم تكن محدودة المعالم، كانت تلك السيارة الرائعة جديرة بأن توضع في متحف. بعد الأيام الثلاثين الأولى من الأمطار بزغت الشمس فجأة وأصبحت السماء صافية وتحولت الأرض إلى قشرة صلبة تحمل أثار عجلات سيارتنا التي ربما بقي بعضها تذكاراً، إذ إنني أتذكر أنني شاهدت في سهول ليبيا آثاراً لعجلات السيارات التي قِيل إن عمرها بلغ أربعة عشر عاماً.

كان الحصن يقع في الطرف الجنوبي الغربي من المدينة المسورة الكبيرة التي بلغت مساحتها حوالي تسع مئة ايكر. إلا أن أسلافنا جميعاً ركزوا جهودهم في القصور والمعابد في القلعة الداخلية. ومرت ثمانية أعوام قبل أن نعد أنفسنا في مركز يمكننا من التنقيب خارجها.

عندما شرعنا في استعمال معلوماتنا عن الأجر العادل لعمالنا تطلب تطبيقها حزماً وعناداً من جانبنا. في اليوم الأول عندما عرضنا دفع ثلاثة شلنات إلى كل من لديه استعداد لنقل التراب في سلة صحبنا من القرية إلى التل حشد من الرجال كانوا يطلقون صيحات الاستهجان

Twitter: @ketab_n

وأعلنوا، بتشجيع من الشيخ عبد اللّٰه بلا ريب، أن الأجر المناسب هو عشرة شلنات لا ثلاثة. ولكن مع استمرارنا بالسير انضم إلينا الرجال من الجانب الآخر من النهر، فقد كانوا مستعدين للعمل مقابل أي أجر يعرض عليهم. كانت إضافة أولئك القادمين الجدد إشارة إلى نشوب سلسلة من المشاجرات استخدمت فيها الفؤوس والسكاكين وأدت إلى إصابة أو جرح بعض الرؤوس، ووجدت من الحكمة إرسال زميلي روبرت هاملتن ومحمود الأمين إلى الموصل لاصطحاب مجموعة صغيرة من رجال الشرطة ولم نتوقع وصولهم قبل مضي عدة أيام. ولكن بعد حدوث مزيد من المشادات على التل اخترت حوالي سبعين رجلاً كانوا يعملون بسعادة عندما وصل ممثلو القانون والنظام. وكان بعض العمال الذين اخترتهم هم من العمال الذين اشتغلوا معي في نينوى والأربجية وكانوا يشيرون إلى أجاثا على أنها عمتهم. ومنذ ذلك الحين لم نواجه متاعب مع العمال على الرغم من أن وجود العمال الشرقاطيين قوبل بالسخط في البدء. وفي الواقع عندما شرع هؤلاء العمال المهرة في العمل في عصر اليوم السابق أطلق أحد أفراد عائلة النجفي بضع إطلاقات متصوراً أن بوسعه إخافتنا، إلا أنه لم يستطع تحقيق هدفه.

كان هذا الإنجاز في بدء العمل على قاعدة أجور عادلة ومعقولة ذا أهمية جوهرية لأنه جعل الإدارة المالية لعملية التنقيب مسألة عملية وجعل في الإمكان دفع زيادات الأجور وعلاوات وهو أمر لا بدّ منه في التشغيل المتواصل. لم تكن الأجور التي بدت قليلة غير عادلة، إذ لم تكن هناك أعمال في الريف في الموسم الذي يسبق الحصاد مباشرة. ومكنت النقود الفلاح من شراء الشاي والسكر والقماش إضافة إلى قليل من الحلي للزوجات وجعلت الحياة محتملة بعد أن

Twitter: @ketab_n

يكون التجار قد دفعوا إليه الحد الأدنى من المبالغ المتيسرة لشراء حبوبه وربما دفعوا إليه مقدماً لأنهم كانوا يتوقعون الحصول على جزء من محصول الحصاد.

مع تقدم التنقيبات كان يحدث دائماً في بداية الأسبوع الجديد أن يتشاجر العمال للحصول على العمل. ومكنتنا الأجور المتواضعة من مساعدة المزيد من أولئك الفقراء. كان القرويون من المنطقة، مثل الفلاحين في العالم أجمع، رفاقاً طيبين واستجابوا جيداً للمعاملة الحازمة والعادلة.

لا توجد في هذه الصفحات حاجة إلى شرح تقدم التنقيبات تفصيلاً، ولكن يجدر أن نشير إلى آمالنا وتوقعاتنا عندما شرعنا في التنقيب في الحصن الذي كانت مساحته ٥٤ ايكراً واقتصرت جهودنا عليه. كانت الوظيفة الرئيسة لنمرود أن تستخدم قاعدة رئيسة للجيش في حملاته العسكرية السنوية ولا سيما في القرن التاسع قبل الميلاد في أثناء تكوين الإمبراطورية الآشورية التي أصبحت أعظم إمبراطورية عُرفت في غرب آسيا القديمة.

كان الملكان اللذان يعدان المهندسين الرئيسين لتوسع نمرود هما آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ ق.م) وابنه شلمنصر الثالث (٨٥٩-٨٢٤ ق.م). وكانت بلاد آشور محظوظة لأن هذين الملكين العظيمين من العائلة نفسها حَكَما ستين عاماً، أسست فيها الإدارة البالغة التعقيد للإمبراطورية على قاعدة راسخة وأصبح الجيش أكثر كفاءة من أي جيش آخر آنذاك لا بسبب تنظيمه فحسب، بل بسبب تفوق أسلحته التي كان الكثير منها مصنوعاً من الفولاذ.

استمر استخدام نمرود أو كالح مركزاً عسكرياً رئيساً في القرن الثامن قبل الميلاد لا سيما خلال حكم سرجون الثاني الحازم (٧٢٢-

Twitter: @ketab_n

٧٠٥ ق.م). إلاّ أن خلفه سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ ق.م) هجر هذه المدينة مفضلاً نينوى، ولكن ابنه اسرحدون (٦٨١-٦٦٩ ق.م) شرع في العودة إليها في نهاية حكمه وطمح في جعلها ثانية عاصمة لبلاد آشور.

كانت نمرود أساساً قاعدة عسكرية وكانت كبيرة بما يكفي لاستيعاب جيش كبير كان لا بدّ من جلب جزء كبير من تموينات الغذاء له من سوريا. وتدل على الثروة غير العادية التي حصلت عليها بلاد آشور خلال فترة التوسع هذه اللقى الكثيرة من العاجيات المنحوتة المكتشفة في القصر الكبير المعروف بقلعة شلمنصر في النهاية الجنوبية الشرقية من المدينة الخارجية.

كان هدفنا العاجل التوصل إلى السبيل الذي اتبعه لايارد في الجانب الغربي من التل ثم التوجه إلى القطاع الشرقي وهو منطقة مجهولة نسبياً لم يكد يسبرها لسبب وجيه.

عندما اخترنا الحصن ونمرود نفسها للتنقيب كان لدينا هدفان رئيسان: أولاً، اكتشاف المزيد من العاجيات لأنني كنت مقتنعاً بأنه ما زالت هناك عاجيات كثيرة أخرى تنتظر الاكتشاف. وثانياً، وهو الهدف الأكثر أهمية، اكتشاف سجلات مسمارية، إذ باستثناء المخطوطات الملكية التي رافقت النقوش البارزة الآشورية لم يذكر لايارد أية ألواح طينية بالكتابة المسمارية. وبدا لي أمراً لا يصدق أن مدينة كبيرة مثل هذه خلت من النصوص الاقتصادية والتجارية والتاريخية والأدبية. وكنت مستعداً للمراهنة بحياتي على أننا سنعثر على هذه الآثار كلها في النهاية وقد عثرنا عليها فعلاً.

لذا وجّهنا جهودنا الأولى إلى الحجرات في قصر آشور ناصر بال في الشمال الغربي حيث اكتشف لايارد أجمل العاجيات وأطلق عليها

Twitter: @ketab_n

الحجرة V والحجرة W. ودون أن نجلب خريطته حددنا تماماً موقع الحجرة V في عصر اليوم الأول من شهر آذار/ مارس وطلبنا من عمالنا الشرقاطيين العمل هناك. أردنا أن نعرف ما اكتشفه من القطع العاجية وكذلك موقع العاجيات في الأصل. وجدنا في كلا الحجرتين عدداً كبيراً من الكِسر غير المهمة، ولكن بقيت قطعة عاجية واحدة ذات رقة نادرة، وهي نموذج لبقرة مصنوعة بحيث يمكن رؤيتها من الجوانب كافة. يبلغ قياسها بقدر نصف طول اليد الواحدة، وكانت مصنوعة أصلاً وهي تُرضع عجلاً. كانت القطعة على كتلة طين في إحدى زوايا الغرفة وفهمت فيما بعد مغزى ذلك الوضع، لقد سقطت من حجرة علوية فوق الطابق الأرضي للحجرة V. وفي الحقيقة إن حجرات كثيرة في القصر كانت ذات طابقين.

كان في ممر إحدى الحجرات المؤدية إلى عاجيات لايارد نقش لسرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) يذكر أنه هنا كان الكنز الذي استولى عليه من بيسيري ملك قرقميش، ولكن يحتمل أن بعض العاجيات كان معاصراً له وبعضها الآخر كان يعود إلى زمن شلمنصر الثالث (٨٥٩-٨٢٤ ق.م) الذي شن حملات على فينيقيا. لذا كان بعض تذكارات النصر ذا أصل فينيقي متأثراً بالفن المصري وربما جلب عمالاً فينيقيين إلى بلاد آشور.

كان تمثال البقرة العاجي من حصة مديرية الآثار القديمة العراقية التي كانت تعطي المنقبين في تلك الأيام حصة هي نماذج من اللقى. وليس بوسع المنقبين الحصول على تمويل إلا من مؤسسة شريطة أن يقدم إليها شيئاً لقاء الأموال التي تنفقها. ولحسن الحظ عثرنا، خلال ذلك الموسم نفسه، على ختم أسطواني جميل أيضاً من الكوارتزله نُقشت عليه مخلوقات خرافية تحمل الشمس عبر السماء. وكان تاريخه

Twitter: @ketab_n

نحو عام ٨٠٠ ق.م ولا بدّ أنه كان يعود في وقت ما إلى حاكم كالح. وعندما حان موعد تقسيم اللقى قلت إنني يجب أن أعود إلى المتحف البريطاني بتمثال البقرة أو الختم الأسطواني وإلا لن يكون بوسعي العودة إلى العمل موسماً آخر. نوقشت المسألة بحدة في مديرية الآثار القديمة وساد الكرم بأغلبية صوت واحد. وهكذا كان قليلاً جداً الفرق الذي مكننا من مواصلة التنقيب في نمرود عشر سنوات أخرى.

مكننا ذلك الموسم الأول من فهم ما ينبغي عمله في الحصن وسبب اقتصار التنقيب على القليل في القطاع الشرقي منه الذي حولنا إليه اهتمامنا، لأن مبانيه كانت لا تتكون إلا من آجر طيني لم يستطع عمال الحفر تحت إشراف لايارد فصله عن التربة المحيطة به إلا عندما كانوا يعثرون على النقوش البارزة. ويوماً بعد يوم كانت المياه ترغمنا على الانتقال من حفرة إلى أخرى وفهمنا الإمكانية الأقل إثارة لكنها المهمة تاريخياً للمباني الآشورية. كان أول إنجاز مهم لنا هنا استظهار مبنى إداري واسع أطلقنا عليه اسم قصر الحاكم، شيّد معظمه أدد نيراري الثالث والملكة الأم الجبارة ساموررامات الشهيرة بالملكة سميراميس في الكتابات التاريخية الإغريقية. وبمرور الزمن وسّعنا إلى حد كبير الخرائط التي وضعها أسلافنا لايارد ولوفتوس وجورج سمث وتوصلنا بالتتابع إلى اكتشافات معمارية وآثارية وافرة في القصر المحترق وفي معبد نابو وفي النهاية الشمالية الشرقية من التل حيث استظهرنا سلسلة من المساكن الخاصة لم تكن مكتشفة حتى ذلك الحين تطل على مشهد رائع للمدينة الخارجية من القاعدة الواسعة من السور الشرقي للحصن.

في البدء عندما كنا ننقب في قصر الحاكم والقصر المحترق عثرنا على أشرطة من الرماد كانت مؤشرات واضحة على نهب واسع النطاق.

Twitter: @ketab_n

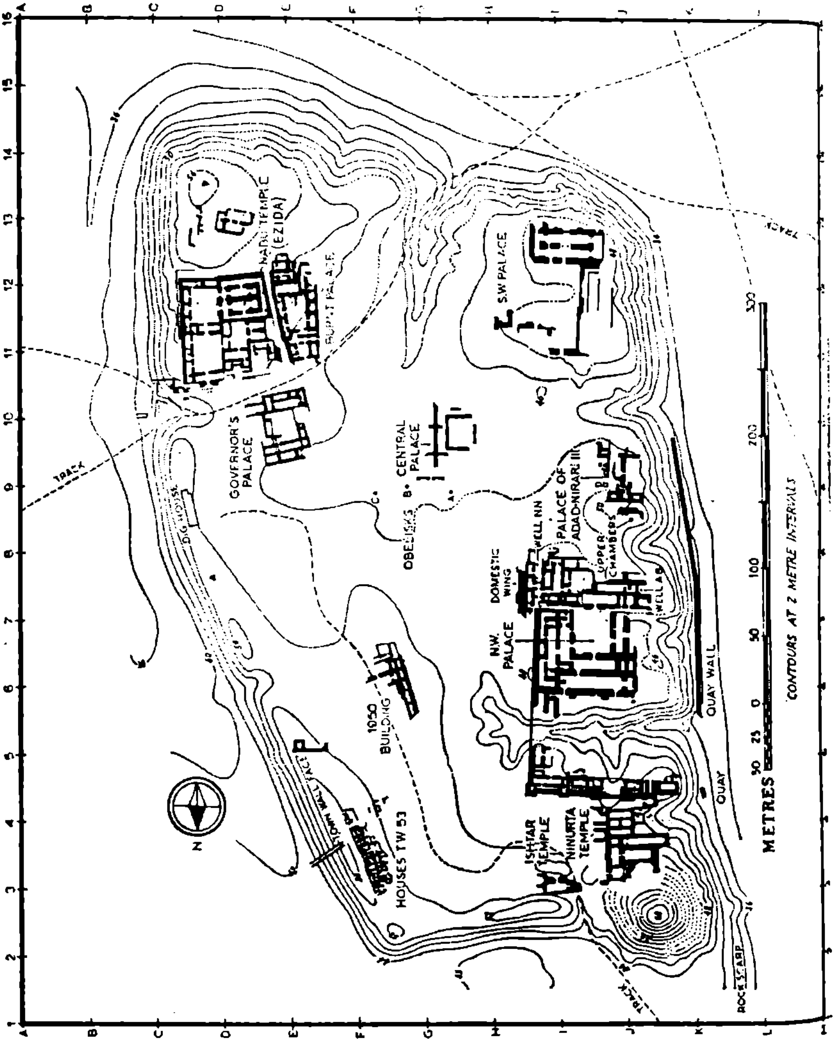

خريطة كونتورية لحصن نمرود تظهر موقع المباني التي نقب فيها (١٩٥٧)

Twitter: @ketab_n

لأن الألواح المسمارية التي عثرنا عليها هناك كان يمكن تحديد تأريخها بالسنوات القليلة الأخيرة من حكم سرجون (٧٢٢-٧٠٥ ق.م). استنتجت خطأ أن نمرود نُهبت في ثورة وقعت بعد موته مباشرة. إلا أن مواصلة التنقيب على مرّ السنين كشفت أن هذا الحرق الشديد ينبغي أن يُعزى إلى نهب الميديين والبابليين (٦١٤-٦١٢ ق.م) بلاد آشور نهباً نهائياً. لم يكن حِفظُ أعمال سرجون ووثائقه على نحو مدهش يعود إلى أي نهب أو ثورة، بل إلى إهمال سلفه سنحاريب مدينة كالح وهجرها عمداً، إذ كان مصمماً على رد الاعتبار إلى نينوى وأهمل نمرود إهمالاً شديداً بحيث تهدمت مبانٍ كثيرة. إلاّ أن أسرحدون، ابن سنحاريب، غيّر هذا الوضع وقلب سياسة أبيه وصمم على رد الاعتبار إلى نمرود ـ كالح. وفي الفترة الأخيرة من حكمه انشغل بتشييد أسوار حجرية ضخمة في قلعة شلمنصر في المدينة الخارجية.

يسير سجل التاريخ والآثار جنباً إلى جنب. وعندما نتأمل تتابع الملوك نجد أن العاهل الجديد إما تمنى بقوة تحسين عاصمة سلفه أو أنه أهملها تماماً وانتقل إلى عاصمة أخرى. يُظهر تاريخ المباني الآشورية أن كل عاهل يسعى إلى أن يمتلك قوة أعظم من سلفه.

إلا أن القصر المحترق، الذي كان بناءً واسعاً، يعد مكاناً متواضعاً نسبياً بوصفه سكناً ملكياً واستخدمه إما الحاكم أو سرجون نفسه بينما كان يشيد مسكنه الجديد في خورسباد. كان بين أكثر آثار سرجون إثارة للاهتمام نص مسماري سجل الصعوبات التي كانت تواجه حكامه من قوم شماليين يدعون الجيميرانيين، وكانت تلك دلالة تنذر بقدوم سلطة السيميريين(١) الذين سيطروا بعد عقود قليلة، في عام ٦٩٤ ق.م على

---

(١) السيميرويون: شعب بدوي من السهول الروسية اضطر إلى النزوح من شبه

Twitter: @ketab_n

الأرجح، كما ذكر يوزيبيوس[٢]، على الأناضول وحطموا مدينة كورديون الفريجيانية[٣]. وأيد هذا التاريخ رودني ينك الذي نقب في بقايا هذه المدينة في قلب كابادوكيا.

عثرنا في القصر المحترق أيضاً على مجموعة جميلة من رؤوس عاجية صغيرة لفتيات في معظمها يبدو أنها كانت تحدد ملامح الحريم المتنوع للملك. وتكمن أهمية هذه المجموعة البارزة في أنه يمكن الآن بثقة تحديد تاريخ القصر بالعقود الأخيرة القليلة قبل عام ٨٠٠ ق.م بسبب شبهها القوي بمجموعة أخرى يعرف تاريخها عثر عليها روبرت ديسون في حسنلو بشمال غرب إيرن. وهنا عثرنا على مَعْلَم تطور عاجيات نمرود.

لا بدّ من تأكيد واحد من الاكتشافات الكثيرة المهمة في هذا القطاع من التل لنلفت إليه الاهتمام. إنه اكتشاف المجموعة اللافتة للنظر من «معاهدات التبعية» التي فرضها أسرحدون على تسعة من أمراء الميديين في أوج حكمه في عام ٦٧٢ ق.م وأرغم كلاً من هؤلاء على أن يُقسم يمين الولاء لملك بلاد آشور، وفي حالة الحنث باليمين أو إنكار القسم كانوا يُهدَّدون بسلسلة من اللعنات ذات الطابع البشع توصف بالتفصيل في مراسيم التهديد التي يبدو أن بعض اللعنات كانت

جزيرة القرم في القرن الثامن قبل الميلاد وتراجع عبر جبال القفقاس وشن هجمات متعددة على مدى فترات طويلة وغزا شمالي بلاد آشور. (المترجم).

(٢) يوزيبيوس (حوالي عام ٢٤٦-٣٤٠): مؤرخ ولاهوتي أصبح أسقفاً في فلسطين واشتهر بمؤلفاته عن تاريخ المسيحية. (المترجم).

(٣) الفريجيانيون: شعب انتقل إلى غربي أواسط تركيا بعد سقوط الحثيين. وأسس الفريجيانيون دولة لم تعمر طويلاً (من حوالي عام ٧٥٠ إلى ٦٨٠ ق.م) تحت حكم ميداس كانت عاصمتها كورديون. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

تعرض فيها على نحو مثير من مثل تسيير عربة ملوثة بالدم وصهر تمثال من الشمع في الناس. كما أن هذه الألواح ضمّت وصية ملك بلاد آشور الأخيرة والترتيبات التي وضعها لمشاطرة ولديه حكم الإمبراطورية أحدهما في نينوى والآخر في بابل. وعثر على الألواح مع مجموعة كبيرة من العاجيات من القرن التاسع هُشمت وشوهت في قاعة العرش بمعبد نابو. إن هذه الوثائق الملعونة دليل خالدٌ على أن المعاهدات لا عصمة لها بعد أن تستنفد أغراضها وعلى عدم ديمومة الاتفاقيات بين البشر، إذ لا جدوى من الإذعان إكراهاً بالتهديد.

كان النص الرئيس لمعاهدة مع أمير ميدي اسمه أوراكازابانا في ٦٧٤ سطراً. وقد أمضى الأستاذ د.ج. وايزمان ثلاثة أعوام يعيد تكوين النص من مئات الكِسر وهو إنجاز ينم عن القدرة على الاحتمال والضبط المنهجي اللذين يلقيان تقدير العلماء لأنه أنجز هذه المهمة بجدولة بارعة للقطع التي أُعيرت كلها بسخاء إلى المتحف البريطاني. كان يصل إلى مكتبه قبل ساعة واحدة من الوقت المقرر كل يوم ويغادره بعد ساعة من انتهائه. وأثمر ذلك الضبط المتواصل ثماره. ولا توجد سوى سطور قليلة ناقصة.

ينبغي أن يكفي هذا التعليق مقدمة للاكتشافات المهمة الكثيرة في الجانب الشرقي من الحصن. ولا أود سوى إغراء القارئ بمطالعة كتاب (نمرود وآثارها)[٤] للاطلاع على وصف للمساكن الخاصة. كان أحد سكان تلك البيوت شيخاً يدعى شمش ريشوسور يمارس التجارة أكثر من نصف قرن، إذ كان تاجراً ثرياً يمارس أنواعاً مختلفة من المعاملات التجارية مثل دفع المال مقدَّماً لقاء المحصول عند حصده

---

(٤) Nimrud and its Remains.

Twitter: @ketab_n

وتجهيز المعبد في أربيل بالطيور. إن هذا الشيخ مَعْلَمٌ في حوليات دراسة الشيخوخة ويظهر أنه يتحتم على المرء لكي يبقى طويلاً في بلاد آشور أن يكون غير قابل للتدمير، ويزيد في مثل هذه الظروف متوسط العمر المتوقع مع التقدم في السن.

نعود الآن إلى استعراض اكتشافاتنا في القطاع الغربي من التل. كرّسنا جهودنا منذ الموسم الأول في الكشف، قدر استطاعتنا، عن امتداد الجناحين الشمالي والجنوبي من قصر آشور ناصر بال الشمالي الغربي وطابعهما لأنه كان واضحاً فوراً من فحص خرائط لايارد أنه لم يركز جهوده الرئيسة إلا في المباني الحكومية ومنها استخرج السلسلة الرائعة من النقوش البارزة الحجرية التي عرضت باعتزاز فترة طويلة في المتحف البريطاني.

شرعنا في العمل أولاً في الجناح السكني على الضلع الجنوبي من القصر وعثرنا هنا على أدلة بديعة في أجنحة كانت تقطنها الأميرات. لم تكن هناك مجموعة كبيرة من العاجيات ومنها تمثال كبير على نحو غير عادي لثور يعود إلى فترة حكم سرجون فحسب، بل حلي نسائية بسيطة أيضاً ضمّت مجموعة من الصدف فيها مواد تجميل بشكل كحل للعين وحفرت واحدة منها بعقرب يقرن بالإلهة عشتار وكان مفضلاً لدى الملكة زوجة سنحاريب. وبقيت في إحدى الحجرات مجموعة من الرماح يرجح أن الحرس الهاربين تركوها. وكان في مكان قريب قبر بشري تتوّجه لوحة حجرية تمثل آشور ناصر بال يسجل تأسيس سور المدينة. ولا شك في أن أسرحدون هدمه عندما رممه بعد ذلك بقرنين. ضم القبر بقايا أميرة أُودعت معها جوهرة نمرود الشهيرة الموجودة الآن في بغداد. وكانت القلادة تميمة ختم من الكوارتز حُفر عليها مشهد يمثل شخصين واقفين يعزفان على مزمارين على جانبي

Twitter: @ketab_n

شجرة. وكانت القلادة مثبتة بسلسلة ذهبية ذات حلقات صيغت صياغة جميلة وثبتت بمرود. وكان رداء الأميرة مثبتاً بدبوس أمان يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد. وضمنت عزلة هذه المباني السكنية بممر طويل معبّد بالحجارة ويغلق بأبواب ثقيلة، وكان الملك يسلكه كل يوم يحرسه ملاك مجنح ضخم في نقش بارز يثير الإعجاب في نهاية الممر.

توصلنا إلى اكتشافات أخرى بارزة في الجناح الإداري الشمالي. هنا كانت خزائن المحفوظات الملكية وهي منصات مقسمة من الآجر كانت تضم، في جملة ما تضم، سجلات الإدارة الإقليمية تحت حكم الملك تجلاثبليزر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) وتقريراً لشيخ بابلي ثائر يدعى أوكنزير وقد فحصه أحد أعضاء فريقنا وهو (هـ.و.ف.) ساكز (الأستاذ الآن).

هذه القصة مثيرة. فقد ضمّت سجلات الملك تجلاثبليزر الثالث نفسه عدداً من الوثائق الخاصة بفرض الضرائب ومأمور ضريبة الدخل في مدينتي صور وصيدا الفينيقيتين حيث كان رجال الشرطة السكثيون يضطرون إلى إرغام الممتنعين على دفع الضرائب. وهنا أيضاً كان يوجد لوح حجري كبير يصف دسائس شيخ كلداني ماكر كان شوكة في جانب ما لا يقل عن أربعة ملوك آشوريين. وكان سرجون قد رفع هذا اللوح الأسطواني المنقوش التحريضي من مدينة أوروك البابلية وقدم نسخة «محسنة» منه. وهذه أول حالة معروفة عن هجوم وهجوم مضاد في الدعاية. ويكفي القول إن مخطط المبنى الإداري مساهمة جديدة لفن العمارة الآشورية وإنها لضربة حظ أن يعثر على محفوظات كثيرة جداً في حجراتها المخصصة لها مغطاة بالرماد على عمق كبير يُنسب إلى النهب الأخير. وكان الحرق الأخير قد أنقذها حقاً من

Twitter: @ketab_n

التدمير على الرغم من أن الأملاح في التربة هنا، كما في أماكن أخرى في نمرود، قد سببت تفسخ ألواح طينية كثيرة.

كانت هذه الاكتشافات كلها في أجزاء من القصر الشمالي الغربي ولم يكد يمسها لايارد، إلا أن أبرزها كان في منطقة أغفلها وتقع خارج المدخل الرئيس لقاعة العرش.

في عام ١٩٥١، وبينما كنت أفحص المدخل الرئيس لاحظت أن طبقات كثيرة من الآجر الطيني قد انهارت من قمة السور وبدا ممكناً وجود شيء مهم تحتها، ربما كان تمثالاً حجرياً ضخماً أو حارساً مجنحاً نصفه رجل ونصفه أسد. كان التمثال هناك فعلاً، ففي مكان مليء بالآجر المنهار وجدنا مسلة رائعة من الحجر الرملي بهيئة نصب يزيد ارتفاعه على أربعة أقدام أقامه المؤسس آشور ناصر بال ونقش من الأمام والخلف بمئة وأربعة وخمسين سطراً تسجل إكمال تشييد المدينة في السنة الخامسة من حكمه، أي في عام ٨٧٩ ق.م.

والنص هو قائمة بالمباني الرئيسة في المدينة وتشييد القصور والمعابد والأسوار إضافة إلى الحدائق الملكية والنباتية والحيوانية.

كان آشور ناصر بال يحب أزهاره وكان مولعاً بالبستنة وجمع أنواعاً مختلفة كثيرة من الأشجار في حملاته الخارجية وجمع الحيوانات البرية في زحفه واصطاد الفيلة في حُفرٍ للحصول على عاجها الثمين. كان الآشوريون غزاة أذكياء وحصلوا على خيرات البلدان الأجنبية. وتتضمن المسلة في الختام وصفاً لمأدبة فخمة أقيمت في الحصن على مدى عشرة أيام حضرها ٦٩٥٧٤ شخصاً بمن فيهم عدد كبير من الضيوف البارزين. ومن الواضح أن الحصن الواسع كان يتسع بسهولة لنحو ٧٠٠٠ شخص يومياً، وبوسع المرء أن يتصور المآدب التي أقيمت في ربيع عام ٨٧٩ ق.م. وكانت مآدب في الهواء

Twitter: @ketab_n

الطلق تقدم أساساً في الأفنية الفسيحة عدا مآدب ذوي الامتيازات القليلة الذين كان يحتفى بهم في الأجنحة الملكية. إن قراءة وصف الطعام والشراب واللحوم والفواكه والخضروات والخمور والبيرة تثير المتعة ويتضمّن الوصف منجماً من المعلومات الطريفة.

أبرز سمات هذا النص أنه يوفر قاعدة نادرة لمحاولة تقديم تقرير عن إحصاء للسكان في هذه الفترة على الرغم من أن السبعين ألف شخص اجتمعوا هنا في كالح لغرض مُعيّن. وكان ديفيد أوتس (الأستاذ الآن)، الذي انضم إليّ في موسمنا الخامس عام ١٩٥٣ وأصبح في السنوات الأخيرة من التنقيب المدير الحقلي، قد بذل محاولة في كتابه المثير للمتعة العميقة الموسوم «دراسات في تاريخ شمال العراق» Studies in the History of Northern Iraq لتقدير عدد السكان الذي يتوقع أن تضمهم منطقة كالح ـ نمرود اعتماداً على مواردها بدعم شبكة القنوات المتقنة التي شيّدها المؤسس الثاني آشور ناصر بال الذي كان قد بعث الحياة ثانية في المدينة أربعة قرون في أعقاب شلمنصر الأول. استند أوتس في رأيه إلى أن الفلاحين الحائزين على أراضٍ تعتمد مباشرة على كالح لا يمكن أنهم كانوا يعيشون على بعد يزيد على سبعة أو ثمانية أميال عن المدينة، كما يستنتج من القيود على عمالنا في نينوى ونمرود الذين كانوا مستعدين لقطع تلك المسافة سيراً على الأقدام، ولكن نادراً ما كانوا يقطعون أكثر من تلك المسافة ذهاباً وآياباً في يوم واحد. وعلى هذا الأساس، وإذا أخذنا أيضاً بنظر الاعتبار مساحة الأرض الصالحة للزراعة المتيسرة في تلك المنطقة، نتوصل إلى الاستنتاج المدهش والمقبول أن عدد السكان المحليين الذين كان بالإمكان إطعامهم من موارد كالح نفسها لا يزيد على ٢٥ ألف شخصاً.

Twitter: @ketab_n

من الناحية الأخرى ينبغي أيضاً أن نستنتج من مخطط المباني من المساحة المتيسرة بين الأسوار التي ضمت الحصن والمدينة الخارجية، وهو محيط يبلغ حوالي خمسة أميال، ومن حوليات الملوك الآشوريين الذين حكموا فيما بعد ومن التقارير عن جيوشهم أن عدد السكان المدنيين والعسكريين في نمرود كان أحياناً أعلى بكثير من ٢٥ ألفاً. ونستطيع، في رأيي، أن نستنتج أن عدد السكان وصل أحياناً إلى ما لا يقل عن ١٠٠ ألف نسمة. وفي الواقع عثرنا في قلعة شلمنصر على لوح ورد فيه فحص ٣٦٢٤٢ رمحاً ويعني ذلك أن قوة الجيش كانت ضعف ذلك العدد على الأقل.

إن مثل هذه الحسابات تتسم بأهمية جوهرية لفهمنا تطور التاريخ الآشوري. ومما لا شك فيه أن معظم السكان في كالح وفي المدن الآشورية الأخرى يمكن وصفهم بالطفيليين لأنهم كانوا يعيشون على جهود منتجي الغذاء ولم يكن بالإمكان توفير الغذاء لهم إلا باستيراد فائض الغذاء من الخارج، لا سيما من مناطق إنتاج القمح الغنية في سوريا التي استغلت استغلالاً تاماً في أيام حكم الإمبراطورية الرومانية.

يُضاف إلى ذلك أن المراكز المدنية الكبيرة في بلاد آشور كانت تحتاج إلى أعداد ضخمة من العمال للتشييد وصيانة المنشآت العامة الواسعة. ونحن نعرف أن إحدى القنوات المعلقة الكثيرة التي شيّدها سنحاريب والتي تؤدي إلى نينوى ضمّت ما يزيد على مليوني كتلة حجرية.

هكذا أصبحت بلاد آشور أسيرة اقتصادها الذي أرغمها، لأسباب ترتبط بالضرورة والأمن، على الاعتماد على عدد كبير من المهاجرين لصيانة مدنها، وكان هؤلاء سوريين وحثيين وحتى إيرانيين. إن تسلسل التاريخ في نمرود يوضح هذه الحالة ويتضمن اتساع

Twitter: @ketab_n

الفتوحات وبلوغها ذروتها في القرن التاسع قبل الميلاد وصعوبات المحافظة على إمبراطورية مترامية الأطراف في القرن الثامن قبل الميلاد وبدء المحنة في القرن السابع قبل الميلاد والمصير المحتوم الوشيك الذي أنذر بالسقوط المحتم عندما بدأت الأمور تسير على غير ما يرام إبان حكم الملوك الثلاثة بدءاً بآشور بانيبال. إن الإمبراطورية الآشورية أفضل مثال على القول المتفائل في كتاب بوليبيوس[٥]: إن معرفة الماضي أسرع وسيلة لتصحيح السلوك وهو رأي آمن به كونت أيضاً[٦]. ينبغي ألاّ يرغب أحد في تقليد الإمبراطورية الرومانية على الرغم من أن كثيرين فعلوا ذلك في الحصن ولا سيما في الأجنحة الملكية. سعدنا باكتشاف أفضل آثار الفنون الثانوية الآشورية حتى ذلك الحين. وفي موسمنا الرابع في عام ١٩٥٢ ـ وكان هذا عامنا الرائع ـ قررنا تنفيذ العملية الصعبة والخطرة لتطهير ثلاث آبار في الجناح الإداري.

كان لايارد نفسه قد حفر في البئر الأولى AB إلى مستوى الماء وتوقف هناك تماماً حيث كان ينبغي أن يواصل الحفر. وعندما حفرنا أعمق عثرنا على بقايا ست عشرة لوحة عاجية وعدد من اللوحات الخشبية. وعثرنا على كِسَر من الكتابة المسمارية على الشمع وهي شكل من النقش كان شائعاً جداً في وقت ما وكانت الكِسَر الأولى من نوعها المكتشفة حتى ذلك الحين. وكان النص مكتوباً على نحو جميل بخط مسماري صغير على خلفية بلاستيكية صفراء هي مركب من شمع

(٥) بوليبيوس (حوالي ٢٠٥-١٢٣ ق.م): مؤرخ إغريقي أمضى سنوات كثيرة في روما ووضع كتاباً عن تاريخها. (المترجم).

(٦) أوغست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧) فيلسوف فرنسي يعد مؤسس علم الاجتماع. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

النحل والرهج الأصفر[٧] مما جعل استعمالها ممكناً. كانت التحفة الرائعة في هذا الاكتشاف الغلاف العاجي الممتاز المنقوش عليه اسم الملك سرجون (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) الذي يدلنا على أن هذا النص الفلكي الطويل الذي يستشهد باسم إله السماء انليل صُنع ليستعمل في قصره الجديد في دور شروكين (خورساباد). إننا نعلم أن سرجون أمضى جزءاً من سنواته الأخيرة يعد للانتقال إلى عاصمته الجميلة التي لم ينجز تشييدها وكنا محظوظين لإكمالنا التنقيب في تلك البئر دون أن نفقد أحداً، إذ بعد أن رفعنا حفّار البئر المسن مباشرة، وكان شيخاً من مدينة آشور سبق له أن عمل مع أندريه[٨]، انهار قعر البئر محدثاً ضجة هائلة.

ردعنا هذا عن النزول إلى قعر بئر أخرى قريبة هي AJ حيث نجحت مديرية الآثار القديمة العراقية بعد ذلك بعدة أعوام في استخراج ١٢ قطعة عاجية رائعة يبدو معظمها في حالة جيدة.

ويوجد جزء من ناب فيل نحتت النهاية الضيقة منه بهيئة تمثال لامرأة تسند ثدييها بيديها مع أشرطة للذراعين وأشرطة شعر مكسوة برقاقة ذهبية. ويوجد إناءان بهيئة أسد وقطعة من صفيحة مخرمة وقطع أخرى أصغر منها. وكانت المفاجآت الرئيسة صينية مستطيلة مسطحة قليلاً لا يزيد طولها على ثلاثين سنتمتراً مع انخفاض دائري قليل في الوسط، وفي كل نهاية زهرة لوتس، مثبتة بتجويف ولسان، وقطع

---

(٧) ثالث كبريتيد الزرنيخ الطبيعي ولونه برتقالي مائل إلى الأصفر الليموني. (المترجم).

(٨) أندريه (١٨٧٥-١٩٥٦): أثاري ألماني أشرف على التنقيبات في آشور من عام ١٩٠٣ إلى عام ١٩١٤، وعمل بعد الحرب العالمية الأولى في قسم الشرق الأدنى بمتحف برلين وأصبح مديراً له عام ١٩٢٨. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ملحقة أصغر منها بهيئة رؤوس أكباش. والقطعة الرئيسة الأخرى هي رأس خصي بكل الأبعاد وبحجم أصغر قليلاً من الموناليزا، أكبر الرؤوس العاجية التي عثرنا عليها، مع بعض الطلاء المتبقي وأجزاء أيضاً من الجسم الذي كان على ما يبدو مكوّناً من كتل متداخلة من العاج، إذ هناك القدمان وقطعتان من الكتف والصدر يغطيها قماش متجعد وقطع أخرى يرجّح أنها تعود إلى القسم الأيسر الأسفل من التمثال وهي متجعدة أيضاً. ويبلغ طوله الكلي حوالي خمسين سنتمتراً.

حققنا نجاحنا الرئيس في بئر مبنية من الداخل بالآجر بطريقة جميلة ويزيد عمقها على ثلاث مئة مدماك، مع التواء لولبي في منتصفها، ونُقش على كثير من الآجر اسم آشور ناصر بال. وعندما استشرت خبيراً أميركياً في آبار النفط قال إن لكل بئر ضحية. وكانت هذه البئر رحيمة لأننا واصلنا الحفر، وفي عمق يتراوح بين سبعين وثمانين قدماً عثرنا على فدية ملك في الوحل تحت الماء. وعندما اقتربنا من القعر اضطررنا إلى الحفر نهاراً وليلاً، إذ كان الماء ينضح بالسرعة نفسها التي كنا نحفر بها. ورغم ذلك، وبمساعدة الفوانيس أكملنا المهمة بسلام في موسمين. ومرة أخرى لن أذكر سوى القليل من اللقى الرئيسة التي وصفت كلها باستعمال الرسوم التوضيحية في كتاب نمرود وآثارها Nimrud and its Remains.

كان أروع ما عثرنا عليه زوج من الصفائح المعدنية يظهر فيهما مشهد قاس لزنجي عشية سكرة الموت، هاجمته على ما يبدو، لبوة في أجمة من قصب البردي وأزهار اللوتس المرتبة في صفوف متناوبة تتموج إلى الأمام والخلف في الريح. وكانت الفواصل الصغيرة من الزهور الملونة مثبتة باللازورد والعقيق الأحمر. وثبتت ملامح الزنجي بوضوح ونحت الشعر المجعد على شكل نتوءات متوجة بالذهب.

Twitter: @ketab_n

كانت هاتان الصفيحتان المصغرتان المصممتان لعرش سرجون من الأمام والخلف معجزة في نحت العاج ويعتقد عموماً أنهما من عمل صُناع فينيقيين مهرة ربما جلبوا من صور وصيدا لإكمال مهمتهم في كالح. ومكننا الاكتشاف ـ الأعجوبة لزوج من الصفائح من المطالبة بإحداهما حصة لنا ولكي يشاهدها ملايين الناس. ويوجد ملصق جداري ملون كبير يعلن عن هذه القطعة العاجية في محطات قطار الأنفاق في لندن وتجتذب الزوار إلى المتحف البريطاني داخل بريطانيا وخارجها وهي علامة على تقدير عالمي.

أتذكر جيداً الترحيب بهذه القطعة البارزة في مطار لندن في يوم سبت في شهر أيار/ مايو ١٩٥٢ وحملتها مباشرة إلى مختبرات أبحاث المتحف البريطاني حيث استعمل الدكتور هـ.ج. بليندر ليث يديه الماهرتين والتقط بحكمة صورة بالأشعة للجانب الخلفي منها كشف عن صدع داخلي بالعرض تماماً.

وبهذه الطريقة أمكن أن نحدد دون تأخير الطريقة الأفضل للمحافظة عليها. أما القطعة الثانية، وهي نموذج كامل تقريباً، فهي من أعز المعروضات في المتحف العراقي ببغداد. وسمحت أحكام القانون العراقي البارعة آنذاك بتوزيع هاتين القطعتين الثمينتين على العاصمتين البعيدة إحداهما عن الأخرى. وهكذا لا يوجد في هذا العصر المحفوف بالمخاطر ضمان أفضل من فقدان كليهما وتدميرهما، وليست هناك طريقة أفضل لتمكين الشرق والغرب من التمتع بهما.

عثرنا في البئر نفسها على عاجيات بديعة أخرى: رأس كبير لفتاة جميلة بضفائر سود وشفتين ضاربتين إلى الحمرة أطلقنا عليه اسم «السيدة في البئر» وسمّاه ناجي الأصيل «الموناليزا»، وسيبقى شهيراً دائماً. تتناقض ملامح هذا الرأس الجميل الرقيقة مع رأس آخر ليس

Twitter: @ketab_n

أصغر منه أطلقنا عليه اسم «الأخت القبيحة» صنع بأسلوب مختلف، وربما يعود تاريخه إلى قرن بعد الرأس الأول، أي إلى وقت ما من القرن التاسع، ويحتمل إلى عهد شلمنصر الثالث. وأرسلنا هذا الرأس الذي خصص للبعثة إلى متحف نيويورك الذي أسهم بسخاء في تمويل بعثتنا منذ عام ١٩٥١. لم أعرف نصيراً أكثر تفهماً ووعياً من تشارلز ولكنسن أمين قسم الشرق الأدنى في ذلك المتحف آنذاك. كان فناناً وصانعاً حساساً ورجل علم ودعمنا بإخلاص وسخاء وشجع المسؤولين الذين خلفوه على أن يحذوا حذوه. ولا بدّ من الإشارة إلى قطعتين عاجيتين أخريين من المجموعة الكبيرة التي عثر عليها في البئر نفسها تمثلان عظمين من عظام وجنة الحصان مزيّنين بنقش بارز يمثل أبا الهول المجنح بوجه امرأة ويبرز من تحت التنورة غطاء رأس مجنح Cobra ونقش شبه فينيقي يزين مكاناً في الأمام لم يكن فيه غير هذا النقش. كان واضحاً أنهما من صنع فينيقي ويكاد يكون مؤكداً أنهما يعودان إلى القرن التاسع ويمثلان تشويهاً غريباً لمشاهد مصرية لم يفهمها هؤلاء الصناع واجتذبت ببهرجتها البلاط الآشوري. ومهما تكن الحال فإن أهمية هذا الاكتشاف الرئيسة تكمن في توضيح الزخرفة الفرَسَية الدقيقة لغرف العربات الملكية.

أسعفنا خيال أجاثا المنظم في حفظ اللقى ومعالجتها في الحقل. فقد أدركت فوراً أن الأشياء التي بقيت تحت الماء أكثر من ٢٦٠٠ عام ينبغي العناية بها لدى إعادتها إلى مناخ جديد وجاف نسبياً. لذا حفظ تمثال السيدة في البئر، تحت مناشف مبللة عدة أسابيع وقللنا الرطوبة يوماً بعد يوم حتى تتعود جواً أكثر جفافاً. وكيّفنا تقدير الاحتمالات والعلاج بإتقان حسب حالة المريض وأثبتت النتائج صحتها لأنها موجودة في حالة جيدة اليوم.

Twitter: @ketab_n

ينبغي أن نترك الآن الكنوز الإمبراطورية في الحصن الآشوري في نمرود، إذ إن المضي في الحديث عنها يتطلب عدة فصول.

أينما نقبنا في القصر الشمالي الغربي توصلنا إلى نتائج جيدة تمثلت في اللقى والأواني والأختام المرمرية وفي فهم خريطة القصر الواسعة. وكشفت إعادة التنقيب في معبد نينورتا في الضلع الشمالي الكثير من المعلومات التاريخية عن سير الأحداث من زمن التأسيس إلى القرن التاسع حتى النهب الأخير في القرن السابع.

وكانت هناك آثار ثمينة وسلسلة من أواني خَزْنِ الزيت المثيرة للإعجاب التي تدل على ثروة المعبد. ولدى إعادة فتح معبد نينورتا كشفنا في مدخل إحدى القاعات الطويلة فيه عن رأس لرجل ملتح منحوت نحتاً رائعاً من صخرة ضخمة. وكان واحداً من رأسين أعاد لايارد دفنهما بسبب ثقلهما وصعوبة نقلهما. وبذلك استفدنا من جهود لايارد الذي لم تكن آلة التصوير متيسرة له وهو ينقب، في حين كان صديقه فوكس تالبوت يطوّر آلة التصوير في الوقت نفسه(٩).

من الآثار المثيرة للاهتمام الشديد أسوار الحصن الضخمة التي ما تزال قائمة ويصل ارتفاعها إلى ٤٣ قدماً وعرضها ١٢٠ قدماً مع طريق للعربات في قاعدتها على الطرف الشرقي ـ والكشف عن الرصيف الحجري الكبير في الجانب الغربي الذي امتد مسافة تبلغ حوالي ميلين وتألف من كتل حجرية ضخمة استخرجها آشور ناصر بال، على ما دوّن هو، من عمق كبير تحت مياه نهر دجلة القوية. وكان آخر رجل قبل عصرنا يكتب عن هذا الرصيف الضخم

---

(٩) ويليام هنري فوكس تالبوت (١٨٠٠-١٩٧٧): عالم إنجليزي طور نظاماً مبكراً للتصوير الفوتغرافي عام ١٨٣٩ بمعزل عن داكوير. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

هو زينوفون الذي خاض في عام ٤٠١ ق.م بعد معركة كوناكسا قعر النهر دون أن تبتل قدماه وهو يقود العشرة آلاف إغريقي في رحلتهم البطولية إلى البحر الأسود ودوَّن للأجيال المقبلة ملاحظات صحيحة فعلاً استطعنا أن نضيف إليها بعد ٢٣٥٠ عاماً.

ختاماً لنقل إننا كنا ندرك جيداً ما يجب عمله في التنقيب في الزقورة وحدها، وهي مهمة ضخمة تنطوي على الحفر عميقاً عدة أعوام، وينبغي أيضاً حسم مشكلة الطريق إلى الزقورة وسلالمها. وإذا كشف عن الواجهة الشمالية من الحجر والآجر كشفاً كاملاً يصبح المشهد مؤثراً في الزائر الذي يقترب من نمرود. إلا أن كل بوصة من الحصن تستحق إعادة التنقيب، بما في ذلك القصر الوسطي الذي شيّده الملك تجلاثبيلزر الثالث الذي تمثل نقوشه البارزة مرحلة مهمة في تاريخ النحت الآشوري.

لا بدّ من الثناء على مديرية الآثار القديمة العامة في العراق ومنتسبيها الذين عملوا سنوات كثيرة في ترميم القصر الشمالي الغربي وصيانته إضافة إلى واجهته وقاعة العرش والأجنحة الحكومية فيه. وبهذه الطريقة خلدوا منجزات مشيِّدِه الرائعة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن عشر

نمرود: قلعة شلمنصر

نقبنا في الحصن معظم العقد، ولكن خلال تلك الفترة كنت أكسب ثقة المسؤولين العراقيين محاولاً إقناعهم بالسماح لي بالتنقيب خارج الحصن.

في أحد أيام الأحد من شهر آذار/ مارس ١٩٥٧، وكان يوم راحة، كنت أتجول حول المدينة الخارجية بصحبة يورجن ليسو، الخبير الدانمركي في قراءة النقوش الذي كان يعمل في بعثتنا، فوجدت في أرض مرتفعة آجرة نُقش عليها اسم شلمنصر الثالث. ومن ذلك سميت هذه المنطقة .F.S وأبدى زملائي رغبة شديدة في معرفة سبب هذه التسمية. وقبل مضي وقت طويل اكتشفوا أن الحرفين يرمزان إلى قلعة شلمنصر Fort Shalmaneser وثبت ذلك فعلاً، وإن كان الملك نفسه وصفها بأنها قصره. وأطلق عليها أسرحدون الذي جددها في وقت تالٍ تسمية أدق هي الترسانة عندما كشف تماماً عن هذا المبنى الواسع وجد أنه غطى حوالي اثني عشر ايكراً من الأرض وضمّ ما يزيد على مئتي غرفة. وكانت مساحته حوالي ضعف مساحة القصر الشمالي الغربي. وكان المؤسس مصمماً على أن لا يتفوق عليه أبوه. وكانت الأجنحة الشرقية محمية بالأبراج الكبيرة التي كانت تمتد على طول

Twitter: @ketab_n

سور المدينة وهي ممثلة اليوم بسلسلة مثيرة للإعجاب من الآكام التي تخفيها الأعشاب والممتدة على طول الأفق. وتحمي باتي هيجالي أو «قناة الوفرة» وممر شديد الانحدار إلى البوابات الحصينة الدفاعات الجنوبية العالية. تبعد أجنحة الموقع الغربية أكثر من ميل واحد عن الحصن، ولكن تسهل رؤيته من معلمين عاليين في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة الخارجية. هنا كان تلان مرتفعان مؤلفان بوضوح من آجر طيني متراكم أعطيا الانطباع أنهما زقورة صغيرة. ويبعد الواحد عن الآخر ١٥٠ متراً وسميا تلاّ العزار وكان التل الشرقي أكثر ارتفاعاً.

وكان رسام قد اختبر التلّين عام ١٨٧٣-١٨٧٤ وعثر، على ما يبدو، على عاجيات مكسورة قليلة. ولكن لحسن الحظ لم يعثر على ما يكفي لتشجيعه على مواصلة التنقيب، وسرعان ما انسحب من العمل. ما يزال التل الغربي من هذين التلين المرتفعين في انتظار الفحص، إلا أننا نعلم أنه كان يعلو توسيع أسرحدون وترميمه القصر - القلعة القديم في عصره ويحتمل أن له صلة به. وسيكشف منقب يوماً ما هو مخفي هنا وأي جزء من القلعة كان يمثل عمل الملك المؤسس.

سرعان ما اكتشفنا كيف نفسر وجود التل الأعلى من هذين التلين. إنه يمثل البقايا المتراكمة نتيجة سقوط الجدران الضخمة لقاعة عرش الملك شلمنصر التي فاقت في الحجم والارتفاع كل جدار آخر في قصره وكانت تشرف على السهل من بعيد. قدّرت في كتابي (نمرود وآثارها) أن ارتفاع هذه الجدران كان لا يقل عن ١٢ متراً، وهكذا يمكن مقارنتها بالجدران الحجرية في مدينة كورديون (في آسيا الصغرى) التي بلغ ارتفاعها ١٣ متراً. ولم يستطع ديفيد أوتس، الذي كلف بالتنقيب في هذا الجزء من القلعة، الشروع في المهمة القابلة للتوسع المتضمنة استظهار قاعة العرش كلها، إلا أنه كان حكيماً ونقب

Twitter: @ketab_n

في الطرف الشرقي منها حيث أشار خط من الجص كشف المطر عنه إلى أنه كانت توجد كوة تتسع لظهر قاعدة حجرية كبيرة لعرش الملك وثبتت صحة ذلك. وبعد أيام كثيرة من التنقيب العميق ظهرت منصة مدرجة ضخمة تزن أكثر من خمسة عشر طناً في وضعها الأصلي. وأشارت الانخفاضات في القمة إلى أن مكان العرش غُيّر ثلاث مرات خلال تاريخه.

لحسن الحظ كانت قاعدة العرش نفسها أثقل من أن يستطيع الميديون نقلها لأنهم كانوا في عجلة من أمرهم للتوجه إلى أماكن أخرى للإجهاز تماماً على الدولة الآشورية الذي تطلب محاصرة مدينة آشور وتاربيصو[1] قبل الهجوم النهائي على نينوى.

يشير نقش طويل على قاعدة العرش إلى أنها نصبت في السنة الثالثة عشرة من حكم شلمنصر الثالث في أو حوالي عام ٨٤٥ ق.م عندما أنجز تشييد القصر. وتوضح المشاهد على الجانبين والواجهة في نقش بارز الانتصارات على أعداء الملك خصوصاً في سوريا، وفي بلاد الكلدانيين chaldaea[2] في الجنوب حتى الخليج حيث كان يحصل على الجزية التي تضمنت أنياب فيلة كبيرة تشاهد هنا ينقلها الحمالون. وكانت الأنياب السورية يجهزها كالباروندا ملك اونكي، أي سهل العَمق الذي كان حقل صيد ملائماً للفراعنة قبل ذلك بخمسة قرون.

---

(١) تاربيصو (شريف خان حالياً): موقع على نهر دجلة على بعد بضعة أميال من شمال نينوى وكان يضم «بيت الإمارة» حيث تجري تهيئة ولي العهد للقيام بواجباته الملكية (المترجم).

(٢) بلاد الكلدانيين chaldaea اسم أطلق على بلاد بابل Babylonia في العصر الأخير (٦٢٦-٥٣٩ ق.م) مشتق من كالدو وهو اسم القبيلة الآرامية التي تنتمي إليها العائلة المالكة (المترجم).

Twitter: @ketab_n

إن الأطناف الطويلة التي تحيط بمنصة العرش هذه أصغر من النقوش الضئيلة البروز من عهد أبيه في القصر الشمالي الغربي، إلا أنها نفذت بمهارة وتبين تفضيل شلمنصر للمصغرات كما في المسلة السوداء والبوابات البرونزية لبلاوات(٣) كرس مكان الشرف في الواجهة في مشهد يبين ملك بلاد آشور يمس يدي مردوك - زاكر - شومي الذي نصبه ملكاً على عرش بابل. يجري الاحتفال بهذا الحدث في المقصورة الملكية ويوضح المشهد الملكين وأتباعهما وأدواتهما. وهكذا يؤكد المشهد الأهمية التي كانت الدولة الآشورية توليها للسمعة الدينية لمدينة بابل المقدسة.

وكانت العلاقات السياسية بتلك المدينة يمكن أن تقود إلى حالة السلم أو الحرب بين بلاد آشور وبلاد الكلدانيين في الجنوب. وكشف ما يكفي من قاعة العرش لإظهار أن الجدران كانت مزخرفة بلوحات جدارية نفذت تنفيذاً جميلاً وكانت بديلاً من النقوش البارزة التي كان يفضلها آشور ناصر بال (أبو شلمنصر). وقد أعيد دفنها للمحافظة عليها حتى يحين وقت يمكن فيه الكشف عنها دون تعريضها للخطر.

كان واضحاً أيضاً من الثُلَم في المنصة أن العرش نُقل ثلاث مرات، وربما نُقل مرة في عهد شمشي ادد الخامس (٨٢٤-٨١٠ ق.م) لأنه عثر على حلية عاجية في أحد المخازن يمكن تفسيرها بأن العرش أصلح. وكانت تحت قاعدة العرش آثار طلاء ساقط دلت

---

(٣) بلاوات (الاسم القديم ايمكور - انليل): تل صغير يبعد ٢٥ ميلاً إلى الشمال الشرقي من نينوى. اشتهر بكونه مقر الملوك الآشوريين الريفي وشيد فيه آشور ناصر بال قصراً ريفياً استعمله شلمنصر فيما بعد وكانت بوابتا هذا القصر الرئيستان مغطاتين بشرائط من البرونز بعرض حوالي ١٠ بوصات تمثل حملات شلمنصر العسكرية. وما تزال بلاوات مأهولة بالسكان (المترجم).

Twitter: @ketab_n

على أن القاعدة نقلت وقت إعادة زخرفة الحجرة وتأثيثها. وكان زوج من ثقوب الأعمدة قد حُفرا عميقاً في الأرضية أمام القاعدة لغرض إسناد السقف المتدلي الذي لا شك في أن الأعداء كانوا قد هدموا جزءاً منه. إلا أن محاولة ترميم الغرفة بعد انهيارها الأول لم تكن فعالة، إذ توجد أدلة وافرة هنا وفي أماكن أخرى على أن النهب الأخير حدث بعد فترة قصيرة من النهب الأول. وبعد ذلك واصلت أجيال قليلة أخرى من الناس حياة بائسة في هذه العاصمة العسكرية لبلاد آشور.

ومما هو الأكثر أهمية الأدلة المرافقة التي اجتمعت لتشير إلى أن الكثير من العاجيات، وكثير منها ذو أسلوب فينيقي، قد نحتت خصيصاً لشلمنصر الثالث(٤). ورد في قاعدة العرش اسم هازايل، ملك دمشق، وورد في حجرة أخرى هي T.10 اسم ايرهوليني، ملك حماث Hamath ومعروف أنهما معاصران لشلمنصر الثالث. تعزز هذه الأدلة بقوة الأدلة التي عثر عليها في السامرة حيث لا ريب أن زوجة ملكها آخاب، التي كانت فينيقية من صور، شجعت الملك على

---

(٤) التاريخ الذي ظهرت فيه العاجيات ذات الأسلوب الفينيقي في نمرود يثير الجدل. ولأنه لم يعثر عليها أبداً في المواقع الفينيقية مثل صور وصيدا وبيبلوس في إطار القرن التاسع قبل الميلاد يعتقد بعض الآثاريين أنها لم تظهر في نمرود إلا بعد عام ٨٠٠ ق.م بزمن طويل. ولكن لم تجر تنقيبات واسعة نسبياً في صور وصيدا والأدلة غير كاملة. ولا أشك في أنه سيعثر على العاجيات في هذه المواقع مرتبة حسب العصور ومرتبطة بمبنى ما شيد قبل عام ٨٥٠ ق.م. إن غياب العاجيات من بيبلوس التي جرت فيها تنقيبات واسعة، يثير الدهشة. إلا أنه توجد حاجة إلى اعادة البحث في صور وصيدا (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

بناء «بيته العاجي» وكان آخاب أيضاً معاصراً لشلمنصر الثالث[٥]. إلا أن دراسة الطبقات في السامرة نفسها توفر أدلة قوية إن لم تكن أدلة إيجابية على أن العاجيات ذات الأسلوب الفينيقي ارتبطت بقصر يعود تاريخه إلى القرن التاسع قبل الميلاد في ذلك الموقع. وأخيراً هناك أيضاً أدلة على أن نقوشاً وجدت على كؤوس مزخرفة من مصر صنعت في المعامل بهيرموبوليس ولا يعود تاريخها إلى ما بعد القرن العاشر قبل الميلاد لا بد أنها أثرت في الأسلوب الفينيقي. وهناك أدلة اخرى من مصر ذات علاقة أيضاً ولا سيما مصنوعات معدنية من تاهيس يعود تاريخها إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

كان الدخول في قاعة العرش من بابين في جدارها الغربي كما في القصر الشمالي الغربي وكان هناك ممر آخر من خلال الحجرة T.3 على جانبها الشرقي. هنا تداخل الممر مع المدخل ذي البرج من الفناء الشرقي T وأضفيت الروعة على الممر بلوح رائع من الآجر المزجج المتعدد الألوان وهي الأبيض والأسود والأخضر والأصفر على خلفية زرقاء. يقع هذا اللوح اللافت للنظر الذي يمثل الملك مرتين تحت قرص مجنح أسفل شجرة الحياة مع طوق من أشكال الغزلان والزخارف النباتية ورممه جوليان ريد ترميماً كاملاً. وكان يبلغ ارتفاعه أكثر بقليل من أربعة أمتار وعرضه أكثر من ثلاثة أمتار. وقد حفظ هذا المشهد الرائع للأجيال، لأنه عندما أحرق المدخل الذي كان المشهد فوقه عند نهب كالح سقط المشهد كله من الجدار المشيد بالآجر

---

(٥) تولى الملك آخاب الحكم في السامرة بعد أبيه مؤسس السلالة في عام ٨٧٤ ق.م وتزوج إيزابيل ابنة اثبعل ملك صور وصيدا التي كانت ذات نفوذ واسع وأدخلت عبادة بعل صور (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الطيني الذي كان اللوح يغطيه، لوجوده على الأرض حماه المبنى الساقط. وكانت القاعة الكبيرة T.10 قريبة منه، وهي القاعة التي أشرت إلى أنها كانت تضم العاجيات ذات الأسلوب الفينيقي التي يمكن أن تنسب الآن بثقة إلى عهد شلمنصر الثالث.

من المستحيل في مجال محدود إنصاف المخطط الواسع للمبنى الذي يضم أكثر من مئتي حجرة والذي أصبح في عهد أسرحدون يحمل اللقب الرسمي «ايجال ماشارتي» أو الترسانة، وهو مبنى كان الغرض منه أن يستعمل لمعدات المعسكر وصيانة العربات ولخيول الاستيلاد والأسلحة الحربية وغنائم الأعداء من كل الأنواع، وهو وصف يتطابق جيداً وما عثرنا عليه فيه. كان ما قام به أسرحدون، بعد فترة إهمال من أبيه سنحاريب، هو ترميم جزء من الجناح الجنوبي وتحويره. ويمكن تمييز جهوده في أماكن كثيرة ولا سيما في الواجهة الجنوبية التي تلفت الأنظار والتي ثبتت على الجدار القديم الذي شيده شلمنصر من الآجر الطيني.

صمم المدخل الجديد، الذي شيده أسرحدون وحلّ محل المدخل الأصلي، ليؤدي إلى ممر طويل صاعد تحفّ به اللوحات الجدارية. وعلى جانبي المدخل كان هناك نقش على البناء المشيد من حجر الكلس المعد على نحو جميل يحيي ذكرى عمل هذا العاهل الذي كان مصمماً في سنواته الأخيرة على إعادة تثبيت كالح عاصمة له بدلاً من نينوى، كما يشير إلى ذلك أيضاً قصر لم يكمل تشييده في الطرف الجنوبي الغربي من الحصن نقب فيه لايارد. استمرت الواجهة الفخمة في النهاية الجنوبية من قلعة شلمنصر على طول الجدار الشرقي، إلا أن هذه الواجهة بقيت غير منجزة لأن الموت تدخّل لمنع إكمال التصميم الفخم.

Twitter: @ketab_n

ضم الجناح الجنوبي من المبنى أيضاً مقراً احتوى على حجرة صغيرة نسبياً مزينة برسم جداري بالأسلوب الذي يمكن أن يُنسب إلى فترة حكم أسرحدون، وكان في هذه الحجرة زوج من خطوط حجرية تؤدي إلى منصة اختفت. وربما كانت مصنوعة من الخشب أو من الآجر الطيني، واختفت الفجوة التي يجب أن تكون خلف المنصة. لذا أميل إلى القول إن الملكة هي التي استعملت هذا المكان غرفة استقبال، إذ لا بد أن هذه الحجرات كانت تعد لملكات بلاد آشور الجبارات. وكانت هناك قريباً من هذه الشقة قاعات ومخازن ارتبطت بها عدة أسماء أنثوية هي «شاكنتو» القصر وربما كانت الملكة نفسها وامرأة تتولى القضاء. ولدينا أدلة لا سبيل إلى الشك فيها على وجود جناح حريم في هذا الجزء من القصر. وبجانب قاعة العرش هذه كانت حجرتان لارتداء الملابس والوضوء. وعثرنا على كنز كبير ضم أيضاً بعض العاجيات البديعة في هذه الحجرات. وكانت الغرفة S.10 مليئة بالعاجيات ذات اللون الأسود والرمادي المحترقة بنار الانتقام.

عُثر عند عتبة القاعة قرب شقة الملكة على قطعة رائعة هلالية الشكل من العاج بشكل أبي هول مجنح له جسم أسد وغطاء رأس مجنح متدل من حاشية فينيقية الطراز. أميل إلى ربط هذه القطعة البديعة الدقيقة الصنع بأسرحدون نفسه، إذ استناداً إلى المعلومات المتوفرة لدينا لم يكن أي عاهل قبله يُعنى بأبي الهول، ولكن هناك نماذج عديدة من الحجر تقرن به لا سيما في القصر الجنوبي الغربي ولو أنها بالأسلوب الآشوري. وعلى الرغم من أن هذه القطعة هي النموذج الفينيقي الوحيد، فإن الصياغة الحساسة والعميقة للملامح واضحة في تماثيل أبي الهول التي تقرن به كلها.

وفي كتابي (نمرود وآثارها) أعربت عن رأيي دون أدلة قوية في أن

Twitter: @ketab_n

هذه القطعة العاجية ربما صنعت لتجلاثبليزر الثالث أو سرجون، أي في النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد، ولكن لعدم وجود دليل إيجابي فإن هذه النسبة تعد ممكنة إذ أخذنا بنظر الاعتبار أن أسرحدون وصل إلى مصر ووسع الإمبراطورية الآشورية إلى مصر وكان على اتصال وثيق ببلاد فينيقيا. لذا كانت حلية تمثل أبا الهول ملائمة جداً لعرشه أو عرش ملكته الآشورية.

يصعب على من لم يزوروا نمرود تصور الأسوار الضخمة التي شيدها شلمنصر والانطباع المثير الذي تحدثه السلسلة الطويلة من الأبراج البارزة المشيدة من الآجر الطيني مسافة ٣٠٠ ياردة على طول الأفق الشرقي. لقد ثبت تنظيم هذه المباني المشيدة ببراعة في الخريطة ووصفت بالتفصيل في الخريطة في الجزء الثاني من كتاب (نمرود وآثارها). وأفضت سلسلة من الأفنية الواسعة إلى المخازن والمساكن الملكية وثكنات الجنود التي كانت مزودة على نحو مناسب بالحمامات لأن النظافة عند الآشوريين كانت الورع. وبمرور الزمن أضاف ملوك مختلفون أجنحة معينة أو رمموها، ومنها جناح شيده أدد نيراري الثالث (٨٠٨-٧٨٢ ق.م) مجموعة فريدة من عاجيات مخرمة غير مسندة تمثل حمّالين زنوجاً يحملون قردة.

ضم الجناح الجنوبي الغربي المقر السكني. وهنا، على ما رأينا، كان جناح الحريم بعيداً عن المدخل وصمم بعناية لعزل الأميرات. واعتقد ديفيد أوتس أن بعض الشقق رتب حسب المرتبة. وهنا أيضاً نجد أدلة مثيرة للنهب الأخير وقبراً جماعياً لمن ذبحهم الميديون والبابلون الذين توجد آثار واضحة على هجومهم في المدخل الغربي الضخم ذي الأبراج الذي اقتحمه المهندسون العسكريون. وقد وضح ارتفاع البرج مع سلالمه وطريقه الدائري والشرفات التي كانت تعلوه

Twitter: @ketab_n

جلياً في رسم على كسرة فخار. ومن الأدلة التي تلفت النظر على الوجود العسكري قاعة التحية الواسعة المشيدة بالآجر في الفناء الجنوبي الشرقي.

لدى معاينة هذا المبنى الفخم ينبغي أن يتصور المرء وجود طابق علوي كثيراً ما كان يصعد إليه بسُلَّم خشبي دُمِّر منذ زمن طويل رغم بقاء آثار الوطء على الآجر في بعض الحجرات. كانت غالبية العاجيات محفوظة في الطابق الأعلى الذي هوى إلى الأرض. من ناحية أخرى هناك آثار لحجرة كبيرة في الطابق الأرضي S. W. 7 اكتشفنا فيها سلسلة من ظهور كراسي العرش أو الكراسي الأخرى وقد صُفت للتصليح بعد النهب الأول عام ٦١٤ ق.م.

وكانت هذه قد صُنعت في نحو عام ٧٣٠ ق.م وهي نموذج فريد لأثاث تلك الحقبة. وبعد فترة عامين حدث النهب الثاني والأخير عام ٦١٢ ق.م. وبقيت غرفة الكنز هذه مدفونة حتى اكتشفناها في عام ١٩٥٧.

كان التنقيب في قلعة شلمنصر آخر جهد للمدرسة البريطانية للآثار في العراق في موقع نمرود وسيبقى إضافة مجيدة إلى حوليات علم الآثار الآشورية. والأرجح أن مجموعة العاجيات في هذا المبنى كانت أضخم من أي تركيز آخر لها. ومن المستحيل تلخيص التنويع الذي اتسمت به هذه المنحوتات، ولكن من أجملها أشكال الحيوانات المخرمة مثل البقر الوحشي الأفريقي والغزلان والوحوش الأخرى ذات القرون. ومن المدهش أنه لم يعثر على أي تصوير للفيل وهو مصدر وسائل الترف الباهظة الثمن التي حفل بها البلاط الآشوري. كان الاعتقاد العام السائد حتى الآن أن مصدر معظم العاجيات كان أنياب الفيلة السورية وهي فصيلة من الفيل الهندي كان يحصل عليها من

Twitter: @ketab_n

القطعان التي هاجرت إلى سهل العمق وكان يصطادها الفراعنة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. ويرجح أن هذه القطعان أُبيدت بسبب إفراط الآشوريين في الصيد بعد عام ٧٠٠ ق.م بفترة قصيرة. وتوجد منحوتة فريدة لفيل هندي في مسلة شلمنصر الثالث السوداء نُحتت في عام ٨٤١ ق.م يشاهد فيها جيحو (؟) أو يهو ملك يهودا يقبّل قدمَي الملك الآشوري.

لم يكن التنقيب في قلعة شلمنصر مهمة سهلة لهيئة تنقيب لم يزد عدد أفرادها على اثني عشر شخصاً. ومن ناحية أخرى تشتت كثرة العاملين اهتمام مدير البعثة الذي يضطر إلى تمضية الوقت في تنظيمهم بدلاً من الاهتمام بعمله الرئيس وهو التنقيب مهما نجح في توزيع سلطته. والمشكلة الأكثر صعوبة هي تدبير الأموال اللازمة لسد النفقات ومنها نفقات الطعام والسفر التي قد تعوق أنشطة البعثة. وعلى الرغم من ضخامة عمليات التنقيب، أفلحنا في العمل بعدد قليل مثالي ضم مديراً وزوجته ومساعداً له ومعمارياً ومساحاً واختصاصين أو أكثر في فكّ رموز النقوش وخبيراً واحداً على الأقل في الفخار ومشرفاً على المختبر ومساعدي حقل أو أكثر وأخيراً، وليس آخراً، سكرتيرة. وقد شغلت هذه الوظيفة في معظم السنوات باربارا باركر التي كان يتوقع منها عمل كل شيء ولا سيما تحمّل اللوم عندما لا تسير الأمور على ما يرام، ولا أعرف ماذا كنا نفعل لولا هذه اللؤلؤة البديعة. كانت باربارا امرأة شجاعة باسلة ترتدي في الأغلب الشروال الكردي المشجر بالألوان الأبيض أو الأحمر أو الأزرق وحلّت الأزمات كلها بسهولة وتطوعت للذهاب إلى الموقع قبل بداية كل موسم وإصلاح سقف مقر البعثة وجعله صالحاً للسكن. وكانت تميل إلى النسيان وفي أحيان كثيرة كانت تضطر إلى الاقتراض من العمال لكي تدفع إليهم أجورهم.

Twitter: @ketab_n

ولم ينزعجوا من ذلك وكانوا ممتنين لها لجهودها الطبية واستعدادها الدائم لمعالجة أمراضهم. وكانت باربارا نافعة لأعضاء البعثة لأنها كانت تسلينا دائماً على مائدة الطعام بأحاديث طريفة وكانت مستعدة دائماً لتمثيل دور مهرج البلاط أو مهرج شكسبيري. ونحن مدينون لها لخدماتها المهنية، إذ كانت اختصاصية في فك رموز النقوش. وكانت بوصفها مصورة فوتوغرافية، تقوم بعمليات موازنة غير عادية على صناديق التعبئة لتصوير الأشياء الصغيرة بعدستها. كانت باربارا تُعنى أيضاً بالأديان القديمة وطبقت معرفة لا تضاهى بالأختام الأسطوانية على تفسير مواضيع المنحوتات والصور.

كان من مشاغلنا المهمة البحث عن الطعام. وكنا نبحث يومياً في الريف عن البيض الذي كنا نستهلك منه المئات كل أسبوع ولم يكن من السهل الحصول عليه في نهاية الموسم. كما حاولنا إدارة مزرعة صغيرة لتربية الديك الرومي وهو أرخص أنواع اللحم وأفضل من لحم الضأن العسير المضغ ولحم البقر غير الصالح للأكل الذي يمكن شراؤه من الموصل.

كُلِّف سائقنا المسيحي اليعقوبي بطرس القوي البنية بالرحلات إلى دائرة البريد وشراء الخمر. ومثل كثيرين من سائقي السيارات كان شخصاً مثيراً للغضب وعنيداً ويكثر من طرح الاقتراحات غير العملية إلا أنه كان يتمتع بذاكرة رائعة، ويعود ذلك بلا شك إلى أنه لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة.

كان يحفظ كل مادة من المواد المئة التي كنا نشتريها ويعرضها عليَّ عندما يعود إلى نمرود بعد الغروب. واشترى لي ذات مرة دون طلب مني فأساً هددته بفتح رأسه بها، إلا أنه كان أميناً وفق معاييره، على الرغم من أنه لم يكن يحجم عن استغلال الفرص كما فعل مرة

Twitter: @ketab_n

في الصيف عندما استولى على سيارة البعثة لأنه كان مقتنعاً بأننا لن نعود لتسلمها، إلا أننا سرعان ما استعدناها. اعتمدت البعثة بحنو على هذا الرجل المحبوب، إذ كان يتمتع بخصلة لا يُستغنى عنها هي حسن التقدير.

بين الكثيرين الذين برزوا في تنقيبات نمرود لا يمكن أن أنسى صديقي العزيز دونالد وايزمان(٦).

كان مستعداً دائماً للمساهمة في كل شيء وكان يمتلك حسن تقدير هادئ ولم يكترث لسخريتنا المعتدلة من ميوله المتطرفة واستسلم بشجاعة لاستجواب روبرت هاملتن إياه. لم يكن عالماً معقداً، إذ لم تكن هناك مشكلة نحوية عويصة عنده وكان جريئاً في استعداده للمخاطرة في ارتكاب الأخطاء في تفسير النصوص مفضلاً ذلك على كبح المعرفة. كان دونالد على النقيض تماماً من العالم الذي يخشى كثيراً ارتكاب خطأ فلا ينتج شيئاً. كان خبيراً لا يكل في فك رموز النقوش وسريعاً، ولذا كان غير دقيق أحياناً. وينبغي للعالِم أن يكون مديناً له لسرعته في فك رموز نص مسلة آشور ناصر بال، حيث نشر خلال ستة أشهر من اكتشافه، ولإعادة ترتيب معاهدات التبعية من عهد أسرحدون. لم يكن بوسع أي عالم آخر إنجاز تلك المهمة الضخمة بتلك السرعة والإتقان. إن التنقيحات والانتقادات لترجمته ليست ذات أهمية نسبياً. فإنه حتى لو لم ينجز شيئاً سوى تلك المهمة لاستحق إطراءنا جميعاً. تمتعنا برحلات كثيرة معاً بالسيارة في مناطق وعرة على

---

(٦) التقيت الأستاذ دونالد وايزمان في الندوة العالمية الثانية عن بابل وآشور في بغداد في تشرين الأول ١٩٧٩ وأشعر بالامتنان له لمساعدته إياي في تسهيل مهمتي في الترجمة الفورية في الندوة المذكورة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الرغم من أنه كان أحياناً متفائلاً بشكل يثير الأعصاب في حالات صعبة جداً. كان له سجل رائع في اعتراض الإشارات اللاسلكية أثناء عمله في القوة الجوية البريطانية وكان برتبة عقيد طيار في شبابه.

وهكذا أصبح عنصراً منشطاً في المتحف البريطاني وكلية الدراسات الشرقية والأفريقية التي منح فيها مرتبة الأستاذية. وفي كل عمل كلف به كان مستعداً لتحمّل الأعباء الإدارية ولم يتذمّر من تكريس وقته لذلك الغرض.

وتولى باسم المدرسة البريطانية للآثار في العراق تنفيذ أكثر من حصته المقررة من الواجبات. لم يكن واضحاً دائماً في التفسير الشفهي، وعندما كان في نمرود سألناه كيف نظم المتحف البريطاني فهرسه وكان من الصعب أن نكتشف إذا كان هناك فهرس فعلاً.

عمل كثيرون آخرون في نمرود. وعلى الرغم من أنه لا يسعني سوى الإشارة إلى القليلين منهم، فإنني أحس بالامتنان لكل واحد من المساعدين. وأدّى بيتر هولن، وهو خبير في فك رموز النقوش من جامعة أوكسفورد، مهمة جليلة ولا سيما النقوش التي تنسب إلى شلمنصر الثالث، ولذا كان مفيداً جداً خصوصاً في نمرود. إنه عالم شديد التدقيق في التفاصيل، وكان يولي الدقة أهمية كبيرة. وكان رجلاً عملياً يميل أحياناً إلى أن يكون مستبداً إذا لم تحترم «حقوقه» وكان رقيق الفؤاد دائماً ومستعداً لإبداء حسن التقدير وكيّساً.

تمتعنا بمشاطرة قدر متساو من العناد والتجاوز وآمل أن لا تزعجه ملاحظاتي الودية هذه. ويستحق زميلنا يورجن ليسو، وهو أستاذ من الدانمرك، إشادة خاصة. عمل مساعداً معنا ثلاثة مواسم وحمل معه دعماً مالياً من مؤسسة كارلسبيرك إضافة إلى علب البيرة.

Twitter: @ketab_n

عمل هذا الرجل الرقيق والشجاع مع المقاومة الوطنية في الدانمرك خلال الحرب العالمية الثانية وتركت حياته المحفوفة بالمخاطر في تلك الفترة آثارها عليه. كان عالماً موهوباً، وبعد الخبرة التي حصل عليها من العمل الحقلي في نمرود انتقل لإجراء تنقيبات مهمة في شمشارة في حوض دوكان وكان محظوظاً في اكتشافاته في ذلك الموقع ولا سيما النصوص المسمارية.

ولما كانت قابليته جيدة وما نشره يتسم بالجودة العلمية فإن إنتاجه المنشور يعد مخيباً للآمال لقلّته.

وساعدته في الحصول على زمالة دراسية مدتها سنة واحدة في جامعة أوكسفورد ولكنه لم ينشر نتائج تنقيباته هناك. وسأبقى أتذكر طويلاً مسيرة ملحمية على الأقدام في الطين عندما تعطلت سيارته في قرية أكوب في وقت متأخر من الليل في رحلة من الموصل. كان يحمل حقيبة ثقيلة تحت ذراع ومعجماً سومرياً أثقل منها بعدة كيلوغرامات تحت الذراع الأخرى. وصل إلى مخيم البعثة منهكاً في الساعات الأولى من الصباح.

كان متوتر الأعصاب إلا أنه كان محبوباً من زملائه جميعاً ويأمل هؤلاء أن يتغلب على العقبة التي تحول دون إكمال نشر مؤلفاته.

جلب يورجن ليسو معه مجموعة من الدانمركيين الذين كانوا مثله يتدربون ليقوموا بالتنقيب في شمشارة.

وكان هناك معماريان هما موكنس فريس وزوجته النرويجية الجذابة آن تين التي كانت حلية البعثة. بدأ الاثنان بوضع خريطة قلعة شلمنصر في مراحلها المبكرة وساعدهما دانمركي آخر اسمه فلمنك. وكان أبرز ضيوفنا الخبير الدانمركي الشهير في علم الحفريات النباتية هانز هيلبيك الذي أثرى كتابي (نمرود وآثارها) بتقديم تقرير شامل عن

Twitter: @ketab_n

الحبوب والمواد النباتية المكتشفة في قلعة شملنصر. تزوج هيلبيك عضوة في بعثتنا هي ديانا كيركبرايد التي قامت بتنقيبات مثمرة في شمال العراق في موقع أم دباغية الذي يعود تاريخه إلى أوائل العصر الحجري الحديث إضافة إلى موقع البيضة من العصر الحجري الحديث في الأردن.

وعُيّنت ديانا قبل اعتزالها العمل مديرة للمدرسة البريطانية للآثار في العراق عدة سنوات، إلا أنها كانت تميل بطبيعتها إلى العمل مستقلة مثل رحالة من القرن الثامن عشر وكانت تتمتع باستعداد للتنقيب ولا تخشى الشروع في مهمات صعبة في أماكن منعزلة.

أنتقلُ الآن إلى الحديث عن عضوين بارزين في بعثتنا هما جوان (لاينز) كما كانت تُعرف عندما انضمّت إلينا وديفيد أوتس. كانت جوان أميركية عملت معنا عدة مواسم وكانت ماهرة في التعامل مع الفخار وهي مهمة شاقة.

كانت منظمة ممتازة وماهرة على نحو غير عادي وكتبت مؤلفات علمية في مواضيع كثيرة في الآثار الشرقية. وفي نمرود كانت قِبلة أنظار كل آثاري شاب وانجذب الكثيرون إليها كما ينجذب الذباب إلى إناء العسل. وفي الموسم الثاني أصبحت خطيبة ديفيد أوتس وتزوجا بعد فترة قصيرة وعاشت معه في كامبردج حياة سعيدة.

ارتبط ديفيد أوتس، الأستاذ الآن، بالبعثة من موسمها الخامس حتى الموسم قبل الأخير، وهو خبير في الآجر الطيني ونقب في آثار من العهد الآشوري المتوسط في تل الرماح أوكرانا القديمة في جبل سنجار. وكان من أفضل المنقبين في بلاد الرافدين كلها وتعد الخريطة الرئيسة لقلعة شلمنصر إنجازه إلى حد كبير. إن مثل هذا الرجل البارع في التنقيب يضيع جهوده في وظيفة أكاديمية مهما كان عالماً قديراً. إنه

Twitter: @ketab_n

شغوف بالتنقيب ويأمل المرء أن ينهي أيامه حراً من هموم الإدارة فهي ليست صنعته.

ولا يوجد كتاب أفضل في موضوعه من كتابه (دراسات في تاريخ شمال العراق) لأنه جغرافي ومؤرخ في آن واحد. إنه رجل يحسن التقدير وذو مزاج حسن عموماً إلا عندما يُنتقد بسبب المماطلة، وهنا يظهر تأثير أصله الذي يعود إلى منطقة كورنوال في جنوب غرب إنجلترا. وهو رقيق أكثر من اللازم ولا يميل إلى إغضاب الآخرين. ولا شك في أنه سيترك أثراً طيباً وراءه.

وفي نمرود كان هناك في فترة ما عدة أشخاص يحملون اسم ديفيد بحيث أصبح يعرف باسم الشيخ داود، وكان اسماً يلائمه لأنه كان يصلح جوالاً سعيداً مع القبائل العربية. وبسبب طوله وحسن سلوكه فإننا نتذكره مثل أبولو يطل من مرتفع أولمبي على عالم لا بدّ أنه وجده مزعجاً وبغيضاً.

كان ديفيد الآخر هو ديفيد سترونباك الذي عمل معنا متدرباً خلال موسم عام ١٩٥٧ الناجح وساعد في استخراج المجموعة الفريدة من ظهور الكراسي من الحجرة .S.W.7 في قلعة شلمنصر. كما درس المشابك النحاسية وكتب كتابة موثوقة عنها. كان حسن الصحبة ومتواضعاً وجديراً بأن يُحب وكثير النشاط، وبعد فترة غير طويلة من مغادرته نمرود وفي سن مبكرة وعلى نحو غير مألوف عُيِّن مديراً للمعهد البريطاني للدراسات الفارسية في طهران المؤسَّس حديثاً والذي يدين بالكثير لشخصيته المحببة. وقد ساعده ميله إلى العلاقات العامة كثيراً في تأسيس المعهد وأدار بنجاح عدداً من عمليات التنقيب خصوصاً في باساركادا التي أسسها كورش وفي موقع نوشيجان الميدي. ومن المسر أن عدداً من الآثاريين انتقلوا بعد فترة عمل أولية

Twitter: @ketab_n

في نمرود إلى أماكن أخرى وبرزوا في العمل فيها. وأصبح اثنان منهم هما ديفيد سترونباك ونفيل تشيتيك مديرين لمعاهد شرقية وحصل خمسة منهم على كراسي أستاذية جامعية.

كان من المعاصرين تقريباً لديفيد سترونباك خريج آخر من جامعة كامبردج هو نيكولاس كندرلسلي، وعلى الرغم من أنه لم يكن أكاديمياً بارزاً، فقد أفاد البعثة كثيراً بفضل قابليته العملية ومهارته في الاهتمام بشؤون النقل. وانتقل ليدير فندقاً ناجحاً في إيرلندا وكنت أتمنى لو أنه واصل العمل مع مدرسة الآثار.

من الشخصيات الأخرى التي لا تُنسى مارجوري هوارد التي نسبت من معهد الآثار (وكان ريجنتس بارك بلندن آنذاك). وكانت منشغلة جدياً يضخ مادة التولوين ومواد كيميائية أخرى في العاجيات. وكانت فنانة موهوبة وأصبحت الحياة صعبة عندما راح اثنان من زملائها يتوددان إليها في قاعة الآثار. كانت واحدة من أكثر النساء اللواتي عرفتهن غموضاً وكانت متعلقة جداً بكلبها، وخلال غيابها عن إنجلترا كلفت شخصاً برعاية والدها وكلبها، إلا أنها لم تشعر بالقلق إلا على الكلب. ولا نعرف كيف عادت إلى إنجلترا لأنها لم تكن تهتم بالتوافه مثل تأشيرات الدخول. وأذعن لها المسؤولون كافة يائسين.

من الشخصيات التي لا بدّ من الإشارة إليها حارسنا حمد الذي خدمنا سنوات كثيرة وأصبح واسع الثراء بحيث أصبح فصله لا مفر منه. كان محباً للمغامرة وظهر في وقت مبكر في نمرود يطلب الحصول على عمل متمنطقاً بحزام عريض مليء بالخراطيش والبندقية بيده وعيّن فوراً. كان متغطرساً وعدوانياً ومزعجاً للجميع، وهذا ما يناسب عمله. كان لديه كلب ضار يهجم على الجميع ولا سيما على

Twitter: @ketab_n

خبير النقوش في البعثة س.ج. جاد عندما كان يخرج إلى المرتفعات في الصباح الباكر.

كانت مهمتي صعبة في إقناع (الأستاذ) س.ج. جاد، مؤلف كتاب (صخور بلاد آشور The Stones of Assyria) بالانضمام إلى بعثتنا في نمرود، إذ اتسم ما كتبه عن الموقع بالرصانة العلمية، وأخيراً أذعن للضغط، ولأنه كان يحبّ الهواء الطلق فقد تمتع بالتجربة وبفترة إعفائه من أعباء إدارة قسم الآثار الآسيوية الغربية في المتحف البريطاني. انسجم سيريل جاد كثيراً مع البعثة، إلا أنه عانى بشدة من طعامنا الدسم وتاق إلى حلوى البودنك القديمة النوع من الخبز والزبدة التي لم يكن بالإمكان الحصول عليها. ولن أنسى منظره وهو يتزيا بزي ساعي بريد كان قد لبسه في أثناء الحرب العالمية الثانية عندما عمل رجل إطفاء في المتحف البريطاني. وتعوّد على لبس هذا الزي عندما كان يستعمل بكثير من الاهتمام الفرن الذي شيّده مهندسنا لشي الألواح المسمارية، وهي عملية نجحت نجاحاً تامّاً. في تلك السنة، أي في سنة ١٩٥٢، لم نعثر على المحفوظات الكثيرة في القصر الشمالي الغربي فحسب، بل على الكنز الرائع في آباره أيضاً. كان سيريل بطبيعته متشائماً جداً وغير ميال إلى التعبير عن عواطفه علناً حتى إن زملاءه في إنجلترا لم تكن لديهم أية فكرة عما إذا كان قد عثر على شيء يتسم بالأهمية الكبيرة.. وكان صديقنا المتعاون المهندس السكتلندي جون ريد هو الذي شيّد فرن جاد وعمل فيما بعد في ترميم المنازل السكتلندية القديمة.

لا بدّ أيضاً من الثناء على متصرفي الموصل المتعاقبين الذين كانوا، رغم مشاغلهم الكثيرة، يسعون لتسهيل أمورنا...

كان كبار الموظفين في مديرية الآثار القديمة العراقية العاملين

Twitter: @ketab_n

بإمرة الدكتور ناجي الأصيل آنذاك جادين ومتعاونين.

كان طه باقر المتخصص بالنقوش رجلاً جديراً بالاحترام الشديد وخلف الدكتور ناجي الأصيل في منصبه فيما بعد، وكان محبوباً ومحترماً. وكان زميله فؤاد سفر الذي أصبح فيما بعد مفتش الآثار العام يتمتع بقابليات كثيرة غير عادية وكان بارعاً في علم اللغة واشتهر بالتنقيب في أريدو. تولى هذان الرجلان المهمة الصعبة في تخصيص حصة عادلة من اللقى وقدمنا المشورة إلى مدير الآثار استناداً إلى خبرتهما وحصافتهما وإنصافهما.

كان فرج بصمچي الأمين جداً يميل إلى كره الأجانب عندما التقيناه بادئ ذي بدء، ولكنه تحول بالإقناع الهادئ إلى الإعجاب بهم. وكان لطيفاً لا ينفر من المداعبة، إلا أنه لم يكن متساهلاً في أن يوصي بحصة جيدة للمنقب. وبعد موسمنا الرائع في عام ١٩٥٢ أرسلناه إلى بغداد حاملاً الموناليزا العاجية أو تمثال السيدة في البئر بعد وضعها في علبة قبعة وكسوناها بشريط أسود حداداً على فقدها.

أحمل أيضاً ذكريات سارة عن عضو عراقي آخر في البعثة هو السيد عز الدين الصندوق أو مستر بوكس كما كان يدعو نفسه، وكان بوسعه إنتاج تخطيطات سريعة لأي شيء نكتشفه ملائمة للسجل الأول، ولكن لم تكن ملائمة دائماً للسجل النهائي. أحببنا جميعاً هذا الرجل الممتع الذي كان سعيداً بوجود ابن عم له في الموصل كان يزوره في نهاية الأسبوع.

ومرة طلب مني عز الدين الحصول على التيار الكهربائي لمسكن ابن عمه لأن ذلك كان صعباً آنذاك وقال لي: «تستطيع تحقيق ذلك إذا حاولت». فكتبت رسالة إلى المهندس البريطاني في الموصل، وكان معروفاً ببغضهِ البشر، قلت فيها: «يعتقد صديقي أن لي نفوذاً على

Twitter: @ketab_n

التيار الكهربائي. وأكدت له أن ليس لي أي نفوذ، ولكن عدم الكتابة إليك يعد عملاً غير ودي».

وخلال أسبوعين أوصل التيار الكهربائي إلى مسكن ابن عم السيد عز الدين الصندوق.

كان طارق مظلوم صديقاً طيباً آخر. كان ممثل مديرية الآثار القديمة العراقي الذي أظن أنه كان يكره الأجانب جميعاً بوصفهم مستغلين لبلاده وكان يشعر بالاستياء لأن الظروف فرضت تنفيذ التنمية من خلالهم.

كان هذا الرجل الموهوب والرسام الواسع الخيال مصدر قوة لبعثتنا. كان يحب في أجاثا طيبتها المخلصة وأحبت فيه شخصيته القوية والأصيلة. وبعد إنجاز فترة عمله في نمرود قدم إلى جامعة لندن، وحصل على الدكتوراه بعد أربع أو خمس سنوات من العمل الدؤوب.

وأعد كتاباً عن التطور الزمني للنقوش الآشورية البارزة زيّنه برسومه الواضحة. وأدار فيما بعد تنقيبات مهمة في نينوى وفي تل الولاية السومري ومواقع أخرى وهو بارع في الصيانة والترميم.

تحدثت مراراً عن عمّالنا الذين كانوا مجموعة سعيدة متقدة نشاطاً وكانوا مستعدين دائماً للمشاجرة والمصالحة. أحبوا المواقف المثيرة وكانوا مستعدين حتى للضحك على أنفسهم. كان التعامل معهم يتطلب فهماً للرجال ويحتاج إلى الإنصاف والحزم والحماسة.

ينبغي أن لا يصبح أحد مديراً إلا إذا كان قادراً على اتخاذ قرارات سريعة، فالتردد له عواقب سيئة.

كان الشرقاطيون من القرية المقابلة لآشور أفضل عمالنا، إذ كانوا صناعاً مهرة وبالغي الدقة. وكان رئيس عمالنا عبد الخلف العنقود

Twitter: @ketab_n

يتسم بالحكمة والرقة واللباقة على النقيض من رئيس عمالنا الثاني محمد خلف المصلح الذي كان سريع الغضب وحيّ الضمير، إلا أنه كان أخشن منه جانباً. وكان هذا شعلة متقدة من النشاط وإن لم تتسم أحكامه بالصواب دائماً. كان هذان الرجلان يراقبان العمال الذين يقلبون التربة ويعالجون الطين الصلب برقة حتى يستجيب لأيديهم. وكان بعضهم من الجيل الثالث من نسل الذين عملوا مع الألمان في آشور. وسيكون يوماً حزيناً عندما يتوقفون عن نقل مهاراتهم التقليدية إلى أبنائهم، إذ مع انتشار التصنيع زاد خطر احتمال انقراض هذه البراعة اليدوية.

ينبغي عدم إغفال ذكر خدمات الشرطة العراقية. كان يُرسل شرطيان من الموصل لحراسة مخيمنا كانا يرمزان إلى القانون والنظام. كانا مفيدين دائماً لكنهما لم يتسما بالحكمة دائماً. مرة رأى شرطي مجرماً مطلوباً لاتهامه بالسرقة كان يعمل معنا في التنقيب وحاول القبض عليه. إلا أن الرجل كان أسرع من ذراع القانون وولّى الأدبار. فانتظر الشرطي أن يظهر الرجل في السهل تحت التل محاولاً قطع المسافة بين نمرود وقرية النايفة. لم يشأ الشرطي أن تفلت منه طريدته فصوّب بندقيته وأطلق النار على الرجل الذي أصيب في ساقه وبدأ يزحف طالباً النجاة يحيط به حشد غاضب من المدافعين عنه من قريته. واضطر الشرطي المتحمس للقبض على الرجل إلى النجاة بجلده واضطررنا إلى إنقاذه من القتل من غير محاكمة قانونية. وعاد إلى الموصل بأمان دون عقاب.

زار ضيوف بارزون كثيرون نمرود ومكثوا معنا أحياناً. فقد قدم من حلب إيرنست ودورا التونيان اللذان أشرت إليهما في سياق حديثي عن التنقيبات في سوريا. كان إيرنست مغرماً بـ (ث.أ.لورنس).

Twitter: @ketab_n

وكانت زوجته دورا مثقفة. وعلى النقيض من زوجها الطبيب كانت ذات اهتمام كبير بالمؤلفات الآثارية. كانت شقيقة الفيلسوف والمؤرخ ر.ج. كولنكود الذي ألّف من جملة ما ألّف كتاباً بعنوان Mirror of the Mind (مرآة الذهن) Speculum Mentis ترجم بتصرف إلى (أمل ضئيل للذهن) Little Hope for Mind. رسمت دورا عدداً من التخطيطات السريعة لنمرود ما تزال بحوزتي، ومنها صورة تذكرني بداخل البيت ودعامات السقف المتدلية في حجرة الطعام التي كانت مسندة بعمود خشبي ثقيل. لم يكن السقف محكماً إزاء تسرب المياه وذكرني بوصف لايارد مشهداً في قرية نمرود عندما احتمى تحت منضدته الوحيدة والتحف خادمه بعباءته في ركن من الحجرة.

يحمل كثيرون منا ذكريات سعيدة عن زيارة في عام ١٩٥١ قام بها صديقنا القديم سير ألين لين وزوجته لتيس. كان ألين مؤسس دار النشر التي تصدر كتب بنكوين وبليكان. وأسس إمبراطوريته برأسمال يبلغ مئة باون.

وعلى الرغم من أنه كان يقرأ قليلاً، كان يميل إلى كل ما يمكن أن يثير خيال الناس. وبعد أن فاته إكمال تعليمه الجامعي أراد التعويض عن الفجوة التي يعانيها الرجل العادي الذي حرم مثله من التعليم الجامعي بنشر كتب سهلة وممتعة القراءة ذات نوعية أكاديمية بأسعار رخيصة. كان ألين ذا طاقة غير محدودة ويحسن انتهاز الفرص وقرصاناً بالفطرة ومستعداً للاضطلاع بأي شيء. كان يحب قراءة كتب أجاثا منذ صباه وكان معجباً بها إنساناً ومواهب. كان هذا المغامر السخي، الذي بوسعه أن يقسو حتى على أقرب أصدقائه، يتوقع الإفادة من الفرص ولم يشعر بالاستياء منها. كان مولعاً بعقد الصداقات مع الشخصيات الرديئة التي كان يساعدها بسخاء. نصحته بالاهتمام

Twitter: @ketab_n

بعلم الآثار وطلب مني بعد فترة تحرير سلسلة من الكتب عن الآثار الشرقية وأشرفت على إصدار حوالي عشرة كتب من كتب بليكان لقي معظمها رواجاً كبيراً. اخترت قدر الإمكان مؤلفين شباباً ذوي قدرة أكاديمية عالية أعتقد أنهم سيحدثون تأثيراً كبيراً ومنهم أوليفر كيرني مؤلف كتاب (الحثيون) The Hittites وبران إيمري مؤلف كتاب (مصر القديمة) Archaic Egypt وستيوارت بيكوت مؤلف كتاب (الهند في عصور ما قبل التاريخ) Prehistoric India، وأخيراً أقنعت و.ف. ألبرايت وليونارد ووليس وسيتن لويد وورومان كيرشمان بتقديم كتب للنشر.

دعمنا ألين في السنوات الأولى في نمرود ونحن مدينون له لمساعدته. ولكن من الغريب أنه أظهر تردداً عندما عرضت عليه نشر كتاب كبير عن اكتشافاتنا لأن سلسلة كتب بنكوين كانت تمر بصعوبات واتهمته بخداعي لأنه سبق أن شجعني في البداية. إلا أن رفضه كان لصالحي. لأنني واصلت العمل وألفت كتاباً مصوراً أكبر بكثير من الكتاب الأول حطم الأرقام القياسية عندما بيعت ألفا نسخة منه ـ ١٧٠٠ بستة عشر جنيهاً للنسخة وما تبقى بعشرين جنيهاً للنسخة ـ برعاية جريئة من دار النشر كولنز لحساب المدرسة البريطانية للآثار في العراق وكنت ممتناً لصديقي القديم سير ويليام كولنز الذي ثبت أن ثقته كانت مبررة.

كان ألين لين وزوجته الساحرة لتيس حاضرين عند اكتشاف مسلة آشور ناصر بال في عام ١٩٥١، ولكن لسوء الحظ لم يكن لديهما أفلام ملونة عندما كشف عن المسلة. كانت تلك هي السنوات الأولى في التصوير الفوتوغرافي الملون لدى الآثاريين وشاهدنا أولى الصور الملونة في نمرود. وربما ستظل البعثة تتذكر ألين الكريم لهديته الرائعة

Twitter: @ketab_n

المؤلفة من قالب جبن من نوع الستلتون والتي أرسلت إلى البعثة من لندن في مناسبتين أو ثلاث. كنا محظوظين لانتفاعنا من سخاء هذا المحسن.

لا يمكن فصل التنقيب في نمرود عن ذكرياتنا عن مسكننا المشيّد من الآجر الطيني الذي أقيم على قمة سور الحصن والذي تشاهد منه الزقورة من جهة وقلعة شلمنصر والمدينة الخارجية من الجهة الأخرى.

ضم البيت نفسه، إضافة إلى المكاتب الاعتيادية، مطبخاً وغرفة مظلمة لطبع الأفلام وقاعتين طويلتين، استخدمت إحداهما غرفة جلوس وغرفة طعام والثانية للآثار. وكان لدينا بجانب الجدران مصطبات من الآجر الطيني نشرنا عليها الآثار ووفرت نفقات صُنع رفوف خشبية. وبعد إنفاق ما يزيد قليلاً على ألف باون أصبح لدينا مسكن فخم لكنه بسيط مع أماكن خَزنٍ وافرة.

أمضينا ساعات سعيدة كثيرة محاطين باللقى الآسرة التي عثرنا عليها، وعند نهاية الموسم تمتعنا بتناول الشاي على المصطبة المشيدة بالآجر خلف البيت والمنظر البديع من هناك. كنا ننام في خيم تصمد للماء، ولكنني أتذكر عاصفة هوجاء حدثت بعد غروب الشمس بقليل. تحوّل لون السماء إلى أصفر كئيب وظننت أن الشيطان أسموديوس(٧) قدم لإزالة سقف مقر البعثة. كان يخيم علينا آنذاك خطر إزالة المخيم كله. وكان لوفتوس قد عانى عاصفة مشابهة في عام ١٨٥٤.

رغم الحوادث المؤسفة أحياناً بسبب شدة البرد أو الحرارة أو

---

(٧) أسموديوس Asmodeus شيطان في التلمود والأپوكريفا (١٤ سفراً تلحق أحياناً بالعهد القديم يشك في نسبتها إليه) ربما اشتق من الأساطير الفارسية وتخصص في قتل من يتزوجون في يوم زفافهم. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الريح أو الأمطار، عشنا مرتاحين إلى حد معقول، وكان طعامنا طازجاً من محاصيل الأرض. يعدّه طباخون مختلفون. وكان بعضهم مدمناً على تناول الخمر أو مفرطاً في الرصانة. وكان عدد كافٍ من الخدم يُعنى بتلبية احتياجاتنا. كان كبير الخدم النسطوري ويدعى مايكل كأنه خارج من لوحة للرسام ألكريكو.

زادت الحياة الصحية في الهواء الطلق من شهيتنا للطعام، ولم نعانِ أمراضاً خطيرة ما عدا بعض أوجاع المعدة أحياناً. إن الحياة في موقع التنقيب تساعد في تحقيق العقل السليم في الجسم السليم.

من المناسب أن أختتم هذا الفصل عن نمرود بالحديث عن أجاثا التي كانت سخية دائماً ونموذجاً للانسجام. ساعدت في إصلاح العاجيات ووضع الفهارس للقى وساعدت في التصوير الفوتوغرافي في المرحلة الأولى ثم تولت باربارا باركر المهمة.

شيدنا لأجاثا حجرة صغيرة في نهاية البيت كانت تجلس فيها جزءاً من الصباح وتكتب رواياتها بسرعة وتطبعها بالآلة الكاتبة مباشرة. وألفت ما يزيد على ست روايات بتلك الطريقة موسماً بعد الآخر.

ساعدتني أجاثا في دفع أجور العمال من فتحة صغيرة مفتوحة على مكتبي. وأحياناً كان يسمع صوت ضعيف من الموصل يقول:

«تعال وألق نظرة على العمال وهم يتسلمون أجورهم، وأجاثا كريستي تدفع إليهم الأجور».

وكانت أجاثا تتحفنا بين الحين والآخر بقصائد مرحة ضمنتها إشارات إلى أعضاء البعثة واتسمت بالغموض وبتناولها أحداثاً معينة، ولذا تبدو غير مفهومة أحياناً لمن لا يعرف شؤون البعثة. . . .

آمل أن هذه الملاحظات عن تنقيباتنا ستجعل القُراء يطالعون كتاباً أفخر بتأليفه وهو (نمرود وآثارها) Nimrud and its Remains

Twitter: @ketab_n

ويعرف كل المنقبين أن الجزء الأكثر إثارة من نشاطهم هو السجل ولا يفلح الجميع في تنفيذ هذا الالتزام.

يقع الكتاب في أكثر من ست مئة صفحة ويضم ما يزيد على مئتي صورة يمثل كثير منها تحفاً فنية. وأنا أدرك العيوب التي لا مفر منها في تأليف مثل هذا الكتاب الضخم، ولكنني ممتن لامتلاكي قوة الاحتمال ولمساعدة زملائي إياي في إنجاز الكتاب. ولذا آمل أن يبرر هذا الكتاب إضافة إلى النتائج العلمية للتنقيبات الجهود المتواصلة لفرق العمال الماهرين موسماً بعد آخر خلال اثني عشر عاماً من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٦٠.

Twitter: @ketab_n

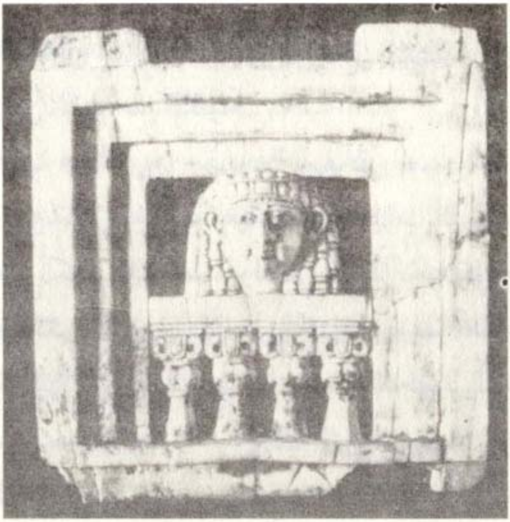

لوحة عاجية من النحت المفتوح، أبعادها ٨,١×٩,٦ سم
تصور (السيدة في النافذة)

بقايا الزقورة التي يبلغ ارتفاعها ٤٣ متراً التي تشاهد على مسافة أميال كثيرة من نمرود. أسسها الملك آشور ناصر بال الثاني وأكملها ابنه شلمنصر الثالث (٨٥٩-٨٢٤ ق.م). وكُرّست لنينورتا إله الحرب والصيد والإله الحارس لمدينة نمرود. استُخدم المبنى برج مراقبة وكانت له صلة وثيقة بمعبد نينورتا في أسفله.

Twitter: @ketab_n

رأس عاجي ارتفاعه ١٦ سم يعرف بـ (موناليزا نمرود) عثر عليه تحت الماء في قعر بئر في حجرة في القصر الشمالي الغربي. اقتطعت اللوحة من ناب فيل كبير على نحو غير عادي ورمم السيد أكرم شكري الأنف وصوّر انتران التحفة وهذا ثاني أكبر رأس عاجي عُثر عليه وربما نُحت بأمر سرجون الثاني.

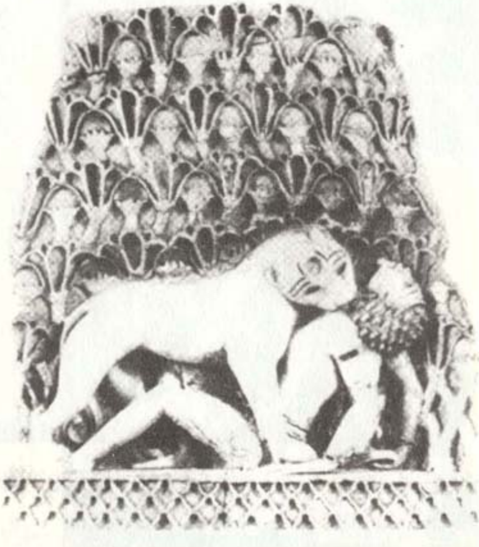

قطعة عاجية تمثل لبوة تفترس زنجياً في مرج من اللوتس ونباتات البردي التي طعمت باللازورد والعقيق وكُسيت بالذهب. ارتفاعها ١٠,٥ سم وعرض قاعدتها ٩,٨ سم وسمكها في الأسفل ٢,٨ سم وفي الأعلى سنتمتر واحد.

Twitter: @ketab_n

تمثال من العاج ارتفاعه ١٤,٤ سم يمثل نوبياً يقود غزالاً ويحمل قرداً على كتفه اليسرى وجلد فهد على كتفه اليمنى.

قطعة عاجية منحوتة أبعادها ١٤,٦×٨ سم تمثل بقرة وحشية أفريقية.

Twitter: @ketab_n

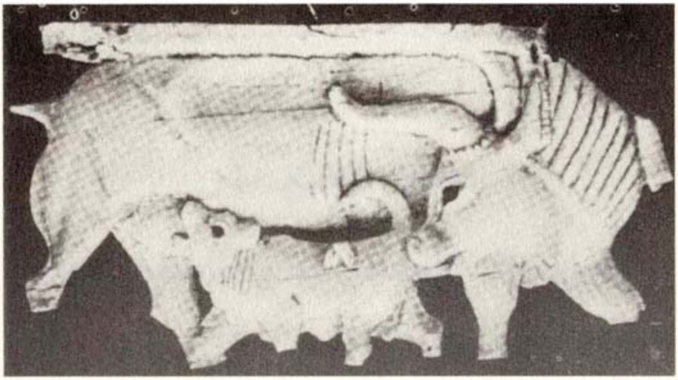

لوح منحوت من العاج أبعاده ٩,٤×٥ سم يشمل بقرة وعجلاً.

لوح عاجي أبعاده ١٩×١٥سم مثبت في إطار هلالي عرضه ١٤سم يمثل أبا الهول يعتمر غطاء رأس فرعوني وفوقه تاج ومئزر فينيقي وقلادة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع عشر

المؤسسات الأكاديمية والعاملون فيها

يذكّرني العنوان الذي اخترته لهذا الفصل بالوقت الذي طلبت فيه منحي حق الاقتراع في مدينة توركي بإنجلترا وسبقني معتوه. قال المسجل: «هل أنت نزيل مؤقت أو دائم في مستشفى الأمراض العقلية المحلي؟ إذا كنت نزيلاً مؤقتاً فلا يحق لك الاقتراع»، «أما إذا كنت نزيلاً بصورة دائمة فتمنح حق الاقتراع».

لم أكن طوال سنوات كثيرة متثبتاً من مركزي الأكاديمي. لكنني أتناول الآن المراحل الأخيرة من حياتي العملية بعد أن أصبحت معروفاً نتيجة التنقيبات في نمرود وسررت عندما حصلت في عام ١٩٦٢ على عضوية كلية أول سولز All Souls College في جامعة أوكسفورد. ومكنني هذا التعيين، الذي حررني من الواجبات الإدارية، من إكمال تأليف كتاب (نمرود وآثارها) ونشره. صحيح أن الكلية انتخبتني في اجتماع سري ولكن ينبغي أن أقر بالدين الذي في عنقي لآرثر سولتر (اللورد سولتر) الذي دعم انتخابي. تعرفت إليه في بغداد وبعد موت ماريشال الجو سير روبرت بروك بوفام أصبح المرشح المؤكد لرئاسة المدرسة البريطانية للآثار في العراق.

أصبح هذا الشخص الفائق البراعة صديقاً عزيزاً. خدم بلاده بأقصى طاقته وبتفوق. وبفضل حدة ذهنه ونشاطه، وعلى الرغم من

Twitter: @ketab_n

المعارضة الشديدة من ضباط كبار في الأميرالية، ندين له بالقضاء على خطر الغواصات الألمانية في الحرب العالمية الأولى.

وكان تبنّيه نظام القوافل البحرية هو الذي جنب بريطانيا المجاعة. وكان يتمتع إضافة إلى حدة ذهنه بشخصية لا أثر فيها للغرور والخيلاء. عاش هذا المحارب العظيم، الذي حوّل قضايا خاسرة كثيرة إلى قضايا رابحة، وفي عينه طَرفة دائمة.. كان مخلصاً لكليته التي ضمّت نخبة من العلماء البارزين، إلا أنه لم يكن يقدّر الإنجاز الأكاديمي نفسه ما لم يكرس في الخدمة العامة، وهذا طموح كثيراً ما خيب الآمال. سررت كثيراً بانتخابي لزمالة الكلية لأنني شعرت بأنني أخيراً في سن الثامنة والخمسين وعوضتني جهود عمل العمر عن عدم التفوق الأكاديمي في شبابي. وآمل أن هذا الإنجاز غير المتوقع المناقض لبداية غير متميزة قد يشجع آخرين ممن لا يظهرون تطوراً إلاّ في سن متأخرة في جهودهم لتحقيق إنجاز طبيعي. وعندما انضممت إلى هيئة التدريس في الكلية واشتركت في اجتماعات الهيئة المشرفة ذُكرت بعبارة استعملتها الممثلة الرائعة فانيسا ريد جريف وهي تخاطب طلبتها «أنتم نخبة النخبة».

لذا كابدت في البدء، كما في شبابي، شعوراً بالنقص وخشيت من الاشتراك في المناظرات. ولكن كسقراط كان في داخلي عفريت يسيطر عليّ أحياناً وعندما يتملكني أصبح خطيباً مفوهاً وقادراً على التأثير في المستعمين على الرغم من أن الفرصة نادراً ما سنحت لي لممارسة ذلك في الاجتماعات الجامعية، باستثناء مناسبة أو مناسبتين ولا سيما في خطبة لاذعة انتقدت فيها تشييد مبنى غير جميل ولا براعة فيه اقترحوه جناحاً جديداً يضاف إلى كلية جميلة من غير وجوده.

كانت اجتماعات الهيئة المشرفة على الكلية تميل إلى الإطالة

Twitter: @ketab_n

وكنت في أحيان كثيرة أميل إلى الاعتقاد أن السبب يعود إلى رأي عميد الكلية جون سبارو في أن هذا النوع من التعذيب مناسب لأشخاص لا يصبحون مجموعة مشتركة إلا في هذه المناسبات. كان أداء سبارو في رئاسة الاجتماعات ممتازاً، إذ كان عليه مواجهة أعقد الحجج بشأن كل نوع من المواضيع ولم يشعر بالحيرة في إيجاد حل وكان منظره رائعاً وهو يقف على قدميه ويسأل نفسه كيف يستطيع معالجة المسألة الآتية. كان متخصصاً بارعاً في الآداب الإغريقية واللاتينية وتدرب ليصبح محامياً وكان بوسعه البروز في مجال المحاماة أو القضاء، إلا أنه فضّل حياة العزلة. كان نفوذه على الكلية يميل إلى السلبية، وفي رأيي أنه لم يستثمر استثماراً ملائماً العدد الكبير من الموهوبين الذين كانوا بإمرته، كما أنه لم يبد اهتماماً كافياً بالعمل الذي كان يؤديه الأعضاء بين أسوار الكلية. إلا أنه كان متمدناً ومهذباً وفاتناً وسخياً في الضيافة. لن أتحدث تفصيلاً عن الأعضاء الآخرين وأكتفي بإبداء الإعجاب باللورد ولبرفورس الذي كان يوحي بالثقة في أحكامه وبالاحترام الشديد لتحليله أكثر المشاكل تعقيداً بوضوح. وكان يتسم بمزاح رقيق وسحر وأعتقد أنه يسر كثيراً بتدريس الآداب الإغريقية اللاتينية التي برز فيها وهو في مرحلة الدراسة الجامعية الأولية. ولسوء حظ الكلية أنه لم يصبح عميداً لها، ولكن كسبه ميدان القانون من جهة أخرى. ضم مجلس الكلية عدداً جيداً من المحامين البارزين وكان اللورد هاليشام، الشجاع والمستقيم وذو القابلية الجيدة على نحو متناسق، أحدهم، وكان مسيحياً ورعاً ويتصف بخصال نفتقدها غالباً في حياة الناس اليوم ويود المرء لو أنه تولى منصب رئاسة الوزارة الذي كان يصلح له بجلاء لجرأته وصدق تفكيره. وربما كان أطيب من أن يتولى هذه المهمة التي لا يحسد عليها أحد.

Twitter: @ketab_n

أشعر بشعور ودي شخصي تجاه ايلمر مكارتني الذي كان ناصحاً مخلصاً وطيباً لي عند انتخابي وذا عقلية منظمة في حقل نادر هو التاريخ الهنغاري. كان أحياناً مشاكساً ومعتداً برأيه ولكنه، على ما بدا لي، كان أساساً يتمتع بتقدير صائب وكان مخلصاً لحقل اختصاصه العلمي ويحتقر ما كان يعده زائفاً في حقل المعرفة.

كان ايان ريتشموند، الذي شغل كرسي علم آثار الإمبراطورية الرومانية، زميلي الوحيد بين أعضاء مجلس الكلية في حقل مشترك. كان موته في سن مبكرة نسبياً مفجعاً، لأنه كان بوسعه تأليف المزيد لتعليمنا وتسليتنا. كان صديقاً ودوداً كريماً مثل المؤرخ البارز إيرنست جيكوب الذي منح الكلية جسمه وروحه أربعين عاماً. وأفتخر بأنه أشار قبل وفاته إلى أنني أعز أصدقائه، ربما لأنني منحته ما كان متيسراً لي من الاهتمام القليل في أيامه الأخيرة. كان فيه شيء من ريف أوكسفورد القديم دخل روحه من خلال التجوال في القرى والكنائس الريفية في شبابه.

كان من الأصدقاء المتعاطفين أيضاً المؤرخ الشهير أ.ل.راوس. وفي الأحاديث كان مثل الساحر يستطيع استحضار الصور المألوفة من الماضي في الحجرة.

أظهرت الكلية في هذا العام حكمة في انتخاب المحامي البارز باتريك نيل مستشار الملكة عميداً. إنه يتمتع جيداً بالسحر والإدراك السليم والملائم لقيادة الكلية في أوقات عصيبة إلى جانب زوجة فاتنة وذكية وعائلة كبيرة تشغل المسكن المخصص للعميد.

وكان العضو الأخير وليس الآخر في مجلس الكلية هو المستشرق البارز روبن زيز الذي شغل كرسي سبالدنك للديانات وعلم الأخلاق في الشرق. لم يكن هناك أفضل منه في شغل كرسي أستاذية تطلب أن

Twitter: @ketab_n

يظهر شاغله وحدة التفكير والإلهام في الأديان كلها وهي نظرية كان يعارضها تماماً وكادت أمانته في التعبير عن هذا الرأي تكلفه كرسي الأستاذية عندما حان موعد التجديد. كان روبن زيز يتمتع بموهبة غير عادية في إتقان اللغات المغمورة القديمة منها والحديثة، إذ كان يجيد السنسكريتية والفارسية. وألّف كتباً كثيرة بأسلوب سلس وأخّاذ يتناول معظمها مواضيع دينية. ولقي العديد منها رواجاً واسعاً وترجمت إلى لغات كثيرة. إلا أنه مال إلى الإكثار من التأليف وإلى التكرار.

وعني عناية كثيرة بمشكلة الخير والشر وكان مستعداً لتناول أغرب المواضيع وأصحاب العقيدة في سعيهم لتحقيق أهدافهم. وكان بالإمكان رؤية النور مضيئاً من خلال نوافذه حتى الساعات الأولى من الصباح وهو يبحث شؤون مهمته غالباً بمساعدة قنينة الشراب التي ساعدته في استحضار الحيل الكثيرة لمزاجه المرح وأدخلت التسلية في نفوس أصدقائه.

وفي إحدى الليالي ظن بعضهم بسبب الضوضاء أن هناك محاولة سطو في وقت متأخر وكان أحد الزملاء يوشك أن يستدعي الشرطة عندما اكتشف أن الضوضاء كانت بسبب زيز الذي عثر عليه من خلال الضوء الضعيف ممسكاً بالعوارض الخشبية في السقف مثل الوطواط.

وفي مناسبة أخرى في أثناء زيارته المعهد البريطاني للدراسات الفارسية في طهران عاد فجراً في حالة سكر، ولذا عجز عن إدخال المفتاح في قفل الباب الخارجي وتمدد لينام في المجرى المفتوح في الشارع خارج المبنى. وفي الفجر هبّت ريح باردة وأيقظته من سباته. واستفاق إلى حد كافٍ ليحيّي البواب ثم أدخل المفتاح في القفل الخارجي، إلاّ أنه لم يستطع التفكير في طريقة لفتح الباب الداخلي إلا بتحطيم لوح الزجاج الكبير بقبضته. ورقد مرة أخرى مضرجاً بالدم،

Twitter: @ketab_n

ولكن لم يتضرر أحد بسبب ما حدث لأنه دفع تكاليف الأضرار من جيبه.

لا أتردد في تدوين ذلك كله، لأنني أعتقد أن الحياة تصبح أنفس بمثل هذه الخبرات. ولا أؤمن بالقديسين الذين يُرسمون بالجص. إن العالم أفضل بوجود علماء محبين للهزل وغريبي الأطوار مثل روبن زيز. كان غاية في الجد في أعماقه ولو أنه فضل أن لا يفتح فمه إلا هازلاً، ونادراً ما اشترك في المناقشة في أي اجتماع. اعتنق الكاثوليكية وكان سعيداً ومتمسكاً بدينه. وربما اخترم الإفراط في تناول الخمر حياته، ولكنه مات في سن متقدمة بعد إنجازه مهماته الرئيسة.

اجتذبت كلّيتنا بعضاً من حسد الكليات الأخرى في جامعة أوكسفورد، ويعود ذلك جزئياً إلى أنها كانت تتمتع بامتياز خاص، إذ لم تكن تضم أي طالب في المرحلة الجامعية الأولية بين جدرانها. وتعرضت، في رأيي، لانتقاد غير منصف في تقرير فرانكس لأسباب مختلفة واتهمت ظلماً بعدم الإيفاء بالتزاماتها التدريسية. وفي الواقع كان يدرس فيها بقدر ما كان يدرس في أية كلية أخرى في الجامعة من حيث الكم. ولم تشيد الكلية لتضم هيئات كثيرة وكان من السخف محاولة فعل ذلك. وكان اتساع عمارتها ذا أصل يعود إلى القرون الوسطى ولم يصمم لذلك الغرض. إنّ من المبادئ السليمة أن يكون هناك ضمن أية جامعة معهد شاذ واحد أو أكثر، وكانت كليتنا تمثل انحرافاً رائعاً حقاً وهي رائعة حالياً مثلما كانت في الماضي. وعندما كنت أجلس في غرفتي في المبنى المربع القديم الذي يعود تاريخه إلى مؤسس الكلية في أوائل القرن الخامس عشر اعتدت أن أتساءل عما إذا كان أي من الأعضاء السابقن الذين سُجل أنهم انتخبوا لعضوية مجلس الكلية في عام ١٤٥٣ قد شغل الحجرة المخصصة له وكم استغرق

Twitter: @ketab_n

وصول نبأ سقوط القسطنطينية إلى أوكسفورد وماذا كان وقع الحدث.

قبل عامين من انتخابي عضواً بدأت أتلقى مظاهر التكريم إثر إنجاز عملي في نمرود وهي مظاهر ينبغي أن يشاركني فيها مساعدون مخلصون كثيرون ساعدوني في التنقيب هناك ونشر المؤلفات عنها. مُنحت أولاً وسام قائد الإمبراطورية البريطانية C B E في عام ١٩٦٠ وتلا ذلك وسام الفروسية في عام ١٩٦٨ ورحبت بالإنعام كثيراً لأنه تضمن منح عزيزتي أجاثا لقباً، حيث مُنحت في عام ١٩٧١ لقب السيدة Dame بعد منحها وسام قائد الإمبراطورية البريطانية في عام ١٩٥٦. وكان ذلك كله بريقاً ذهبياً جذاباً.

تلت ذلك مظاهر تكريم أخرى، إذ بعد انتخابي عضواً في المجمع البريطاني عام ١٩٥٥ أصبحت بعد مدة مناسبة عضواً في أكاديمية النقوش والفنون الجميلة Académie des Insctiptions et Belles Lettres وهو تكريم نادر. وهكذا أصبح يحق لي حمل لقب عضو «معهد فرنسا» والاشتراك في الاجتماعات التي كانت تعقد في ذلك المبنى الفخم مقابل جسر الفنون. وأتمنى لو أن والدتي الباريسية كانت على قيد الحياة آنذاك إذ لا بد أن هذا اللقب كان يسرها أكثر من أي تكريم آخر.

كنت أيضاً ممتناً لانتخابي فيما بعد عضواً مراسلاً في المجمع الدانمركي الملكي، المؤسسة القديمة والمهيبة. وأمتنع عن ذكر مظاهر تكريم أكاديمية كريمة أخرى ولكن لا بدّ أن أشير بسرور خاص إلى ثلاثة أوسمة مُنحتها: وسام من جامعة بنسلفينيا في الولايات المتحدة هو وسام لوسي وارتن دريكسل الذهبي ووسام لورنس بلاد العرب التذكاري من جمعية آسيا الوسطى الملكية، ووسام كيرترود بيل التذكاري الأول من المدرسة البريطانية للآثار في العراق عام ١٩٧٦

Twitter: @ketab_n

عن «الخدمات البارزة لعلم آثار بلاد الرافدين». وفي كثير من الأحيان أشعر أن هذه المظاهر التكريمية هي في الواقع شهادة على كرم أصدقائي الآثاريين الذين مارسوا التجمل والصفح بسبب شكاواي الشكسة والميالة إلى النقد القاسي. إلا أنهم يعرفون أنني لم أشعر بأنني مدين بالفضل لهم فحسب، بل إنني أحببتهم واحترمتهم. إن ما يؤثر فينا هو ما أنجزه الرجال لا ما تركوه دون إنجاز.

وأشعر أنني ينبغي أن أذكر هنا أيضاً سروري بانتخابي عضواً فخرياً في كليتي القديمة، إضافة إلى انتخابي عضواً متمرّساً في كلية أول سولز عندما تقاعدت من الوظيفة.

ينبغي الآن أن أتناول بإيجاز صِلاتي بالمدارس والمعاهد الشرقية، لأنني عملت في أوقات مختلفة وفي بعضها باستمرار عضواً في مجالسها وأبديت اهتماماً نشيطاً وعميقاً بشؤونها ولا سيما صِلاتي بالمدارس والمعاهد في القدس وأنقرة وبغداد وطهران وكابل وأسهمت في تأسيس معهدَي طهران وكابل من خلال المجمع البريطاني. وفي رأيي إن هذه المؤسسات كانت الجانب الأكثر نفعاً لمشاركتي في دراسة الآثار الشرقية، إذ لم تؤدِ إلى كسب عدد كبير من الأصدقاء فحسب، بل إنّ هذا الشكل من المشاركة الدولية أعلى سمعةَ بلادي والبلد المضيف في الوقت نفسه. بهذه الطريقة ساعد بعضنا بعضاً في الاعتزاز بالماضي ولا سيما بمعالمه وآثاره القديمة، وبالمشاركة في التنقيبات ساعدنا في تأسيس المتاحف الكبيرة والمجموعات الأثرية الوطنية. في الأيام المبكرة عندما كانت قوانين الآثار أقل تشدداً انتفعت المملكة المتحدة أيضاً بحصة من اللقى. ولكن وعي مسألة ومشاركة أصدقائنا الأجانب ومشاطرتهم مهمة مشتركة والمساعدة في التدريب الفني حقّقَ أفضل الثمار. كان من أسعد ثمار هذا الجهد ما أُنجز في

Twitter: @ketab_n

معهد طهران، إذ منذ تأسيس المعهد البريطاني للدراسات الفارسية هناك اجتاز أبوابه أكثر من سبعة آلاف شخص وتزدحم قاعة المحاضرات بالجمهور. وكان متوقعاً أن تؤدي مثل هذه المشاركات أحياناً إلى التوتر ولا سيما عند حدوث تغييرات في الوضع السياسي إلا أننا ينبغي توقع أن يخف مثل هذا التوتر في النهاية فقد كنا على علاقة ودية جداً بزملائنا الآثاريين من الاتحاد السوفياتي على سبيل المثال، وتمتعنا بتبادل الزيارات الودية معهم في مواقع التنقيب وفي إنجلترا نفسها. ليس هناك أي حقد حقيقي يتملك الفنانين الحقيقيين بعضهم تجاه بعض، بل توجد على الضد من ذلك، متعة تبادل المعرفة المتخصصة. وفي رابطة الأخوة بين الزملاء تكمن أفضل آمالنا في تجنب الصراع الدولي.

لا يمكن أن أشير إلا إلى عدد قليل من كثيرين يتولون إدارة معاهدنا. إن مهمتهم دبلوماسية وفنية صعبة يؤدونها بمهارة وبروح حسن الدعابة والنيّة الحسنة. والموقف الودي للزملاء في دوائر الآثار في الأقطار المضيفة دليلٌ على نجاح مديرينا في مهماتهم. ولا يمتلك أي مدير المؤهلات المطلوبة كلها لهذه المهمة الصعبة التي تتطلب الدبلوماسية والمهارة في الإدارة وبخاصة العلاقات الشخصية الجيدة بزملائنا الأجانب.

وينبغي أن يكون رئيس بعثة التنقيب محترماً بوصفه رجل علم ومنقباً جيداً. وفي الوقت نفسه ينبغي أن يكون شأنه شأن دبلوماسي في الخدمة الخارجية، ممثلاً لمصالح بلاده التي تنفق الأموال الطائلة على هذه البعثات وأن يظهر شجاعة في عرض قضيتنا، إلا أن هذا الواجب ينسى أحياناً. وتوجد حاجة إلى صبر كثير من كلا الجانبين ولكن النية الحسنة متوفرة دائماً.

Twitter: @ketab_n

عندما أستعرض أسماء بعض مديرينا سأذكر مزاياهم الخاصة.

لقي ديفيد فرينش في أنقرة قبولاً لدى سلطات المعهد بقابليته الطبيعية على التكلم باللغة التركية وهي ميزة عظيمة، إلا أنه كان أقل استعداداً لعرض طموحاتنا. وفي القدس أظهرت كريستال بنيت المنقبة القديرة قابلية غير عادية على التكيف والتغلب على الصعوبات. وصمدت المدرسة البريطانية للآثار صموداً رائعاً أمام هذه المشاكل. وما زال علينا أن نفتح معهداً بريطانياً للآثار في مصر وهو قطر تربطنا به أقدم العلاقات الودية، ولكن جمعية استكشاف مصر Egypt Exploration Society تولت منذ زمن بعثة و.ب ايمري إلى سقارة[1]، مهمة المعهد ووفرت لنا اقتصادياً قاعدة دائمة يستثمرها الأستاذ العالم والقدير هـ.س. سمث، ابن الأستاذ سدني سمث. وشهدت عدة مواقع في مصر برعاية الجمعية أنشطة بريطانية مثمرة كثيرة أخرى.

تحدثت كثيراً عن المدرسة البريطانية للآثار في بغداد. وهنا أود أن أقول إن لدينا في شخص نيكولاس بوستجيت واحداً من أكثر الأكاديميين البريطانيين تأهيلاً وقد استطاع أن ينال سمعة جيدة في اللغة الأكدية، ومن المؤمل أن يتولى كرسي أستاذية في إنجلترا. سنحت له الفرصة في العراق للجمع بين الخبرة في التنقيب الحقلي والخبرة في علم اللغة والتاريخ القديم.

وسبق لي أن ذكرت ديفيد سترونباك مدير معهدنا في طهران الذي تولى المهمة الصعبة، مهمة الإشراف على تشييد مبانينا الجديدة في

---

(١) سقارة: منطقة مقابر غرب نهر النيل خلف ممفيس قرب القاهرة. وأشهر قبر فيها هو الهرم المدرج وكشفت قبور النبلاء هناك عن معظم الأدلة المتوفرة الخاصة بعهد المملكة القديمة في مصر والسلالات الست الأولى. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كولهاك، وهي مهمة مرهقة تستحق العناء المبذول في سبيلها، وهي تتويج لخدمة خمس عشرة سنة منذ تأسيس المعهد في طهران. وحبَّبَ ديفيد نفسه إلى زملائه هناك بتواضعه وطبيعته الودودة. إنه منقب جيد حقق نجاحاً كبيراً في الحقل ولا سيما في باساركادي والموقع الميدي نوشي جام. وهو محاضر ممتاز عندما يصف اكتشافاته.

وسيعزز نشره المجلد الأخير عن باساركادي، المدينة التي أسسها كورش، المعلومات عن التنقيب في هذا الموقع حيث انتفع بحكمة من ملاحظات زملائه العلماء ولا سيما كارل نيلاندر. ولا بدّ من إطراء سترونباك لأنه كان مستعداً دائماً لإيصال المعلومات عن اكتشافاته بأسرع وقت ممكن قبل الانتقال إلى المهمة الأصعب المتضمنة نشر المعلومات النهائية أو المؤكدة.

ما دمنا بصدد الحديث عن إيران ينبغي أن لا أغفل الإشارة إلى ديفيد وايتهاوس وهو آثاري آخر ذو قدرة ذهنية ممتازة، اشتهر من خلال التنقيب الذي عهد به المعهد إليه في سيراف، الميناء البحري الكبير على الخليج في القرون الوسطى. كان هذا أول بحث علمي واسع في موقع من القرون الوسطى في إيران في عصرنا وهو مصدر فخر واعتزاز لكل من يعنيهم الأمر. إنّ ديفيد وايتهاوس، مثل ديفيد سترونباك، محاضر يثير الإعجاب، واضح في الشرح ويتمتع بميزة مهمة هي قدرته على تقديم وصف تحريري لنتائجه بسرعة ولن يؤخر نشر التقرير النهائي سوى عدم توفر المال.

أدّت الإدارة حتى الآن دوراً ثانوياً في نشاطه الآثاري، إلا أنه سيصلح عدم التوازن هذا بلا شك في الوقت المناسب. إنه منظم التفكير مع أن العلاقات الإنسانية أقل أهمية عنده. رغم ذلك عُيِّن في سن مبكرة استثناءً مديراً للمدرسة البريطانية في روما بفضل براعته

Twitter: @ketab_n

الفنية، ويؤمل أن يعزز هناك صداقاته مع زملائه الإيطاليين والمعنيين بالفنون. وسوف تنتفع المدرسة البريطانية في روما كثيراً إذا استطاع تحقيق هذا الهدف.

قبل تعيينه في روما كان ديفيد وايتهاوس، بعد أن عمل في إيران، الاختيار الواضح لتولي إدارة المعهد الجديد في كابل الذي أسهمتُ في تأسيسه عن طريق المجمع البريطاني. وتركه بعد عام واحد، كما فعل توني مكنيكول الذي عاد إلى أستراليا، وحقق الاثنان بداية تبشر بنتائج جيدة في موقع قندهار القديم المهم الذي ارتبط باسم أسوكا الذي يمثل موقعاً ممتازاً للتنقيب فترة طويلة مقبلة، وهو الآن تحت إشراف الرسام البارع سفيند هيلمز.

أخيراً ينبغي التنويه بنيفيل تشيتيك الجم النشاط والواسع الخيال والمغرم بالجدل الذي عمل مديراً للمعهد البريطاني في شرقي أفريقيا واختتم عمله المبكر باسم المعهد بتأليف كتابين مهمين عن كيلوا، مركز التجارة الإسلامية جنوبي دار السلام، الذي يُقرن مباشرة بموقع سيراف من خلال الخزف الذي عثر عليه فيه والذي يعود إلى القرون الوسطى.

ويتوقع أن التنقيبات التي يجريها حالياً في أكسوم، عاصمة أثيوبيا القديمة، ستكون مساهمة بارزة في تاريخ أفريقيا وآثارها. وما يسر هو أن نتذكر أن نيفيل تشيتيك بدأ عمله الشرقي في نمرود. ويمنعني ضيق المجال من الإشارة إلى عمل المؤسسات الأخرى التي كانت صلتي المباشرة بها أقل، ولكن من الواضح أن العاملين في هذه المناطق البعيدة انتقلوا مراراً من موقع إلى آخر وكان ذلك ذا منافع كثيرة للأبحاث الآثارية التي استخدمت بهذه الطريقة رجالاً ذوي خبرات واسعة في حقول اختصاصية.

Twitter: @ketab_n

كان رئيس معاهدنا الفخري صديقي القديم والزميل العالم سيتن لويد الذي ناوبته تولي المهمات لأنني حللت محله في بغداد عندما استقال عام ١٩٤٧ من منصبه بوصفه مستشاراً فنياً في مديرية الآثار القديمة ليصبح مدير المعهد البريطاني في أنقرة، وبعد ثلاثة عشر عاماً عندما عيّنت عضواً في مجلس كلية أول سولز بجامعة أوكسفورد تولى كرسي الآثار الآسيوية الغربية الذي تركته في معهد الآثار بجامعة لندن. وبينما كنت في سنوات كثيرة رئيساً للمدرسة البريطانية للآثار في العراق تولى إدارة المعهد في أنقرة. وجعلني سيتن، نموذج الطيبة، في أحيان كثيرة أُدرك قلّة صبري وخشونتي، وهكذا ازددت حباً له. تدرب ليصبح مهندساً معمارياً وزود مؤلفاته بالصور التوضيحية البارعة، واستطاع في تنقيباته في العراق وإيران في مواقع انتخبت بحكمة التوصل إلى نتائج آثارية ومعمارية مهمة، لأنه مثل ديفيد أوتس خبير في الآجر الطيني، واسمه معروف جيداً في عالم الآثار. وهو ساخر أحياناً بعض الشيء واغتنى عمله بالقلب المحب والرقيق لزوجته هايد لويد التي أسهمت إسهاماً كبيراً في جهوده بفضل فهمها الفني الحساس. ونفذت هايد عدداً من التخطيطات بقلم الرصاص لكتابه المرسوم (أسس متهاوية Foundations in the Dust) وهو كتاب ينبغي لآثاريي بلاد الرافدين كلهم قراءته، ونحتت تماثيل دينية كثيرة ومتنوعة وأنتجت نموذجاً رائعاً لجاموسة من رخام الموصل يمثل كتلة ثقيلة متماسكة من القوة المتوترة المركزة أعدّه من أثمن ممتلكاتي.

قبل اختتام هذا العرض الموجز للجهود الآثارية البريطانية في الشرق الأوسط، كما تسمى المنطقة أحياناً رغم أنها تضم رقعة واسعة من الأرض تمتد من مصر وسواحل البحر المتوسط الشرقية وتشمل فلسطين وسوريا والأناضول وبلاد الرافدين وأفغانستان وإيران، لا

Twitter: @ketab_n

أملك إلا التعبير عن الأسف لعدم محاولتنا حتى الآن تأسيس معهد بريطاني للآثار وعلم اللغة في الهند إذ لم يحل معهد محل تلك المؤسسة التي كانت نشيطة في وقت ما وهي مؤسسة مسح الهند Survey of India وإن كان ليونارد وولي، وبعده مورتيمر ويلر، فَعَلا الكثير لتجديد تقاليدها وإحيائها. ومن المؤكد أن إعادة تشكيل مؤسسة في الهند وفق هذه الأسس تستحق اهتمام المجمع البريطاني وأعتقد أنها ستلقى ترحيباً حاراً في شبه القارة الهندية حيث ما يزال لدينا أصدقاء كثيرون يتذكرون بتقدير ومحبة تاريخ الجهود العلمية المشتركة الطويل.

عندما أستعرض حياتي الآثارية لا بدّ لي وأنا في السبعين من العمر أن أقارن العمليات السابقة بالعمليات الحالية وأضع نوعاً من ميزانية للمدقق. وكنت محظوظاً إذ مارستُ التنقيب في العصر الذي سمّاه المرحوم سير فردريك كينيون مرة «العصر الإليزابيثي لعلم الآثار». سنح لنا الوقت والموارد المالية في الشرق، في العقود الثلاثة الأولى من حياتي العملية على الأقل، بالتنقيب بأسلوب مهيب وعلى نطاق واسع. وقبل ثلاثين عاماً عندما كان بالإمكان تشغيل عامل لقاء شلن واحد في اليوم كان مألوفاً أن تستخدم البعثات الكبيرة قوة عاملة يزيد عدد أفرادها على مئتين أو أكثر بإشراف عدد قليل من المشرفين. وكانت أور النموذج التقليدي للتنقيب على هذا النطاق، إذ خلال اثنتي عشرة سنة من التنقيب وطوال فترات بلغت أحياناً خمسة أشهر نقلت مئات آلاف الأطنان من التراب. وكانت الأدلة المكتشفة ذات أهمية كبيرة وغطت فترة بلغت حوالي ستة آلاف عام. وبلغ عدد المدوّنات في سجل الفهرس حوالي عشرين ألفاً ستدرس ويُعاد فحصها ما بقيت آثار بلاد الرافدين تعد جديرة بالاهتمام وربما ستبقى إلى الأبد ومع نمو

Twitter: @ketab_n

المعرفة سيتبع التفسير وإعادة التفسير أحدهما الآخر جيلاً بعد آخر.

ومن جهة أخرى كان لا مفر من ضياع عدد قليل من الأدلة بسبب السرعة التي صاحبت إجراء العمليات، وحدث ذلك رغم الكثير من العمل الحقلي الرائع الذي يبقى بارزاً وفق أية مستويات. ولكن لو أننا عملنا في التنقيبات وفق المعايير المقبولة اليوم لما كان بوسعنا الحصول على غير عُشر الأدلة التي عثرنا عليها بينما يرجح عدم العثور على الأعشار التسعة الباقية. لذا لا أشعر بالحرج عموماً إذ أيدت الطريقة القديمة في التنقيب، فأنا، على ما أطلق عليّ زميل في حقل الآثار الهندية، آخر الرومانتيكيين. ولكن بسبب القيود على اقتصادنا الحالي والتطور في الطرق العلمية نجد أنفسنا مضطرين إلى التنقيب على نطاق متواضع نسبياً، ومن ثم تمحيص الأدلة كافة تمحيصاً دقيقاً. لذا فإننا لا نضيع شيئاً وغالباً لا نعثر على شيء. وأحياناً تكون الأدلة ذات طابع بسيط بحيث يميل جيل أقدم إلى التساؤل إن كان الجهد استحق العناء الذي بُذل في سبيله. وواضح أن الجواب إيجابي، ولكن ليس هناك أي مجال للرضا الذاتي، والمطلوب هو تطبيق الإدراك السليم الانتقائي وتصور واضح ودقيق لهدف المرء.

ينبغي أن نولي مثل هذه التأملات اهتماماً مناسباً ولكن يجب أن ندرك الآن أنه بينما تبقى متابعة علم الآثار فناً، إلا أنه أصبح الآن علماً في الأغلب ـ في منهجية التنقيب وفي تصنيف نتائجه وإعداده، ومن خلال تطبيق المواد العلمية المساعدة لتحليل كل اكتشاف وتحديده. إنّ الوسائل المساعدة الرئيسية هي الآن معروفة جيداً بحيث تتطلب وصفاً مفصلاً، ولكن يجدر أن نتذكر أن اثنتين من الوسائل المساعدة لم تتوافرا إلا منذ الحرب العالمية الثانية، أي منذ ما لا يزيد على ثلاثة عقود. كانت للتقنية الجديدة أهمية غير عادية وقيمة كبيرة لدى الرواد

Twitter: @ketab_n

الأوائل الذين كانوا من خلال الطريقة الطبقاتية[٢] الأولية ومن خلال دراسة علمية واسعة للتاريخ، يحاولون حلّ تسلسل عهود ما قبل التاريخ والعهود التاريخية، والتوصل إلى ترتيب زمني دقيق. ولولا الدراسات الطويلة والمكثفة لما أحرزت الطريقتان العلميتان الجديدتان، وهما طريقتا الكاربون ١٤ والتألق الحراري، سوى تقدم بسيط. إن تطبيق طريقة الكاربون ١٤ على بقايا كافية من المادة العضوية كانت ستساعد ليونارد وولي كثيراً في محاولة تحديد تاريخ السلاسل الزمنية في المقبرة الملكية في أور وتمكنه من تجنب العديد من الأخطاء. ولكي نحصل على تقدير أوثق لسلاسل تحديد الأزمنة في عصر فجر السلالات كان لا بدّ من الانتظار حتى السبعينات عندما أصحبت المواد الآثارية من تلك الفترة متوفرة مرة أخرى ولا سيما في موقعين من عصر فجر السلالات هما أبو صلابيخ ونفر في جنوب بلاد بابل. وستفحص هذه النتائج أيضاً بالتألق الحراري، أي طريقة تحديد التاريخ الذي شوي فيه الفخار أصلاً في فرنه بحساب فقدان الإلكترونات. ورغم ذلك ينبغي أن نتذكر أيضاً أن تصحيح الأخطاء التي لا مفر من حدوثها والتي حدثت بسبب تطبيق تلك الطرق يعتمد على تسلسل زمني يحسب جيداً. وفي حالة بلاد الرافدين يعتمد التسلسل الزمني على قوائم الملوك وقوائم (ليمو) وعلى الصلات المتبادلة أيضاً بالتسلسل الزمني المصري الذي حسب رياضياً، بدرجات متفاوتة من الخطأ، مدة قرن أو أكثر. لذا تعتمد النتائج العلمية الدقيقة على الجمع بين الطريقة العلمية الحديثة وعلم الآثار والتاريخ وعلم اللغة لتمكيننا من إثبات الأدلة المدوّنة حيثما تيسر.

---

(٢) نسبة إلى علم طبقات الأرض. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

من المؤكد أن هناك وسائل مساعدة علمية أخرى إضافة إلى تلك الوسائل التي ذكرتها. وقد يكفي ذكر تحليل الفخار باستعمال التنشيط النيوتروني الذي يمكننا من تحديد مكوّنات الطين وأصوله في الكِسَر والذي طبق بنجاح كبير في منطقة الخابور. وقد أشرت سابقاً إلى فرحتنا الكبيرة باكتشاف أن عدة سنوات من البحث العلمي أيدت نتائج الفحوصات العينية لهذه الأنواع من الطين. غير أن هذه الطريقة مضت شوطاً أبعد في تحديد الأماكن التي استخرج منها الطين ومدى تبادله. كانت عدة الآثاري العلمية في العصر الماضي أقل من خلفه، إلا أنه كان قادراً مثله، بفضل طُرق الإدراك السليم، على التوصل إلى الحقيقة، ولكن الحقيقة لم تعد مقبولة ما لم تحدد رياضياً.

عند وصف فصل الختام من حياتي العملية لا بدّ أن أشير بإيجاز إلى ميزة مُنحتها بتعييني أحد أُمناء المتحف البريطاني الذي كنت أعده منذ صباي مؤسسة ثقافية وروحية. وقد شرحت في الفصل الأول ما كان يعني لي في شبابي.

كنت طوال سنوات كثيرة على صلة وثيقة بقسم الآثار المصرية والآشورية الذي غيّر اسمه فيما بعد إلى قسم الآثار الآسيوية الغربية. وأقدم ذكرى لي عنه عندما قدمت إلى رئيس القسم الدكتور هـ. ر. هول الذي كان يعيد تنظيم القاعة مرتدياً بدلة زرقاء قديمة ولمّاعة أدركها البلى بحيث كان بوسع المرء أن يرى وجهه فيها وكان جزء منها ملطخاً بالجص. كان الذين خلفوه في رئاسة القسم أكثر اهتماماً بمظهرهم. هناك أولاً الدكتور، الأستاذ فيما بعد، سدني سمث الذي ذكرته آنفاً. كان منجماً من العلم ويستثير التفكير وإن لم يكن المرء يتفق مع آرائه دائماً. طبقت طُرقه المحفزة على الجميع وكان يتبع طريقة في اختبار مقاومة كل من يتقدم لمقابلته. كثيراً ما بدا عند

Twitter: @ketab_n

مجيء قادم كأنه يسأل نفسه: كيف أستطيع إزعاج هذا الرجل؟ وإذا كان الضحية يفتقد الحكمة بحيث يقع في الفخ ويكون ردّ فعله عنيفاً فإنه يحكم على نفسه بالفشل فوراً. أما إذا تلقى الشخص هذا الشكل من العقاب دون وَجَل فإنه يصبح مرشحاً جديراً ببحث طلبه. كم مرة لذتُ بالصمت إزاء أقوال بدت غاضبة لأجد أن سدني مستعد لتغيير موقفه من الأدلة إذ إنه كان يمتلك قدراً كبيراً من الإدراك السليم إضافة إلى التفكير الأصيل. كان يعتقد أن الخطأ الفكري خطأ أخلاقي. وجعله هذا زميلاً صعباً لكنه كان مدرساً غاية في التشجيع. كان علمه يحظى بالاحترام الشديد مهما بدا شاذاً أحياناً، وفي رأيي إن الفصل الذي كتبه عن الآشوريين في دليل كامبردج للتاريخ القديم Cambridge Ancient History كان ممتازاً وقراءته ممتعة جداً. كان ذا فهم نادر للتقاويم الزمنية القديمة ولقيت تعديلاته التسلسل الزمني لتاريخ بلاد الرافدين لا سيما المرتبطة بتاريخ عصر فجر السلالة في بابل، وتقليصه قبولاً واسعاً، وهي ثمرة معالجته المبتكرة والتحليلية لأدلة معقدة. ترك هذا الرجل المُجدّ إلى أبعد حد والبارع في نواح كثيرة أثراً في حوليات قسمه في المتحف البريطاني. كان سخياً دائماً مع الموظف المدني البسيط ومراعياً شعوره دائماً. وفي بغداد حيث عمل مديراً للآثار القديمة زهاء عامين كان محبوباً يلقى الإعجاب من الجميع، ونفذت زوجته ميري سمث وهي فنانة موهوبة لوحة تاريخية للشارع الرئيس في بغداد حوالي عام ١٩٢٧ (وكان يدعى الشارع الجديد واسمه الآن شارع الرشيد) قبل فترة قصيرة من حلول السيارة محل العربة التي تجرها الخيول.

والزميل الآخر من المتحف البريطاني الذي كنت على اتصال وثيق به طوال ٤٥ سنة هو س.ج.جاد الذي توفي عام ١٩٦٩ بعد أن خلف

Twitter: @ketab_n

سدني سمث في رئاسة القسم أولاً، ثم في إشغال كرسي الأستاذية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية. وقد رثيته رثاءً طويلاً في المجلد السادس والخمسين من وقائع المجمع البريطاني. هنا لا بدّ أن أضيف أن فقده كان شديداً عليّ بوصفه عالماً مستعداً دائماً للسخاء في تقديم معرفته وبوصفه شخصية غريبة الأطوار ورفيقاً مبهجاً. كان ذا فطنة ويمتلك ما يسميه الفرنسيون ذكاء الفؤاد. وكان ذا معرفة بآسيا الغربية القديمة تفوق معرفة أي شخص آخر. ولكن كانت لهذا الرجل العالم مواطن في إدراكه يعجز معها عن الفهم أو التمييز ولا يقدر حقيقة أن نتائج التنقيب لا يمكن أن تنسب إلى الخط، بل إن المنقب الجيد يجني دائماً ثمار عمله أينما يعمل وأن المنقب الرديء لن يستطيع التوصل إلى نتائج جيدة. إن الحظ يحالف دائماً من يكسبه ومن يقدر على التشبث بالفرصة بكلتا يديه. وكان يميل أيضاً إلى الغضب بسرعة كما كان رقيق الفؤاد ضعيفاً بطبيعته، لكنه كان قديراً في الإرادة ويعاني بشدة من ضرورة اتخاذ أي قرار. وكان مصاباً بوسواس المرض ومیالاً بطبيعته إلى الشخص الانبساطي، وتمتع بقيادة الزوارق الشراعية بصحبة كامبل تومسن الودود الذي وجده فاتناً مثل البطل جلجامش. كان مصدر متعة لكل رفاقه خلال الموسم الذي أمضاه في نمرود ولا سيما مهندسنا المعماري الساخر الشاب جون ريد الذي تمسّك بكلماته متوقعاً عبارة بارعة.

اشتهر جاد فجأة عندما نشر في عام ١٩٢٣، وكان في الثلاثين من العمر آنذاك، بحثاً عن لوح مسماري في المتحف البريطاني بعنوان «سقوط نينوى».

كان جاد دقيق الملاحظة على نحو رائع في فهم النقطة الأساسية لأي نص قديم يلمسه، ولذا كان عدم تقديره بعض جوانب الاكتشافات

Twitter: @ketab_n

الأثرية مسألة محيرة. في نمرود أغفل حقيقة أننا كنا قد تتبعنا جدار رصيف حجري في أماكن متفرقة مسافة ميلين وتمسّك برأيه في أنه كان سوراً لقصر، وهكذا ضلل زملاءه في إنجلترا رغم الأدلة التي كشفت عن تآكل الرصيف بفعل الماء وسقوط الكتل الحجرية في قعر النهر، وهي ظاهرة دلّل عليها التصوير الجوي، بحيث إن الخط القديم للنهر بين ضفتيه كان واضحاً مثل العصا الرامحة. وخفف من وقع ذلك أن ذهناً بارعاً كان فيه جانب مظلم تقابله التماعات عبقرية في الجانب الآخر. وسيبقى قسمه في المتحف البريطاني يتذكره باعتزاز.

لا أستطيع أن أقول هنا أكثر مما قلت عن صداقاتي الكثيرة للزملاء في المتحف البريطاني والتي أثرت حياتي. تحدثت آنفاً عن ريشارد بارنيت الذي خلف جاد في منصبه في المتحف لأنه ساعدني في التنقيب الحقلي في شكر بازار واكتسب شهرة عالمية من خلال كتاب زوجتي (تعالوا واروا لي كيف تعيشون) بسبب ثوب النوم المصمم تصميماً خاصاً بحيث يحتجز فأراً بداخله. كان ريشارد منجماً آخر للمعرفة المقصورة على فئة قليلة ووضع مؤلفات كثيرة.

كنت على اتصال وثيق بقسم آخر من أقسام المتحف البريطاني هو مختبرات الأبحاث التي أسسها المرحوم الدكتور ألكساندر سكوت، عضو الجمعية الملكية، زهاء عام ١٩٢٢. وبعد ثلاثة أعوام أمضيت وقتاً طويلاً هناك خلال فترة تعييني في أور، مما زوّد المختبرات بكمية كبيرة من المواد وكانت تلك إحدى مهماتها الرئيسة الأولى في الأيام الأولى من تجاربها. اعتدت أن أشاهد سكوت العجوز يتحرك جذلاً وهو يوصي باتباع طرق مختلفة لمعالجة المعادن الصعبة والمواد القديمة الهشة من كل نوع وكان يساعده ببراعة الدكتور هـ. ل. بلندرليث الذي حظي بشهرة من خلال عمله.

Twitter: @ketab_n

اكتملت هيئة العاملين في المختبرات في تلك الأيام برجل مسن كسول اسمه بادجام، كانت لديه معرفة عملية واسعة إلا أنه كان لا يرغب في الكشف عنها. وكنت أراقبه سراً من بعيد فنقل معرفته إليّ دون علمه على النقيض من ل.هـ . بيل الشاب الذي كان حاذقاً آنذاك في استعمال يديه.

نشأنا معاً مساعدين شابين في المختبر وبقينا صديقين منذ ذلك الحين. إلاّ أن اللقى التي عثر عليها في نمرود، باستثناء القطع النادرة العظيمة مثل الألواح المنقوشة التي عالجها أولاً بلندرليث، عولجت في معهد الآثار ثم انقطعت صلتي الوثيقة بمختبرات المتحف البريطاني.

قبل توديع المختبرات ينبغي أن أروي حكاية أخرى ربما كادت تودي بالمختبرات وبي. ففي يوم صيف حار بينما كان وولي يحاضر في الولايات المتحدة كنت أحاول تهيئة الاكتشافات في المقبرة الملكية في أور لمعرض خاص. مرت بي في ذلك الوقت تجربة مرعبة في سرداب مبنى المختبرات الذي كان مغطى بسقف زجاجي. وكنت قد رتبت على طاولة موضوعة على مسند بقايا ظُلّة مؤلفة من أقراص وأنصاف كرات صدفية كنت قد وضعتها على خيش مبلل وأنا أنظفها بمساعدة موقد بنسين لإذابة شمع البرافين الذي كنا نستعمله خطأً في تلك الأيام طبقةً واقية للأشياء الهشة.

وغادرت المختبرات لتناول طعام الغداء في مطعم قريب من المتحف وأنا أدرك الحاجة إلى العجلة في إعداد المهمات المتعددة التي كلفت بها، وعدت إلى العمل بعد أقل من أربعين دقيقة. وفي ذلك الحين كانت الشمس المشعة مباشرة على سقف الغرفة الزجاجي التي كنت أعمل فيها قد سببت عملية احتراق ذاتي أشعلت الخيش

Twitter: @ketab_n

السريع الاشتعال الذي كانت قطع الظُلّة من مقبرة أور الملكية موضوعة عليه. وكانت ألسنة اللهب الواطئة تحرق برفق أعلى الطاولة الخشبية التي بدت مثل مرج يحترق. ولا شك في أنني لو وصلت متأخراً خمس دقائق لاحترقت مختبرات المتحف البريطاني كلها، إذ كانت هناك في نهاية الطاولة قريباً من اللهب قنينتان من البنزين تحتوي كل واحدة على نصف غالون فأسرعت إلى إبعادهما من منطقة الخطر وأنا أسرع طالباً المساعدة من بادجام في إطفاء النار.

وأعتقد أنني لو تأخرت بضع دقائق أخرى لقضي على عملي الآثاري.

لم أتولَ وظيفة أمتع من عضوية مجلس أمناء المتحف البريطاني كان الأعضاء العشرون أو نحو ذلك من الرجال والنساء الذين يتكوّن منهم مجلس الأمناء ينتخبون من الحقول المتنوعة: الدبلوماسية والإدارية والفنية والآثارية والقانونية والمالية والمعمارية والربوية والعلمية والأدبية. يضع هؤلاء إطار سياسة المتحف ويمثلون دعامة بين المتحف والحكومة ولهم سلطة جمع الأموال وإنفاقها ويقرّون عمليات الشراء المهمة كلها أو لا يسمحون بها. هذه الهيئة من أبرز الرجال والنساء من مختلف الحقول لا يتقاضى أعضاؤها أجوراً ويزوّدون المتحف بخبرات ضخمة كما أن الهيئة توافق على تعيين كبار الموظفين أو لا تقر تلك التعيينات.

وفي هذه المهمة وغيرها تؤثر الهيئة في المناقشة من خلال الخبرات والآراء الناضجة. قبل الانضمام إلى هذه الهيئة لم أكن أدرك المدى الواسع لمهمات مجلس الأمناء وأهميته بوصفه ناصحاً للمحترفين العالمين في إدارة المتحف. لقد تمتعت بامتياز العمل في المجلس برئاسة اللورد تريفليان الرجل المتدفق حيوية والمستعد دائماً

Twitter: @ketab_n

لتسخير ذهنه النشيط في حل أية مشكلة مهما كانت معقدة، وقدرت دائماً الميول الفنية الحساسة لمدير المتحف الحالي سيرجون بوب هنيسي، الذي يجمع بقدر نادر بين القدرة الإدارية والإحساس الجمالي في منصب يتطلب مواهب كثيرة ومرهق ذهنياً وهو أستاذ في اللغة الحية عندما يخطب بنا.

أخيراً لا بدّ أن أتأمل حسن حظي، إذ أمضيت خمسين عاماً من النشاط اختصاصياً في آثار الشرق على الرغم من فترة انقطاع بلغت خمسة أعوام في الحرب العالمية الثانية التي كانت فترة ممتعة أيضاً.

إن بلوغي سن الثانية والسبعين سالماً نسبياً له أهمية وتمتعت في كتابة هذه المذكرات بميزة عدم الاحتفاظ بمفكرة تدوّن فيها تفاصيل بسيطة كثيرة. إن ما كتبته قد يدخل كله تحت هذا النوع، ولكنني تمتعت بتدوينه على الورق لأنه بقي عالقاً بذاكرتي، ويعود ذلك إلى أن كل يوم من حياة الآثاري مثير فكرياً وأنّ كثيراً منه ممتع. إلا أنني لا بدّ أن أعترف بأنني في استرجاع الماضي استطعت الاعتماد على المعالم الآثارية الرئيسة في حياتي، وهي معالم ممثلة بمؤلفات آثارية كثيرة تشمل كتباً ومقالات وبهذه الطريقة سعيت لئلا أنسى الكثير وعادت الأسماء كلها بعد أن استثرت ذاكرتي، وإن لم يكن بالإمكان استعجالها أحياناً وكان لا بدّ من الانتظار شهراً أو شهرين. وكنت محظوظاً أيضاً لأن خبراتي في أثناء الحرب كانت غير عادية ولا يمكن أن تُنسى وآمل أن تذكر بوصفها سجلاً موجزاً لتلك الحقبة. ولم يدوّن الجانب الأكثر طرافة من الحياة الآثارية، أو جزء منها، كما سبق أن قلت مراراً، على نحو مسل أكثر مما فعلت زوجتي العزيزة في كتابها الذي يحمل عنوان (تعالوا وارووا لي كيف يعيشون) الذي أعادت دار كولنز نشره. وآمل أن يقرأه الكثيرون ثانية.

Twitter: @ketab_n

خاتمة الكتاب

عندما وصلت إلى الصفحات القليلة الأخيرة من هذه المذكرات توفيت عزيزتي أجاثا بسلام وهدوء بينما كنت أدفع كرسيها ذا العجلات إلى حجرة الجلوس بعد تناول طعام الغداء. كانت صحتها قد تدهورت بعض الوقت وحل الموت مخففاً رحيماً من آلامها، رغم أنه خلّفَ فيّ شعوراً بالفراغ بعد خمسة وأربعين عاماً من صحبة حنونة ومرحة. لا يعرف سوى القليلين معنى العيش بانسجام بجانب ذهن واسع الخيال مبدع يلهم الحياة بالحيوية.

كان أعظم سلوان لي إدراكي، الذي تكوّن من مئات الرسائل، أن الإعجاب امتزج بقدر متساو بالحب، الحب والسعادة اللذين كانت أجاثا تشعهما في شخصها وفي كتبها. أبتهل إلى الخالق أن يتغمّدها برحمته.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

مقدمة المترجم ٥

الفصل الأول: السنوات الأولى ٧

القسم الأول: قبل الحرب
(١٩٢٦ ـ ١٩٣٨)

الفصل الثاني: أور: مقدمة إلى علم الآثار ٣٧

الفصل الثالث: أور: التنقيبات ٥٥

الفصل الرابع: نينوى ٨٩

الفصل الخامس: الأربجية ١١٥

الفصل السادس: مسح منطقة الخابور ١٣٥

الفصل السابع: شكر بازار ١٤٧

الفصل الثامن: التنقيبات في تل براك ١٦٩

الفصل التاسع: التنقيبات في وادي البليخ ٢٠١

القسم الثاني: الحرب
(١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)

الفصل العاشر: لندن والقاهرة ٢٢٧

الفصل الحادي عشر: طرابلس ٢٤٣

Twitter: @ketab_n

القسم الثالث: أجاثا
(١٩٣٠ ـ ١٩٧٥)

الفصل الثاني عشر: أجاثا: الإنسان ٢٦٣
الفصل الثالث عشر: كتب أجاثا ٢٧٧
الفصل الرابع عشر: قطار الشرق السريع ٢٩١
الفصل الخامس عشر: براعة أجاثا ٣٠٥

القسم الرابع: نمرود وآثارها
(١٩٤٥ ـ ١٩٧٥)

الفصل السادس عشر: معهد الآثار ٣١٥
الفصل السابع عشر: نمرود: الحصن ٣٣١
الفصل الثامن عشر: نمرود: قلعة شلمنصر ٣٥٩
الفصل التاسع عشر: المؤسسات الأكاديمية والعاملون فيها ٣٩١

خاتمة الكتاب ٤١٤

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

يخصّص ماكس مالوان في هذا الكتاب عدة فصول عن سيرة حياته مع زوجته أجاثا كريستي، أشهر كاتبة للروايات البوليسية التي استحوذت على اهتمام مئات الملايين من القراء. وكان مالوان قد التقى أجاثا في أثناء زيارتها للعراق، وقد رافقته في عمليات التنقيب وأسهمت بنشاط في التصوير الفوتوغرافي وتسجيل اللقى وصيانتها. كما أن بعض فصول الكتاب تتناول خلاصة الاكتشافات المهمة التي توصل إليها مالوان في أور ونينوى والأربجية ونمرود ومواقع أخرى حكمها العراقيون القدماء في شمال سوريا، إضافة إلى معلومات شيّقة عن طريقة الحياة في العراق خلال العقود الماضية.

ISBN 978-9933350284
9 789933 350284